

حَضْرَةُ الْعِرَاقِ

تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الأول

بغداد ١٩٨٥

المصوّر القديمة

(١)

مقدمة

د . نزار الحديثي

انها المرة الاولى في تاريخ الثقافة في الوطن العربي ، يصدر كتاب بهذا العنوان يتجه للرأي العام ، يمثل هذا الشمول ، وفي ذات الوقت يعبر عن وجهة نظر تاريخية تعرضت للحجب المستمر في التاريخ الحديث والمعاصر من اجهزة ثقافية واكاديمية كانت مدفوعة بموقف يختلط فيه الحماس للحضارة الغربية بنظرة استعلائية استعمارية هدفها فرض نظرية السيادة الاوربية على العالم ، واذا كانت الصحة السياسية لشعوب الحضارات القديمة قد كسرت جدار الامن السياسي للهيمنة الاوربية ، فالوقت الان ملائم لكسر جدار الطمأنينة الثقافية . وكتاب حضارة العراق صاحب هدم الريادة في الثقافة يسجل الابداع الحضاري العراقي عبر زمن الوعي الانساني منذ بزوغ فجر الحضارة لأول مرة في تاريخ البشرية في بلاد وادي الرافدين ، وقد حظيت هذه الموسوعة الحضارية بجهد متخصصين عراقيين تعيش في ذاكرتهم صورة التخريب الذي تعرض له تاريخ العراق ودوره الحضاري بشكل خاص والكيفية التي حولت بها المبتكرات الحضارية الى مجرد

مظاهر صامته في المتاحف ، مجردة من أي ترابط ذاتي او موضوعي يضعها في موقعها الطبيعي بأعتبارها مبتكرات شعب اعتاد العمل الحضاري ، تنتظمها منظومة متكاملة تمتاز بالتنوع والوحدة في ذات الوقت ، تقف وراءها نظرة متكاملة الى الحياة وتستند الى حوافز الارضاء الروحي والمادي لحاجة اجتماعية قائمة متجددة ، فهي لهذا مظاهر ابداع في سياق زمني متصل تملأه عملية اجتماعية متكاملة الجوانب لمجتمعات متصلة يعبر تمازجها الحضاري والتأريخي عن وحدة خصائصها ، لها مسرحها الطبيعي الذي هو العراق اولا ضمن الوطن الحضاري الاكبر الوطن العربي .

هذا الوعي هو الذي حدد منهجية موسوعة حضارة العراق بتناولها العصور التأريخية افقيا والحرص على كشف شمولية الابداع الحضاري في الحقبة المعينة ، وعموديا في كشف تواصل الحقب الحضارية بعضها ببعض . ان هذه المنهجية تضع مظاهر الحضارة ومبتكراتها ضمن سياقها الذاتي والموضوعي ، فتكشف قدرتها على الانسياح من الوطن القائد الى عموم الوطن الحضاري ومن العقل المبتكر الى النسيج الاجتماعي الذي يحتضنه ، وتكشف ايضا قدرتها على التوالد وخلق اجيال جديدة للمبتكر الحضاري نفسه .. اذ ان قيمة الحضارة ليست في قيمتها الجمالية والابداعية حسب ، انما في قدرتها على التأثير والتوالد . ومع الوعي بأن هذه المنهجية تعنى بالسياق العام اكثر من عنايتها بتشريح المبتكر ذاته ، وتواكب استمرار العمل الحضاري واتصاله اكثر من الوقوف عند مظهر معين في عصر معين ، الا انها ايضا تعطي فرصة الوضوح الاكثر لما نريد قوله في هذا المجال ، وثبتت الحقائق الكبيرة ، فوحدة التصور للحضارة تثير في نفس الوقت حاجات

متعددة الى البحث المتخصص للاجابة على بعض التساؤلات التي تظهر
وهكذا يبدأ الهيكل يكتسي سدة الكمال ...

ان هذه المنهجية تمنحنا فرصة متابعة حضارة العراق من حيث نشأتها
وعوامل النشأة ، ومواكبة تطور دور العراق الحضاري في اغناء الحياة
الانسانية ، وقدرته على اداء هذا الدور القائد في الحضارة سواء في العصور
القديمة أو في عصر الدولة العربية الاسلامية .

واذا كان مصطلح « الحضارة » جديداً على الفكر الغربي ، واهتماماته
به ترجع الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فإن هذا المصطلح كان أحد
المفردات التي شغلت بال المفكر العربي سواء في تحديد مفهومه او بحث
موضوعاته ومن البداية سجل مفكرونا الاساس النظري الموضوعي والفني
لدراسة الحضارة عندما ربطوا بين الاستقرار والتحضر واعتبروا الاول
اساسياً في نشأة الحضارة دون ان يهملوا ظروفه الطبيعية او تلك التي
تختص بطبيعة الانسان .

هل حقيقة الحضارة في العراق هي « حلم الطبيعة » كما يقول اندريه
ايمار وجانين ابوايه ؟ ام انها شيء آخر ؟ « ارادة الانسان » الواقع ان
الحضارة بنت عناصر وظروف موضوعية تقدم الطبيعة اساسياتها ، ويحوّل
الانسان تلك الاساسيات من حالتها السلبية الى حالة ايجابية « حضارة » ..
هكذا تبدو حضارة العراق . فالارض والماء والمناخ ليست حالة خاصة
بالعراق انما حالة عامة طبيعية ، وهي عناصر تعمل وتؤثر بشكل مستقل ،
ولكن الانسان الذي فرض عليها التوازن ، خلق من توازنها قاعدة للعمل
الحضاري ، فحضارة العراق اذن ليست حلم الطبيعة انما ارادة الانسان ،

خاصة وان التاريخ هو محصلة ارادة الانسان ، هذا الانسان الذي لم يستطع مقاومة اغراء الكون الممتد امامه فأصبح اسير ارتياده فأطلق العنان لخياله ولعقله ولسيفه ، لخياله يشق فضاءاته كلما ملئ فضاء اكتشفه ، ولعقله يتكرر حاجاته في الحياة والارتياح ، ولسيفه يذلل العقبات التي تعترض طريقه . غير ان هذا الانسان بقدر ما بذل من جهد في مواكبة الكون الواسع بقدر ما كان واقعا يدرك قيمة الحركة على الارض ، فهو كان يدرك جيدا ان بين عظمته وبين الكون ثمة انجذاب فلم يستطع الا ان يفكر فيه ويبدأ به أحد ابرز ملامحه التي سجل بها خلق الكون . « حينما في العلى لم ينبأ عن السماء وفي الاسفل لم تذكر الارض بأسم » من هنا انطلق واستطاع عبر سعيه ان يتوصل الى ذلك التوازن الرائع بين حاجته على الارض وبين ضرورات السماء هذا التوازن الذي بلغ قمته في اعتماده أداة وموضوعا للخطاب الالهي كما عبرت عنه الرسالات السماوية فيما بعد .

يقودنا هذا التتبع الى كشف عنصر آخر ساهم في تأصيل الحضارة . تلك العنصر هو قدرة سكن وادي الرافدين على التكتل والانتظام في جماعات وبالتالي رضا الفرد بالعمل الجماعي مع الاحتفاظ بحقه في الابداع الفردي بعدما ادرك ان الاعمال الكبيرة ليست من قدرات الفرد انما من اختصاص الجماعات . والواقع ان هذا الادراك يقف وراء ظهور الادارة الجماعية اولا ، ووراء ظهور فكرة الدولة الحضارية التي قطعت مسيرة الاتساع من أول شكل من أشكال وحدة التنظيم الاجتماعي الى دولة المدينة الى الدولة المركزية الى الدولة القومية التي تحققت على يد الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) . ان هذا الاتساع يكشف لنا ان الحضارة

في العراق يعقبها ظهور دولة تشكل احدى الضرورات العضوية لها . ان تواصل الدور الحضاري من جهة وتعاقب اشكال التعبير عنه ماديا في مجال الدولة خاصة من جهة ثالية ساعدا على ارساء اسس الخصائص والسمات المميزة لسكان وادي الرافدين ، وأكسبا هذا الاقليم ثابتية تاريخية مطلقة في كل العصور .

ساعد نجاح الانسان العراقي في احكام التوازن بين حريته الفردية في الابداع وبين ضرورة العيش في جماعة على تطوير نظراته الى الآخرين ، الى الجماعات التي تقع خارج الوطن الحضاري « الوطن العربي » خاصة ، تلك النظرة التي ارتكزت الى احساس بمسؤولية الرائد الحضاري اتجاء الآخرين والتي تبلورت في شكل قاعدة ثابتة « المسؤولية الانسانية » . ان مواكبة صيغ التفاعل بين حضارة العراق والحضارات الاخرى تفصح عن نمو هذه النظرة يوم لم تكن اقوام اخرى بلغت في تطورها هذا المستوى من النضج ولعل نهاية بابل على يد الفرس الاخمينيين واحدة من صور موقف الحضارة ازاء العنصرية ، ان صورة اخرى لهذا نجدها في نظرة جاحدة سادت اوربا في عصرها الحديث الى حضارة العراق وحضارات العالم . ان هذا الاحساس بالمسؤولية الانسانية هو الذي اعطى حضارة العراق مزية الانتشار تأثيرا دون ان تغرق في نشوة الانتصار وتخفي تأثيرها بحضارات الشعوب خاصة عندما اكتشفت فيها الشعوب قابلية التكيف لتلائم حاجاتها ، فصناع هذه الحضارة كانوا مهتمين بتحقيق انتصار تاريخي دائم يعبر عنه في استمرار الدور اكثر من ان يعبر عنه بالتفوق العرقي . فالاحساس بأن تكون صاحب رسالة عبر التاريخ اكبر بكثير من ان تكون سيدا مضطهدا لفترة قصيرة .

ان اهداف هذه الموسوعة كثيرة غير ان ابرزها الهدف الدائم
المستقبلي ، وهو تكوين ثقافة اجتماعية تخلق وعيا اجتماعيا سليما لمرحلة
انبعاث حضاري جديد للامة العربية يقوده العراق تلوح تباشيره عبر سنوات
الحفز الجديد التي بدأت بفجر تموز ١٩٦٨ •



الفصل الأول

البيئة الطبيعية والانسان

د. نقي الدين باغ

استاذ الآثار القديمة - جامعة بغداد

الاسم

عُرف هذا القطر بعدة اسماء خلال تاريخه الطويل ويجدر بنا ان نذكر بعض الملاحظات عنها قبل عرض وصف المزايا الطبيعية للبيئة .

ففيما يتعلق بكلمة « عراق » اختلف الباحثون في الاصل والمعنى وهناك ثلاثة اراء يقدم اصحابها اصلاً ومعنىً يختلف عما يراه اصحاب الرأي الاخر . ويعتقد البعض ان كلمة « عراق » عربية الاصل ومعناها الشاطئ فالبلاد القريبة من البحر هي عراق وهي كذلك لانها على شاطئ دجلة والفرات ، ومعناها ايضا الجبل او سفوح الجبل . ويرى آخرون ان كلمة عراق ترجع في اصلها الى لغة قديمة اما ان تكون سومرية او من قوم آخرين غير السومريين وغير الجزريين (الساميين) الذين استوطنوا السهل الرسوبي في عصور قبل التاريخ . ويرى اصحاب هذا الرأي ان الكلمة مشتقة من كلمة اوروك او انوك التي تعني المستوطن . وهذه الكلمة

سميت بها المدينة السومرية المشهورة الوركاء . كما ان الكلمة نفسها تدخل في تركيب اسماء عدة مدن قديمة مشهورة اخرى مثل مدينة اور . اما اصحاب الرأي الثالث فيقولون ان اصل هذه الكلمة اجنبي وتعني ايراء بمعنى الساحل وقد عربت الى ايراق ثم عراق . وشييه بهذا ما ذهب اليه الباحث الاثاري هرتسفلد من ان عراق معرب من ايراك التي تعني البلاد السفلى . ويقال ان اول استعمال لكلمة عراق ورد في العهد الكشي في وثيقة ترجع في تاريخها الى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد وجاء فيها اسم اقليم على هيئة اريقا الذي صار على مايرى اولستد الاصل العربي لبلاد بابل . ووضح استعمال شاع لمصطلح عراق بدأ ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

والعراقيون القدماء لم يطلقوا مصطلح اورك او عراق على القطر او على جزء منه بل كان ملوكهم في عصر فجر السلالات يلقب كل منهم نفسه بلقب حاكم المدينة التي يحكمها . وفي حدود ذلك الزمن ظهر مصطلحان احدهما بلاد سومر للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي والثاني بلاد اكد للقسم الاوسط من ذلك السهل . وظهرت تسميات جغرافية سياسية اخرى منها بلاد بابل وبلاد اشور . واستعمل عدد من الكتاب اليونان والرومان واولهم هيرودوتس مصطلح بلاد بابل واشور لاطلاقه على القطر كله او على الاجزاء الوسطى والجنوبية منه كما استعملوا تسمية كالديه نسبة الى الكلدانيين الاراميين الذين اسسوا الدولة الكلدية ما بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد . وفي الفترة ما بين القرن الرابع والثاني قبل الميلاد ظهر استعمال الكتاب اليونان والرومان لمصطلح ميزه بوتامية (بلاد ما بين النهرين) وهذه التسمية هي اغريقية الاصل وشاع استعمالها عند الكتاب الاوربيين لاطلاقها على هذه البلاد كلها او على بعضها ولا يزال يستعمل حتى بعد شيوع استعمال تسمية العراق . ولعل

أقدم استعمال لمصطلح ميزوبوتاميا ورد في كتاب المؤرخ الشهير بوليبيوس في القرن الثاني قبل الميلاد والمؤرخ الشهير سترابو في القرن الأول قبل الميلاد لإطلاقه على الجزء المحصور ما بين دجلة والفرات من الشمال إلى حدود بغداد تقريبا .

وشاع استعمال هذا المصطلح الجغرافي بعد ذلك في اللغات الأوروبية بعد ترجمة التوراة إلى اليونانية واللغات الأوروبية إذ جاء في التوراة (التكوين ، اصحاح ٢٤ : ١٠) ذكر الاقليم ارام نهر ايم الذي يعني ارام النهرين اي بلاد ما بين النهرين للدلالة على الاقليم المحصور بين نهري الفرات والخابور او نهري الخابور والبالخ او كلا هذين النهرين مع الفرات . ومهما يكن من امر فانه لما ترجمت التوراة إلى اليونانية ترجم مصطلح ارام نهر ايم بكلمة ميزوبوتامية اليونانية ثم دخل هذا المصطلح إلى اللغات الأوروبية واتسع مدلوله من إطلاقه على القسم الشمالي من بلاد الرافدين إلى إطلاقه على القطر العراقي كله .

ولما شاعت كلمة عراق ما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين تطورت في الاستعمال واتسع مدلولها عند الجغرافيين العرب فقد كثر ذكر اسم العراق في الشعر الجاهلي واقترن بالرخاء . واطلق العرب أيضا على بلاد الرافدين الشمالية اسم الجزيرة واطلقوا اسم العراق على الاقسام الوسطى والجنوبية مما يسمى الآن عراقا كما سمو السهل الرسوبي بالسواد لخضرته وكان مصطلح السواد يرادف تسمية العراق في كثير من الاستعمالات كما سموه بلاد بابل او ارض بابل . وهذا المصطلح ظل متوارثا منذ العهد البابلي القديم في الألف الثاني قبل الميلاد . وصار مدلول العراق يتسع في استعمال البلدانين العرب حتى صار يشمل العراق الحالي تقريبا . وتبلورت حدود العراق الحالية بوجه خاص في العهد العثماني في القرن التاسع عشر وفي فترة الاحتلال البريطاني .

الموقع

على الباحث في حضارة اي قطر ان يدخل في حسابه اثر العوامل الجغرافية في الحضارة لان الحضارة هي نتاج تفاعل الانسان مع البيئة الطبيعية لترويضها وتسخيرها له واستغلال امكانياتها . لا ريب في ان للانسان الدور الرئيسي في تكوين الحضارة ولكن الى جانب هذه الحقيقة يجب ان لا يهمل دور عوامل البيئة الطبيعية لأنها تؤثر في الحوادث التاريخية وتكسب الحضارة طابعا مميزا وخاصة بكل قطر ولهذا سنتناول في هذا الفصل ابرز خصائص البيئة الطبيعية في القطر العراقي وفي تطور حضارته وطبعمها بالطابع العام المميز لها . وبعبارة اخرى سيكون موضوع هذا الفصل ضمن اطار الجغرافية التاريخية كالتغيرات المهمة في بيئته الطبيعية مثل الموقع الطبيعي وتركيب السكان والمناخ والتضاريس الطبيعية والنبات الطبيعي والانهار وتبديل مجاريها وغير ذلك من العوامل الجغرافية مع ابراز تأثيرها في حياة الانسان والتركيز على دور الانسان في التعامل معها واستغلالها للاستفادة منها .

فلقد كان لموضع العراق الجغرافي اثر مهم في سير تاريخه سواء كان ذلك من حيث الحياة الاقتصادية بوجه عام ام من حيث اهميته العسكرية ام من ناحية تركيب سكانه واتصالاته بالاقطار الاخرى والاقوام المجاورة الى غير ذلك مما للموقع الطبيعي من نتائج مؤثرة في سير التاريخ والحضارة . فللعراق مكانة مهمة في تاريخه القديم والحديث ليس لكونه مهد الحضارة البشرية فقط بل لانه غني في ثروته الطبيعية ولاهيته العسكرية التي تجعل منه مشرفا على القسم الشرقي من الشرق الاوسط . وهذا الجزء من الشرق مهم في موقعه لانه يقع على الجسر الارضي الذي تلتقي فيه ثلاث قارات هي اوربا واسيا وافريقية . وكان هذا القطر خلال العصور التاريخية القديمة طريقا مهما يصل الامم الغربية بالامم الشرقية

وَاستمر كذلك طيلة العصور الوسطى والحديثة تقريبا حيث كان ملتقى طرق القوافل التجارية للاتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والهند واقطار الشرق الاقصى بالطرق البرية ثم بواسطة الخليج العربي والمحيط الهندي ولكن هذه الاهمية ضعفت بعد تحول الطرق التجارية البحرية العالمية على اثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في القرن السادس عشر وفتح قناة السويس في القرن التاسع عشر حيث صار الاتصال التجاري مباشرة بالهند وجنوب شرق اسيا بدون الخليج العربي . ومع ذلك احتفظ جنوب العراق باهميته لان كل طرق المواصلات الجوية تتجمع في رأس الخليج العربي ولان المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من الخليج جبلية وعرة ولان اقصر الطرق الجوية الذي يوصل غرب اوربا بالهند والشرق الاقصى يمر منه .

ولموقع العراق أثر مهم في تركيب سكانه فهو يقع بين منطقتين ثقل فيهما الموارد الطبيعية اذ تحده من الشمال والشمال الشرقي مناطق جبلية ومن الغرب والجنوب الغربي مناطق صحراوية فقيرة في مواردها الزراعية والمائية . وهذه المناطق الصحراوية هي جزء من شبه الجزيرة العربية في اقسامها الشمالية والشمالية الغربية اي بادية الشام . ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة هي التي جعلت البدو العرب يسمون سهل العراق الجنوبي بالسواد لخضرته مما جعله محط الاقطار وهجرات الاقوام من المنطقتين المجاورتين التي تقل موارد العيش فيهما . وعلى ضوء ذلك ينبغي للمؤرخ ان ينظر الى سكان العراق .

فمن شبه الجزيرة العربية والبادية الشمالية الغربية نزحت الى العراق في مختلف عصور التاريخ عدة اقوام كانت اخرها القبائل العربية التي يرجع الى اصولها القسم الاعظم من سكان العراق الآن . ومن الاقاليم الشرقية والشمالية الشرقية وفدت على العراق اقوام عديدة من اصول

هندية اورية . ولقد انتشرت من شبه الجزيرة العربية منذ ازمان مختلفة اقوام على هيئة هجرات استوطنت في اطراف شبه الجزيرة ومنها بوادي الشام والعراق الغربية والعليا والفرات الاعلى وكانت تلك الاقوام تتغلغل الى المناطق الخصبة مثل وادي الرافدين وسورية وفلسطين والاردن ولبنان وحتى وادي النيل حيث دخلت جماعة جزرية منذ عصور قبل التاريخ في تركيب سكانه .

وبالنسبة الى وادي الرافدين لم ينقطع تسرب الاقوام المتاخمة له من جهاته الغربية عبر الفرات بل استمر الى العصور الحديثة وكان للفتوح العربية الاسلامية منذ القرن السابع الميلادي لاقطار الهلال الخصيب وشمال افريقية الاثر الحاسم النهائي في تركيب سكان هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة بجعل غالبية سكانها من العرب . ففي وادي الرافدين قامت من هؤلاء الجزريين في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد الدولة الاكدية المشهورة نسبة الى العاصمة اكد فاطلق اسم الاكديين واللغة الاكدية على الجزريين الشرقيين . واشتهرت من الجزريين الغربيين القبائل الامورية وهم الكنعانيون الشرقيون في وادي الرافدين وبلاد الشام والكنعانيون الغربيون ومنهم الفينيقيون في سورية وفلسطين ما بين الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . واسس الاموريون في العراق دولا كثيرة في فترتين من هجراتهم كانت اولاهما في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد وتنتج عنها تحطيم امبراطورية اور واقامة عدة دويلات على انقاضها . واعقبها بعد مائة عام هجرة امورية ثانية قامت منها عدة دويلات اشهرها سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ قبل الميلاد) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ قبل الميلاد) كما استوطنت جماعة منهم في منطقة ماري (تل الحريري بالقرب من البوكمال) على الفرات في نهاية الالف الثالث

قبل الميلاد وقامت فيها سلالة حاكمة مستقلة في العهد البابلي القديم وامتدت سلطتها على طول نهر الفرات والخابور وشملت منطقة عانة (خانة القديمة) . وقد اثرت هجرات الاموريين على تسوير المدن السومريين ومنها مدينة اور ضد الغزاة . وكانت عادة تسوير المدن في العراق قد بدأت قبل ذلك بزمان طويل . وانتشرت القبائل الاشورية في شمال العراق في الالف الثالث قبل الميلاد واسست دولة امتدت رقعتها لتشمل كثيرا من المناطق المجاورة واستمر حكمها حتى عام ٦١٢ قبل الميلاد . وانتشرت القبائل الارامية في كثير من مناطق الهلال الخصيب ما بين القرن الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد في بلاد الشام وفي جزيرة وادي الرافدين وقامت منها عدة دويلات ولكنها دخلت في صراع شديد مع الاشوريين حال دون قيام دولة كبرى لها . وتدفقت القبائل الارامية ايضا الى وادي الفرات الاعلى والاسفل وقامت لها عدة دويلات آخرها واشهرها دولة بابل الحديثة التي اشتهرت بملكها نبوخذ نصر الثاني . وانتشرت القبائل العربية منذ الالف الاول قبل الميلاد الى وادي الرافدين واخذ اسم العرب يظهر في أخبار الملوك الاشوريين في حروبهم مع بعض تلك القبائل في بوادي الشام والعراق وشمال الحجاز . ووفدت على العراق قبائل عربية قبل الاسلام ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي . وتعد الفتوح العربية الاسلامية منذ القرن السابع الميلادي من جملة الموجات العربية التي نتج عنها التركيب الحالي لغالبية سكان العراق والبلاد العربية الاخرى .

واتصل سكان وادي الرافدين منذ اقدم عصور التاريخ بعدة اقوام من خارج القطر عن طريق التجارة او الاسفار او الفتوح فاثرت فيهم حضارة وادي الرافدين كما اثروا فيها وتغلغل البعض منهم الى موطن هذه الحضارة فدخلوا في تركيب سكان العراق القديم واستوطنت جماعات اخرى في مناطق العراق الشمالية في الاقسام الجبلية مثل الكوتيين

واللولوبيين والميديين الذين يرجح ان يكون الاكراد منهم وكذلك
الكشيين والحدوريين . واستوطن الاخيريون شمال العراق في نوزي
(يورغان تبه بالقرب من كركوك) وفي تبه كورا وتل بلا بالقرب من الموصل .

المناخ

في العصور الحجرية القديمة كانت احوال المناخ وطبيعة الارض
والنبات الطبيعي تختلف اختلافا اساسيا عما هي عليه الان اذ ان تلك
العصور الحجرية تقع في العصر الجيولوجي المعروف بعصر الجليد
(البلايستوسين) الذي شهد تقدم الجليد اربع مرات
في المناطق الشمالية من قارة اوربا وامريكا الشمالية حتى خط
عرض ٤٥ درجة شمالا . وقد بدأ هذا العصر قبل مليوني سنة وانتهى قبل
١٦٠٠٠ سنة . وقد تخللت عصور الجليد الاربعة فترات من الدفء والجفاف
النسبي . اما المناطق الواقعة في الاقسام الجنوبية من نصف الكرة الشمالي
مثل العراق واقطار الشرق الادنى الاخرى فكانت تحدث فيها ابان العصور
الجليدية الاوربية عصور ممطرة تسقط اثناءها امطار غزيرة في حين كانت
فترات الدفء والجفاف النسبي الاوربية تقابلها في هذه المناطق الشرقية
فترات يسودها الجفاف . ونحن نعيش الان في فترة الجفاف التي تلت آخر
عصر جليدي . وكانت كميات الامطار الساقطة في العصور الممطرة تبلغ
من الغزارة درجة كبيرة حتى انها جعلت من المناطق الصحراوية في شبه
الجزيرة العربية وافريقية مناطق خضراء تجري فيها الانهار والجداول التي
لا تزال اثارها واضحة للعيان وتسرح فيها حيوانات الصيد وينتشر النبات
الطبيعي متمثلا بالغابات والشجيرات والحشائش . واستطاع انسان العصر
الحجري القديم ان يعيش في تلك المروج الخضراء حيث ترك الاله وادواته .

وكان العراق اثناء العصور الجليدية اكثر رطوبة مما هو عليه الآن لان الامطار كانت اكثر غزارة وتسقط في فصل الصيف وفصل الشتاء . ويظهر ان العراق شهد اربعة عصور مطيرة وان العصر الاول بدأ في اواخر عصر البلايوسين واستمر حتى بداية انتشار جليد كنز (احد وديان جبال الالب التي تراكت فيه ما جرفه الجليد) في اوربا في عصر الجليد . اما قمم الجبال الشمالية والشمالية الشرقية فقد احتفظت ببرودتها اذ كانت مغطاة على الدوام بجليد ثخين . وقد وجدت مخلفات انسان العصر الحجري القديم بدوريه في عدة كهوف في المنطقة الجبلية بشمال العراق منها كهفان قرب مدينة السليمانية هما كهف هزار مرد وكهف زرزي ومنها موقع بردا بالكة قرب بلدة جمجمال وكهف شاندر وكهف بالي كورا في محافظة اربيل وكهف كيوانيان في منطقة راوندوز . ففي هذه المناطق عاش انسان نياندرتال والانسان العاقل على صيد الحيوانات البرية كالغزلان والوعول والخيول والخنازير والثيران والخراف والماعز وعلى صيد الاسماك والطيور والتقاط وجع ثمار وبذور وجذور النباتات الطبيعية . والدليل على ذلك بقايا عظام تلك الحيوانات والالات الحجرية التي استخدمت في صيدها والتي استخرجها المنقبون الاثاريون في تلك الكهوف اثناء التنقيبات الاثرية وبديل الهياكل العظمية البشرية التي وجدت في كهوف هؤلاء الصيادين .

ومن ابرز آثار العصور المطيرة والجافة في العراق مدرجات او ضفاف الانهار القديمة ففي العصور المطيرة كثر كميات المياه التي انسابت الى الانهار فاتسع مجراها وارتفعت ضفافها وفي فترات الجفاف قلت مياهها وصغرت سعتها وانخفضت ضفافها . وقد كشفت التحريات الجيولوجية في حوض نهر دجلة في منطقة سامراء - بلد وفي بعض الاودية في شمال العراق مثل وادي سنكه سر عن وجود ما لا يقل عن ثلاثة مدرجات او ضفاف جيولوجية . وقد ظن البعض ان احد هذه المدرجات القريبة من مدينة بلد

هو بقايا ساحل الخليج العربي القديم • وكشفت التحريات الجيولوجية ايضا عن خمسة من هذه المدرجات في منطقة طاووق وعن اربعة في منطقة راوندوز • اما نهر الفرات فلم تدرس مدرجاته بعد غير ان بعضها على هيئة جزر بالقرب من القلوجة والاسكندرية •

وكان لكميات المياه الكثيرة التي انسابت الى الانهار في العصور المطيرة تاثير على تكوين السهل الرسوبي بما حملته الانهار من رواسب الغرين والطين الى المنخفض الذي تكون فيه هذا السهل •

وكان لظاهرة العصور المطيرة والفترات الجافة اثر مهم في نشوء الحضارة الاولى ذلك لان حلول فترة الجفاف العامة الاخيرة في ربوع الشرق الادنى جعل من المتعذر اعتماد الانسان في قوته على صيد الحيوان وجمع ثمار وبذور النبات مما كان سائدا في العصر الحجري القديم فاهتدى الانسان في اقطار الشرق الادنى ولا سيما في شمال العراق الى انتاج الطعام بواسطة الزراعة وتدجين الحيوان ويمثل موقع كريم شهر القريب من جمجمال وملفعات بين اربيل والموصل وزاوي جمي القريب من كهف شاندر المرحلة الاولى في هذا التحول لانه لا توجد ادلة قاطعة على ممارسة الزراعة فيها وقد تكون هذه الاماكن مواقع اختلط فيها الصيد بالزراعة التجريبية المحدودة •

اما موقع جرمو شرقي كركوك فيزودنا بدلائل لقرية دائمية مثل الحبوب الزراعية وادوات الحصاد وطحن الحبوب ومخازن المحاصيل وعظام الحيوانات المدجنة والبيوت القروية المشيدة والاواني الفخارية • ومثل ذلك يقال عن قرية حسونة ومطازة وام الدباغية وشمشارة وبارم تبه والاربجية وغيرها من القرى التي تقع في منطقة السهوب حيث كانت الامطار كافية لقيام زراعة ديمية فيها حتى بعد حلول فترة الجفاف لان الجفاف لم يحل فجأة

يل كان يعم تدريجيا الى ان اشتد وتزايد فتعذرت زراعة الامطار في كثير من المناطق الامر الذي دفع بالكثير من الفلاحين الى البحث عن مناطق اخرى تصلح لحياتها الزراعية فركنت الى الهجرة الى وديان الانهار ودخل طلائع المستوطنين في السهل الرسوبي في تجربة شديدة فرضتها عليهم البيئة الجديدة التي تتطلب ترويضها وجعلها صالحة لزراعة الري ولذلك بذلت جهود مضيئة في انشاء اول جهاز للري في تاريخ الحضارة لارواء الحقول الزراعية وبساتين النخل والخضر والفواكه ولدراء خطر الفيضانات •

ومن الجدير بالذكر ان الاحوال المناخية في القطر العراقي لم تطرأ عليها تغييرات اساسية منذ ان استوطن الانسان السهل الرسوبي في الجنوب فسي الالف الخامس قبل الميلاد • ويوصف مناخ العراق في الوقت الحاضر بأنه من نوع مناطق الانتقال بين المناخ الصحراوي الحار ومناخ حوض البحر المتوسط المعتدل • ففي المنطقة الوسطى والجنوبية تأخذ درجات الحرارة بالارتفاع كلما تقدمنا جنوبا وقد تصل الى اكثر من ٤٥ درجة مئوية في الصيف ولكنها تبقى فوق درجة الانجماد في الشتاء ولا تهبط الى مادون ذلك الا في يضع ليل ويكون الجو دافئا على عكس المنطقة الشمالية وخصوصا الجبلية حيث تنخفض فيها درجة الحرارة الى مادون التجمد لفترة طويلة من شهور السنة وفي الصيف يندر ان ترتفع درجة الحرارة الى اكثر من ٣٥ درجة مئوية • اما فصلا الربيع والخريف فهما اقرب الى الاعتدال من الصيف والشتاء • ويرجع السبب في ارتفاع مدى الحرارة السنوي في العراق الى انزاله عن تأثير البحر الذي يزود الهواء بالرطوبة فتقل برودة الشتاء وتتلطف حرارة الصيف فالبهار الخمسة التي تحيط بالمنطقة التي يقع فيها العراق لا يصله تأثيرها الا القليل • اما مدى الحرارة اليومي فهو كبير ايضا بسبب قلة الرطوبة النسبية في الهواء مما يساعد على زيادة حرارة الارض في ساعات النهار وفقدانها خلال ساعات الليل • ان اعتدال درجات الحرارة

خلال فصل الصيف، في المنطقة الشمالية وارتفاعها الشديد أثناء النهار في المنطقة الوسطى والجنوبية يجعل السكان أكثر نشاطاً واستعداداً للعمل في المنطقة الأولى ويحدث العكس في فصل الشتاء لأن انخفاض درجة الحرارة الشديدة وتساقط الثلوج في المنطقة الشمالية يعرقلان العمل وحركة النقل بينما يزيد اعتدال المناخ في المنطقة الوسطى والجنوبية في هذا الفصل الحركة والقدرة على العمل •

أما الأمطار فتسقط خلال فصل الخريف والشتاء والربيع وتزداد في الكمية كلما اتجهنا من الجنوب إلى الشمال الشرقي إذ تتدرج من خمسة سنتيمترات إلى مئة سنتيمتر في السنة • وبالإضافة إلى هذا الفرق الكبير في كمية المطر بين مناطق العراق هناك فرق آخر وهو أن كمية الأمطار الساقطة تختلف من سنة لأخرى ويؤثر هذا التفاوت على الزراعة التي تعتمد على الأمطار في الحافات الجنوبية من المنطقة التي يكون الديم عماد زراعتها • كما أن السهل الرسوبي الذي يشمل القسم الأكبر من الأراضي الصالحة للزراعة لا يتسلم من الأمطار الكمية قليلة غير كافية لقيام الزراعة ولذلك اقتضت الضرورة الاعتماد على السري • يتضح من هذا أن لكميات المطر علاقة وثيقة بنشاط الإنسان في مجال الزراعة الدائمة والزراعة السريعة •

أن القسم الأكبر من أمطار العراق يسقط على شكل زخات رعديّة تدوم لفترة قصيرة سببها في الغالب أعاصير تمر في جو العراق قادمة من المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ويتجه الكثير منها نحو الخليج العربي • وإلى جانب الأمطار الأعاصرية توجد في العراق أمطار تصاعدية إلا أنها قادرة الحدوث • وينشأ هذا النوع من المطر بسبب تبخر الماء من سطح الأرض وصعوده إلى أعلى وتكاثفه وسقوطه على هيئة مطر إلى نفس الأماكن التي تبخر منها تقريباً • ويحدث هذا النوع من المطر بصورة عامة خلال فصل الربيع • وتسقط الأمطار في العراق على شكل برد في قسم كبير من البلاد

بينما تسقط هذه الامطار فوق المنطقة الجبلية واحيانا فوق المنطقسة
شبه الجبلية على شكل ثلوج مما يسبب اضرارا بالحاصلات الزراعية .

اما الرياح فأغلبها شمالية غربية وتهب اثناء معظم ايام السنة وتبلغ نسبة
هبوبها ٧٥٪ من مجموع اتجاه انواع الرياح الاخرى التي تهب نحو العراق .
وسبب هبوبها هو وجود منطقة ضغط عالي فوق الاراضي الجبلية في تركيا
تقابلها منطقة ضغط واطىء فوق منطقة الخليج العربي والهند مما يجعل
العراق ممرا لهذه الرياح خلال الصيف بصورة منتظمة . اما في فصل الشتاء
فيكون هبوبها متقطعا بسبب الاعاصير القادمة من البحر المتوسط . ولهذه
الرياح تأثير مهم على مناخ العراق لانها ذات حرارة منخفضة نسبيا وتلطف
الجو في فصل الصيف بهبوبها من جهات اقل حرارة . اما الرياح الشرفية
والشمالية الشرقية فتهب خلال فصل الشتاء
ويصحبها انخفاض شديد في درجات الحرارة وتسبب اضرارا بالفسنة
بالمنتوجات الزراعية ولا سيما الحمضيات واشجار النخل التي تتعرض لبعض
التلف . اما الرياح الجنوبية الشرقية فهي دافئة نسبيا ورطبة وتجلب في بعض
الاحيان الغيوم والامطار شتاء لانها تهب من منطقة الخليج العربي مارة
فوق مسطحات مائية . وتهب على جنوب العراق في فصل الصيف رياح
جنوبية حارة ورطبة تحدث جوا خانقا لانها قادمة من منطقة الخليج العربي .
وتسبب الرياح احيانا عواصف ترابية تتلف المحاصيل الزراعية وخاصة
الصيفية منها ويكون هبوبها خلال فصل الربيع والصيف وحتى شهر ايلول
حيث تكون الارض جافة والامطار نادرة مما يزيد في فعالية هذه العواصف
المحملة بالغبار .

ونظرا للتفاوت والاختلاف بين اقسام العراق الطبيعية من حيث الحرارة
والطر والنبات الطبيعي نستطيع ان نلاحظ ثلاثة انواع متميزة من المناخ في
العراق هي مناخ البحر المتوسط ومناخ السهوب والمناخ الصحراوي . ان

النوع الاول من المناخ يسود المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق حيث يكون الصيف معتدلا وجافا ويكون الشتاء باردا وممطرا وتسقط الثلوج بكميات كبيرة احيانا حتى انها تبقى متراكمة فوق سفوح الجبال العالية . وتزداد كمية الامطار المتساقطة كلما انتقلنا من الغرب الى الشرق ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . والارتفاع يلعب دورا مهما في توزيع المطر فكلما زاد الارتفاع زادت كمية الامطار . وتبدأ الامطار بالتساقط منذ شهر ايلول وتستمر حتى شهر مايس بمعدل يتراوح ما بين ٤٠ - ١٠٠ سنتيمتر في السنة وتنخفض درجات الحرارة في الشتاء الى ما دون الصفر لعدة ايام . اما مناخ السهوب فيسود المنطقة المتموجة او الشبه جبلية وهو مناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط في الشمال والشمال الشرقي والمناخ الصحراوي في الجنوب والجنوب الغربي اي بين المنطقة الجبلية العالية من ناحية والهضبة الصحراوية والسهل الرسوبي من ناحية اخرى . ويبلغ معدل سقوط الامطار في هذه المنطقة ما بين ٢٠ - ٤٠ سنتيمترا في السنة وهذه الكمية تساعد على قيام حياة رعوية لقطعان الماشية وخاصة في فصل الربيع . وتعتمد الزراعة في بعض اقسامها على الامطار وفي اقسام اخرى على الري لعدم كفاية الامطار كما في سهول اربيل وكركوك ونيوى ومنطقة حمير ومنطقة الجزيرة شمالي سنجار . ويمكن اعتبار الخط المطري الذي معدله ٣٠ سنتيمترا في السنة الحد الادنى للزراعة المطرية . ومن الجدير بالذكر ان منطقة السهوب هذه شهدت قيام اولى القرى الزراعية في العراق . اما المناخ الصحراوي فبسود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية ويمتاز بقلة الامطار الساقطة اذ تتراوح ما بين ٥ - ٢٠ سنتيمترا في السنة . اما الحرارة فمرتفعة خلال فصل الصيف اذ تصل حوالي ٥٠ درجة مئوية في بعض الاماكن اثناء النهار وتصل الحرارة ادنى معدلاتها في شهور فصل الشتاء .

لا توجد حدود فاصلة بشكل واضح بين هذه المناطق الثلاث والانتقال

بينها يكون تدريجيا وعلى الاخص بين منطقتي مناخ السهوب والمناخ الصحراوي . ويوجد تفاوت في كل من المناطق الثلاث مما يبرر تقسيمها الى مناطق ثانوية فالمناخ الصحراوي الذي يسود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية يختلف قليلا من مكان لآخر . ويوجد اختلاف واضح بين مناخ الاراضي الصحراوية البعيدة عن الانهار وبين الاراضي التي تتخللها الانهار . ويوجد فرق اخر بين مناخ الجبال العالية التي تغطيها الثلوج وبين السهول التي تجاورها بالرغم من ان الاثنين يقعان ضمن حدود مناخ واحد هو مناخ البحر المتوسط .

وللمناخ تأثير مباشر على الزراعة والانتاج الزراعي فانخفاض درجة الحرارة الى ما دون الصفر المئوي وسقوط الصقيع عدة مرات في فصل الشتاء يسبب تلف قسم كبير من الحاصلات الزراعية . وارتفاع درجات الحرارة اثناء النهار في فصل الصيف يزيد في نسبة التبخر من الاشجار والنباتات فتحترق اوراقها ويحدث هذا لكثير من اشجار الفاكهة كالتين والعنب والخوخ والتفاح وغيرها . كما ان هبوب الرياح الشمالية او الشمالية الشرقية من هضبة الاناضول او من سبريا خلال فصل الشتاء كثيرا ما يتلف محاصيل القمح والشعير لان هذه الرياح باردة وقوية وقد تقلع النباتات من جذورها وتدمر القسم الاكبر من ازهار اشجار الفاكهة فيقل انتاجها . اما اثر الامطار فيبدو واضحا في المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق اذ تعتمد الزراعة فيها وخاصة الشتوية على ما يسقط منها سنويا . بينما في جهات القطر الاخرى تدعو قلة الامطار الى الاستعانة بطرق الري الاصطناعية من مياه نهر دجلة والفرات او من المياه الباطنية .

التضاريس

توجد في العراق الاقسام الطبيعية الثلاثة التي يتكون منها سطح الارض. ففي الشمال والشمال الشرقي تمتد الجبال الالتوائية التكوينية وهي امتداد لسلسلة الجبال العظيمة التي تخترق قارة اوربا واسيا اعتبارا من جبال برانس في شمال اسبانيا الى جبال هملايا في شمال الهند . وفي الغرب يوجد الامتداد الشمالي لهضبة شبه جزيرة العرب التي تتكون من صخور قديمة صلبة كانت تؤلف جزء مما يسميه الجيولوجيون القارة القديمة (كوندوانا لاند) غير انها في العراق تراكمت عليها طبقة ثخينة من الترسبات التي حدثت في الزمن الجيولوجي الثاني والثالث . وبين هاتين المنطقتين اي بين الجبال الالتوائية الشمالية والهضبة الصحراوية يقع سهل العراق اي وادي دجلة والفرات وهذا السهل في قسمه الجنوبي هو ارض منخفضة هابطة او التواء مقعر مفتوح تكون في احدث العصور الجيولوجية ولا يزال في دور التكوين ولذلك نجد في العراق صخورا تمثل مختلف الازمنة الجيولوجية اذ تنتشر تحت سطحه في الاجزاء المتاخمة للحدود الايرانية التركية صخور نارية قديمة يعتقد بانها من تكوينات القارة القديمة . وتمتد فوق سطحه ترسبات حديثة تعود الى عصر الجليد من الزمن الجيولوجي الاخير . وكان بحر تشس في اواخر الزمن الجيولوجي الاول ما يزال يغطي ارض العراق ولكنه اخذ بالانحسار واستمرت عملية الانحسار وظهور الاجزاء الشمالية من العراق في اواخر الزمن الجيولوجي الثاني واولئل الزمن الجيولوجي الثالث وفي اواخر هذا الزمن ظهرت ارض العراق كلها من البحر وبدأت تتكون عليها سهول مروحية واسعة واخذت جبال زاكروس شكلها الحالي ونشأت فيها مجموعات من الالتواءات المعقدة . وفي اوائلل الزمن الجيولوجي الرابع اي في عصر الجليد تكاملت عملية تكوين الجبال وتكوين دلتا النهرين اي السهل الرسوبي بشكل منخفض هبط نتيجة الحركات الارضية في الازمنة السابقة .

ولهذا نجد تفاوتاً في تضاريس سطح العراق • وعلى العموم يمكن تمييز ثلاثة أنواع رئيسية من التضاريس تتمثل في ثلاث مناطق هي المنطقة الجبلية والهضبة الصحراوية والسهل الرسوبي • وقد اثر هذا التفاوت في تضاريس السطح على احوال القطر الطبيعية والبشرية فكثرت الامطار والثلوج على جباله العالية وانحدرت من هذه الجبال الانهار نحو الضفاف الشرقية من نهر دجلة بينما انعدمت على الضفاف الغربية لانخفاض الارض وقلة الامطار • اما المناطق الوسطى والجنوبية فقد قلت امطارها لقلة الارتفاع ولعوامل اخرى • كما ان انخفاض الارض جعل هذا القسم عرضة لفيضانات الانهار فتكونت فيه بحيرات واهوار وظهرت الحاجة لبناء مشاريع للري وخزن المياه من موسم الوفرة الى موسم القلة مما ساعد على درء خطر الفيضانات المدمرة • وقد اثر كل من سطح العراق ومناخه بدورهما على النبات الطبيعي فنبت الغابات والاشجار في المنطقة الجبلية وشبه الجبلية بسبب وفرة المياه واعتدال المناخ كما نمت الاشجار والحشائش على ضفاف الانهار والجداول ونمى القصب والبردي في الاهوار والمستنقعات بينما انعدم النبات الطبيعي تقريبا في معظم الهضبة الصحراوية لقلة الامطار وعدم وجود مياه دائمة • وقد اثر تكوين السطح على المعادن فالتواء قشرة الارض وانكسارها وما تلاهما من عوامل التعرية ساعد على ظهور بعض المعادن على سطح الارض وعلى تجمع النفط في سفوح التلال والجبال • كما اثرت عوامل السطح على احوال البشر وجعلتهم يختلفون في طراز معيشتهم من منطقة الى اخرى •

١ - المنطقة الجبلية :

تشمل هذه المنطقة الجبال العالية والمرتفعات شبه الجبلية وتشغل زهاء ٢٠٪ من مساحة العراق وتمتد في جهات القطر الشمالية والشمالية الشرقية الى حدوده المشتركة مع سورية وتركيا وايران ، وتتلاشى عند حدود السهل الرسوبي

والهضبة الصحراوية في الجنوب والغرب . وتتألف الحدود الجنوبية من سلاسل جبلية واطئة مثل جبال حمرين ومكحول والعطشان وتلعفر وسنجار . واذا اقتربنا من الحدود التركية والحدود الإيرانية تصبح الجبال شاهقة الارتفاع تكسو قممها الثلوج طيلة أيام السنة وتغطيها الغابات والحشائش وتصبح سهولها اصفر حجما . وتخترق هذه المنطقة جميع روافد نهر دجلة وهي الخابور والزاب الكبير والزاب الصغير والعظيم وديالى وهي تمدد بحوالي ٧٠٪ من مياهه وتجري هذه الروافد باتجاه الانحدار العام للأراضي التي تسير فوقها أي نحو الجنوب الغربي عابرة السلاسل الجبلية بصورة عمودية . ولهذا الظاهرة امكانيات مهمة في انشاء خزانات للمياه والسدود مثل مشروع دوكان على الزاب الاسفل ومشروع دربندي خان على ديالى . وتوجد بقايا مشاريع سدود قديمة اوضحها السد المقام على العظيم ويسمى البند في اول الاراضي المسماة الغرفة الآن .

ويمكن تمييز نوعين من الجبال بهذه المنطقة يشمل انواع الجبال العالية التي يبلغ ارتفاعها بين اكثر من ١٠٠٠ متر الى ٣٦٠٠ متر وتمثل ٥٪ فقط من مساحة العراق وتتكون من صخور نارية ومتحولة ورسوبية شديدة المقاومة . اما سهولها ووديانها فتكونت من صخور لينة كالرمل . وتمتد امطار هذه المنطقة روافد دجلة بمعظم مياهها وكونت بعض الانهار الرئيسية مدرجات لها في مستويات مختلفة لاستمرارها في خفر مجاريها . وتتمتع هذه المنطقة بوفرة المياه مما يجعلها صالحة للزراعة ولا سيما في الاقسام الشمالية حيث يبلغ معدل سقوط المطر ٦٠ سنتيمترا في السنة . ويستفيد سكان هذه المنطقة من الامطار في زراعتهم الشتوية وخاصة القمح والشعير . اهم سهول المنطقة هي سهل السندي وسهل شهرزور وسهل رائية .

اما المنطقة شبه الجبلية فهي امتداد جنوبي وجنوبي غربي لمنطقة الجبال العالية المتاخمة لها وتمثل انتقالا من الجبال العالية في اقصى الشمال

والشمال الشرقي والسهول الواطئة في الجنوب ويتراوح ارتفاعها من حوالي ٣٠٠ متر الى حوالي ١٠٠٠ متر وتمثل حوالي ١٥٪ فقط من مساحة العراق . وتتكون المنطقة شبه الجبلية من سلاسل جبلية واطنة ومتقطعة تفصلها سهول واحواض وتنتهي في الجنوب او الجنوب الغربي بجبل حمرين وامتداده جبل مكحول وتتلاشى في منطقة الجزيرة ماعدا بعض الجبال القائمة بصورة منفردة مثل جبل سنجار . ومن اشهر سهول المنطقة سهل كركوك وسهل اربيل وسهل مخمور التي اشتهرت بزراعة الحبوب وخاصة القمح والشعير معتمدة على الامطار الشتوية . وفي هذه المنطقة عاش انسان العصور الحجرية القديمة في سفوح المرتفعات كما ظهرت اولى القرى الزراعية .

٢ - الهضبة الصحراوية :

تقع الهضبة الصحراوية في غرب العراق وتحتل حوالي ٦٠٪ من مساحته ويتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ - ١٠٠٠ متر غير ان القسم الاكبر منه يبلغ ارتفاعه ما بين ٣٠٠ - ٥٠٠ متر . وتعتبر من حيث التضاريس جزء من هضبة شبه الجزيرة العربية . يكون سطحها متموجا وتنتشر فيه التلال الصغيرة والوديان التي نتجت عن الحركات الارضية فحدثت فيها انكسارات والتواءات بسيطة وتشتد فيها التعرية نظرا لانحدار الارض وفقر النبات الطبيعي . والامطار قليلة وتسقط بعنف في فترات قصيرة وهي في الشمال اكثر منها في الجنوب ولذلك كثرت الوديان في الشمال وقلت في الجنوب . وينحدر سطح الهضبة نحو الشرق باتجاه السهل الرسوبي وتتجه مجاري الوديان من الغرب الى الشرق تبعا لذلك . وتوجد في الهضبة منخفضات ووديان عديدة وتلال قليلة وصخور وكتل من الجص ومدرجات وكثبان رملية ومع ذلك فان تباين الصخور والتربة والنبات الطبيعي والمطر يميز قسمين رئيسيين هما هضبة الجزيرة وهضبة البادية الغربية .

١ - هضبة الجزيرة :

تمتد هضبة الجزيرة ما بين جبال مكحول - سنجار شمالا والسهل الرسوبي جنوبا ومجرى نهر الفرات والحدود السورية غربا وجبل حمزين شرقا . والجزيرة هي سهل مرتفع متكون من صخور الجبس في الغالب وقد اخذ شكل حوض ضحل له انحدار نحو الجنوب ونحو الشرق ونحو الغرب . ويعتبر وادي الثرثار المصرف الرئيسي لمياهها . ويعتقد ان ارض الجزيرة ربما كانت تتصل بالفرات وانفصلت عنه بسبب الحركات الارضية التي ادت الى كسر ورفع قشرة الارض . ويتكون سطح الجزيرة من ارض منبسطة تتخللها هضاب وروابي وكتبان رملية وبحيرات واودية ومنخفضات . وتكثر في المنطقة مستنقعات تجمعت فيها المياه والاملاح نتيجة عوامل التعرية نظرا لكثرة الاملاح القابلة للذوبان كما ان قسما كبيرا من المنطقة تغطيها ترسبات حديثة نقلتها الرياح والمياه وقد يصل عمقها في بعض الحفر والمنخفضات الى ثلاثة امتار . اما في المناطق المنبسطة فان هذه الترسبات تكون طبقة خفيفة . وتكثر الكتبان الرملية في الجهة الغربية . وتوجد ايضا التواءات صغيرة بعضها ظاهر على سطح الارض وبعضها مخفي تحت الترسبات .

واوسع منخفضات هضبة الجزيرة منخفض الثرثار الذي يتكون من واد طويل تنتهي اليه وديان كثيرة تنحدر من جبل سنجار وما جاوره من ارض في شمال المنخفض . يبلغ طول الوادي ٣٠٠ كيلومتر ومعدل عرضه ٤٥ كيلومترا ويتراوح ارتفاعه بين ٣٢٥ مترا في الشمال ومستوى سطح البحر بالقرب من بحيرة الثرثار . وينخفض قاع البحيرة ثلاثة امتار تقريبا تحت سطح البحر . ان الانحدار نحو المنخفض من الشرق والغرب شديد في الغالب وتحيط بالمنخفض ضفاف عالية تبلغ في الارتفاع حوالي ٣٥ مترا . ويعتقد ان المنخفض نشأ عن انكسار في قشرة الارض وهبوطها فحدث غور

ثم حدثت حركات ارضية باطنية ادت الى تجزئته • ومما يدل على هذا الانكسار هو شكل الوادي الطويل الضيق وارتفاع حافته الشرقية واستقامة مجاري الوديان والينابيع •

وقد تحول هذا المنخفض في السنوات الاخيرة الى خزان كبير لخزن مياه نهر دجلة وانتفاذ المدن والمزارع من الخراب والفرق بعد انشاء سد سامراء في سنة ١٩٥٦ اذ شقت قناة بلغ طولها ٤٠ كيلومترا لتحويل مياه النضبان من نهر دجلة نحو المنخفض وتم ايصال هذا المشروع بترعة تربطه بنهر الفرات شمال مدينة الفلوجة في سنة ١٩٧٧ •

وتتمتع هضبة الجزيرة عدا ذلك بسقوط الامطار الكافية تقريبا للزراعة والرعي كما توجد مياه جوفية وفيرة • وجميع هذه الموارد المائية ساعدت على ازدهار المنطقة منذ عصور قبل التاريخ كما تدل على ذلك التلول الاثرية الكثيرة المنتشرة فيها • واشتهرت الجزيرة منذ اقدم الازمان بكونها من مناطق الاتصال المهمة ما بين العراق والشام وموانئ البحر المتوسط وبلاد الاناضول ومن المصادر المهمة لهجرات القبائل من شبه الجزيرة العربية الى العراق وسورية وقد سبق لنا ان ذكرنا ذلك بايجاز •

ب - هضبة البادية الغربية :

تجاور البادية الغربية مجرى نهر الفرات من الشرق وتتشرك مع بادية الشام وتمتد الى داخل شبه الجزيرة العربية ويتخللها عدد من الاودية التي تجري فيها مياه الامطار • ارضها رملية منبسطة في بعض المناطق المتموجة تقطعها اودية ومنخفضات في مناطق اخرى • اهم منخفضاتها منخفض الحسانية ومنخفض ابو دبس وتجري فيها شبكة كبيرة ومعقدة من الوديان وتظهر فيها صخور عديدة ومتنوعة تعود الى الزمنين الجيولوجيين الثاني والثالث منها صخور الكلس والرمل والطين والحصى والجبس • ان العامل الرئيسي في تكوين التضاريس هو انكسار الصخور

وزحفها ولا توجد منخفضات كبيرة في هذه المنطقة الا منخفض الكعارة الذي يقع في شمال الرطبة بمسافة ٨٠ كيلومترا • ويقل اثر الرياح الباردة والحارة في بطون الوديان المنخفضة وتتجمع فيها المياه الجوفية ويسهل حفر الابار وينمو الكلا ويبقى مدة اطول ولذلك فضلت القوافل اجتياز هذه الوديان منذ القدم • وفي موسم الامطار تجري السيول التي قد تصل مياهها الى حافة السهل الرسوبي وتصل مياه البعض منها كواحي حوران الى الفرات • وتوجد في منطقة التقاء الوديان بالسهل الرسوبي عيون تحوي املاحا كبريتية او تحوي موادا قيرية مثل العيون الموجودة قرب هيت وكبيسة وشثانة • وفي النهاية الغربية لمنطقة الوديان التي تمتد بمحاذاة الحدود الاردنية العراقية يوجد سهل حماد المنبسط • وفي النهاية الجنوبية لهذا السهل وعند ملتقى الحدود العراقية الاردنية السعودية يبرز جبل عنزة ويبلغ ارتفاعه ٩١٥ مترا • وفي البادية الجنوبية في جنوب هذه الهضبة تكثر المنخفضات مثل منخفض السلمان • وفي اقصى الجنوب الشرقي توجد منطقة الدبدبة وهي ارض منبسطة تغطي سطحها الحصى والرمال وتوجد فيها وديان قليلة اهمها وادي البطن العميق الواسع • في اقصى الجنوب تأخذ الارض بالانبساط ماعدا منطقة جبل سنام • وتوجد في هذا القسم مجموعة من الوديان تنحدر نحو حوض الفرات •

الامطار قليلة في الهضبة ولا يزيد معدل سقوطها السنوي في قرية السلمان مثلاً على ٧٥٢ سنتيمترا ولذلك قلت تحركات القبائل فيها لقلة المراعي وندرة مياه الشرب التي يستحصل عليها من بعض العيون والآبار الارتوازية التي حفرت في السنوات الاخيرة •

لم تكن البادية من الناحية الحضارية قديما جزء مهما من العراق ولكنها كانت منفذا لاستقبال هجرات الاقوام الجزرية الى العراق منذ اقدم العصور

٣ - السهل الرسوبي

يبلغ طول هذا السهل ٦٥٠ كيلو مترا وعرضه ٢٥٠ كيلومترا ويمتد على شكل مستطيل باتجاه شمالي غربي - جنوبي شرقي بين مدينة تكريت على نهر دجلة ومدينة هيت على الفرات من جهة الشمال وجبال زاكروس من جهة الشرق والهضبة الصحراوية من جهة الغرب والبادية الجنوبية والخليج العربي من جهة الجنوب . يشغل السهل الرسوبي حوالي ٢٠٪ من مساحة العراق ويتراوح ارتفاع السهل بين مستوى سطح البحر و ١٠٠ متر فوق سطح البحر ولذلك يقل فيها انحدار مجاري الانهار اذ يبلغ الحد الاقصى لانحدار نهر الفرات ١٠ر٥ سنتيمترا وانحدار مياه دجلة ٦ر٩ سنتيمترا في الكيلومتر الواحد . ولا يزيد سطح الارض عند بغداد اكثر من ٣٣ مترا عن سطح البحر .

وقد ادرك العراقيون القدماء هذه الظاهرة اي ظاهرة ارتفاع وادي نهر الفرات بالنسبة الى وادي نهر دجلة فشقوا من الفرات انهارا كثيرة للري باتجاه نهر دجلة وجعلوا من السهل الرسوبي ابتداء من شمال بغداد - الفلوجة شبكة واسعة من مشاريع الري الكبيرة والصغيرة . ويتبدل الوضع في الجزء الجنوبي من السهل في منطقة الكوت - ناصرية حيث يبدأ وادي دجلة بالارتفاع بحيث يمكن اقامة مشاريع ري من دجلة الى الفرات وقد تم ذلك في العصور القديمة والحديثة مثل مشروع سد الكوت الذي تأسس في سنة ١٩٣٧ .

تكون منخفض هذا السهل في اوائل الزمن الجيولوجي الاخير نتيجة حدوث حركات ارضية هبطت بعدها الاقسام الجنوبية من العراق فالحدود الشرقية والغربية للمنخفض تظهر على شكل خط مستقيم يلفت النظر ويعتقد انها تتبع انكسارات قشرة الارض . وتكون السهل الرسوبي من الرواسب

التي تنقلها مياه نهر دجلة والفرات من الشمال والرواسب التي تأتي بها السيول المنحدرة من وديان الهضبة الصحراوية في الغرب مثل وادي حوران والابيض والبطن والتي تأتي بها الانهار والجداول المنحدرة من المرتفعات الشرقية كالواديان المارة بمدينة مندلي وبدره ونهر الكرخة وكارون . ان هذه الرواسب ملأت ولا تزال تملأ المنخفض او الالتواء المقعر الكبير الذي تحتله هذه المنطقة .

وتقدر هذه الرواسب بحوالي عشرة مليارات طن سنويا ويعتقد انها كانت في بدء تكوين السهل اكثر مما هي الان لشدة الانحدار بين الجبال التي كانت اكثر ارتفاعا وبين الالتواء المقعر الذي كان اكثر عمقا مما هو عليه الان . ويضاف الى ذلك ان الامطار كانت في عصر الجليد اكثر غزارة مما كان يزيد في قوة الجرف والترسب . وترسب ٩٠٪ من المواد العالقة بمياه نهر دجلة والفرات في الوقت الحاضر في الاهوار والمستنقعات المنتشرة في السهل الرسوبي . ويصل الباقي البالغ ١٠٪ الى شط العرب والخليج العربي .

ويرى البعض ان تكوين الاهوار والمستنقعات ظاهرة طبيعية تصاحب تكوين دلتا الانهار . فالانهار وفروعها تملأ عادة المناطق المجاورة لها اكثر مما تملأ المناطق البعيدة عنها ولما بدلت الانهار مجاريها عدة مرات في الازمنة الجيولوجية القديمة كونت في المناطق التي جرت فوقها ضفافا عالية وتركت اراضي واطلة بين مجاريها . وبعض هذه المناطق وصلتها وماتزال تصل اليها مياه الفيضانات مكونة اهورا ومستنقعات . ويرى اخرون ان الترسبات تتفاوت في كميتها وفي شكل تجمعها في مناطق اتصال السهل الرسوبي بالاراضي العالية المجاورة له من الشمال والشرق والغرب ولذلك ترتفع مناطق ونبقى اخرى منخفضة تتجمع فيها المياه . ويفسر ليز وفالكون وجود الاهوار والمستنقعات بهبوط السهل الذي انخفض ولا يزال ينخفض لثقل الرواسب المتجمعة فيه وبسبب الحركات الارضية .

ان هذا الهبوط التدريجي للقسم الجنوبي من السهل الرسوبي يمنع امتلاء المنخفضات بالترسبات التي تحملها الانهار والجداول والتي تنقلها الرياح . لقد مرت عليها آلاف من السنين ولم تملأ بعد والترسبات المنقولة كافية لملئها في مدة اقل من المدة التي مرت عليها . فهور الحمار الذي يكون في سنة ٦٠٠ قبل الميلاد لم يملأ بعد رغم مرور اكثر من ٣٥٠٠ سنة .

ولقد وضعت عدة نظريات منها نظرية واحدة اثارية ونظريتان جيولوجيتان لتفسير علاقة الخليج العربي بالسهل الرسوبي . وكان الرأي السائد في اوساط الباحثين الى عهد قريب ان معظم السهل الرسوبي كان مغمورا بمياه البحر وان ساحل الخليج العربي كان في عصور قبل التاريخ يمتد شمال حدوده الحالية . واول من وضع نظرية بهذا الخصوص هو الباحث الاثاري الفرنسي دي موركان De Morgan الذي اشتهر بتقنياته الاثارية في خرائب مدينة سوسة عاصمة عيلام . وحدد موركان رأس الخليج العربي في العصر الحجري القديم بالخط الوهمي المار بين هيت على الفرات وسامراء على دجلة . ورسم خط آخر لحد الساحل الشمالي بعد تراجع مياه الخليج بمرور الزمن بين مدينة اور على الفرات ومدينة العمارة على دجلة في الالف الرابع قبل الميلاد . وقد ايد هذا المنقب معظم المؤرخين والاثاريين والجغرافيين الذين كتبوا عن الخليج العربي والسهل الرسوبي في العراق . واستند صاحب هذه النظرية على افتراض وجود بعض المدن على الساحل القديم للخليج وعلى بعدها عنه بعد تأسيسها واستنتج ذلك من نصوص قديمة ورد فيها ذكر تلك المدن ومثال ذلك كاراتس (ميسان) أي المحصنة باللغة الارامية التي قيل ان الاسكندر المقدوني بناها على بعد كيلومترين ونصف تقريبا من ساحل البحر فأصبحت الان على بعد ١٨٠ كيلومترا تقريبا ومثال ذلك ايضا مدينة اور التي قيل انه كان لها ميناء على البحر في عهد السومريين . وفسر دي موركان تكوين اليابسة وتراجع الخليج

صوب الجنوب يفعل ترسبات الغرين التي تحملها مياه دجلة والفرات وغيرهما بمعدل ميل ونصف الميل او نحو الكيلومتريين في القرن الواحد * وقد وجد مؤيدو هذه النظرية في كميات الحصى الهائلة على شكل طبقات ثخينة بين مدينة سامراء ومدينة بلد دليلا على الخط الساحلي القديم لرأس الخليج العربي بينما هو في الواقع احد مدرجات (ضفاف) نهر دجلة القديمة التي نكونت في عصر الجليد *

وبعد ان نشر دي موركان هذا الرأي في اواخر القرن التاسع عشر اكتشفت مؤخرا بعض معالم الاستيطان في اطراف الاهوار وتم العثور على بعض الالات من العصر الحجري القديم في المنطقة التي افترض انها كانت تحت ماء الخليج بدأ الشك فيما ورد بهذه النظرية * وقد ايدت الدراسات الجيولوجية التي اجراها كل من ليز Lees وفالكون Falcon في عام ١٩٥٠ خطأ هذه النظرية فقد لاحظ هذان الجيولوجيان ان القسم الجنوبي من العراق لم تغمره مياه الخليج العربي في يوم من الايام وان رأس الخليج مازال على حالته منذ اكثر من ٥٠٠٠ سنة وان حد الساحل الذي افترضه الاثاريون بين سامراء وهيت لم يكن له وجود على الاطلاق وان المرتفعات الكائنة في منطقة بلد - سامراء التي حسبها الاثاريون جرف الساحل القديم للخليج ليست سوى بقايا احد مدرجات او ضفاف نهر دجلة في عصر الجليد * وبخلاف دي موركان وغيره من الذين اعتقدوا بتقديم اليابسة على حساب البحر بسبب تراكم الغرين الذي ينقله نهر الفرات ودجلة وكارون فقد بين هذان الجيولوجيان ان رأس الخليج شهد بعض حالات التقدم على حساب اليابسة كما شهد حالات اخرى تراجع عنها * واستدلا على ذلك من حساب كميات رواسب نهر دجلة والفرات ومن مظاهر العمران المطمورة تحت مياه الخليج او تحت مياه الاهوار او الظاهرة في الاقسام القريبة من سواحل الخليج الحالية مثل الادوات الفخارية والنحاسية التي وجدت بدار الخزنة

على بعد عشرة اميال جنوب مدينة شوشتر تحت طبقة غرينية ثخنها عشرة اقدم وتعود للالف الرابع قبل الميلاد واستدلا على ذلك ايضا من اتجاه تصريف المياه في بعض جزر الخليج مثل جزيرة بويان نحو الشمال بدلا من الجنوب . وقد ايدت هذه الاكتشافات رأيهما في ان السهل الرسوبي تعرض ولا يزال يتعرض الى الانخفاض التدريجي بسبب ثقل رواسب الغرين عليه . وقد خلاصا الى القول بان دجلة والفرات والكارون لا تقيم دلتا اعتيادية متقدمة بل تقذف بحمولتها من الرواسب في حوض تكتوني اثر خسف كبير في قشرة الارض وليس هناك دليل تاريخي مقبول على ان رأس الخليج كان ابعد من موقعه الحالي وان الادلة التي جمعت تشير على العكس من ذلك الى حركة من التقدم والتراجع لا يمكن تحديد تاريخ مضبوط لها .

اما النظرية الجيولوجية الاخرى فهي خلاصة جهود جيولوجية قامت بها بعثة المانية برئاسة نوتزل Nutzil من على ظهر سفينة ابحاث استغرق عملها ست سنوات . وتتلخص نظرية نوتزل في ان ذروة انخفاض درجة حرارة العصر الجليدي الاخير (فرم Wurm) انتهت ما بين ١٤٠٠٠-١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكانت كميات هائلة من مياه البحار والمحيطات قد تحولت قبل ذلك الى ثلوج تراكمت على خطوط العرض العليا في النصف الشمالي من الكرة الارضية فاصبحت مياه البحار دون مستوياتها الحالية بحوالي مئة وعشرة امتار . وبما ان الخليج العربي لا يزيد عمقه في الوقت الحاضر عن مئة متر فقد كان في ذلك الوقت منخفضا جافا . وفي نهاية هذا العصر ساد الدفء وذابت الثلوج فعادت المياه الى ماكانت عليه وبدأت مستوياتها في البحار بالارتفاع واخذ منخفض الخليج العربي يمتلئ الى ان وصل مستواه الحالي بحدود عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد . ولما ذابت الثلوج ارتفع مستوى ماء البحر وبدأت مياه الخليج تتقدم بمعدل ١٠٠ متر في السنة فتقدم خط الساحل بمقدار ٥٠٠ كيلومتر في مدة تراوحت بين ٤٠٠٠ -

٥٠٠٠ سنة وربما كان تقدمه قد وصل الى اور • ومن المحتمل ان يكون تقدم المياه قد حدث على شكل دفعات تفصل بينها موجات البرد التي اوقفت استمرار ذوبان الثلوج اي ان ارتفاع مستويات البحر في فترة الدفء لم يكن مستمرا بل متقطعا بفترات من التوقف • وقد كشفت البعثة الالمانية عن اثار ثلاث فترات توقف تكونت خلالها خطوط الساحل الحالية التي يمكن تمييزها الان جيولوجيا • وكانت هذه التوقيات على عمق ٦٣ و ٥٠ و ٣٠ مترا تحت مستوى مياه الخليج الحالية • ان هذه التوقيات والخطوط الساحلية توضح مراحل امتداد المياه في الخليج العربي وخطوط ساحل رأس الخليج ابتداء من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ولغاية الالف الخامس قبل الميلاد حيث اتخذ الخليج شكله الحالي • وتستعرض البعثة احتمالات امتداد المياه في جنوب العراق في ذروة عصر الدفء التي تقع ما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد اثر ارتفاع مياه البحر فوق مستواها الحالي بعد ازدياد ذوبان الثلوج • ولكن في حدود سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد بدأت المياه بالتراجع ولذلك يمكن الافتراض بان الخليج العربي تقدم الى شمال مدينة اور في الفترة ما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد •

هذا هو مجمل اراء الاثاريين والجيولوجيين بخصوص قضية ساحل الخليج العربي وعلاقته بالسهل الرسوبي في العراق وهي كما تبدو متضاربة وغير مستقرة وتتطلب المزيد من دراسات الباحثين من مختلف الاختصاصات • وعلى الرغم من ذلك فان هذه النظريات تتفق في مسألة واحدة وهي ان القسم الجنوبي من العراق قد تعرض لحالة من الغمر بالمياه في حدود الالف الخامس قبل الميلاد ولكنها تختلف في تحديد طبيعة هذا الغمر فلكل منها تفسير خاص له •

ومهما يكن من امر فان افتتاح العراق على الخليج العربي يسر سبل

الاتصال البحري باقطار الخليج وبالأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة والهند. ويظهر ان اقدم الصلات باقطار الخليج ترجع الى الالف الخامس قبل الميلاد . وتدل نتائج التحريات الاثرية التي تمت في السنوات القليلة الماضية في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما في الاجزاء الساحلية من الخليج على وجود اثار عراقية من عصر العبيد في عدة مواقع اثرية كما وجدت اثار عراقية من عصور لاحقة في واحة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين . وتشير النصوص التاريخية الكثيرة التي ترجع الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد الى اتصالات تجارية بين العراق من جهة وبين الاقطار المتاخمة للخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية . ومن اشهر الاقاليم التي ورد ذكرها في تلك النصوص اقليم مكان (عمان) و اقليم دلمون او تلمون (البحرين) و اقليم ميلوفا ويرجح ان يكون وادي السند ويرجح ايضا انه صار يطلق في العصور المتأخرة على بلاد الحبشة . وكشفت التنقيبات الاثرية في وادي السند عن حضارة ازدهرت في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد فيها جملة عناصر حضارية عراقية . وظل الخليج في العصور العربية الاسلامية طريقا حيويا يربط العراق بالعالم الخارجي اذ كان الاتصال يتم عن طريقه بالهند وباقطار الشرق الاقصى . ولكن بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح وفتح قناة السويس تغيرت الحالة قليلا .

النبات الطبيعي

تختلف النباتات الطبيعية من منطقة لاخرى تبعا لاختلاف التضاريس والاحوال المناخية . وقد شهد القطر هذا الاختلاف منذ ان استقرت الاحوال المناخية بعد ذوبان ثلوج عصر الجليد . ونجد اليوم هذا الاختلاف واضحا بين نباتات الصحاري القليلة ونباتات الالهوار الكثيفة وكذلك بين

غابات الجبال وحشائش السهول • وتزداد النباتات كثافة كلما انتقلنا من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق حسب ازدياد كميات الامطار والمياه في هذين الاتجاهين • وتتفق مناطق النبات الطبيعي مع المناطق المناخية عموما ولما كانت مناطق المناخ في العراق متعددة فقد ظهرت نباتات متعددة الانواع تبعا لذلك •

ان القسم الاعظم من نباتات العراق الطبيعية من النوع الذي يتحمل فقرة طويلة من الجفاف والحرارة العالية فالنباتات الصحراوية تنتشر في السهل الرسوبي والهضبة حيث تتفاوت الحرارة تفاوتا كبيرا بين الصيف والشتاء وبين الليل والنهار كما تتفاوت الامطار السنوية ما بين ٥ - ٢٠ سنتيمترا في السنة • وهذه الامطار على قلتها تتأثر بنسبة التبخر العالية فيقل تأثيرها • ولهذه الاسباب كيفت النباتات الصحراوية نفسها لتقاوم هذا الجفاف الذي يدوم حوالي ثمانية شهور بوسائل مختلفة منها الجذور الطويلة ومنها خزن المياه ومنها الاوراق التي تغطيها طبقة شمعية قليلة المسام تمنع التبخر وتحافظ على الرطوبة •

وتوجد بين النباتات الصحراوية نباتات حولية قصيرة الاجل تنمو في الموسم الملائم ثم تموت وتبقى بذورها في التربة فتنبو ثانية عند حلول موسم الازهار • ومن أهم النباتات الحولية الخباز والنصفة والحلبة والصمعة والجيرانيوم والبابونك البري والشنان والشويل والشريب والشعير البري • اما النباتات الدائمة فأهمها الاثل والغضا والقيصوم والعرذ والعرفج والشيخ والسدر والشوك والعجرش والسطيح والركيجة والكوكلة • وتنمو هذه النباتات وتتوزع حسب توزيع المياه السطحية والجوفية والامطار ونوع التربة • وهي على العموم تكون قليلة الكثافة ومبشرة ولكن في مواسم سقوط الامطار تكثر الاعشاب الحولية وتنشط النباتات الدائمة • وتؤثر التربة في توزيع ونوعية النباتات فالترية الرملية

التي تسود في البادية الجنوبية تعتبر اصلح من غيرها لنسب النباتات الصحراوية لسهولة تقاذ جذورها في الاعماق حيث توجد الرطوبة • و يبلغ عدد انواع النباتات الصحراوية ٤٥٠ نوعا من مجموع انواع نباتات العراق البالغ عددها ٢٥٠٠ نوع واكثر هذه النباتات حولية اذ تبلغ نسبتها ٧٥٪ اما المعمرة او الدائمة فتبلغ نسبتها ٢٥٪ •

وللنباتات الصحراوية فوائد عظيمة لسكان المناطق التي تنمو فيها فهي تفيدهم لا طعام حيواناتهم كما انها مصدر مفيد لما يحتاجون من الوقود • هذا بالاضافة الى انها تحافظ على التربة من الجرف ونقلل من العواصف الرملية •

وتكون الحشائش والنباتات البصلية والشوكية معظم نباتات المنطقة. شبه الجبلية التي لا يوجد حد فاصل واضح بينها وبين المنطقة الصحراوية في نقاط التماس والانتقال ويعتقد ان نباتاتها كانت في الماضي اكثر كثافة وتنوعا مما هي عليها الان • لان بعض اجزاء المنطقة التي تنمو فيها تعرضت عبر العصور للجرف الشديد • ومع ذلك تعتبر هذه المنطقة السهوية مهمة جدا لرعي الحيوانات لاحتوائها على حشائش ملائمة لغذائها • تنتشر في اقسام هذه المنطقة الجنوبية حيث يقل المطر نباتات تشبه نباتات المنطقة الصحراوية من حيث تكيفها للفصل الجاف كما توجد بعض النباتات الصحراوية مثل الشجيرات الشوكية الدائمة كالشيخ والقيصوم • اما الحشائش فاهمها الرويطة والسماعة والقباع والكسوب والنعيم والزباد والشوفان والشعير البري • ويصلح كلها لرعي الحيوانات • وتظهر في حقول الحنطة والشعير اعشاب ذات ازهار صفراء تسمى الحندوقة • اما في المناطق التي تزيد كمية المطر فيها على ٣٠ سنتيمترا فتوجد اشجار تعود الى منطقة الغابات تنمو على اعالي التلال والجبال بينما تنمو الحشائش على السفوح الواطئة لها.

كما توجد بعض نباتات السهوب بمنطقة الغابات في الاطراف الشمالية من هذه المنطقة .

اما منطقة الغابات فتوجد في اقصى شمال وشمال شرق العراق ضمن حدود المنطقة الجبلية العالية التي تتمتع بمناخ البحر المتوسط ويتراوح مطرها ما بين ٤٠ - ١٠٠ سنتيمترا في السنة وتكون تربتها جيدة الصرف لانحدار اراضيها ولذلك لا تتراكم عليها الاملاح . وتكون النباتات اكثر كثافة في السفوح الشمالية الشرقية . ولطبيعة الصخور اثر مهم في نمو الاشجار فالمسامية منها لا تحتفظ بالمياه وقد تكون جرداء . اما غير المسامية فتحتفظ بالمياه وتكون اكثر ملائمة لنمو الاشجار . وللبياه الجارية كالجداول والينابيع تأثير واضح في كثافة ونوزيع الاشجار . ان معظم غابات العراق هي من اشجار البلوط والقليل جدا منها من اشجار الصنوبر . وتتفاوت غابات البلوط في كثافتها من مكان لآخر فهي كثيفة في الاماكن البعيدة عن القرى والمدن وقليلة الكثافة قرب مراكز تجمع السكان بسبب قطعها من اجل الوقود والزراعة المتنقلة . وتنتشر بين هذه الغابات اشجار البطم (الحبة الخضراء) واشجار الزعرور والسماق والعرعر والكمثرى البرية واللوز البري . كما توجد مجموعة من الاعشاب والحشائش تستخدم للرعي في فصل الصيف . ويجفف بعض الحشائش للاستفادة منها علفا للحيوانات في فصل الشتاء . اما غابات الصنوبر فتوجد بالقرب من قرية زاوية وقرية اتروش وتوجد معها اشجار اخرى مثل العرعر والبلوط والبطم . وتنمو على ضفاف الانهار والوديان الجبلية اشجار الجنار والصفصاف والدردار والجوز والهور والغرب والدفلة والتوت البري والتين البري والتفاح البري . وتوجد في المنطقة حشائش وشجيرات . واهم الشجيرات نوع صغير شوكي قليل الارتفاع يسمى بالكثيراء تحوي سيقانها مادة صسغية لها فائدة اقتصادية . اما الحشائش فاهما النخل والجت البري

والغريون ويستفاد منها لرعي الحيوانات ولصنع العقاقير والادوية المحلية
بينما يستفاد من الاشجار لجني الثمار والوقود وقطع الاخشاب •

وعلى ضفاف الانهار في السهل الرسوبي تنمو اشجار وشجيرات
وحشائش لتوفر المياه بصورة دائمية اذ ينمو الصفصاف والكافور
(الكالبتوس) والغرب والزور والائل والعوسج والبريم وعرق السوس
والحلفاء والثيل والشوك والطحمة والعاقول وتستخدم الاشجار لقطع
الاخشاب والوقود ويستفاد من الشجيرات والحشائش للرعي والوقود •

وتتميز منطقة الاهوار بكثافة نباتاتها وتعدد انواعها • واهم نباتاتها
واوسعها انتشارا واكثرها فائدة هو القصب والبردي • ويوجد القصب
على شكل غابات صغيرة تؤلف جزرا في وسط الاهوار • ويصل ارتفاع
القصب الى ٢٤ قدما والبردي الى ثمانية اقدام • ويستعمل سكان منطقة
الاهوار القصب والبردي لبناء بيوتهم باشكال متنوعة كما يستعملونها
للوقود والاضاءة ويستخدمون سيقان القصب الغليظة لتسيير قواربهم في
الاهوار وتقدم السيقان الطرية الصغيرة الحجم علقا للجاموس • ويستخدم
القصب ايضا في صناعة الحصر وذلك بتكسير سيقانها وحياتها • وللحصر
فوائد كثيرة اذ تستعمل في بناء الاكواخ للفلاحين وفي بناء مخازن الحبوب
وفي فرش البيوت بدلا من السجاد كما يستعمل القصب للوقود في معامل
الطابوق المنتشرة في منطقة الاهوار وفي صناعة الورق • اما البردي فينمو
مع القصب في الاهوار الدائمة وبصورة منفردة في المستنقعات الفصلية
ويستعمله اهل الهور علقا للجاموس عندما لا يوجد القصب كما يستعملونه
في بناء اكوام عالية في وسط الهور يقيمون عليها بيوتهم • ويستعمل البردي
ايضا وقودا في معامل الطابوق وفي كبسه على شكل الواح تستعمل في
بناء المساكن ويأكل اهل الهور جذور البردي في بدء نموه ويجمعون من

رؤوسه المتفتحة خلال موسم الربيع مادة صفراء اللون تشبه الطحين يصنعون منه الحلوى بعد مزجها بالسكر وتعرف محليا بالخريط .

يظهر مما تقدم ان النبات الطبيعي في العراق قليل بصورة عامة ويغطي مساحات صغيرة من القطر تتوفر فيها الانهار والامطار . ومعظم هذه النباتات فصلي وينمو في مواسم ملائمة ثم يجف في المواسم الاخرى . وللنبات الطبيعي فوائد جمة في القطر العراقي فهو يحفظ التربة من الجرف وهو مورد مهم لرعي الحيوانات وللوقود وله فوائد اخرى كالثمار التي تنتجها الاشجار والعقاقير والادوية التي تستخرج من الحشائش كما تفيد في صد الرياح الحارة والباردة وتلطف من جو المدن وتقلل من ضرر العواصف الرملية .

الانهار

ارتبط نشوء حضارة العراق وازدهارها منذ البداية بوجود النهرين الكبيرين دجلة والفرات وروافدهما فعلى ضفاف الانهار تأسست القرى الزراعية الاولى في العراق وكانت الزراعة وما تزال اهم الحرف الاقتصادية لسكان هذا القطر . وقد مهدت الحياة الزراعية في مراحلها المبكرة السبيل الى قيام اقدم الحضارات البشرية في العالم . وكانت للانهار اهمية عظمى في الري والمواصلات وازدهار التجارة ونقل التأثيرات الحضارية . وقد اضعى العراقيون القدماء على الراقيدين طابع التقديس والتعظيم وعدوهم من جملة الالهة . ووصف النهران في بعض التراتيل الدينية بالنهرين الاخوين . وفي اساطير الخليقة ذكر ان دجلة والفرات ينبعان من عين تيامة وهي الالهة التي تمثل عنصر الماء المالح أي البحر .

وكان الرأي السائد بين الباحثين ان تسمية النهرين من اصل سومري ولكن تبين انها ليست سومرية ولا جزرية الاصل بل هي من تراث لغوي

تقوم مجهول لعله سبق السومريين في استيطان السهل الرسوبي • ولا يعلم عن اصحاب ذلك التراث اللغوي شيء كثير سوى ما تركوه من اسماء بعض المدن والمهن والحرف ومنها اسم دجلة والفرات • وقد ورد اسم دجلة في النصوص المسمارية السومرية بهيئة ادكنا Idigna • وفي النصوص الاكدية بهيئة ادكلات Idiglat بمعنى الجاري او الراوي • وجاء من الاسم الاخير الاسم العربي لنهر دجلة • اما الفرات فقد ورد اسمه في النصوص المسمارية بمجموعة من العلامات تلفظ بهيئة بوران Buranun ويرادف ذلك في اللغة الاكدية لفظ بوراتي Purati وبوراتوم Buratum ومنها الصيغة العربية فرات اي الرافد او الماء العذب •

ان جزء كبيرا من حوض دجلة والفرات وروافدهما باستثناء نهر العظيم يقع خارج العراق ويشمل رقعة جغرافية واسعة ما بين بلاد الشام وجبال طوروس وارارات وزاكروس • وقد قدر ان نحو ٨٤٪ من مجموع مساحة حوض النهرين يقع داخل القطر العراقي والباقي خارج حدوده • ومع ان القسم الاعظم من طول النهرين يقع داخل الاراضي العراقية الا ان قسما غير قليل يتوزع ما بين تركيا وسورية فيمر من طول الفرات البالغ ٢٣٣٠ كيلومترا ١٢٠٠ كيلومتر في الاراضي العراقية • اما دجلة فيقع من اصل طوله البالغ ١٧١٨ كيلومترا ١٤١٨ كيلومترا داخل الحدود العراقية والباقي في الاراضي التركية •

تقع منابع نهر دجلة في مرتفعات تركية الجنوبية الشرقية وتتألف من عدة روافد تلتقي مع بعضها لتكوين المجرى الرئيسي للنهر الذي يدخل الاراضي العراقية عند بلدة فيشخابور حيث يصب فيه اول روافده الخابور ويمر النهر بعد ذلك في مدينة الموصل ثم يلتقي به رافده الثاني الزاب الكبير ((زابو ايلو في المصادر المسمارية)) في جنوب اطلال نمرود (مدينة كالح

القديمة) • ويظهر ان نهر دجلة غير مجراه قليلا نحو الغرب في هذه المنطقة لان مدينة نمرود كانت تقع على النهر ولكنها تبعد عنه الان بمقدار خمسة كيلومترات • وقد وجد المنقبون في نمرود بقايا رصيف ميناء من الحجارة الضخمة • وفي جنوب مدينة اشور القديمة يلتقي النهر بالزاب الصغير (زابو شبالو في المصادر المسمارية) ثم يسير النهر باتجاه جنوبي ويقطع جبال حمرين عند الفتحة مقابل مدينة بيجي ثم يستمر في طريقه الى السهل الرسوبي فيمر في تكريت ثم في سامراء • وفي منتصف الطريق بين بلد بغداد يلتقي به رافد العظيم (ردانو في المصادر المسمارية) ثم يقترب نهر دجلة من نهر الفرات كثيرا عند مدينة بغداد حيث لا تتجاوز المسافة بين النهرين اكثر من ٣٤ كيلومترا ولكنه ينحرف بعد ذلك ما بين بغداد والكوت باتجاه جنوبي شرقي • وفي شمال مدينة المدائن يلتقي بنهر دياالى (ترنات في المصادر المسمارية) • ونظرا لارتفاع مستوى نهر دجلة بالنسبة الى مستوى نهر الفرات في منطقة الكوت - ناصرية فقد اقيم في الكوت مشروع ري هو شط الغراف حيث شيد سد كبير في سنة ١٩٣٧ • وفي هذه المنطقة غير نهر دجلة مجراه اذ تحول من مجراه الاصلي الذي يسير فيه بين الكوت والعمارة الى مجرى غربي هو نهر الدجيله الذي يرجح انه كان احد مشاريع الري التي شقت من دجلة في عصر فجر السلاسل في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد • ولعل اتمينا هو الذي فتح هذا الجدول • وظل النهر في هذا المجرى الغربي مارا بمدينة واسط الى القرن السادس عشر الميلادي حيث عاد الى مجراه السابق فاندثرت مدينة واسط • ويمر دجلة من بعد الكوت بمدينة شيخ سعد ثم بعلي الغربي وعلي الشرقي والكميت والعمارة وقلعة صالح والعزير ثم القرنة •

اما الفرات فينبع من السلاسل الجبلية في شرق الاناضول وتتجمع الجداول الصغيرة في كيان معدني لتكون المجرى الرئيسي للنهر • ويقطع

الفرات الحدود التركية السورية عند مدينة جرابلس (كركميش القديمة) وبعد جرابلس يلتقي برافده الساحور ثم يسير غربا وبعد ذلك شرقا في مسراه الجنوبي حتى يدخل سهول سورية ومنطقة الجزيرة ويتصل الفرات في هذه السهول بنهر البليخ والخابور • ويمر الفرات قبل دخوله الاراضي العراقية بجملة مدن من بينها دورايوروبس عند مدينة الصالحية الان ثم بمدينة البوكمال وبالقرب منها مدينة ماري (تل الحريري) • وبعد البوكمال بمسافة قليلة يدخل الفرات الاراضي العراقية عند قرية الحصية • وتوجد مابين الحصية ومدينة القائم اثار يحتمل ان تكون بقايا مدينة ذكرتها النصوص الاشورية بأسم خندالو • ثم يمر الفرات بعد ذلك في مدينة عانة على الضفة اليمنى ومدينة راوة على الضفة اليسرى وكانت منطقة عانة من المراكز المهمة للأموريين • وفي جنوب مدينة الحديثة يصب في الضفة الغربية من النهر وادي حوران قادما من بادية الشام • وبعد ان يجتاز النهر مدينة هيت يدخل السهل الرسوبي • والى الجنوب من هذه المدينة تكثُر المنخفضات المائية • ويظهر من التحريات الجيولوجية ان الفرات كان يتصل في عصور قبل التاريخ بمنخفض الحبانية وهور ابو دبس وبحر النجف وان هذه المنخفضات كانت متصلة ببعضها مكونة واديا تمتد من الشمال الى الجنوب ثم انفصلت عن بعضها بالشكل الذي نشاهده اليوم بسبب الحركات الارضية • ومن المحتمل ان هذه المنخفضات استعملت في العصور القديمة لخزن مياه الفيضان لموسم الصيف • وقد تم حديثا انشاء مشروع في شمال مدينة الرمادي لحجز مياه الفرات وتحويلها بواسطة جدول الورار الى بحيرة الحبانية وفتح المجرة لنقل المياه الفائضة من الحبانية الى منخفض ابو دبس • واستخدمت قناة الذبان القريبة من الفلوجة لاعادة المياه الى الفرات عند الحاجة ويقترب الفرات من دجلة جنوبي الفلوجة بقليل وتبلغ المسافة بين النهرين ٣٤ كيلومترا ويرتفع وادي الفرات في هذه المنطقة على وادي

دجلة بمقدار يتراوح بين ٧ - ١٠ امتار • واستغلت هذه الظاهرة لشق مشاريع الري من الفرات الى دجلة في العصور القديمة • وفتحت المشاريع الحديثة مثل جدول الصقلاوية وابو غريب واليوسفية واللطفية والاسكندرية والمسيب موازية للمشاريع القديمة مثل نهر عيسى ونهر صرصر ونهر ملكا ونهر كوئا ونهر الصراة •

وبعد ان يجتاز الفرات مدينة الفلوجة يمر ببلدة المسيب والى الجنوب من هذه المدينة بنحو ثمانية كيلومترات اقيم مشروع سدة الهندية في العهد العثماني عام ١٩١٣ لتنظيم توزيع المياه في جداول فرعية منها نهر الحلة والكفل والاسكندرية في الجانب الايسر من السد و جدول الحسينية و جدول بني حسن في الجانب الايمن ذلك لان الفرات من بعد اجتيازه المسيب بقليل يتفرع الى فرعين فرع شرقي هو نهر الحلة وفرع غربي هو نهر الهندية الذي شق في القرن التاسع عشر لآخذ الماء الى الكوفة والنجف ثم تحول فرع الحلة كله الى فروع الهندية ولهذا انشيء السد لتنظيم توزيع المياه على الفروع • ومن نهر الحلة يتفرع نهر الدغارة وتقع على هذا النهر جملة مدن مثل الديوانية والحزمة والرميثة كما ان فرع الهندية يتفرع بدوره بالقرب من مدينة الكفل الى فرعين فرع شرقي هو شط الشامية وفرع غربي هو شط الكوفة الذي يمر بمدينة الكوفة وابو صخير وغيرهما ويلتقى بفرع الشامية بالقرب من الشناقية • وتتوحد مجاري الفرات السفلى بالقرب من السماوة ثم يمر بعدها بعدة مدن وقرى مثل الخضر والدراجي والبطيحة والناصرية وسوق الشيوخ • ويدخل نهر الفرات بعد سوق الشيوخ في هور الحمّار ويجري في داخل الهور مسافة ١٠٠ كيلومتر ثم يخرج من الهور ويصب في نهر دجلة عند كرمة علي على بعد عشرة كيلومترات شمال البصرة وجنوب القرنة بنحو خمسين كيلومترا • وكان النهران يلتقيان عند مدينة القرنة قبل نحو مائة عام •

من مميزات انهار العراق انها تنقل مقادير هائلة من الغرين يترسب بعضها في قيعانها في كل عام فتسبب مشاكل كثيرة منها ارتفاع قاع النهرين دجلة والفرات عن مستوى السهل الرسوبي مما يزيد في خطر الفيضان وتدمير القرى والمدن ومنها تكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين وتقليل سعة جداول الري واهمال الجداول لصعوبة او تعذر كرها • ومن النتائج الخطيرة للرواسب تبديل الانهار لمجاريها في فترات زمنية مختلفة الامر الذي يدعو الى هجرة الناس للمدن والبحث عن مستوطنات جديدة تقام على ضفاف الانهار الجديدة • لقد ظهرت هذه الظاهرة في السهل الرسوبي • اما ضفاف النهرين في المنطقة الممتدة شمال هذا السهل فهي ضفاف صخرية ولذلك لم تتغير مجاري النهرين فيها الا قليلا • اما السهل الرسوبي فهو غريني ويجري فيه النهران بانحدار واطىء وبهيئة متعرجة وبفعل كثرة رواسب الغرين يرتفع مستوى قاعيهما فتفيض مياههما مكونة احوارا وبحيرات وتبدأ ظاهرة تبديل المجرى الاصلي • وبالنظر الى تعدد فروع دجلة والفرات في السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسية للاندثار نتيجة الترسبات الكثيرة فان المجرى الاصلي كثيرا ما انتقل الى احد فروعه الذي وسع مجراه فاصبح الفرع عمود النهر • وقد بدل نهر دجلة مجراه بين المجرى الرئيسي ومجرى الدجيلة ثم عاد الى مجراه القديم وبدل الفرات مجراه اكثر من مرة في ازمان مختلفة • ويمكن تتبع احد المجاري القديمة الرئيسية للفرات من مواقع المدن القديمة التي كانت فيما مضى تقع على ذلك المجرى فاصبحت الان في بادية جرداء الى الشرق من مجرى النهر الحالي مثل مدينة نمر والوركاء وايسن وغيرها • وبواسطة المسح الاثري للتلول المنتشرة في سهول العراق الرسوبية وتعيين ازمان ملتقطاتها السطحية امكن تحديد مجاري الانهار القديمة ولا سيما دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية فبالنسبة الى نهر الفرات امكن تتبع مجراه القديم من سبار (ابو حبة) الى نمر (نيبور) ودلبات (درهم)

وكسورا (تل الحطب) وشروباك (فارة) ثم الوركاء (اورك) • ومن الوركاء الى اور • واتبعت هذه الطريقة في عام ١٩٥٣ لمسح بلاد سومر الوسطى، ومسح بلاد اكّد في عام ١٩٥٦ ومسح منطقة دىالى في عام ١٩٥٧ •

والعراق قطر نهري فيه نهران كبيران ويتبعهما عدد من الروافد الكبيرة والصغيرة فهو من الاقطار القليلة في مضمار حيازته على ثروة مائية كبيرة بالنسبة الى مساحته الصغيرة • غير ان وجود هذه الثروة المائية لم يسبب نشوء الحضارة بل ان الجهود البشرية الشاقة لترويض البيئة النهرية واستغلالها للاستفادة منها هي التي كان لها الاثر الحاسم في الموضوع • ان مشاريع الري والسيطرة على الري كانت من اهم اسباب قيام اولى الحضارات بهذا القطر • لقد كان الري ضرورة ملحة وقصوى في المناطق التي يقل فيها سقوط المطر وتتضح هذه الحقيقة بشكل بارز في السهل الرسوبي ولذلك كانت لجهود طلائع المستوطنين فيه في الالف الخامس قبل الميلاد فضل كبير في تحويل بيئة طبيعية وحشية قاسية من الاهوار والبادية الجرداء الى بيئة درت الخير والبركات • ولقد ادرك العراقيون القدماء خصائص نظام النهرين الطبيعية مثل ارتفاع وادي الفرات بالنسبة الى وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداءً من منطقة الفلوجة - بغداد فاستغلوها وفتحوا كثيرا من الانهار من الفرات الى دجلة لري اراضي شاسعة ويمكن تتبع اثار شبكة انهار الري وقيعانها المدرسة بواسطة الاطلال القديمة لمدن وقرى كانت فيما مضى عامرة على ضفاف تلك الانهار •

وترد في النصوص القديمة اخبار كثيرة عن شق الجداول والانهار منذ نشوء نظام الحكم في العراق وبداية التدوين فيه • وخصصت شرائع حمورابي احكاما كثيرة لتنظيم شؤون الري والزراعة • وانجز القدماء مشاريع اخرى ملازمة لنظام الري مثل اقامة السدود وحفر الخزانات لخص المياه في موسم الفيضان والافادة منها مرة اخرى في اوقات قلة المياه • ويرجح انهم استفادوا

من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من ضفاف نهر الفرات الغربية لخزن المياه مثل منخفض الحبانية وهور ابو دبس .

وفيما يتعلق باستخدام الانهار في المواصلات نلاحظ ان الطبيعة انعمت على العراقيين طرقا مائية جيدة وقليلة التكاليف للنقل بواسطة النهرين الكبيرين دجلة والفرات وروافدهما وبواسطة جداول وقنوات الري المتعددة والمتشعبة منها . فقد استخدمت هذه الانهار في اغراض الملاحة ونقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين وفي الاغراض الحربية والصيد . ومما زاد في اهمية النهرين في المواصلات المائية انهما يمران بغالبية المدن الكبيرة والصغيرة ويندر ان تكون مدينة او قرية بعيدة عن مجرى النهر الرئيسي او عن مجرى احد فروعه او عن قناة رئيسية تتصل به وبذلك تكون على اتصال وثيق مع بقية المدن ومراكز الاستيطان .

ومما زاد من اعتماد قدماء العراقيين على النقل النهري عامة وفي السهل الرسوبي خاصة ان انتشار قنوات الري وسعة الاراضي المزروعة والفيضانات الموسمية جعلت المواصلات البرية اكثر كلفة واقل اهمية بينما كانت وسائل النقل النهرية تنتقل بيسر وسهولة ودون مخاطر من اعالي النهر وحتى مصبه في الخليج العربي بل والى مسافات ومناطق بعيدة في الخليج . ولهذا السبب طور العراقيون وسائل النقل النهرية في بلادهم منذ فترات مبكرة اذ صنعوا القارب الشراعي في مطلع الالف الرابع قبل الميلاد . وتشير المصادر المسماة الى انواع مختلفة من وسائل النقل النهرية والى تعدد حجومها وسبل سيرها ومواد صناعتها واساليب بنائها . وصنع العراقيون سفنا خاصة بنقل البضائع واخرى خاصة بالمسافرين وصنعوا قوارب خاصة بالصيد في الاهوار وفي عبور الانهار والملاحة الى مسافات غير بعيدة . وبالإضافة الى القوارب والسفن الشراعية صنعوا الاكلاك والعوامات والققف التي كانت تستخدم في النقل الى مسافات قريبة واستخدموا القرب المنفوخة لعبور الانهار والسفن

في الاغراض العسكرية ولا سيما اثناء الحروب في الاهوار • واستخدموا القوارب في الصيد وخاصة لصيد الخنازير الوحشية في الاهوار •

ساهمت وسائل النقل النهري في النقل التجاري بداخل القطر كما ساهمت في تعزيز العلاقات الخارجية مع اقطار الخليج العربي وسورية • وتعد الاكتشافات الحديثة للمستوطنات العبيدية على الساحل الغربي للخليج دليلا على قدم الاتصالات بين المنطقتين • وهذه الاثار العبيدية وبرزها اثار فخارية تنحصر بين موقع ابو خميس القريب من الحدود السعودية الكويتية شمالا الى شبه جزيرة قطر جنوبا وتنتشر ايضا في البحرين وفي مناطق تبعد عن الساحل بنحو سبعين كيلومترا • ومن المؤكد ان مدينة ماري (تل الحريري) كانت مركزا رئيسيا على الفرات في اقسامه الوسطى ويتردد اسمها كثيرا في النشاط التجاري مع بابل وايسن ويقترن اسم ماري بالقوارب مثل اسم دلمون ومكان •

وفي ختام هذا الفصل نود الاشارة الى ظاهرة العنف الذي تميزت به البيئة الطبيعية في العراق واحسن مثال على ذلك هو عدم انتظام فيضان النهرين وعنق هذا الفيضان وعدم ملاءمة اوقاته لمواسم الزراعة • واذا قارنا نظام الانهار في العراق بنظام نهر النيل في مصر لرأينا ان الاخير يتصف بانتظام فيضانه ولا يكون في الغالب مصحوبا بالعنف والتدمير كما هو الحال في نهري العراق دجلة والفرات ولا سيما دجلة ثم ان موسم الفيضان في العراق متاخر بالنسبة الى الزراعة الشتوية ولذلك لا يستفاد من مياهه كثيرا بل ان هذه المياه كثيرا ما سببت تدمير الغلات الزراعية في حين انها تشجع في موسم الزراعة الصيفية وهذا هو الذي دفع السكان الى بذل الجهود الجبارة للسيطرة على نهريين كبيرين كانا الى عهد قريب يسببان الخراب والدمار بالقرى الزراعية اثناء الفيضان ولعل هذا العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية في العراق هو الذي يفسر لنا العنف والصراع اللذين رافقا عملية الخلق

والتكوين المذكورة في اسطورة الخليفة البابلية بينما نلاحظ ان احداث الخلق في اساطير الخليفة المصرية تمت بهدوء بمجرد ارادة الالهة وفي مصر كان اول اله خالق ملكا في نفس الوقت والفرعون اله • اما الملكية في حضارة وادي الرافدين فقد نشأت بعد تنازع الالهة فيما بينها من اجل السيادة على الكون وتم اختيار احد الالهة الحديثة ليكون ملكا عليهم فعمد كبير الالهة يعدئذ الى خلق الانسان لعبادة الالهة وخدمتها وكان هذا الاله هو الذي يختار الملك لينوب عنه في حكم البشر • والصفة الغالبة لالهة حضارة وادي الرافدين هي القوة والبطش والتقلب فلا عجب ان تخلو اداب حضارة وادي النيل من اخبار الطوفان في حين يكون الطوفان موضوعا رئيسيا في حضارة وادي الرافدين • ومما يميز حضارة وادي النيل انها استقرت منذ زمن مبكر بينما ظلت حضارة وادي الرافدين متحركة كما ان الحضارة الاولى تميزت بطابع الشعور بالاطمئنان بينما كان الطابع العام لحضارة وادي الرافدين العنف والتشاؤم والتوتر وتوقع المفاجئات وتطفئ عليه الناحية العملية في الحياة • ويضاف الى كل ذلك ان التكوين الطبيعي للعراق جعله اقليما مفتوحا على الخارج بينما يعد وادي النيل مقفلا تقريبا امام الغزاة فتعرض وادي الرافدين الى هجرات الاقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافات •

المصادر والمراجع

- د. احمد سوسة : فيضانات بغداد في التاريخ . القسم الاول . بغداد ١٩٦٣
- د. احمد سوسة : الري والحضارة في وادي الرافدين . بغداد ١٩٦٨
- د. جاسم محمد خلف : جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والسياسية . بغداد ١٩٦٥ .
- د. خطاب العاني ونوري البرازي . جغرافية العراق . بغداد ١٩٧٩

- د. سامي سعيد الاحمد . العراق القديم . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٨
 طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٣
 فواد سفر : البيئة الطبيعية القديمة في العراق . مجلة سومر . المجلد-الثلاثون . ١٩٧٤
 كوردن هسند : اسس جغرافية العراق الطبيعية . ترجمة الدكتور جاسم محمد خلف . بغداد ١٩٤٨ .
 د. هاري ساكر . عظمة بابل . ترجمة الدكتور عامر سليمان ١٩٧٩

- Braidwood, R. and Braidwood, L., Jarmo, A Village of Early Farmers in Iraq, Antiquity, No. 24, 1950.
 Braidwood, R. et. al., Matarra, A Southern Variant of Hassuna Assemblage Excavated in 1948, JNES, Vol. XI, 1952.
 Braidwood, R., Near Eastern Prehistory, Reprint from Science, 1955, Vol. 127, No. 3312.
 Braidwood, R. and Hawe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan, Chicago, 1960.
 De Morghan, Memoires de la delagation en Perse I, 1900.
 Garrod, D., Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Mard, 1930.
 Jacobson, Th., "The Waters of Ur, Iraq, 1960.
 Lees, G., and Falcon, N., The Geographical History of the Mesopotamian Plains, Geographical Journal, Vol. 118, 1952.
 Nutzel, W., The Formation of the Arabian Gulf from 14000-3500 B.C., Sumer, Vol. XXXI, 1975.
 Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolithic Site in Northern Iraq. Smithsonian Institution, Annual Report, 1954, 1955.
 Solecki, R., New Anthropological Discoveries at Shanidar, Northern Iraq, Science, Vol. 23, No. 8, 1961.
 Solecki, R., Zawi Chemi Shanidar. A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq, Warsaw, 1961.
 Voute, C., A Palaeolithic Find Near Razzaza (Karbala Liwa), Sumer, Vol. XIII, 1957.

الفصل الثاني

دور التنقيبات الأثرية في الكشف عن حضارة العراق القديم

د. - بهنام أبو الصوف

المدير العام لآثار المنطقة الشمالية

(١)

علم الآثار بمفهومه الواسع هو دراسة ماضي الانسان ، ومخلفاته المادية والفكرية . ومهمة عالم الآثار ، او المنقب الاثاري الاساسية تنصب في البحث عن تلك المخلفات ودراستها دراسة تحليلية مستفيضة ومقارنة واستنباط حقائق ملموسة منها عن ذلك الانسان وبيئته وأنماط حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والفنية . اي بكلمة اخرى ان هذا النوع من المعرفة يبحث في قصة الانسان على سطح الارض كما تكشف عنها مخلفاته التي تركها وراءه . وان عملية التنقيب عن الآثار هي الحلقة المركزية في مضمار البحث الاثاري وبدونها لا يمكن لدارسي ماضي الانسان (اي المؤرخين) بكل أشكاله من تدوين التاريخ .

وعالم الآثار يسعى في عمله الى تحقيق امرين اساسيين :

اولهما : الكشف عن مخلفات الماضي بأفضل الاساليب العلمية واحداثها.
وثانيهما : دراسة وتحليل هذه المخلفات وتقديمها للمؤرخ مادة خام.
لكتابة التاريخ .

من هنا تأتي اهمية موضوع التنقيبات الاثارية وضرورته لسفر من
هذا النوع كالذي بين يدي القاريء الكريم .

ارتبط التنقيب عن الاثار في قطرنا ومنطقتنا العربية منذ بداياته الاولى
باطماع الدول الاوربية بثروات المنطقة وموقعها الحيوي ، كما ارتبط برغبة
تلك الدول لاغناء متاحفها ومجاميعها الفنية بنتاج حضارة العراق والوطن
العربي . لذا شكلت بدايته تلك ضرا جسيما اصاب ابرز مواطن الحضارة
في قطرنا وبقية الاقطار العربية . فقد ثقل الكثير من نتاجات حضارتنا ورموزها
الفنية خلال تلك الفترة الى امهات متاحف اوربا وامريكا والدولة العثمانية .
الا انه باستكمال استقلال العراق وامتلاكه لأمر نفسه انتقلت بالتدريج
الهيمنة على شؤونه الاثارية وعمليات التنقيب الى ايدي وطنية عملت بجهد
ومعاناة وصبر لتكوين مدرسة عراقية للآثار ذات مفاهيم وتقاليده ومنطلقات
وطنية وقومية نجد ثمارها اليوم حيث ملأ ابناء هذه المدرسة وتلاميذها من
العراقيين متاحف مدنا وجامعاتنا بآثار ومخلفات حضارة العراق على
مر العصور ، كما نجدهم يساهمون بنشاط في اغناء المكتبة الاثارية العربية
بالبحوث والدراسات الاصيلية .

لهذه الاسباب مجتمعة كان لابد لهذه الموسوعة ان تبدأ بعجالة قصيرة
تلقني الضوء على قصة البحث الاثاري والتنقيب في قطرنا منذ نشوئها في
اوائل القرن الماضي على ايدي عدد من التجار والمغامرين والدبلوماسيين
الاجانب، الى ان تسلمتها الايدي العراقية الوطنية قبل منتصف هذا القرن
بقليل .

(٢)

في اواخر القرن الثامن عشر واولائل القرن التاسع عشر ، كانت اطماع
وصراعات الدول الاستعمارية ، وبالأخص الدولتين العظميين آنذاك
انكلترا وفرنسا تتركز على الهند ومنطقة الشرق الادنى ومصر التابعة
للامبراطورية العثمانية ، تلك المنطقة الحساسة الغنية بمواردها وبموقعها
الاستراتيجي حيث يمر عبرها الطريق القصير المؤدي للقارة الهندية . فحاول
نابليون احتلال مصر الا ان اسطوله دمر من قبل نلسون في معركة النيل
سنة ١٧٩٨ . وبهذا فشلت الحملة الفرنسية عسكريا في مصر ، لكنها حققت
فرنسا من ناحية اخرى نجاحا اكثر ديمومة واكبر اثرا فقد رافقت حملة
نابليون الى مصر بعثة علمية تضم اختصاصات مختلفة ، كان من ابرز اعمالها
دراسة وتوثيق جغرافية وآثار مصر . وكان من بين اعضائها البارزين
شامليون الذي استطاع ان يقدم للعالم مفتاحا لحل رموز الكتابة
الهيروغليفية بواسطة حجر رشيد الذي عثر عليه قرب مدينة الاسكندرية
اثناء تشييد مبنى لشكنة عسكرية . وكانت هذه الحجرة تحمل نصا واحدا
باللغات الاغريقية والقبطية والمصرية القديمة .

وقد تمخض عن اعمال البعثة العلمية الفرنسية تلك تأسيس المعهد
المصري - الفرنسي وهو اول معهد بحوث اجنبي يقام على الارض العربية .
وبعد هذا سعت الدولتان ، انكلترا وفرنسا ، الى تحقيق مصالحهما الحيوية في
المنطقة باساليب وطرق سلمية بعيدة عن التصادم المسلح . فقامت بتعيين
ممثلين دبلوماسيين لهما في امهات مدن المنطقة العربية ، وكان اختيار هؤلاء
الممثلين يتم على اساس الثقافة العالية والاطلاع الواسع على حضارة الشرق
وعاداته ولغاته وتاريخه . كما كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تحتفظ
لنفسها بمقيم دائم لها في البصرة منذ سنة ١٧٩٨ ، وقد عينت اول مقيم لها

في بغداد سنة ١٨٠٧ . وكان هذا شابا يبلغ من العمر ٢١ سنة ويدعى كلوديوس جيمس ريج . كان ريج هذا يتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وقد بقى في منصبه في بغداد حتى وفاته بمرض الكوليرا عام ١٨٢١ . مارس ريج هوايته في دراسة تاريخ وآثار مدن العراق القديمة ، كما قام ببعض الحفريات في اشور وبابل التي اجري ببقاياها بعض الاتفاق عثر فيها على العديد من كسر الطابوق المدونة بالخط المسماري وبعض القطع الحجرية المزينة بزخارف وبقايا ضريح من الخشب . وكانت ابرز اعماله في بابل خارطته الطبوغرافية للمدينة التاريخية التي اصبحت مرجعا مهما لمن اعقبه في التعرف على البقايا الشاخصة للمدينة . وقبل وفاته بسنة واحدة زار ريج منطقة كردستان في شمالي العراق وبطريق عودته مر بالموصل واطلع على بقايا مدينة نينوى واستطاع الحصول على بعض قطع النحت من المرمر وعدد من الطابوق المدون بالخط المسماري . وبعد وفاته مباشرة أرسلت هذه الآثار واللقى الى المتحف البريطاني في لندن ، وكانت بهذا اول آثار اشورية تصل اوربا حتى ذلك الحين .

لم يكتف الانكليز بما كان يقدمه لهم ممثلوهم التجاريون والدبلوماسيون من معلومات عن البلاد واحوالها ، بل كانوا يرغبون في المزيد من التفاصيل الدقيقة عن جميع اجزائها ومجاريها المائية . فأمر الملك وليام الرابع بقيام بعثة مجهزة بافضل الوسائل لاجراء مسح شامل لمجرى نهري دجلة والفرات حتى مصبهما للتعرف على امكانية الملاحة فيهما للوصول الى الهند وكذلك لايجاد سوق عراقية للبضائع الانكليزية . وكانت البعثة بقيادة الكولونيل جسني ، حيث صارت تعرف ببعثة جسني . وقد استغرق عملها السنوات ١٨٣٥ - ١٨٣٧ ، وكان من بين اعضائها البارزين الطبيب الجراح اينسورث . وكان هذا آثاريا هاويا وخبيرا بالجيولوجيا فجمع معلومات واسعة عن طبوغرافية واثار المناطق التي مرت بها البعثة كما دون

الكثير من الملاحظات التي فسرنا في ضوء تضلعه بالتوراة واطلاعه الواسع على كتابات مؤرخي اليونان والرومان والعرب القدامى .

وكانت لكتابات ريج وبكنكهام واينسورث وغيرهم من الرحالة الاوربيين الاثر الكبير في تطلع العديد من الاوساط الاوربية وحماسها لاثار الشرق الادنى واقبالها على اقتنائها ورصد الاموال لمن يتقدم للحفر في مواطن الحضارة فيه . وقد زادت من هذا الحماس رغبة العديد من الجمعيات الدينية والشخصيات المعنية بتحقيق ما ورد بالتوراة من اقوال وحوادث واسماء ذكرت في اسفار العهد القديم . كما اهتم آخرون بالتحقق فيما ورد في كتابات المؤرخين القدامى من امثال هيرودتس وزينمون وبقية الرحالة اللاحقين .

(٣)

هذه كانت الخلفية التي ادت الى قيام المرحلة التالية من اعمال الحفر والتنقيب السريع وغير العلمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على ايدي عدد من القناصل والهواة الذين لم تكن لهم اية معرفة سابقة بطرق التنقيب واصوله ، والتي لم تكن هي الاخرى معروفة آنذاك .

وكان اول هؤلاء المنقبين الفرنسي إميل بوتان ، عمل بوتان عضوا في القنصلية الفرنسية في مصر بضع سنوات ثم عين سنة ١٨٤٢ نائبا للقنصل الفرنسي في الموصل . وقد كلفته الجمعية الاسيوية في باريس عند تعيينه للبحث عن بقايا اشورية في تل قوينجق في مدينة نينوى العاصمة الاشورية الشهيرة . غير انه لم يستطع تحقيق نتائج مشجعة في بادئ الامر بسبب كثرة التراكمات والانقاض التي تغطي بقايا القصور والمعابد التي تضم المنحوتات والقطع الفنية التي جاء يبحث عنها . فحول اهتمامه الى خرساباد العاصمة الاشورية الاخرى الكائنة الى الشرق من نينوى ، اثر سماعه انباء تفيد عن

ظهور منحوتات من المرمر فيها • وقد كان حظ بوتّا هنا افضل من حظه في
نينوى •• وقد كتب الى الجمعية الاسيوية في باريس في ٥ نيسان سنة ١٨٤٣
قائلا : (أعتقد بانني اول من اكتشف منحوتات يمكن اعتبارها من العصر
الذي ازدهرت فيه نينوى) • وبهذا ازداد دعم الجمعية الاسيوية لبوتّا
للاستمرار في عمله في خرساباد ونينوى ، كما زودته برسام قدير يدعى
فلاندين ليعاونه في توثيق ورسم مكتشفاته • وفي عام ١٨٤٦ وصلت فرنسا
اول وجبة من المنحوتات الاشورية محملة على ظهر باخرة حربية فرنسية
حيث استقرت في متحف اللوفر •

وأستمرت التنقيبات الفرنسية في نينوى وخرسباد للاعوام ١٨٥١ —
١٨٥٥ من قبل خليفة بوتّا في الموصل نائب القنصل فكتور بلاس ، الذي كان
مهندسا عماريا ايضا ، فساعده بذلك اختصاصه على اعداد مخطط كامل
لتفاصيل قصر سرجون الواسع في خرساباد بزقورته ومشتملاته الواسعة •
استطاع بوتّا وبلاس من نشر مكتشفاتهما بسرعة بفضل الدعم الحكومي
الذي تلقياه ، فكان مطبوعا فحما حوى الكثير من الرسوم والصور والشرح
وهو يعكس جهد المنقب والفنان والمهندس العماري سوية • وكان استقبال
هذا الكتاب منقطع النظير في فرنسا وخارجها • ولكثرة ما جاء فيه من
حوادث وشواهد واسماء اعتبره طلاب التاريخ والفلسفة واللاهوت واساتذتهم
مرجعا رئيسيا لاغنى عنه في التحقق من كثير من حوادث التوراة •

هكذا ربح اللوفر اجمل مقتنياته من نفائس النحت الاشوري كما ربح
المكتبة الاثارية الفرنسية اغنى مطبوعاتها ، وخسرت قصور ومعابد نينوى
وخرسباد ما كان يزين جدرانها الطينية من روائع الفن الانساني القديم ،
وتركت بقاياها انقاضا وحفرا لا تنبئ بشيء عن عظمة ماضيها ومقدرة ومهارة
مشييدها وفنانيتها ابناء العراق العظيم •

لم يرق للانكليز ترك الفرنسيين وحدهم يذهبون ما شاءوا من قصور
الاشوريين ومعابدهم في نينوى وخرساباد ، كما عز على المتحف البريطاني ان
ينفرد اللوفر وحده بامتلاك قطع النحت المدهشة التي شغلت العديد من
صالاته فكلف السير ستراتفورد كنيك السفير البريطاني في اسطنبول هنري
اوستن لايرد بالذهاب الى الموصل وزوده ببعض المال للقيام بحفريات في
المدن الاشورية بحثا عن المنحوتات والاعمال الفنية البارزة . كان لايرد في
شبابه يتطلع لدراسة القانون وقد بهرته قراءاته الاولى في كتاب الف ليلة
وليلة واطلاعه على كتب الرحالة الاوائل والمعاصرين له ، فألهبت حماسه
وشوقه الى الشرق . وعند فشله في ممارسة المحاماة قبل عرضا من عمه
للعمل في مزارع الشاي له في سيلان . . وبدأ رحلته مارا بتركيا والعراق .
وقد وصل الموصل سنة ١٨٤٠ وهو في سن الثالثة والعشرين وقابل احد
اعضاء بعثة جنسي (اينسورث) كما التقى بنائب القنصل البريطاني فيها
كريستين رسام ، وتعرف على أخيه هرمز رسام ، الذي صار مساعدا له فيما
بعد في أعمال حفرياته في نمرود ونينوى وعاونوه كثيراً في نهب ما تبقى من
منحوتاتها وارسالها بحرا الى انكلترا . ثم سافر لايرد الى بغداد وقام بالعديد
من الجولات في وسط وجنوبي العراق واختلط بالقبائل القاطنة في غربي
ايران . ثم قفل راجعا الى الموصل دون الذهاب الى سيلان ، والتقى فيها
بيوتا وتعرف على اعماله ونشاطاته الاثرية ، ومنها سافر الى اسطنبول
حيث اعجب به السفير كنيك لاطلاعه الواسع على شؤون البلاد التي زارها
واقفانه للغاتها فعينه سكرتيرا له قبل ارساله الى الموصل في تشرين الاول من
عام ١٨٤٥ للبدء في تنقيباته في العاصمة الاشورية نمرود . وفي نمرود حقق
لابرد نجاحا غير متوقع منذ الايام الاولى من بدء عمله فيها حيث بدأت تظهر
للعيان قطع النحت الكبيرة التي كانت تزين قصور ومعابد المدينة والتي لم
تكن تبعد كثيرا عن سطح الموقع في المرتفع الرئيسي من نمرود . وارسلت

بحرا الى انكلترا اولى المكتشفات من الثيران المجنحة والاشكال الآدمية والحيوانية الاخرى . وبدأ الحماس يتصاعد في لندن لاعمال لايرد ومكتشفاته وانهايت عليه الاموال للاستزادة من الحفر وارسال المزيد من قطع النحت الاشوري لم يكن لايرد يهتم مطلقا بمعاثر الاثار التي كشف عنها ولا بمخططات الابنية والمرافق التي هدمها وازالها بحثا عن المنحوتات التي تزين اوجه جدرانها ، متبعا في ذلك اسلوب حفر الاتفاق للوصول سريعا وبأقل التكاليف لغايته تلك . كما لم يلتفت ايضا للتراكمات الاثرية التي تقع أسفل المباني التي نهبت منحوتاتها في نمرود والمدن الاخرى التي وصلت يده اليها . وعند نشر اعماله عن نمرود في سنة ١٨٤٩ كان يعتقد بأنها جزء من مدينة نينوى ولذلك اطلق على كتابه (نينوى وبقاياها) Nineveh and its Remains

وفي طريق عودته الى انكلترا سنة ١٨٥١ مر لايرد بقلعة تلغفر ورسم بقاياها وشاهد من فوق اسوارها العالية عشرات التلول المتناثرة على امتداد السهل جنوبا وغربا قال عنها في حينه انها بقايا المدن الاشورية المنقرضة وكم كان يتمنى خرقها باتفاق وتخريبها للتأكد من احتوائها على منحوتات اشورية يأخذها بطريقه الى لندن .

ترك لايرد وراءه مساعده هرمر رسام ليكمل استخلاص ما تبقى من منحوتات في قوينجق ، التي ركز لايرد عمله فيه في السنتين الاخيرتين قبل مغادرته العراق . كما استمر رسام يعمل في نمرود وغيرها من مواقع شمالي ووسط العراق البارزة حتى عام ١٨٨٢ . وكان رسام يتبع في عمله اسلوب الحفر الشامل في عدد من المواقع في وقت واحد حيث يضع في كل موقع مجموعة من العمال لحسابه وتجمع له الاثار المكتشفة وهو يتنقل فيما بينها ، وقد يغيب عن بعضها اشهرا ثم يعود لالتقاط بعض الملاحظات وتسلم الاثار وارسالها للمتحف البريطاني . وعمل رسام هذا كان فاتحة لظاهرة الحفريات

غير المتروعة التي عمت البلاد آنئذ بتشجيع من وكلاء المتاحف الاوربية
وهواة جمع التحف في الخارج .

في عام ١٨٧٧ ظهر منافس اخر لمتاحف اوربا هو حمدي بك نجل احد
رؤساء الوزارات السابقين في تركيا الذي عين اول مدير للمتحف الامبراطوري
في اسطنبول . درس حمدي هذا الفنون الجميلة في باريس وعمل بعد تخرجه
لفترة قصيرة في السلك الدبلوماسي قبل ان يختار لتأسيس المتحف الامبراطوري
ويكون اول مدير له . وقد اختار لهذا الغرض بناية في حدائق قصر السلطان ،
ولكي يؤمن له سيلاً لا يتقطع من الاثار والنقى والقطع الفنية استخدم
نقوده الشخصي لاصدار اول نظام للآثار في أرجاء الامبراطورية أدى الى
وصول مجاميع من اللقى الى المتحف عن طريق القسمة مع البعثات الاجنبية
العاملة في الاقطار التابعة للامبراطورية وهكذا اصبح متحف الشرق في
اسطنبول واحدا من اغنى متاحف العالم بالآثار من العراق ومصر وغيرها من
الاقطار العربية .

(٤)

في سنة ١٨٩٨ تأسست في برلين الجمعية الالمانية الشرقية بأمر من القيصر
فيلهلم الثاني . وكان من اول اعمال هذه الجمعية ارسال بعثة اثرية للتنقيب
في مدينة بابل برئاسة المهندس العماري اوبرت كولدفای . وقد وضعت
البعثة لها منذ البداية اهدافاً محددة للعمل في بابل سمعت حثيثا الى تحقيقها ،
ومن هذه الاهداف :

- الفحص الدقيق لجميع البقايا البنائية في المدينة .
- التأكيد على التعاقب الطبقي للتراكمات الاثرية في الموقع لاستنباط الابعاد
الزمنية للدوار التاريخية التي مرت بها مدينة بابل .

— التوصل من كل هذا الى استنتاجات وتناج تلقي الضوء على البنية الاجتماعية في المدينة •

كان عمل البعثة دقيقا وشاملا ، في حقل التنقيب والتوثيق والتسجيل والرسم وبالرغم من عدم استطاعتها تحقيق احد اهدافها الرئيسية من العمل في بابل وذلك بالتنقيب في العمق لاستظهار طبقاتها السفلى من ازمان مختلفة خاصة مدينة حمورابي ، بسبب قرب مستوى طبقة المياه الجوفية من السطح وطغيانها على جميع البقايا الكائنة اسفل بقايا بابل من زمن العصر البابلي الحديث (الكلدی) خاصة من فترة حكم اشهر ملوكها نبوخذنصر • ومع هذا فإن بعثة كولدفاي تمكنت بعملها الدقيق والصبور والطويل المدى ان تتوصل الى طريقة مبتكرة في استظهار صفوف اللبن المشيدة بها جدران غالبية مباني المدينة التاريخية بتلك الطريقة التي اصبحت مقياسا يحتذى به للعمل الدقيق في مجال التنقيب في المواقع المشيدة ابنيتها من هذه المادة الطينية وبذلك استطاع العديد من بعثات التنقيب بعدئذ واتباع هذا الاسلوب في الحفر من التوصل الى اكتشاف مبان باكملها كانت من قبل تعتبر اكواما من النقض والطين •

كان من ابرز معاوني كولدفاي في بابل ثلاثة ، قادوا بأنفسهم بعدئذ عمليات تنقيب ناجحة في اشور والوركاء وهم : فالتر اندريه في اشور (١٩٠٣ — ١٩١٤) ويوردن ونولدكه في الوركاء (١٩١٢ ثم في ١٩٢٨ وما بعدها) •

وقد استطاع اندريه في اشور أن يفحص بقايا العاصمة الاشورية الاولى بصورة كاملة تقريبا • حيث انه بعد ان ازاح الاتربة والانقاض عن بقايا مبانيها الرئيسية في جزئها الشمالي المطل على دجلة ، قام باقتطاع خنادق متوازية على طول المدينة للتأكد من بقية محتوياتها • ثم اقتطع حفرة عميقة نزل بها عموديا لفحص اعماق طبقات الموقع حتى قاعه ، حيث اكتشف في القاع بقايا من زمن الحضارة السومرية استدلت منها على ان اشور كانت في اوائل

الالف الثالث قبل الميلاد تابعة سياسيا للجنوب * وبهذا يكون اندريه اول من مارس أسلوب فحص موقع التنقيب بالعمق بأسلوب الحفر العمودي ، في تاريخ التنقيب في العراق ، وتبعه بذلك منقبو نينوى والوركاء واور وكيش بعدئذ ثم من جاء بعدهم من منقبي الاربعينيات والخمسينيات حتى الآن . كما يجب ان يعزى لاندريه ايضا فضله في تدريب الفلاحين من قرى الضفة الشرقية لدجلة المواجهة لاشور على اعمال الحفر الدقيقة واستظهار الطبقات المتعاقبة لسكنى الموقع والتعرف على مواد البناء القديم من اللبن والطين ، حيث اخذ هؤلاء العمال الاوائل في حقل الاثار في العراق يعملون بعد هذا في جميع مواقع التنقيب في قطرنا كما انتقلت خبرتهم هذه الى ابنائهم واحفادهم وصاروا يعرفون بالعمال الشرقاطيين * بالرغم من كل التقنيات والتحسينات التي ادخلها المنقبون الالمان في عملهم في العراق والتي ادت الى العناية بمواقع المدن وعمارتها القديمة بحيث اصبح اسلوبهم مثلاً يحتذى به في اعمال التنقيب التالية ، غير انهم عملوا كبقية المنقبين الاجانب السابقين او المعاصرين لهم على نقل ماكشفوا عنه من اثار فنية بارزة في بابل واشور الى برلين بعد اجراء القسمة مع المتحف الامبراطوري في الاستانة * وهكذا خرجت من العراق اثار حفرياتهم مئات الصناديق المملوءة بما كان يزين بوابة عشتار وشارع الموكب في بابل وقصر الاواوين في آشور من طابوق ملون ومزجج باشكال فنية رائعة مع عشرات الالاف من اللقى الاخرى ورقم الطين المدونة بالخط المسماري .

(٥)

كان اول المنقبين الذين استأنفوا الحفر في مواقع العراق القديمة بعد انتهاء سنوات الحرب العالمية الاولى الاربع من الانكليز الذين خدموا ضمن الوحدات العسكرية ضباطا سياسيين او ضباطا للاستخبارات * ومن هؤلاء كامبل تومبسن وليونارد وولي وهما من الذين عملوا ايضا في اجهزة المكتب

العربي في القاهرة في سنوات الحرب • بدأ كامبل بومبسن تنقياته سنة ١٩١٨ في أور وأريدو على شكل اسبار سريعة لحساب المتحف البريطاني ولفترة قصيرة فقط • اعقبه هول سنة ١٩١٩ موفدا من نفس المتحف ايضا • استطاع هول بعد عمل قصير في أور ان يحقق نجاحا أكبر في تل العبيد ، حيث كشف فيه عن بقايا معبد سومري تزين واجهته مشاهد لانتاج الالبان مزدانة بالالوان •

وحين استقر رأي المتحف البريطاني للبدء بعمل واسع في أور وقع الاختيار على ليونارد وولي للبدء في ذلك سنة ١٩٣٢ مشتركا مع جامعة بنسلفانيا الامريكية • وقد دام عمل هذه البعثة المشتركة حتى سنة ١٩٣٤ ، حقق وولي خلالها الكثير من النجاحات في حقل الكشف الاثري والنشر العلمي • فقد أثارت مكتشفاته في المقبرة الملكية ومقتنياتها من انواع الحلي والاسلحة من الذهب والاحجار الكريمة ضجة كبيرة في الاوساط الفنية والمتحفية • كما اثار اعلانه عن اكتشافه لبقايا اثار الطوفان والحلي الذي سكن احد دوره ابراهيم الخليل عليه السلام جدلا كبيرا في الصحف الاوربية والامريكية ، والاوساط الدينية والمعنية بتاريخ العهد القديم والتوراة دام زمنا طويلا •

وكان العمل في مدينة جلعامش ، الوركاء قد بدأ من قبل المنقبين الالمان سنة ١٩١٢ وتوقف بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى • وقد استأنفت بعثة الجمعية الالمانية الشرقية تنقياتها في المدينة السومرية مجددا سنة ١٩٣٨ • وقد مارس منقبو الوركاء الاسلوب العلمي الدقيق والصبور في البحث عن تفاصيل ومرافق مباني الموقع بادوارها المتعاقبة والمتداخلة في كثير من الاحيان • وقد حققوا نتيجة لذلك نجاحات بارزة في حقل العسارة الاثرية اكسبت عنهم شهرة واسعة ، كما توصلوا الى نتائج هامة أدت الى التعرف على الكثير من المظاهر البنائية القديمة في قطاعي المدينة الدينين اي - انا وأنو •

بعد عمله القصير في اور واريدو تحول كامبل تومبسن في سنة ١٩٢٧ للعمل في بقايا تل قوينجق في نينوى ، والتحق به في سنة ١٩٣١ ماكس ملوان الذي كان احد معاوني وولي في اور . كان الغرض من استئناف العمل في قوينجق الكشف عن المزيد من التفاصيل في بقايا المباني الاشورية التي اغفلها كل من لايرد وبوتا في حفرياتهم السريعة الاولى بحثا عن المنحوتات . كما قام ملوان باجراء حفر عمودي نزل الى عمق ٣٧ م حيث وصل قاع الموقع عند الارض البكر اسفل مستوى السهل المجاور لنهر الخوصر . كشف ملوان في حفرة الجس العميقة تلك عن بقايا لاثار وفخار من مراحل حسونة وسامراء وحلف في الطبقات ١ - ٢ السفلى ، تعقبها في الطبقتين الثالثة والرابعة بقايا من عصر الوركاء . وقد حوت الطبقة الخامسة بقايا لمرحلة جديدة تعاصر في قسم منها بعض مراحل عصر فجر السلالات السومرية ، تميزت بفخارياتها الملونة والمحززة وقد عرفت في كل مكان وجدت فيه بعد ذلك بفخاريات نينوى الطبقة الخامسة .

في سنة ١٩٣٢ انتقل ملوان للعمل في الاربعية وهو موقع صغير يبعد قليلا الى الشرق من نينوى تغطي سطحه وسفوحه كسرات من فخاريات حلف الملونة . واراد ملوان من حفره في هذا الموقع التحقق من عائدة انواع فخاريات حلف الملونة وتسلسل تواجدها الزمني في طبقات متعاقبة نتيجة لتنقيبات علمية دقيقة بموقع جديد بعد ان ظهرت انواع منها ممزوجة مع فخاريات سامراء في أسفل حفرة الجس في قوينجق وقبلها اكتشفت من قبل البارون ماكس فون او بنهايم بشكل عرضي في تل حلف (كوزانا) على الفرات في شمال سوريا .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه العمل يجري في نينوى والاربعية ، كانت بعثة امريكية تابعة لجامعة بنسلفانيا يترأسها سبايزر تعمل في موقع تبة كورة الكائنة في قرية الفاضلية قرب مدينة خرسباد الاشورية حيث كشفت

بحفرها الافقي والعمودي عن مساحات واسعة من الموقع تضم دورا سكنية ومعايد بارزة من عصر الوركاء . كما استطاعت بحفرها العمودي من استظهار عشرين طبقة سكنية تضم بقايا مراحل حلف والعبيد في اسفلها (الطبقات ٢٠ - ١٢) تتبعها مرحلتا الوركاء ونيوى الطبقة الخامسة في الطبقات (١١-٧) ثم تأتي فوقها البقايا من الفترات التاريخية اللاحقة .

وساهمت في التنقيب الواسع في فترة ما بين الحربين ايضا بعثة متكاملة من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو عملت لبضع سنوات في منطقة دياى الى الشرق من بغداد قليلا في مواقع خفاجي واشجالي وتل اسمر وكان من ابرز اعضائها جاكبسن وفرانكفورت وسيتون لويد .

وفي احد العواصم السومرية الشهيرة في منطقة الغراف عملت بعثة فرنسية لعدد من السنين في مدينة تلو ترأس العمل فيها في مواسمها الاخيرة الاثاري الفرنسي المعروف اندريه بارو .

وفي كيش وجمدة نصر الى الشرق من بابل كانت تعمل في هذه الاثناء بعثة مشتركة من جامعة اكسفورد وهارفارد برئاسة ستيفن لانكدن . وساهم في اعمالهم لعدة مواسم عالم الاجناس البشرية الامريكي هنري فيلد والمنقبان مكاي وواتلن .

وعملت قرب كركوك ايضا بعثة جامعة هارفارد في يورغان تبه (نوزي) برئاسة ستار .

وكان هناك عدد آخر قليل من البعثات عملت لفترات قصيرة في بعض مواقع القطر في مرحلة ما بين الحربين ايضا الا انها لم تتوصل الى نتائج كبيرة وبارزة .

بقيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ توقفت اعمال البعثات الاثرية الاجنبية في العراق وعاد بعضها بعد انتهاء الحرب لاستئناف العمل في المواقع التقليدية السابقة كالوركاء ونقر ونمرود . كما قدمت بعثات جديدة

للبدء في تنقيبات اثرية في مواقع لم ينقب فيها سابقا . فبدأت جامعة طوكيو العمل في تلول الثلاثات قرب تلغفر برئاسة الاستاذ ناميو ايكامي . وارسله المعهد السمثوني في واشنطن رالف سوليكي للبحث في كهف شانيدر عن بقايا انسان العصور الحجرية . وجاء روبرت بريد وود على راس فريق من الاثاريين والمتخصصين بالجيولوجيا والبيئة والنبات والحيوان القديم للبحث في اماكن مختارة من شمالي العراق للتوصل الى البقعة النواة التي بدأت فيها الزراعة الاولى وتدجين الحيوان .

(٦)

الا ان ابرز نشاطات سني الحرب العالمية الثانية في حقل الاثار والتنقيب قامت بها دائرة الاثار العراقية . وقد كان للمرحوم ساطع الحصري مدير عام الاثار لفترة ما قبل الحرب وابانها دور بارز يجب ان يذكر باعتزاز في تطور العمل الاثاري الوطني حيث قام بمن معه من عدد محدود من موظفين عراقيين آنذاك بافتتاح اعمال التنقيب في واسط وسامراء كما بدأ حملة تأليف ونشر واسعة للتعريف بابرز المواقع والمباني العربية والاسلامية في بغداد وسامراء والاخضر . كما عمل على ارسال البعثات العلمية للتخصص بالاثار واللغات القديمة رغبة منه بتكوين جيل وطني متخصص بهذا الحقل من المعرفة التي كانت مقتصرة على الاجانب فقط . فحصل العراق نتيجة لذلك على ابرز عالمين في حقل تاريخ الحضارات القديمة والتنقيب هما المرحومان الاستاذان طه باقر وفؤاد سفر اللذان قادا بنجاح بعد عودتهما من الدراسة وخلال سني الحرب العالمية الثانية وما بعدها التنقيب في واسط وعقرقوف والدير وحرمل والعقير وحسونة وايردو والحضر ، كما عملا على نشر نتائج اعمالهما هذه في الداخل والخارج وبذلك وضعوا الاسس العلمية الرصينة لما يمكننا ان نطلق عليه بحق ، المدرسة العراقية للآثار . كما بذلا جهدا استثنائيا لتأسيس اول معهد.

ندراسة الاثار والحضارات القديمة في القطر سنة ١٩٥١ بالتعاون مع زملائهما في حقل التعليم العالي آنذاك وكان تلاميذهما الذين نخرجوا على ايديهما في هذا المعهد النواه التي انطلقت منها تشكيلات مؤسسة الاثار العراقية التي اصبحت مهامها ومسؤولياتها في حقول التنقيب والصيانة الاثرية والتراثية تغطي القطر بأكمله وفد عظمت واجباتها ومسؤولياتها بتصاعد حركة التنمية القومية في القطر في السنوات الاخيرة ، وبات لزاما عليها مواكبة هذه الحركة والقيام بعمليات تنقيب وحفاظ واسعة وشاملة في مواقع المشاريع واحواض السدود الكبرى حمرين والقادسية وصادام .

المراجع والمصادر

1. C. Gadd : 1936
The Stone of Assyria.
2. S. Liold : 1947
Foundation in the Dust
3. S. Liold : 1963
Mounds of the Ancient Near East
4. Leonard Woolley . 1952
Digging up the Past
5. Leonard Woolley : 1953
Spade Work
6. S.A. Pallis : 1956
The Antiquity of Iraq.
7. Linda Braidwood :1953
Digging beyond the Tigres
8. C.W. Ceram (ed.) : 1966
The World of Archaeology.
9. David and Joan Oates : 1976
The Rise of Civilization
10. Nicholas Postgate : 1977
The First Empires

١١- د. تقي الدباغ ، د. وليد الجادر ، احمد مالك الفتان . طرق التنقيبات الاثرية . مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ .

الفصل الثالث

انسان الكهوف والآلات الحجرية

البحر الأول

إنسان الكهوف

عبد القادر حسن علي

المجلد الثاني من سلسلة دراسات في التاريخ القديم
المجلد الثاني من سلسلة دراسات في التاريخ القديم
المجلد الثاني من سلسلة دراسات في التاريخ القديم

ان ظهور مخلفات انسان العصر الحجري الحديث في العالم القديم سواء
أكان في اوربا أم في غيرها (عدا الشرق الادنى) كنمط حياتي متكامل للتطور كان
واضحا ويشكل حدا فاصلا عن الفترات التي سبقتها كفترة العصر الحجري
المتوسط ، وبذلك اصبح خطأ مميزا واعطى قدرا كافيا من الدقة للباحثين عن
فترتي العصر الحجري المتوسط والعصر الحجري الحديث آنذاك .

اما في الشرق الاوسط وخاصة في العراق - وهذا مايعنينا بالذات في بحثنا
هذا - فانه قد جرى تحول في حياة الانسان الاقتصادية التي تعتمد على الصيد
وجمع الغذاء وان هذا التطور في منطقة الشرق الاوسط مازال غير واضح
بسبب ندرة ماثر عليه المنتقبون من مخلفات ذلك الانسان في هذه المنطقة ،

ورغم الغموض الذي اكتنف تلك المرحلة المهمة من حياة الانسان فقد ظلت مثيرة لاهتمام جميع الباحثين في هذا المضمار .

لقد اعتمد الانسان في العصور الحجرية القديمة في معيشته على مصادر طبيعية لا يمكن السيطرة عليها ، وفي ظل الظروف الطبيعية القاسية تمكن ذلك الانسان من العيش حيث كان في نزاع دائم مع الطبيعة في تلك البيئة البدائية .

ورغم المتاعب الكبيرة التي كانت تجابهه في البحث عن قوته فقد تم له احراز تطور تكنولوجي على قدر كبير من الاهمية ومع أن هذا التطور كان بطيئاً للغاية في العصر الحجري القديم ولكنه بالغ الاهمية ، اذ انتقل الانسان خلاله من استعمال ما يحتاجه في حياته من آلات وادوات طبيعية بسيطة الى صناعة تلك الادوات والآلات التي كان جلبها من الحجر والصوان وبعض العظام ، فاصبحت آلاته تصنع لاهداف متعددة وبطرق مختلفة وهذا يعتبر بحق تطوراً في عقلية ذلك الانسان والتي تقاس بما يستعمله ويصنعه من آلات وادوات ، وان هذا التطور قد اصبحت واضحاً في الجزء الاخير من العصر الحجري القديم ، اذ نجد هناك دلائل تشير الى تطور حضاري ملحوظ ، حيث ازداد الاتجاه نحو تخصص اقليمي وان هذا التأقلم اتخذ في نهاية العصر الحجري مظهراً خاصاً حتى في منطقتين متقاربتين مثل فلسطين والعراق اذ اصبحت من الممكن تمييز صناعات العصر الحجري الحديث المنطلقة عن اصول مختلفة لفترة الجزء الاخير من العصر الحجري القديم وهي وان مرت عبر مراحل تطورية متشابهة في كلتا المنطقتين لكننا نجدها قد اتصفت في النهاية بتباين واضح .

ان من العناصر الاساسية في الدراسات الآثارية تتبع التغيرات والتطورات عبر تسلسلها الحضاري الصحيح وذلك يعتمد على نوع المواقع الآثارية المتوفرة للدراسة ، ففي صحارى الاردن وسوريا مثلاً هناك العديد

من المواقع الصغيرة المكشوفة التي كانت قد سكنت من قبل الانسان لفترة قصيرة وهي غالبا ماتكون غنية وذات تأريخ يتسع ليشمل العصر الحجري بكامله ، فلولا التسلسل الزمني الذي قدمته لنا الكهوف لكان من المتعذر تحديد الصلة الرابطة بينها ، ولهذا السبب نجد المرتفعات الساحلية في فلسطين وسوريا وسلسلة جبال زاغروس المحاذية للعراق وسواحل بحر قزوين ذات كهوف واضحة المعالم وكثيرة الاستيطان وقدمت لنا تسلسلا زمنيا كاملا ، ورغم ان التواصل الزمني الذي قدمته لنا الكهوف في الشرق الادنى على جانب رائع من التكامل حيث أمكن ملاحظة النمو الحضاري كاملا بدءاً من فترة الجزء الاخير من العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط فأن معرفتنا بالاستمرارية بين هاتين الفترتين من جهة وبين تجمعات العصر الحجري الحديث من جهة اخرى مازالت بعيدة عن الدقة ، وسبب ذلك يعود الى التغير في اسلوب السكن ، فقد خرج اوائل مدجني الحيوانات ومتهني الزراعة من الكهوف في نهاية فترة مابعد العصر الحجري القديم ليستقروا على مقربة من المياه الدائمة ، ففي حالة اريحا في فلسطين (Jericho) استوطنوا بالقرب من ينبوع مياه ، وفي جرمو في العراق على ضفتي نهر صغير ، ورغم وجود حالات تتمثل بدلائل مادية تعود الى بداية العصر الحجري الحديث وجدت في كهوف مثل كهف كباره والخيام (في فلسطين) فهي غالبا ماتكون مضطربة ومختلطة بدلائل مادية تعود الى مراحل متأخرة فلا تغدو لها قيمة دلائلية كبيرة ومع ذلك فمن الممكن عن طريق الدراسة التفصيلية لمخلفات الانسان الذي عاش في تلك الكهوف تبيان الانتقال من فترة نهاية العصر الحجري القديم الى المرحلة الاستيطانية في العصر الحجري الحديث في العراق •

اثر البيئة

ويجدر بنا ان نشير هنا الى دور تأثير البيئة التي كانت سائدة في ذلك-

العصر والى مدى التفاعل الحاصل بين المجتمعات وبيئاتها وسيطرتها على ظواهرها الطبيعية قدر الامكان سواء آكان ذلك في الشرق الادنى بشكل عام أم في العراق بشكل خاص ، حيث ان العصور الجليدية وماتخللها من فترات الدفء في عصر (البلايستوسين) وفتراته ، هو العصر الجليدي الذي يهم دراستنا في فترة ما قبل التاريخ حيث تأتي عهوده وفتراته مصاحبة لتحديدات الزمنية المعروفة بالعصور الحجرية وادوارها ، او مع المراحل الزمنية التي اعتمداها .

يبدأ عصر (البلايستون) قبل ٣ - ٢ مليون عام وينتهي في حدود ١٠٠٠٠ ق م وهو عصر جيولوجي تغيّر فيه المناخ تغيرا كبيرا وهناك بعض المناطق من العالم كانت مغطاة بطبقات جليدية منها المرتفعات الاسكندنافية وجبال البرينس وجبال الاورال ومرتفعات من سيبيريا ومعظم اواسط شمال اوربا وكذلك كندا والولايات المتحدة الامريكية ، بينما هناك مناطق اخرى من العالم محيطة بالخط الجليدي وهي شمال افريقيا والشرق الادنى وجنوب آسيا واجزاء من الولايات المتحدة الامريكية كانت تمتاز بعصر مطير ، ان تلك العوامل المناخية اثرت في توزيع المناطق النباتية والحيوانية والبشرية ، وفي منطقة الشرق الادنى نلاحظ انها تعكس التغيرات الجوية الطبيعية التي طرأت على العالم في العصر الجليدي ، ونجد الاثار المناخية وادلتها متمثلة في مدرجات البحيرات وضفاف الانهار والوديان وفي اعالي الجبال . وفي الكهوف نجد طبقات من الطين الاحمر اللون والرمادي تشير الى عصور طغت فيها الرطوبة بشدة . وتدل الدراسات الجيولوجية على ان المظاهر الطبيعية الجغرافية بما فيها البحار كانت على ماكانت عليه قبل العصر الجليدي ولكننا نفتقر الى دراسات متصلة عن البيئة الطبيعية لمنطقة الشرق الادنى في العصر الجليدي ماعدا تلك الدراسات المناخية والبيئة التي شملت نهاية العصر الجليدي وفترة الانتقال الى العصر الحجري الحديث، وقد تناولت

عوم ضبفات الارض والحيوان والنبات ، وصاحبت هذه الابحاث دراسات
آثارية قامت بها فرقة الاستاذ (بريدوود) للعراق خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٥٤ .

كان الاعتقاد السائد لدى فريق من البيولوجيين بان منطقة الشرق الادنى
شهدت تغيرا مناخيا كبيرا في الفترة بين نهاية العصر الجليدي الرابع وبداية
الفترة الانتقالية (اي في نهاية مرحلة جمع الغذاء وبداية الفترة الانتقالية لانتاج
القوت) ، ولكن هذا الاعتقاد قد تبدد اثر النتائج التي قدمتها حملة
(بريدوود) حيث توصلت الى ان المناخ لم يتغير بشكل كبير جدا منذ ١٥٠٠٠ عام
قبل الميلاد وللآن وانما كان هناك تغيير اي من مناخ رطب دافئ الى
مناخ جاف حار خلال الفترة المذكورة آنفا .

وبقدر مايتعلق الامر بوادي الرافدين فقد اسهمت الخصائص المميزة
للبيئات الطبيعية لوادي الرافدين في عمليات التطور والخلق الحضاري ، اذ
ان لكل بيئة خصائص مؤثرة في نوعية التراث الثقافي الذي نشأ في ظلها ،
فالبيئة الجغرافية ذات العطاء الوفير تسهم في تسهيل انشطة المجتمع الاقتصادية
والاجتماعية خلال كفيفه لها .

وعندها يصعد مجتمع من تفاعله مع بيئته وان كانت اقل عطاء من غيرها،
انه يصبح بإمكان المجتمع التحكم فيها اكثر ، وجعل هذه البيئة خاضعة
لسيطرته وعندما تصبح تلك البيئة مجالا لعمليات التغير الاجتماعي مثل
غيرها وهذا مايمكن الوقوف عليه من خلال عرضنا للبيئة الطبيعية
لمنطقة الكهوف حيث طبيعتها وخصائصها .

اثر البيئة الطبيعية للكهوف

تشمل المنطقة الجبلية الاطراف الشمالية والشمالية الشرقية من القطر
ويتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠٠ - ٧٠٠٠ قدما وتزداد ارتفاعاتها كلما اقتربنا من

الحدود الشمالية والشرقية ويتخلل هذه المنطقة العديد من الهضاب والسهول. وتمتاز بكثرة ينابيع المياه فيها ، فقد حدد جيولوجيو بعثة (بريد وود) تأثيرات واضحة لتغيير المناخ في هذه المنطقة خلال الترسبات الجليدية للزحف الجليدي الرابع (فيرم) وذلك عند اسفل الوديان الرئيسية لجبال زاجروس ، وقد حددت ثغرات او عدم استيطان في مواقع من الشرق الادنى تشير الى امتداد الحد الاقصى للزحف الجليدي الرابع ، ففي كهف شانيدر مثلاً حددت ثغرتان تقعان ضمن اعلى ماوصل اليه الزحف الجليدي وقد رافقها اقصى انخفاض لدرجة الحرارة وهذه التغيرات المناخية قد اثرت على النباتات والحيوانات ودفعت انسان العصر الحجري القديم في هذه المنطقة للبحث عن مستوطنات . وان الدراسات الجيولوجية والطبيعية والآثارية قد حددت الظواهر المناخية في هذه المنطقة وامكانية تكييف المجتمعات للبيئات الطبيعية، حيث تشير الدراسات الى ان المناخ لم يتغير بشكل كبير منذ (١٠٠٠٠ ق م) . ولكن كما اسلفنا سابقا اذ ان المنطقة تمتاز بمطارها الغزيرة التي تصل الى معدل ٤٠ بوصة في فصل الشتاء والخريف ، وهذه البيئة الغنية قد ساعدت على قيام اشجار الفاكهة وانتشار الحبوب في السهول والوديان وكذلك نمو الغابات واشجار البلوط وغيره على سفوح الجبال وتكاثر الحشائش والنباتات الطبيعية الاخرى ، وغير ذلك من مستلزمات العيش ، وقد اتخذ الانسان بين هذه الجبال العديد من الكهوف خير مأوى التجأ اليه منذ القدم (مرحلة جمع القوت) ، ثم طور انسان الكهوف حياته فاخذ يستغل الارض وذلك بمزاولته للزراعة وتدجين الحيوانات ليقتات على لحومها ويتخذ جلودها ملابس . تقيه برد الطبيعة في هذه المرتفعات . ولكن ذلك دفعه تدريجيا لترك حياة الكهوف والنجوء الى المستوطنات المكشوفة التي تميز مرحلة العصر الحجري الحديث .

أقدم عصور ما قبل التاريخ

يمكننا القول بأن عصور ما قبل التاريخ هي تلك العصور التي سبقت معرفة الإنسان للكتابة ، والعصور الحجرية القديمة قد أخذت الجزء الكبير من عمر المجتمع البشري ، ولكن بالرغم من ذلك فإن المادة العلمية المتوفرة لدينا ضئيلة إذا ماقيست بالنسبة الى هذا الرده الطويل من الزمن وليست لدينا صورة متكاملة عن تلك المسيرة بتعاقب زمني متواصل ودقيق وإنما هناك كثير من الفراغات في هذه الصورة العامة ، وكل ماتبقى لدينا من عصور ما قبل التاريخ ماهو إلا بعض ادوات من الحجر اكتشفت صدفة ، ولذا سمينا هذه العصور بالعصور الحجرية حيث ان الانسان اقتصر استعماله على الحجارة بالدرجة الاولى اضافة الى العظام حيث لم تكن المعادن معروفة آنذاك، وقد قسمت هذه العصور الى دورين اعتمادا على نمط العيش واساليبه ، وكذلك صناعة الآلات والادوات (تكنولوجيا الانسان آنذاك) وهذان الدوران هما :

أ - العصر الحجري القديم (Palaeolithic)

ب - العصر الحجري الحديث (Neolithic)

والعصر الحجري القديم أمتاز بأن الانسان آنذاك كان يجمع قوته ولم ينتجه بيده ولم يكن ليعرف الزراعة بعد ولا تدجين الحيوانات ، فكان جلّ اعتماده على النباتات البرية والحشائش ويصطاد الحيوان بالآلات بدائية ساذجة محدودة ، لذا سميّ "بمرحلة جمع القوت " .

اما في العصر الحجري الحديث فقد تبدلت الحياة الاقتصادية تبديلا جوهريا حيث اصبح الانسان مزارعا ومربيا للحيوان وصانعا للفخار ومشيدا يداييا لمسكنه ومخترا لعدة صيده (من سهام ونبال) فسمي بمرحلة انتاج

القوت • وان أنسان العصر الحجري القديم قد التجأ الى الكهوف والمآوى الصخرية ليحتمي بها من فسوة الطبيعة ، وقد استعمل ذلك الانسان الاحجار الطبيعية اولا ثم اخذ يصنع الادوات الساذجة • ومن بعده تنوعت تلك الادوات البسيطة لذا قسم هذا العصر الطويل الذي استمر ردحا طويلا من عمر الانسان الى ادوار ومراحل اعتمادا على ما قام به من صنع ادواته وآلاته • ولعل من الاشياء المهمة في هذا العصر هو اكتشاف الانسان للنار وكيفية اضرامها حيث استفاد منها في التدفئة والطبخ والحماية من الحيوانات التي كانت من ألد أعدائه في صراعه مع الطبيعة ، ثم ان النار كانت عاملا محفزا على نشوء الاجتماع الانساني حيث كان يجتمع حولها الافراد والعائلات ، ولعل هذا ساعد ايضا على تحسن لغة الانسان البدائية البسيطة ، حيث ان اللغة هي بحق ابرز موهبة واهم خاصية مميزة للجنس البشري وتعد خير وسيلة لنقل الخبرات والمعلومات عبر الاجيال ، وبالنسبة لمعرفة لغة انسان الكهوف التي كان يتفاهم بها ، فانه من الصعوبة بمكان على دارسي ما قبل التاريخ المدون معرفة لغات مجتمعات تلك الحقبة الزمنية الطويلة من خلال سجل الحفائر الاثرية لما قبل ظهور الكتابة ولكن يمكننا الاعتماد على مقياس مادي متميز وهذا المقياس يتمثل بقدرة الانسان على صناعة الادوات والآلات ، وهناك فرق بين استعمال الادوات وصناعتها فالانسان الذي يستعمل مواد طبيعية لها شكل خاص لتفي بحاجاته يختلف حتما عن الانسان الذي يصنع من موارد طبيعية اولية ادوات وفق نمط خاص ولاغراض معينة لتلبية حاجاته المتعددة ، اذ لابد ان يكون هذا الانسان المتطور يعرف لغة ما ويتكلم ليتفاهم بها مع جماعته خلال صنع الآلات والادوات •

كان الانسان في تلك البيئة القاسية سيذا لها بسبب ما زودته به الطبيعة من دماغ وفكر وقدرة كلامية ويدين، ماهرتين ... وغيرها من الصفات التي أهله لأن يكون الصانع الوحيد بين تلك الكائنات المحيطة به •

لقد عاشت في الدور الاول من العصر الحجري القديم اجناس من البشر انقرض معظمها وعثر على بعض هياكل عظمية في مختلف بقاع الارض مثل جاوة ، ونيادرتال في المانيا وفي فلسطين ، وصفات هذه الاجناس الجسدية تدل على انها لانست الى نوع الانسان الحاضر بصلة ، لذا سميّ هذا الدور من العصر الحجري القديم بعصر الانسان البائد ، وقد ظهرت انواع اخرى من جنس الانسان (Homo) وهي تصنع ادوات الحجر ، واشهر هذه الانواع :
اولا - انسان بكين قبل نصف مليون سنة وقد وجدت مع بقايا هذا الانسان ادوات حجر من صنعه •

ثانيا - انسان جاوة ، اي الانسان القردى المنتصب ، ولم يجد الباحثون مع هذا النوع من الانسان اية ادوات •

ثالثا - انسان نيادرتال ، سميّ نسبة الى موضع في المانيا قرب (دسلدورف) وقد وجدت نماذج منه كثيرة في بقاع اخرى من العالم ، ويرجع تاريخه الى العصر الجليدي حوالي ٤٥٠.٠٠٠ - ١٠٠.٠٠٠ •

رابعا - انسان فلسطين ، وقد وجد في احد كهوف جبل الكرمل ، وقد عثرت الفرق العاملة في العراق في كهف شانيذر على هيكل من هذا النوع ، ولكنه وجد مع آلات وادوات من الدور المستيري(*) •

اما في المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم فقد تقدم الانسان في جسمه وعقله ولا سيما في الآلات التي صنعها من الحجارة وقد حسن هذا

(*) قسم العصر الحجري القديم الى قسمين ، يشتمل القسم الأسفل منه على الدور الشيلي (ويسمى الآن الابفيلي) والدور الآشولي ، والدور المستيري . ويشتمل القسم الأعلى منه على الدور الأورغينشي ، والدور السلوترى ، والدور المكديني •

الانسان الحديث - الذي هو جد الانسان الحالي - صنع آلاته واصناف عدته من الآلات الاخرى وصنع بعضها من العظام كالابر والمثاقب وبعضها من الخشب كمقابض الفؤوس وبالإضافة الى ذلك فقد كان هذا الانسان فناً اذ تعلم الرسم والنحت ، وقد وجد هذا الفن الفطري على جدران كهوفه التي التجأ اليها فقد وجدت صور ورسوم ملونة تعد على جانب كبير من دقة التعبير والحيوية بالنسبة لذلك الانسان البدائي واغلبها يمثل الحيوانات التي كان الانسان يصطادها لأكلها لانه مدفوع في فنه بدافع السحر ، اذ اعتقد انه يرسم لهذه الحيوانات على جدران الكهف الذي يعيش فيه يتمكن من السيطرة عليها وهي حيّة . وبذلك نشأت عند انسان الكهوف هذا اولى بذور الدين على هيئة اعتقادات وأعمال سحر بدائية وكان هذا هو الدافع الى عمل الرسوم والنقوش في داخل الكهوف ، كذلك ظهرت بداية هذه الاعتقادات والتقاليد البدائية في طريقة دفن الموتى .

وقد وجدت آثار العصر الحجري القديم بجميع ادواره في بقاع مختلفة من العالم لاسيما في نصف الكرة الشمالي ووجدت في الشرق الادنى في مصر وفلسطين وشمال افريقيا وفي سورية ، وكذلك وجدت آثار العصر الحجري القديم في القسم الشمالي من العراق كما يتجلى ذلك في كهفين قرب السليمانية يسميان كهف (زرزي) واقدم دور فيه الدور الاورغنيشي وكهف (هزارمرد) ووجدت فيه آثار من العصر الحجري القديم ، وفي (مستوطن بردا بالكه) قرب جمجمال ولكن آثار العصر الحجري القديم بصورة عامة تعتبر ضئيلة نسبة الى اقطار الشرق الادنى الاخرى ورغم ذلك فقد اظهرت التحريات التي قامت بها مديرية الآثار آنذاك ، وبعض المعاهد الامريكية في القسم الشمالي من العراق مراحل مهمة من تاريخ الانسان في العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ففي (بردا بالكه) وجدت بقايا الدور الشيلي وربما الآشولي

ايضا ، وفي كهف (شانيدر) وجدت آثار الدور المستيري الشبيه بما وجد في كهف (هزاردرد) كما وجدت في موقع (بالي كورة) آثار من نوع ادوات العصر الحجري الوسيط .

الكهف

تمثلت مواقع حضارة العصر الحجري القديم الا على واضحة في شمال العراق في كهوف شانيدر وزرزي وهزارمرد كما بينا سابقا وتتمثل في هذه المواقع الاتفة الذكر الحضارات الليفالوزايه والموستيرية بشكل واضح .

لقد تضافرت العوامل الطبيعية على تكوين الكهوف والملاجئ الصخرية واستفاد الانسان من وجودها الطبيعي بالالتجاء اليها لحماية نفسه من العدو ومن قسوة البيئة الطبيعية ولاسيما في العصور الحجرية القديمة ، فالكهف سكن طبيعي ومأوى حيث لا توجد فيه جدران او اي شكل من اشكال المباني بل يرى فيه الباحث الاثري طبقات متعاقبة لانواع مختلفة من التربة تجمع كل منها بطرق جيولوجية في فترة طويلة جدا من الزمن وفي هذه التربة يعثر على جميع المواد التي استعملها سكان الكهف او دفنوها في اوقات مختلفة وبقيت سالمة تحت تأثير الاحوال الطبيعية المحلية ، وان الطبقة الواحدة التي تتميز بنوع خاص من التربة تبلغ احيانا نصف المتر في سمكها ، وكذلك نلاحظ التغيرات في المواد الاثرية وبقايا العظام .

شانيدر

يقع كهف شانيدر في وادي شانيدر حوالي ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر في جبال برادوست حيث يصب نهر الزاب الكبير على بعد ١ ١/٢ ميل من الكهف الذي يقع ضمن محافظة اربيل . وتعتبر منطقة شانيدر من المناطق المشهورة بكثرة الكهوف التي كانت ملاجئ للتجمعات السكانية خلال

عصور ما قبل التاريخ في شمالي العراق ، وفي كهف شانيدر وهو الكهف الشهير الذي وجدت فيه بقايا انسان النيادرتال ، تم العثور على بقايا أربع حضارات متدرجة التطور واقدم هذه الحضارات يعود الى نهايات العصر الحجري القديم الادنى وبدايات العصر الحجري القديم الاوسط وصولا الى فترة العصر الحجري القديم الاعلى ، والفترة الاخيرة تميزت بصناعة محلبة خاصة يسميها الاستاذ سوليكي وهو الذي قاد أعمال التنقيب في شانيدر لعدة مواسم ، بالحضارة البرادوستية نسبة الى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدر ، وكذلك اكتشفت صناعات مماثلة في كهوف اخرى في شمالي العراق ومنها كهف زرزي (السليمانية) وكهف بالي كوره شمال جبال و كهف كيوانيان في منطقة راوندوز .

ولموقع كهف شانيدر اهمية خاصة من الناحية الآثارية والجيولوجية، فمنطقة (راوندوز) التي يقع فيها الكهف عثر فيها على خمسة عشر كهفا سكنه انسان العصر الحجري القديم والاوسط وهذه المنطقة تقع في الشمال الغربي من جبال زاكروس وعلى ارتفاع ٧٢٢ م . وفتحة كهف شانيدر تقدر بحوالي ٢٥ م وارتفاعها ٨ م وعمق الكهف ٤٠ م ويضم الكهف اربع طبقات جيولوجية ، وهذه الكهوف كانت ملائمة لمعيشة التجمعات السكانية ، ولقد عثر في كهف شانيدر على مجموعة من الآلات الحجرية الاورغيشية وهي قريبة من النصال التي عثر عليها في مواقع اخرى من سورية وتركيا ومواقع اخرى من العالم .

لقد بدأ الاستاذ سوليكي تنقيباته في كهف شانيدر بفتح خندق بلغت مساحته ١٠×٢١ قدما وخندق آخر بلغ طوله ٤٣ قدما وعرضه قدمين وعمقه ٦ اقدام في بعض المناطق .

وفي الموسم الاول تمكنت البعثة من تحديد معالم طبيعة التربة واستظهار

الرماد الذي وجدت فيه آلات عديدة من الصوان وقد اعتمدت البعثة طريقة المربعات المتشابكة ، كذلك استخدمت طريقة تفجير بعض الاركان داخل الكهف لازالة كتل الصخور وخاصة في الطبقة الثالثة من اصل اربع طبقات ، وفي الاقسام السفلية من الطبقة (A) في كهف شانيدر تم اكتشاف صناعة متطورة للادوات العظمية فقد عثر على خمس قطع مصنوعة من عظام حيوانات لبونة استعملت كمثاقب ومخارز ونتيجة اختبارات عالم متخصص في المتحف الطبيعي الامريكي فقد حدد نوع الحيوانات من بقاياها في هذه الطبقة (A) والطبقات الاخرى وعلى عمق ٢٢ قدما من سطح الكهف ومنها الثعلب والخراف والماعز .

وفي الطبقة (B₁) تبين من اختبار المواد العضوية بطريقة كاربون (١٤) الاشعاعي ان آثارها تعود الى سنة (١٢٠٠٠ + ٤٠٠ ق م) وبموجب اختبار آخر الى سنة (١٥٤٦٠ ق م) ورغم اختلاط اللقى من الطبقة (A) والطبقة (B) في شانيدر فقد امكن تمييز هذه اللقى وخاصة الآلات الحجرية الدقيقة حيث تم العثور على نماذج في الاجزاء العليا من الطبقة (A) اضافة الى الآلات الصوانية وقطع الشظايا امام الكهوف والتي امتازت بصغر حجمها ومنها شظايا تحتوي على النصال والسهم المدببة والمثاقب كما تم العثور على مجموعة من الشظايا والنصال في الطبقتين (B ، C) اضافة الى مجموعة من القاشطات مع نموذج من الآلات المستيرية كالتي وجدت في المنقبة كارود في كهف زرزى عام ١٩٣٠ ولوحظ تشابه قوي بينها . هذا بالنسبة للانسان الذي عاش في كهوف العراق ولاسيما كهف شانيدر بالذات والذي يعتبر نموذجا للكهوف التي نحن بصدد دراستها وكان ساكنوه من نوع انسان النيادرتال .

يمثل انسان النبادرتال المرحلة الثالثة في التطور البشري وقد عثر عليه لأول مرة في احد كهوف وادي نبادرتال بالقرب من مدينة دسلدورف في شمال المانيا ولذلك سميّ بانسان نبادرتال ، ويمتاز هذا الانسان بأنه قصير القامة ويزيد طوله قليلا عن خمسة اقدام ، وضخم البنية وجمجمته طويلة ومنخفضة وغليلة العظام وحجم دماغه ١٦٠٠ سم^٣ وهذا الحجم يزيد على معدل حجم دماغ الانسان الحديث ، وحجاج عينية بارزة وضخمة ، ومحاجرهما واسعة ومدورة ووجهه طويل ومندفع الى الامام وجهته متقهقرة ، وفكه الاسفل قوي ومتراجع ولا أثر لوجود الحنك لديه ، وفي سنة ١٩٠٨ وجدت بالقرب من موستير بمقاطعة الدوردون بفرنسا جمجمة وهيكل عظمي كامل لانسان مصحوبة بآلات من حجر الصوان من نوع الشظايا ولهذا السبب اقترنت الحضارة المستيرية بهذا النوع من الانسان وتوالي بعد ذلك اكتشاف متحجرات انسان النبادرتال في جهات عديدة من العالم .

اما في مواقع الشرق الادنى ومنها السواحل الشرقية للبحر المتوسط حيث تقع فلسطين فقد عثر في عدد من الكهوف والمغارات على العديد من الهياكل العظمية لهذا النوع من الانسان وتوجد بعض الاختلافات في التفاصيل بين موقع وآخر ، كذلك وجدت متحجرات وبقايا انسان نبادرتال في جهات كثيرة من العالم القديم ، وقد عثر على هياكل عظمية كاملة للذكور والاناث والاطفال وهؤلاء جميعا ينتمون الى نوع بشري واحد ، والاختلاف الوحيد بينهم هو بالسلالة داخل النوع الواحد .

اما من ناحية الفرق بين انسان نبادرتال والانسان العاقل بالنسبة لحجم جمجمة انسان نبادرتال الكبيرة وعظامها الغليظة وحجاج العينين المتصلة الممتدة فوق فجوة العين التي تكون مدورة وواسعة والجهة متراجعة وسطح الرأس منخفضاً ومؤخرة الجمجمة مستديرة والرأس منحني الى الامام قليلاً ، ولعل

ذلك بسبب اتصال فقرات الرقبة بقاعدة الجمجمة اتصالا منحرفا عن المركز فبذلك لا يكون الرأس عموديا ثابتا، والذقن يتقهقر قليلا والفك العلوي ضخم وبارز وسقفه واسع وذلك يدل على سعة الفم وكبر حجم الانسان والمرتبة بشكل حدوة الفرس ، اما عظام الاطراف فهي ضخمة والفخذ مقوس والساق قصيرة واذا اردنا مقارنة الفخذ والسلسلة الفقرية فهي مقوسة قليلا وتشبه الى حد ما السلسلة الفقرية لدى القردة العليا ، وبالنسبة لطوله فقامته اقصر من الانسان العاقل ويتراوح طولها بين ١٥٨-١٦٣ سم ، وحجم الدماغ في السلالات المبكرة بين ١٤٥٠ سم^٣ للذكور ١١٣٠ سم^٣ للاناث ، اما في السلالات المتطورة فحجمه ١٦٤٠ سم^٣ للذكور و ١٣٢٥ سم^٣ للاناث، ولكن دماغ انسان نيادرتال اقل نموا وتعتقدا من دماغ الانسان العاقل . اما بالنسبة لسلالات انسان نيادرتال فنقسمها الى مجموعتين ، مجموعة مبكرة، ومجموعة متطورة والمجموعة الاولى (مبكرة) عاشت قبل زحف الجليد (فيرم) الاول وذلك في الفترة الدافئة بين زحف (رسي) وزحف (فيرم) فوجدت معها آلات آشولية ، وسلالات هذه المجموعة يكون تخصصها اقل في صفاتها ، وعثر على متحجرات في وسط وشرق اوربا ، اما المجموعة الثانية فان سلالاتها المتطورة تعود الى فترة جليد (فيرم) الاول او الفترة التالية لها ، وعثر على متحجراتها في بعض اقطار اوربا وفي العراق ولبنان وفلسطين وليبيا ، وصفاتها تدل على التخصص ، يتراوح حجم دماغ الذكور ما بين (١٥٢٥ - ١٦٤٠ سم^٣) اما حجم دماغ الاناث فهو اقل من حجم دماغ الذكور بمقدار ٢٠٠ سم^٣ ، والجمجمة عريضة ومنخفضة السطح ومستديرة المؤخرة وجبهتها منحذرة ومحاجر عيونها واسعة وفجوة الانف واسعة ايضا .

يرى الانثروبولوجيون ان الاجناس البشرية الحديثة هي ليست من نوع نيادرتال ، وقد يكون نيادرتال قد تطور الى نوع آخر فتطورت عنه الاجناس البشرية الحديثة فيما بعد ، وربما انحرف هذا التطور في أواخر عصر

البلايستوسين او اقترض بدون ان يخلف لنا اثرا وراثيا بين البشر الذين يعيشون في يومنا هذا .

انسان شانيدير

اشرنا سابقا الى ان البعثة التي نقت في كهف شانيدير برئاسة رالف سوليكي عثرت على هيكلين عظميين لائنسان نيادرتال يعودان الى شخصين بالغين ، ولما كان كهف شانيدير قد عرف بهذا الاكتشاف فقد اصبح من المواقع المهمة المعروفة في العالم، والتي سكنها الانسان في العصور الحجرية الاولى خصوصا وان العراق من المناطق التي استمرت فيها السكنى البشرية في حقبة طويلة منذ عصور ما قبل التاريخ .

وقد عثر على هذين الهيكلين في الطبقة الموسستيرية وهي طبقة (D) ، وعند القائنا نظرة اولى تبين لنا انهما من نوع نيادرتال الكلاسيكي ، وهنا سنطلق عليهما الهيكل رقم (١) والهيكل رقم (٢) حسب اكتشافهما، عثر على الهيكل رقم (١) في اعلى الطبقة (D) في القسم الشرقي من موقع الحفريات تحت طبقة خفيفة من الحجارة ربما تكون منارة من سقف الكهف بفعل هزة ارضية ، ويعين تاريخ هذا الهيكل بأكثر من ٣٤٠٠٠ سنة وذلك حسب تحليل كاربون ١٤ الاشعاعي وبوسعنا ان نقول انه قد يرجع الى ابعد من هذا التاريخ ولعله يعود الى ما بين ٥٠٠٠٠ - ٤٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وجد هذا الهيكل مستلقيا على ظهره محفوظا في التربة ، بعض عظامه محطمة ولاسيما عظام الساق والصدر ، ووضعه باتجاه الشرق الى الغرب والجمجمة تقع في الاتجاه الغربي وقد عثر حول الهيكل العظمي الآف الذكر على بقايا طبقة سكنى تعتبر دليلا واضحا على وجود سكنى حين وقوع كارثة انهيار سقف

الكهف ، وكانت التربة هنالك بلون اسمر يحتوي على قطع صغيرة من الفحم واثار رماد واستفيد من هذه المواد العضوية لاجل التحليل بطريقة كاربون ١٤ الاشعاعي لتعيين الزمن الذي ترجع اليه هذه المواد ، كذلك اخذت من مختلف المناطق المحيطة بالبقايا العظمية نماذج من التربة لاجل الفحص وتعيين غبار الطلع فيها ، وقد حفظت عظام هذه الهياكل حفظا جيدا بطريقة غير اعتيادية .

اما الاسنان والفكان اللذان يعتبران من اهم الاقسام في بقايا الانسان القديم ، فكانت محفوظة حفظا جيدا ، وقد شوهدت آثار اندثار في جميع سطوح الاسنان .

اما بالنسبة للهيكل العظمي رقم (٢) فقد عثر عليه على عمق ٧ر٢ م في اسفل الطبقة (D) وصاحبه هو الاخر ضحية كارثة ، فقد اصيب الهيكل بضرر من جراء تساقط الصخر المنهار من سقف الكهف ، وقد عثر عليه اثناء عمليات تنظيف الحفيرة .

وموضعه تحت طبقة سميكة من الترسبات لذلك لم يكن بالامكان الا رفع الجمجمة التي كانت ظاهرة للعيان ومهشمة تهشما بالغاً . اما بقية الهياكل فكانت ممددة تحت احجار ثقيلة وتاريخ الهيكل العظمي رقم (٢) اقدم بكثير من تاريخ الهيكل رقم (١) نظرا الى عمق الطبقة التي وجد فيها وربما يعود الهيكل رقم (٢) بتحفظ الى ما قبل ٦٠٠٠٠ سنة ، ولا يمكن تقدير اهمية هذه المكتشفات تقديرا كليا الا بعد دراسة وافية من قبل الاثروبولوجيين .

ان استمرار البحث في بقايا أنسان الطبقة (D) من كهف شانيدر قد زودنا بتفاصيل عن نماذج فردية متحجرة ومقارنات عن تكوينها مع بقايا بشرية من فترة البلايستوسين العليا . ومن مقارنات هذه الهياكل العظمية الناقصة والمبتورة الاطراف ظهرت لنا صورة لانسان شانيدر المتحجرة ، وما

هي الا نموذج لانسان ما قبل التاريخ ، وهنا نوجز بعض المعالم المهمة لتشريح هذا الانسان من ناحية البيئة بالنسبة لتركيب جسم الانسان لعصر البلايستوسين الاعلى ، وكذلك سوف نبحث في المضمونات العرقية والسلوكية لانسان النيادرتال في كهف شانيدر .

ان البقايا الانسانية المتحجرة من الطبقة (II) لكهف شانيدر هي لاثنين من النماذج غير الكاملة والتي يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار كلا على حدة ومعا بنفس الوقت . فهما يمثلان سكان شانيدر خلال حقبتين زمنيتين سكن خلالهما الكهف ، احدهما حوالي منتصف الفترة المoustيرية والاخرى في نهاية الفترة الطويلة التي لجأ فيها الى الكهف صانعو منجزات العصر الحجري القديم الاوسط .

ان اول النماذج غير الكاملة واقدمها من الناحية الجيولوجية ، هي اكبرها ، كما انها تتضمن مجموعة من الهياكل العظمية المجزأة من مجاميع سكانية كبيرة وتتضمن هيكلين ذكريين في اكثر احتمال هما (شانيدر ٢ و ٤) ، وهيكلين اثويين في اكبر احتمال هما (شانيدر ٦ و ٨) وطفلين لم يكن تحديد جنسهما ممكنا هما (شانيدر ٧ و ٩) واحد هذه الهياكل وهو (شانيدر ٤) كان لشخص بالغ كبير في حين ان اثنين من الاشخاص الآخرين في الاقل (شانيدر ٢ و ٦) كافا بالغين صغيرين في العمر نسبيا ، اما الطفلان فقد كانا دون السنة من العمر ولم يكن بالامكان تحديد عمر هيكلي (شانيدر ٨) ولكنه في الارجح اقرب عمرا الى (شانيدر ٢ و ٦) منه الى (شانيدر ٤) .

اما النموذج الاخر وهو الاحداث والاصغر فيضم مجموعة سكانية اكثر نجاسا كما ان الاشخاص الثلاثة (شانيدر ١ و ٣ و ٥) كانوا كبار السن عند وفاتهم وعلى الارجح كانوا من الذكور .

ان القيمة العلمية التاريخية للبقايا البشرية المتحجرة لانسان شانيدر الموسيتيري تكمن في موقعها الجغرافي المقارب لبقية المتحجرات البشرية لفترة البلايستوسين العليا وتوزعها عبر الزمن وعددها وتنوعها وكمالها وترايط العظام في اجزاء الهياكل • وبفضل كل هذه الجوانب فان بقايا هياكل شانيدر تساهم جديا في فهمنا للتطور الذي جرى لانسان فترة البلايستوسين العليا • وان عينات الشانيدر تعطينا معلومات كانت غامضة في السابق فيما يخص جوانب من تراكيب انسان النيادرتال ، لو اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة بقايا النيادرتال الاخرى في الشرق الادنى واوروبا •

ان نماذج شانيدر هي المجموعة الوحيدة لبقايا بشر بالغين كاملة بصورة معقولة وبقايا بشرية من اجزاء غير بالغة ولكنها مترابطة وجدت في غرب آسيا في الشرق الادنى •

ان بقايا انسان الشانيدر من الطبقة (D) مهمة ايضا لانها تعطي لمحات عن التكوينات البشرية في فترتين زمنييتين في منتصف العصر الحجري القديم وفي موقع واحد • فان العصر الجيولوجي المحدد للنموذجين من انسان شانيدر في منتصف العصر الحجري القديم لم يعرف بعد ومع ذلك انقضت بضعة آلاف من السنين وربما بضعة عشرات الآلاف بين فترة شانيدر ٢ و ٤ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ وبين فترة شانيدر ١ و ٣ و ٥ وعليه فأن كهف شانيدر هو الموقع الوحيد في الشرق الادنى وربما الوحيد في العالم القديم حيث توجد على الاقل مجموعتان شبه كاملتين من المتحجرات البشرية الموسيتيرية المترابطة تفرق العلاقات الزمنية بينهما او على الاقل على صعيد نسبي ، وعليه فبالامكان دراسة الاتجاهات عبر الزمن آخذين بنظر الاعتبار عددا من المركبات التكوينية لنموذج شانيدر •

وهناك سبب آخر لاهمية نموذج شانيدر الا وهو حجمه وتمثيله لمناطق تكوينية فيها ، لكن الهياكل المجزأة التسعة لا يوجد لنموذج شانيدر مثل بين مجموعات الموقع الواحد من الهياكل البشرية التاريخية المجزأة الا نماذج من La Ferrassie التي تحتوي على ثمانية اشخاص ببقايا مترابطة (هايم ١٩٧٦) ، وهناك نماذج اخرى اكتشفت في مواقع عديدة في اوربا تحمل الصفات الاثقة الذكر .

الفترة الانتقالية

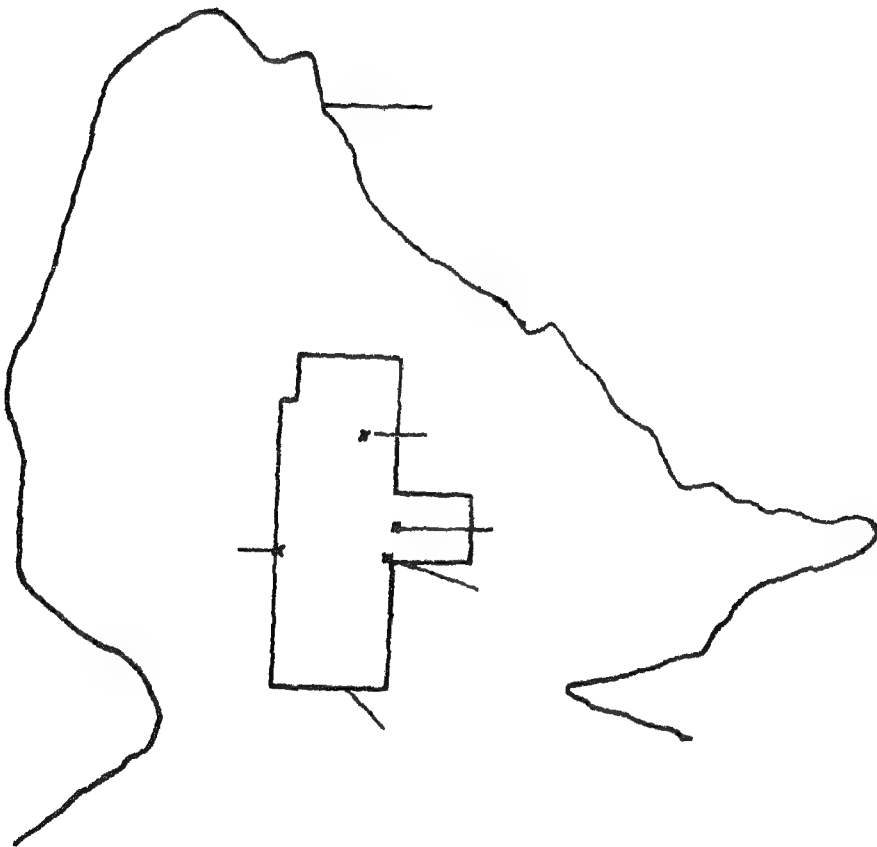
ان المرحلة الانتقالية من نهاية مرحلة جمع الغذاء وسكنى الانسان في الكهوف والمآوي الصخرية الى مرحلة انتاج الغذاء او الى المستوطنات المكشوفة تعتبر فترة انتقالية مهمة وبداية لاعظم تغيير اجتماعي في تاريخ البشرية وهي فقرة تطورية نوعية ، تقتضينا ان نقف عندها لبعض الوقت ، لكي نعرف كيف تحقق هذا الانتقال البالغ الاهمية وهل كان نتيجة تغيير مناخي او جيولوجي او لسبب آخر .

لقد عمدت الدراسات الانثارية والجيولوجية الحديثة الى اهمال العصر الحجري الوسيط ، وهو حلقة وصل مهمة بالنسبة لمنطقة الشرق الادنى ولو لفترة قصيرة جدا ، حيث ان بعض مجتمعات هذه المنطقة اخذت تنتج الغذاء بعد ان كانت تجمعها . وقد اعتقد بعض الباحثين ان الحالة المناخية في بيئة الشرق الادنى لما قبل التاريخ قد تغيرت قليلا خلال الفترة من (١٥٠٠٠-١٠٠٠٠ سنة) عما عليه في الوقت الحاضر ، وبعضهم اعتقد بان المناخ في مرحلة قبل التاريخ كان كما هو عليه في الوقت الحاضر لذا اعتقد (بريد وود) بان توزيع الحيوانات الوحشية والمدجنة والنباتات هو نفس التوزيع الحالي . وفي منطقة الشرق الادنى حصل انتقال كما اسلفنا من مرحلة جمع الغذاء الى

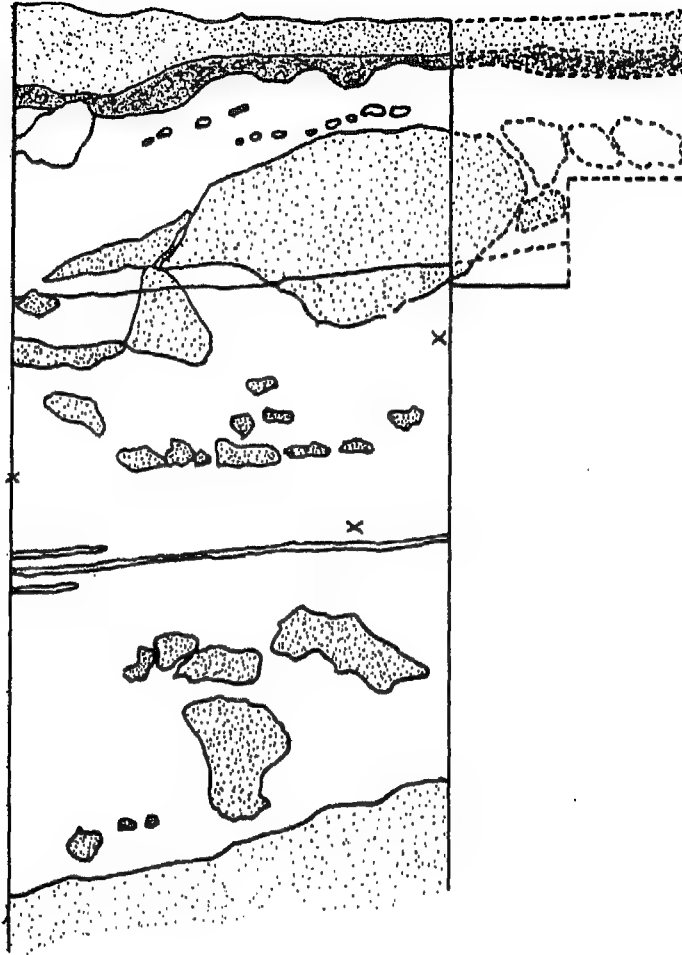
ندجين الحيوان والنبات وقد تجلّى ذلك في المرتفعات التلية الممتدة على محاذات جانبي جبال زاجروس وطوروس والمرتفعات التلية المحاذية لجبال لبنان والتلال الفلسطينية وامتداداتها في شرق الاردن ، وكانت هذه النظرية سائدة بين الاوساط الاثرية حتى عام ١٩٦٠ .

ان الابحاث الاثرية والجيولوجية التي جرت خلال الستينات في مناطق من الشرق الادنى تشير الى انه حدث تغيير بيئي صاحبه نمو اعشاب في الظروف الباردة واستمرت هذه الحالة الى حدود ٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد وبعد هذا التاريخ بدأت فترة زهر فيها العشب والاشجار الضخمة وحتى قيام اولى الفرى الزراعية ، ولقد قدمت لنا نتائج التنقيبات الاثرية مخلفات مادية من المواقع الاثرية لنصوفية في وادي النطوف في فلسطين وكذلك من الطبقات السفلى لتل السلطان في اريحا ومن زاوى جمبي - شائيدر ، وكريم شاهروملفعات في العراق ومناطق اخرى مشابهة تشير كلها الى انه في حدود مطلع الالف التاسع قبل الميلاد ساد دور نظوري يمكن ان نطلق عليه اسم دور الزراعة الاولى وندجين الحيوانات مع تصعيد مجتمعات هذا الطور لفعاليتها المتعددة وبذلك اخذ يحل ويبدل الخاصية المميزة لمجتمعات نهاية مرحلة جمع الغذاء او اواخر مايعرف بالعصر الحجري القديم الاعلى ، وهذا التبدل ادى الى حلول مرحلة بطورية كبرى في تاريخ الانسانية ، الا وهي مرحلة انتاج الغذاء وان الادلة الاثرية المتوفرة لدينا الان تشير الى ان مجتمعات الشرق الادنى منذ حواني ٩٠٠٠ قبل الميلاد قد ابتكرت ادوات حجرية كثيرة (لتهية الطعام) وانتاج الغذاء وصاحبت هذه النشاطات الجهود التي بذلتها هذه المجتمعات وابتكارات اخرى في تدجين الحيوانات وزراعة الحبوب وطحنها وابتكارات كثيرة في السير قدما باتجاه انتاج الغذاء وبذلك تحققت اولى

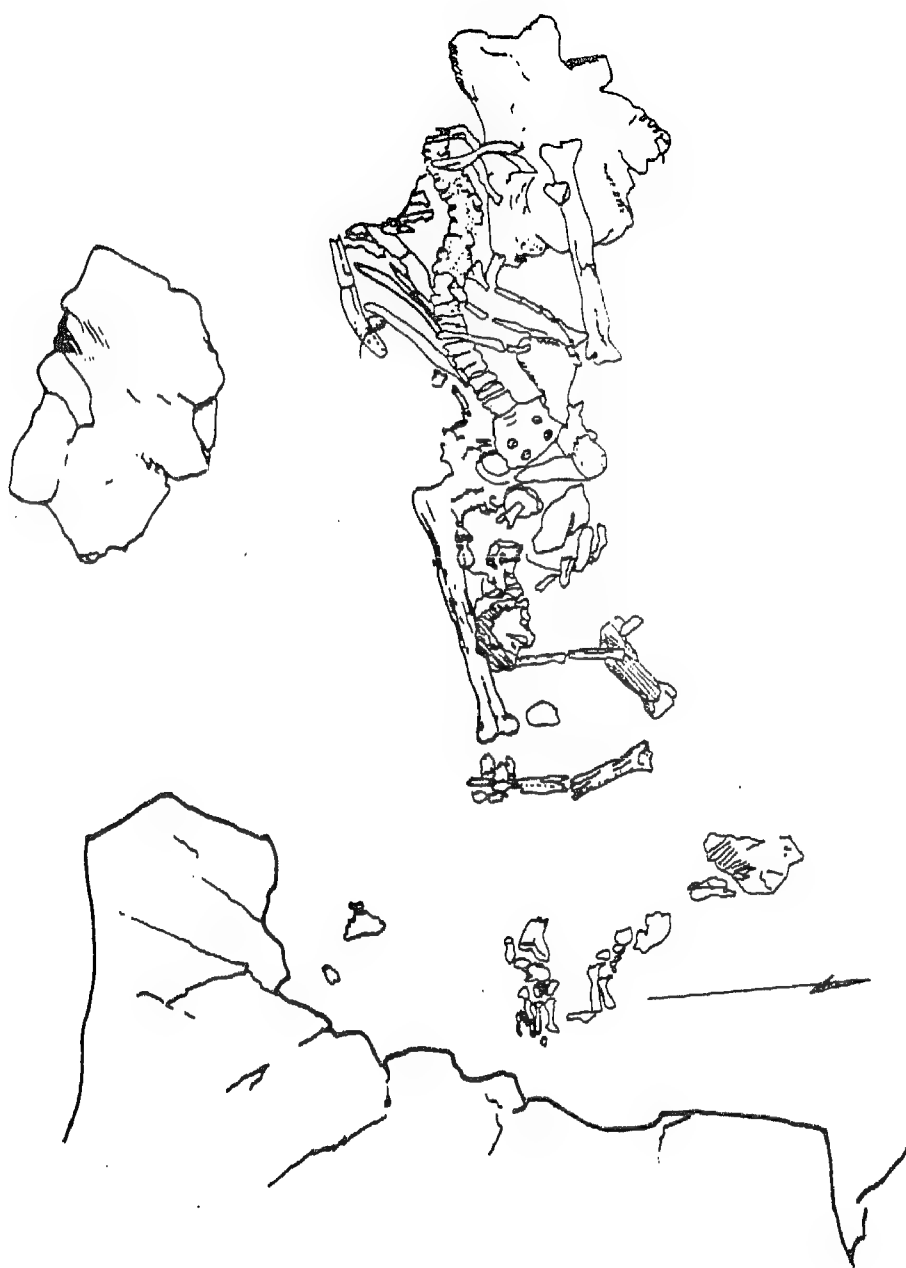
التحولات الاقتصادية والاجتماعية في تاريخ البشرية في الشرق الادنى عندما
اهتدت هذه المجتمعات ولاول مرة الى الزراعة وتدجين الحيوانات والعيش
باستقرار في قرى زراعية بدائية تدرجت فيما بعد الى قرى متطورة
ومستوطنات كبيرة ، وهكذا بدأ هذا التحول الكبير في قطرنا



مخطط ارضي لكهف شانيدر



مقطع لطبقات السكنى في كهف شانيدر



هیکل عظمي لائنسان نیادرتال فی شانیدر

المصادر

- ١ - الدكتور تقي الدباغ والدكتور وليد الجادر ، عصور ما قبل التاريخ . ١٩٨٣ .
- ٢ - الدكتور تقي الدباغ والدكتور وليد الجادر وأحمد مالك الفتبان . طرق التنقيبات الأثرية ، ١٩٨٣ .
- ٣ - الأستاذ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة .
- ٤ - السيد علي مهدي، محاضرات القيت في المؤسسة العامة للآثار والتراث.
- 1- Abdul Qadir Al-Tikriti, (Thesis)
Archaeological evidence for the Neolithic revolution in the Near East, London, 1965.
- 2- Braidwood, R. J.
"Apreliminary Note on prehistoric excavations in Iraqi Kurdistan," Sumer, Vol. VII, No. 2, Baghdad, 1951.
- 3- Braidwood, R. J. and Howe, B.
"Prehistoric investigations in Iraqi Kurdistan" Oriental institute Studies in ancient oriental Civilization, No. 31, Chicago, 1960.
- 4- Coon, C. S.
Seven Caves, London 1957.
- 5- Garrod, D. A. E.
"The prehistoric of Southern Kurdistan" American School of prehistoric research Bulletin, No. 6. 1930.
- 6- Garrod, D. A. E.
"The relations between south - west Asia and Europe in the Later Palaeolithic age"
Journal of world history Vol. I. No. I. 1953.

- 7- Garrod and Bate
The stone age of Mount Carmel. I. Oxford, 1937
- 8- Solecki, R. S. "A Palaeolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq" Sumer, 9. 1952.
- 9- ———, "Shanidar Cave, Sumer 9, 1952.
- 10- ———, "Shanidar Cave" Sumer Vol - XI. 1955
- 11- ———, "The 1956-57 Season at Shanidar Iraq" Sumer, Vol 14, 1958.
- 12- ———, "The adult Neardertal Skeletons" Sumer, Vol. 17 1961.

★ ★ ★

البعض الثاني الآلات الحجرية

د. تقي الدين

اسناد الآثار القديمة - جامعة بغداد

١ - الآلات الحجرية

اعتمدت صناعة الآلات والأدوات في معظم عصور ما قبل التاريخ على
الحجارة بالدرجة الاولى ولذلك سميت بالعصور الحجرية لان الحجارة كانت
المادة الرئيسية التي صنع منها الانسان اكثر ما يحتاجه من الادوات المنزلية
ومن اسلحة الصيد والقتال . وبالإضافة الى الحجارة استعمل الانسان القديم
الخشب والعظام والقرون والعاج والاصداف ايضا ولكن معظم الآلات
والأدوات التي صنعها من هذه المواد العضوية بليت في المواقع الاثرية بسبب
الاملاح والرطوبة .

والقليل الذي وصلنا منها أصابه التلف في اغلب الاحوال واعتاد
لآثاريون على تصنيف الآلات الحجرية حسب طريقة او طراز صنعها كما
اعتادوا على تسميتها باسم المواقع التي اكتشفت فيها اول مرة ومعظم هذه المواقع
هي مواقع اوربية ، اما الصخور التي استفاد منها الانسان في صنع الآلات

فهو الصخور التي تتوفر فيها الصلابة والقوة وسهولة التشظية مثل حجر الصوان والزجاج البركاني وحجر الرمل والاردواز والصخور البركانية . وهناك طريقتان رئيسيتان لصنع الآلات الحجرية هما طريقة صناعة الآلات النواذ وطريقة صناعة الآلات الشظايا وقد تفرعت من هاتين الطريقتين العامتين طرق متعددة كثيرة ظهرت في الصناعة الواحدة تحت تأثير التطور الزمني والخصائص الاقليمية .

١ - آلات النواة

هي آلات حادة في جانب واحد او جانبيين تصنع من لب الحجارة او من نواتها بعد كسر قشرتها الخارجية وتحويل النواة الى آلة لها شكل القلب او القرص او اللوزة وتبدو هذه الآلة ذات نهاية مدببة وحافات حادة تدور احيانا حول محيط الآلة .

هذه الآلة هي الفأس اليدوية التي استخدمت في جميع الاغراض كالقطع والحفر والتشريط والتهشيم والفرم وصنعت نماذجها الاولى بشكل القلب من الحصى والصخور البركانية في القطر العراقي ، وتلي هذه الآلة في نسلسل عصور قبل التاريخ الفؤوس الابفيلية (نسبة الى ابفيل في فرنسا) التي تطورت في وسط افريقية ثم انتشرت في اكثر انحاء القارة الافريقية، ثم اتجهت شمالا ودخلت الى غرب اوربا وجنوب آسيا، وهذه الفؤوس حادة الجانبين لها شكل القلب او شكل اللوزة ولا وجود لها في العراق ايضا. وتلي هذه الآلة في التسلسل الزمني الآلات الاشولية (نسبة الى سنت اشول في فرنسا) وهي فؤوس يدوية مدببة لوزية الشكل ونلاحظ في مظهرها الجانبي حافات مستقيمة نسبيا وعلى سطوحها ندب غير عميقة ، والفأس اليدوية المثالية تعود لهذا العصر . وبالرغم من أن الانسان صنع في هذا الوقت الشظايا المهمة من صنع آلات النواة فقد بقيت هذه الفأس اليدوية الآلة الشائعة في عدة انسان العصر الحجري

القديم وكانت تستعمل لسحق الاشياء وسلخ وفصل اللحوم عن العظام والحفر والقشط والثقيب .

وجدت آلات هذا الطراز في العراق على سطح موقع برده بلكا الذي يبعد عن بلده ججمال بنحو ثلاثة كيلو مترات وقد تبين من التنقيبات التي اجرتها بعثة امريكية انها تعود الى مستوطن مكشوف طمر تحت طبقة من الطين والحصى بلغ ثقلها نحو خمسة اقدم ، وكانت الآلات عبارة عن فؤوس حجرية يدوية بهيئة القلب وبعضها لوزية الشكل ، كما وجدت عدة انواع من الآلات الحصوية والشظايا . ويظهر ان بعض هذه الآلات اشولية والبعض الآخر موسديرية . (نسبة الى موسديه في فرنسا) ويتراوح زمنها ما بين ١٠٠٠٠٠ - ٦٠٠٠٠ سنة مضت وتعتبر من اقدم الآلات الحجرية المكتشفة في العراق لحد الآن .

ب - آلات الشظايا :

وهي على العموم تصنع بتجوير الشظية المنفصلة من الصخور بالضرب او بتكسير قطع صغيرة جدا من حافات الشظية بالآلات مدببة لتصبح حادة مسننة وتتميز الشظايا التي صنعها الانسان بسطوح ناعمة بسبب الاستعمال وتسوية ما تعرج منها بينما تكون الشظايا الطبيعية ذات سطوح خشنة وتظهر في الشظايا المصنوعة علامات الكسر وتخلو الشظايا الطبيعية من ذلك . والشظايا المصنوعة لها شكل خاص اما الشظايا الطبيعية فليس لها شكل معين ومحدود . والشظايا المصنوعة ذات حافات حادة ومهذبة اما الشظايا الطبيعية فليس لها مثل هذه الحافات .

واكثر انواع آلات الشظايا شيوعا في موطن الاثار هي الآلات الموسديرية التي صنعها انسان نياندرتال واهم نماذجها قاشطة لها شكل مستطيل وسطوح متعددة وجانت حاد واحد . ورأس سهم الشكل له جانبان حادان، وسكاكين

مما شاقب عليه وآلة نواة قرصية الشكل ، واستعملت هذه الآلات لصيد الحيوانات وللفصل لحومها وسلخ جلودها ، وانتشر استعمالها في كثير من مناطق غرب اسيا واوربا وشمال افريقية ، وفي العراق وجدت هذه الآلات في سوانح العصر الحجري القديم الاوسط مثل هزارد بمحافظة السليمانية وفي كهف بابخال في سهل ديانا وفي اسفل طبقات كهف شانيدر ويتراوح تاريخها بين ٦٥٥٥٥ - ٤٥٥٥٥ سنة مضت .

ج - النصال :

وهي نوع من انواع الشظايا ولكن صناعتها ادق وشكلها اكثر انتظاما ولها صفة الاختصاص في العمل . شاع صنعها واستعمالها في اواخر العصر الحجري القديم وحلت بالتدريج محل الشظايا الموسمية ويدل انتشارها على هجرات كثيرة للانسان العاقل اثناء المراحل الاخيرة من الزحف الجليدي الاخير . ويظهر ان النصال الحجرية ظهرت في بعض اقطار جنوب غرب اسيا ثم انتشرت نحو الشرق ونحو الغرب حتى وصلت سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسي . والنصال النموذجية عبارة عن شظايا ذات جانين حادين متوازيين يأخذ بعضها شكل الازميل وقد قطع جانبان منها بشكل مائل بحيث يلتقيان في رأس مدبب حاد يصلح للحفر في الحجارة ، وجدت النصال الحجرية في عدة اماكن من شمال العراق من بينها عدة كهوف استوطنها انسان ذلك العصر ، وكان اقدم اكتشاف لها في العراق ما وجد في كهف زرزي بمحافظة السليمانية ووجدت ايضا في كهف بالي كورا بالقرب من ججمال وفي كهف كبوانيان في منطقة راوندوز وفي كهف شانيدر ، وقد تبين ان هناك ادوات خاصة بشمال العراق تشبه الازميل وكانت هذه الآلات من بين الاسباب التي حملت المنقب على تسمية هذا العصر بالعصر البرادوستي نسبة الى جبال رادوست ، ويتراوح تاريخ هذه الآلات بين ٣٥٠٠٠ - ١٥٠٠٠ سنة مضت .

د - الآلات الحجرية الدقيقة :

وهي في الاصل شظايا ولكنها صغيرة الحجم ودقيقة الصنع منظمة الشكل كالهلال والمعين والمثلث مثلا ، كانت هذه الشظايا تثبت بمفردها او بمجاميع منها بالقير في مقابض خشبية تصنع منها آلة خاصة كالسهم المسنن والرمح ومنجل الحصاد . انتشرت في شمال افريقية واوربا وجنوب غرب اسيا منذ نهاية العصر الحجري القديم الاعلى حتى اصبحت ميزة من مزايا العصر الحجري المتوسط ، وجد الكثير منها في العراق واطلق عليها الآلات الزرززية نسبة الى كهف زرزي بمحافظة السليمانية حيث اكتشفت اول مرة ثم وجدت في عدة اماكن اخرى في شمال العراق بعضها كهوف وبعضها ملاجئ جبلية وبعضها على هيئة مستوطنات في الارض المكشوفة مثل كهف بالي كورا وكهف شانيدر وكريم شهر وملفعات وزاوى جمي واستخدمت هذه الآلات الدقيقة لحصد النباتات الطبيعية او النباتات التي زرعها الانسان بشكل محدود وبدائي في مرحلة مبكرة واستمر يستخدمها في عصر القرى الزراعية حيث وجدت نماذج منها في قرية جرمو وقرية حسونة وقرية الصوان وغيرها .

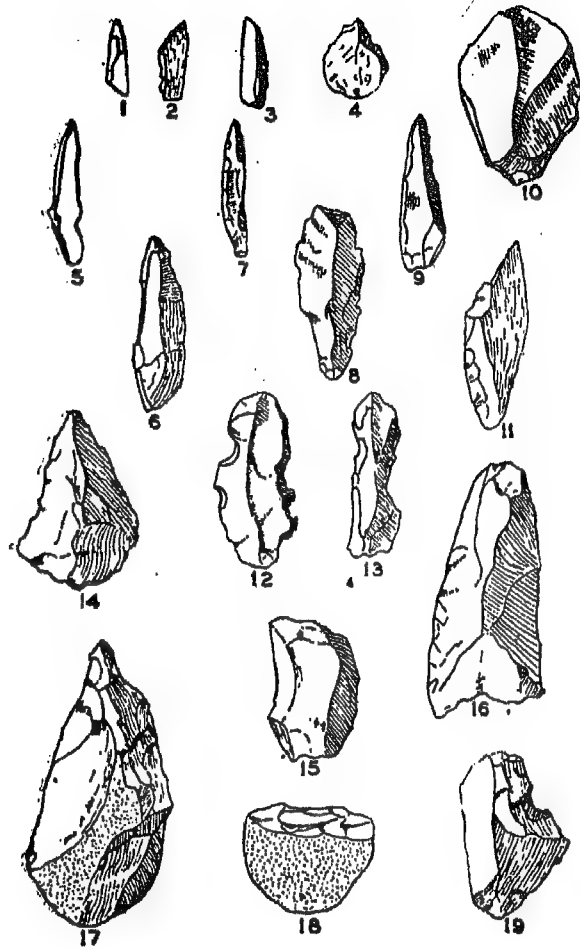
ويتراوح زمن هذه الآلات بين ١٥٠٠٠ - ٩٠٠٠ سنة مضت .

٢ - الادوات الحجرية

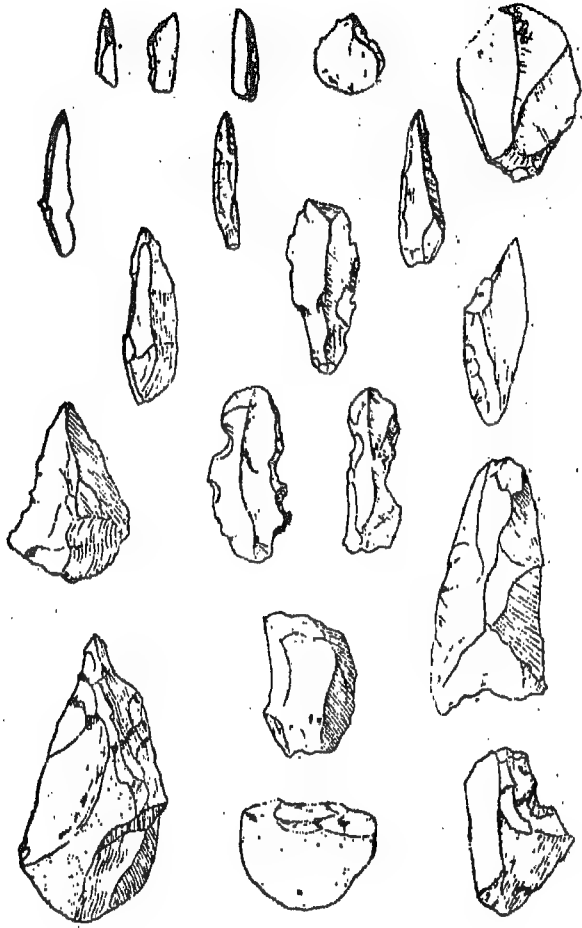
اهم الادوات الحجرية هي الاواني الحجرية التي صنعها الانسان قبل ان يهتدي الى صناعة الاواني الفخارية واستعمل تلك الاواني لاغراض خزن الطعام وحفظ الماء والطبخ وظل يستعملها كذلك حتى بعد صنع الاواني من الصلصال ، ولا ريب في ان الانسان استعمل اكياسا من الجلد واواني من الخشب واغصان الاشجار ايضا ، ولكن المواد الجلدية والخشبية تبلى بين الانقراض ولا يبقى منها شيء ، وكانت عملية تفريغ الحجارة لصنع الانية عملية شاقة وتستغرق وقتا طويلا ولا سيما اذا كانت الآلات المستعملة في عملية

التفريغ والتجويف وتسوية السطوح من الحجارة ايضا . واتخذت الاواني اشكالا متعددة كالطاسات والجرار والقدر وغيرها ، واستعملت لطحن بذور الشار والحبوب التي كان الانسان يجمعها من الاشجار والنباتات الطبيعية رحي حجرية من صخور صلبة كي لا تختلط قطع الحجارة مع الطحين اذا كانت من النوع غير الصلب ، ورحى الطحن تتألف من كتلتين من الحجارة القوية توضع البذور او الحبوب بينهما لفرك قشورها وطحنها بتحريك او دوران احدي الحجارتين فوق الاخرى ، اما ادوات السحق فكانت تتألف من هاون وهو حجارة مجوفة ومن مهشم حجري اسطواني الشكل لسحق البذور او الحبوب فيه .

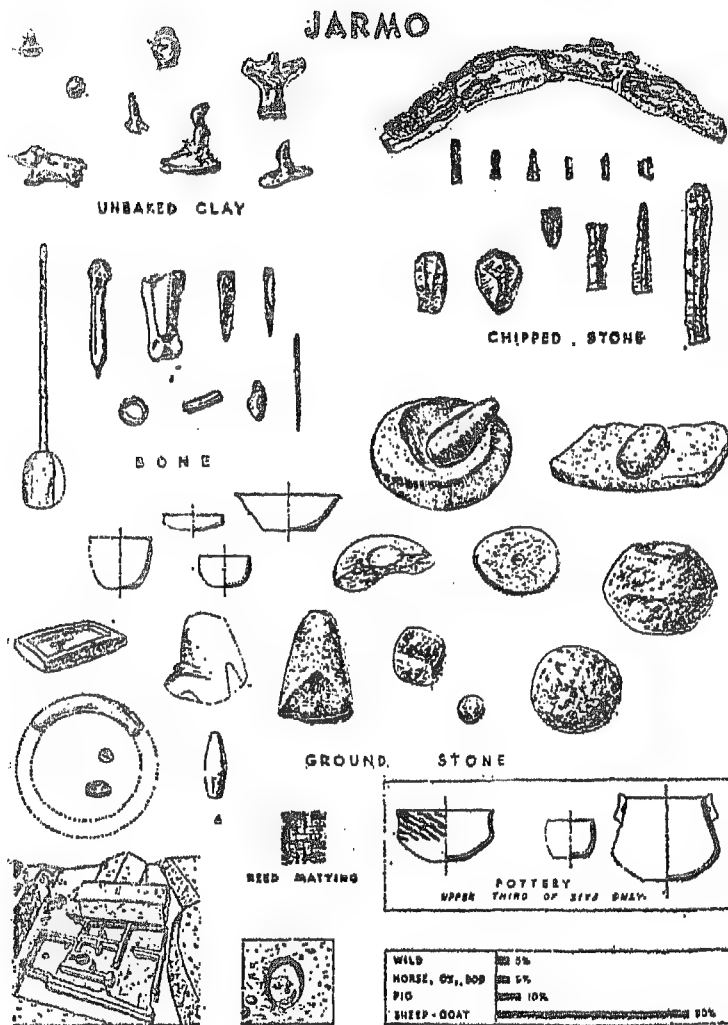
واستعملت رحي الطحن والمدقات والمهشمات والهواوين لطحن وسحق حبوب الطعام بعد ان تعلم الانسان الزراعة ايضا ، ومن الحجارة صنع الانسان اقراصا مدورة الشكل لها ثقب في الوسط يدخل فيه لولب المغزل الخشبي والغرض من القرص احداث التوازن في حركة اللولب وارتكاز كتلة الخيوط المغزولة عليه ، واقراص المغازل في مواطن الاثار دليل على ان سكانها غزلوا الخيوط الصوفية تمهيدا لنسجها ، وكانت هذه الاقراص تصنع من الفخار ومن الخشب ايضا . وقطعت من الاحجار الجميلة المختلفة الالوان خرز حمر في كل منها ثقب يخترق محورها ويجمع منها عدد كبير يدخل فيها خيط لتصبح قلادة ، ومن الحجارة الجميلة الملساء صنع الانسان الدمالج التي علقها بواسطة خيط على الصدر وكانت هذه الدمالج تزخرف بنقوش هندسية او طبيعية كما ان البعض منها صنع بهيئة طير او حيوان ، ومن احجار يسهل عمل الازميل والمطرقة فيها مثل الرخام واحجار الكلس نحت الانسان القديم تماثيل الالهة او رموزها التي عبدها بهيئة الالهة الام ، ان معظم هذه الادوات الحجرية وجدت في الكثير من مواقع عصور قبل التاريخ في العراق .



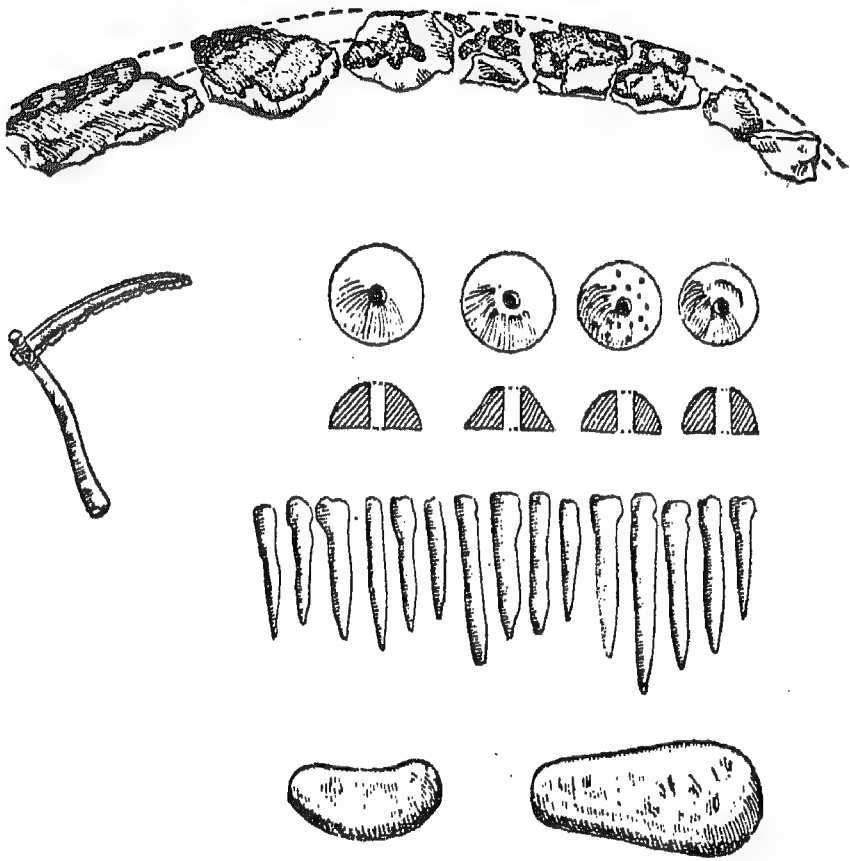
١ - آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم ، الأرقام ١ - ١٦ من :
كهف شانيدر والأرقام ١٧ - ١٩ من بردا ياكلة



٢ - آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط



٣ - آلات وادوات حجرية وعظمية وفخارية من قرية جرمر



٤ - نماذج من الآلات والأدوات الحجرية والعظمية من قرية حسونة

المصادر والمراجع

- د . تقي الدباغ و د . وليد الجادر . عصور قبل التاريخ . بغداد ١٩٨٣
طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . الجزء الاول . بغداد ١٩٧٣
Akazawa, T., Preliminary Notes on the Middle Palaeolithic
Assemblage from the Shanidar Cave, Sumer 31, 1975.
Braidwood, R., Prehistoric Man, Chicago, 1948.
Braidwood, R., From Cave to Village in Prehistoric Iraq. Ame-
rican School of Oriental Research Bulletin No. 124. 1951.
Braidwood, R. The Iraq - Jarmo Project, Sumer. X, 1954.
Braidwood, R. and Howe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi
Kurdistan, Chicago, 1960.
Burkitt, M., The Old Stone Age, London, 1963.
Clark, G., World Prehistory, Cambridge, 1962.
Chard, C., Man in Prehistory, New York, 1975.
Garrod, D., The Palaeolithic of Southern Kurdistan, Excava-
tions in Caves of Zarzi and Hazar Merd, American School
of Prehistoric Research, Bulletin No. 6, 1930.
Hawkes, J. and Woolley, L., History of Mankind, Vol. I, New
York, 1963.
Safar, F., Tell Hassuna. JNES, Vol. IV, No. 4, 1945.
Solecki, R., Shanidar Cave, A Paleolithic Site in Northern Iraq
and its Relationship to the Stone Age Sequence of Iraq.,
Sumer, Vol. XI, 1955.

Solecki, R., Tar Kshaike, A Possible Prehistoric Station Near
Ukhaider, Iraq, Sumer, Vol. X, 1954.

Voute, C. A Prehistoric Find Near Razzaza (Karbala Liwa.
Sumer, Vol. XXII, 1966.

Wright, H. and Howe, B., Prehistoric Report on Soundings at
Barda Balka, Sumer, Vol. VII, 1951.

Wright, H., A Note on a Palaeolithic Site in the Southern Desert,
Sumer, Vol. XXII, 1966.

★ ★ ★

الفصل الرابع

النوبة الزراعية والفري الأولى

د. تقي الدين

اساد الانار القديمه - جامعة بغداد

الانتقال من الكهوف الى الفري

حدث الانتقال في العراق تدريجيا من الصيد والجوع والعيش في الكهوف الى الزراعة والرعي والسكن في الفري عبر العصر الحجري المتوسط الذي بدأ في حدود ستة عشر الف سنة مضت واستمر لمدة قصيرة وكان ذلك بعد ذوبان الجليد ورجوعه الى خطوط العرض التي يشعلها الآن . ففي ذلك الوقت اعتدل المناخ وتغيرت علاقة الانسان بالبيئة تدريجيا لتلائم الظروف الطبيعية الجديدة واختفت حيوانات الصيد الكبيرة وحلت محلها الحيوانات التي تعيش في الوقت الحاضر وظهرت مجالات جديدة للاستقرار في مواقع مكشوفة على شواطئ الانهار ومصباتها وعند العيون والينابيع وفي انسهول الرملية حيث يتوفر الماء بعد ان انتهت الحاجة الى الكهوف والملاجئ الجبلية . وحصل تقدم ملحوظ لزراعة النباتات البرية وترويض الحيوانات للتدجين وصنعت بعض الآلات الزراعية كالمناجل والمطاحن والهواوين والمدقات مما يشير الى احتمال قيام زراعة تجريبية محدودة او احتمال استعمال تلك الآلات في

حصد وطحن حبوب النباتات البرية فانتقل الانسان الى الاقتصاد المنتج بواسطة الزراعة والرعي بعد ان كان مستهلكا معتمدا على جمع والتقاط النباتات الطبيعية وعلى صيد الحيوانات والاسماك ، ولهذه المرحلة خصائص تختلف عن خصائص العصور السابقة ولكنها في بعض الاقطار الاوربية لاثر لها لانها تعلمت الزراعة والرعي والحياة القروية من اقطار الشرق الادنى التي سبقتها في هذا المضمار بزمان طويل ولذلك لايميل بعض الباحثين الاوربيين الى مجرد ذكرها لانهم يعتبرونها عهد زوال للعصر السابق اما في العراق فتظهر اثار هذه المرحلة واضحة في بعض الاماكن قبل ١٢٨٠٠ سنة كما تظهر اثارها في سورية ولبنان وفلسطين حيث سمي الدور الذي يشتملها بالدور النطوفي نسبة الى وادي النطوف بفلسطين ، وقد عاش النطوفيون مثلما عاش معاصروهم في شمال العراق في الكهوف والقرى والمستوطنات المكشوفة وكانت انجازاتهم تماثل انجازات اهل شمال العراق ولعل النطوفيين تعلموا الزراعة والرعي منهم . ووجدت اثار هذه المرحلة الانتقالية في عدة اماكن عراقية بعضها كهوف وملاجئ جبلية وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات وكان اول موقع اكتشفت فيه هذه الاثار هو كهف زرزي في محافظة السليمانية ، وعثر على مخلفات مماثلة في كهف بالي كورا بالقرب من جمجمال بمحافظة اربيل ، واستخرجت ايضا من الطبقة الثانية (ب) في كهف شانيدر بمنطقة السليمانية، وتبين من اختبار كربون ١٤ الاشعاعي على المواد العضوية ان هذه الاثار تعود الى نحو ١٢٨٠٠ سنة مضت ، ووجدت اثارها بشكل اوضح في موقع كريم شهر وهو مستوطن مكشوف يقع شرق بلدة جمجمال بنحو تسعة كيلو مترات . وعلى الرغم من ان بعض الالات والادوات الزراعية كانت موجودة بين الاثار المستخرجة وان نسبة قليلة من عظام الحيوانات المكتشفة كانت لانواع مدجنة فان الحرفة الرئيسية لاهل هذا المستوطن كانت الصيد والالتقاط وفي ملفعات على ضفة نهر الخازر شمال الطريق الممتد

بين اربيل والموصل وجدت اثار تشبه تلك التي وجدت في كريم شهر ، والفرق الرئيسي بينهما هو وجود بقايا بيوت محفورة في الارض ذات جدران مشيدة بالحجارة وتباليط من الحصى والحجارة في ملفعات في حين ان كريم شهر كانت تخلو من ذلك ، اما قرية زاوى جمي القرية من كهف شانيدر فقد وجدت فيها بيوت شيدت جدرانها من الطين على اسس من الحجارة وتعتبر هذه المباني اقدم بيوت شيدها الانسان القديم ووجدت آلات زراعية غير ان الحبوب الزراعية لم يعثر عليها ، اما عظام الحيوانات فكانت لانواع برية غير اليفة في الغالب ويظهر ان الصيد والزراعة المحدودة البدائية في مراحلها الاولى كانت مختلفة في هذه القرية التي يعود تاريخها بحساب كربون ١٤ الاشعاعي الى ما يقرب من ١١٢١٧ سنة زائد او ناقص ٣٠٠ سنة مضت أو ١٠٩٣٥ سنة زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة مضت .

الخلاصة ان الانتقال من الالتقاط والصيد الى الزراعة والرعي كان بطيئا وتدرجيا في اقطار الشرق الادنى وكانت المنطقة الجبلية بشمال العراق من المراكز الاولى في هذا المضمار نظرا لتوفر المناخ المناسب والمياه الوفيرة والنباتات الطبيعية والحيوانات الوحشية والانسان النشيط .

اصل الزراعة وتدجين الحيوان

ان البحوث القليلة التي تناولت طبيعة العصر المكديني والعصر الحجري المتوسط لم تسفر بعد عن تحديد الاسباب الكاملة لقيام الزراعة في اقاليم معينة دون سواها ، ويظهر ان الصيادين كانوا قبل العصر الحجري الحديث بزمان طويل يستوطنون الاماكن المجاورة للانهار في مواسم الصيد لاقتناص الحيوانات الكبيرة وأسر صغارها التي تسير خلفها من اجل لحومها او لمجرد التمتع بها وقد لاحظ هؤلاء الصيادون نمو النباتات من بذور وثوى الثمار التي يجمعونها للاكل فيما جاور اماكن سكنهم غير انهم استمروا على الجمع

ولم يتعلموا الزراعة ورعي الحيوانات الا عندما احدثوا تحسينات على طرق صناعة الآلات الحجرية لقلع الاشجار في الغابات وتحويل الاراضي الى مزارع ولبناء العظائر لحماية الحيوانات من الوحوش الضارية ولحفظها من الهرب ولصنع الآلات الخاصة بالزراعة ، لقد بنى اهل العصر الحجري المتوسط جسرا للانتقال من الجمع والصيد الى الزراعة واستئناس الحيوان بعدة طرق كانت في مقدمتها مقدرتهم على تكيف الحيوان والنبات للتدجين وكانت عملية التدجين تدريجية بحيث يصعب تتبع مراحلها المبكرة ولكنها ادت بالتالي وبعد قرون عديدة الى قيام اقتصاد اصبح الصيد فيه مسألة ثانوية بالمقارنة مع الرعي والزراعة اللتين اصبحتا قاعدتين راسختين لاقدام الحضارات في العالم القديم .

ان المتأخرين من اهل العصر الحجري المتوسط في العراق هم الذين مهدوا لحدوث الانقلاب الاقتصادي الذي برز في الاساس من الاستزراع ويظهر ان الزراعة والرعي امتهنت في ظروف الجفاف النسبي التي تلت الفترة المطيرة الاخيرة ويرجح البعض اكتشاف الزراعة قبل تدجين الحيوان ويرى هؤلاء ان تدجين معظم الحيوانات التي تعاصرنا الان لم ينجح الا بعد ان تعلم الانسان انتاج المحصولات الزراعية واهم استثناء لذلك هو موضوع تدجين الكلب لان صحبة الانسان له بدأت في العصر الحجري المتوسط وكانت صلته به صلة منفعة متبادلة بين الاثنين ففي استطاعة الكلب بفضل مالديه من حاسة حادة في السمع والشم ان يقتفي أثر الصيد وان ينبه صاحبه الى اقتراب العدو وكان صاحبه يكافئه على ذلك باطعامه مما تبقى من الصيد .

ان تاريخ تدجين الحيوان يقدم لنا صورا مختلفة للتدجين من عدة نواح فقد اخذت عملية ترويضه في جميع انحاء العالم القديم وقتا طويلا بعكس النباتات التي زرعها الانسان اذ نجد نباتات معينة زرعت بشكل مستقل في منطقة معينة بينما نجد بعض حيوانات العالم القديم دجنت بعيدا

عن المنطقة التي ظهر فيها التدجين وذلك لقوة انتشار فكره تدجين الحيوان .
كما ان عدد الحيوانات التي افها الانسان اقل بكثير من عدد النباتات التي
زرعها والحيوانات المدجنة الآن تشل نسبة قليلة جدا في المملكة الحيوانية
وكان الصيادون في تدجينهم للحيوان يعتمدون على عدة امور منها سلوك
الحيوان الطبيعي الذي يجعله قابلا للتكيف في علاقاته مع الانسان وقدرته
على التناسل والتكاثر في الاسر وهذا الامر يتطلب الاستقرار ولذلك بقي
التدجين مدة طويلة من الزمن ينتظر بلوغ تلك المرحلة من الإقامة الثابتة .

ولم يكن لدى الانسان البدائي في المراحل الاولى سلوك تفهمي مقصود
تجاه التدجين ويبدو معقولا ان التدجين بدأ بتربية الحيوان في المنزل بغرض
الاستمتاع بصغار الحيوان لوجود اللفة بين اطفال الانسان واطفال الحيوان،
وبمرور الزمن تروست هذه الحيوانات في الاسر واستمرت هذه العملية فترة
طويلة من الزمن الى ان حصل التدجين لاغراض اقتصادية في المزارع والمراعي
من اجل اللحوم ، اما الفوائد الاخرى كالنسيج والالبان والنقل فقد حصلت
فيما بعد ، والحيوانات التي دجنت في الادوار الاولى من العصر الحجري
الحديث كانت مكيفة لبيئة الانسان قبل هذا العصر وكان للاختيار الطبيعي اثر
قوي في ذلك . وتختلف في استعدادها لتحمل بيئة جديدة . واستثناس أي حيوان
يتطلب توفر القدرة لدى الحيوان على الصمود وتحمل مايلقاه من معاملة لم
يتعود عليها والتعود على الاحساس بصلته بالمكان وبالناس حتى يبقى حول
القرية اذا ما اطلقوه وليس في مقدور كل انواع الحيوانات ان تكيف نفسها
على هذه الصورة ، فقد لاحظ البعض التغيرات الفزيولوجية (الوظيفية)
التي تظهر على الحيوانات المدجنة عند مقارنتها بمشيلاتها الوحشية فالحيوانات
المدجنة تكون عظامها اقل حجما واخف وزنا واكثر رخاوة ، وتظهر هذه
الفروق ظهورا جليا الى حد يمكن التمييز بين عظام الحيوانات المدجنة
والحيوانات المتوحشة من النوع الواحد اذا عثر على كليهما في التنقيبات .

وعلى الباحث في اصل التدجين الذي كان القاعدة الاساسية للثورة الزراعية ان يعتمد على الادلة التي يقدمها اختصاصات متعددة تأتي في مقدمتها الاسعانة بعلم دراسة شكل الحيوانات والنباتات وبنيتها والدراسات الخاصة باصولها الوراثية والدراسات الخاصة بتتابع الازمان وتوزيع الآثار التي يهتم بها علماء الآثار وكل حقل من هذه الحقول العلمية له طرقه الخاصة واصطلاحاته الخاصة ولكنها بتعاونها مع بعضها تستطيع ان تقدم الحلول لصعوبات ومشاكل عامة لها صلة بنشأ التدجين ، ويعرف الحيوان المدجن بانه الحيوان الذي يربى في الاسر وله فوائد للانسان والتدجين بهذا الاعتبار يمكن التدليل عليه اثاريا من خلال الكشف عن الآلات والادوات التي كان الانسان يستخدمها في علاقته مع الحيوان ومن خلال اعمال الانسان الفنية التي تشل الحيوانات المسخرة لخدمة الانسان في اعمال النحت البارز والمجسم واخيرا من خلال عظامه التي بقيت مدفونة في المواقع الاثرية فالتدجين حسب المفهوم الاثاري يشمل الحيوان الذي يسيطر عليه الانسان للاستفادة من لحمه وجلده وصفوفه وشعره ووبره ولبنه وفي الجرب والنقل والركوب ، اما التعريف الذي يعتمد على علم العظام الذي يهتم به علماء الحيوان فيعتبر الحيوان مدجنا بعد أن يربى تحت رعاية الانسان حتى تظهر منه سلالة اليقة تختلف عن السلالة الوحشية التي انحدرت منه ، فالتدجين حسب هذا التعريف يوضح على اساس شكل العظام وبنيتها ، والمفروض ان يوجد نوع من التطابق والتوافق بين النقاط التي يتناولها هذان التعريفان ولكننا نجد في كثير من الاحيان ان عالم الحيوان يقول لعالم الآثار ان العظام التي اكتشفها أثناء التنقيبات الاثرية يمكن ان تكون لحيوانات مدجنة لاعلى اساس الادلة النظامية المكتشفة بل لارتباط تلك العظام بمواد اثرية من صنع الانسان ، وعالم الآثار يقبل هذا الرأي ظنا منه انه يستند على دراسة العظام والمعروف ان وجود عظام الحيوان مع المواد الاثرية المصنوعة في مواقع الآثار لا يمكن اعتباره دليلا قاطعا على تدجين الحيوان في اغلب الاحيان .

وأفضل طريقة لتتبع جذور التدجين هو البحث عن المواطن الطبيعي للنباتات والحيوانات التي دجنها الإنسان بعد أن كان يحصل عليها في العصور السابقة للعصر الحجري الحديث بطريقة الجمع والجني والصيد أي أن المواطن الطبيعي للنباتات والحيوانات المدجنة هو الذي ينبغي تعيينه وتحديدته والبحث فيه عن أصل الزراعة والرعي ، وينبغي العثور في ذلك المواطن الطبيعي بواسطة التنقيبات الأثرية على بقايا لتلك النباتات والحيوانات تثبت أن الصيادين الذين عاشوا في ذلك المواطن الطبيعي اهتموا إلى الزراعة فعلاً والقوا الحيوانات الوحشية وربوها في مراعي بعد أن كانوا يخرجون لصيدها ، ويظهر من المخلفات الأثرية أن المواطن الطبيعي للتدجين كان في المنطقة الممتدة من هضبة الأناضول وأواسط آسيا والقفقاس ومناطق فلسطين وشمال العراق إلى جهات البرز الشرقية والمنحدرات الشمالية لجبال هند كوش ، وقد حدد علماء النبات مركزين في هذه المنطقة أحدهما في شمال العراق والثاني في آسيا الوسطى ، وفي الحقيقة أن محصولات هذين المركزين تتشابه مع بعضها إلى درجة عدم التفريق بينهما وكانت هذه المنطقة قبل أكثر من عشرة آلاف سنة تتوفر فيها الأشجار والأعشاب والحشائش وتمرح فيها حيوانات الصيد وكان الناس يحصدون القمح والشعير والشوفان التي كانت تنمو نمواً طبيعياً بمنازل من حجر الصوان ، ثم زرع سكان جنوب غرب آسيا القمح في العصور المبكرة كما زرعوا الشعير وإلى الشمال من مناطق زراعة القمح والشعير زرعوا الشوفان والجويدار ، ثم زرعوا في عصور لاحقة العدس والقنب والكتان والبنجر والبصل والقثاء والتفاح والكمثرى والأعناب والنخيل كما ألفوا الغنم والماعز والخنزير والحمير وفي عصور متأخرة الجمال ذات السنام الواحد والخيول ، ومن المحتمل أن تكون الخيول قد دجنت لأول مرة في أواسط آسيا من أجل لحومها كما دجن الخنزير فيما بعد في مركزين آخرين بشكل مستقل هما جنوب شرق آسيا وغرب أوروبا وكان المزارعون في جنوب

غرب آسيا هم الذين عرفوا حلب الحليب من الحيوانات لأول مرة وربما كان أول حيوان حلب لبنه هي العنزة ويؤيد ذلك ما وصل إلينا من المناظر التي نرى فيها صور الحلب ، وقد دخل الحليب في قائمة طعام الإنسان القديم وذلك بخلطه وغليه مع الحبوب المقشورة والمجروشة ، ومن مركز جنوب غرب آسيا انتشر الحلب إلى أقاليم أخرى •

إن سفوح جبال العراق الغربية توفرت فيها الأصول الوحشية للحيوانات والنباتات التي دجنها الإنسان وقد تم العثور في هذه المنطقة على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البوادر الأولى لعملية التدجين والثورة الزراعية وقد سبق لنا أن ذكرنا بعض تلك المستوطنات التي أجريت فيها التنقيبات الأثرية مثل بالي كورا وزاوى جمى وكريم شهر وملفعات وتدل الآثار المكتشفة في هذه المواقع على مرحلة انتقالية تدريجية إلى ممارسة الزراعة الحقيقية في قرى ثابتة مثل جرمو وحسونة والصوان وغيرها مما سيأتي الكلام عنها فيما بعد ، ففي هذه المنطقة الجبلية توفرت الأحوال الطبيعية من مناخ ملائم ومطر دائم وحيوانات وحشية ونباتات طبيعية وإنسان نشيط تمكن من تدجينها والاستفادة منها •

وللتأكد من صحة التدجين وتمييز عظام الحيوانات المدجنة بدقة فقد اعتمد في السنوات الأخيرة الإحصاء أي تسجيل عدد عظام الحيوانات التي كانت تعيش في زمن معين في الموقع الأثري وتحليل مثل هذا الإحصاء يمكن أن يشير إلى بعض نقاط التحول من الاعتماد الكامل على حيوانات الصيد في عصور سبقت التدجين بزمان طويل إلى الاعتماد على حيوانات الصيد التي سبقت التدجين مباشرة فإذا كانت نسبة الحيوانات القابلة للتدجين نسبة عالية في المجموع العام للعظام المكتشفة كان هذا دليلاً معقولاً على استنتاج نوع من سيطرة الإنسان على الحيوان وقد استخدمت

هذه الطريقة في تمييز عظام الحيوانات المستخرجة من بعض مواقع هذه المنطقة الجبلية في العراق فكانت نسبة عظام الماعز والاغنام المدجنة في كهف بالي كورا الذي يعود تاريخه الى اواخر العصر الحجري القديم الاعلى ٣٠٪ بينما بلغت هذه النسبة ٥٠٪ في مستوطن كريم شهر الذي يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط وبلغت ٩٥٪ في قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث ويلاحظ في هذه الارقام ان نسبة الحيوانات المدجنة الى غير المدجنة اخذت في الازدياد التدريجي في زمن تمت فيه سيطرة الانسان على النباتات وعلى قطعان الحيوانات ذات الالهمية الاقتصادية .

ان بداية الاعتماد على الحيوانات الاربعة وهي المعز والغنم والخنزير والبقر تقترن بالاستقرار الزراعي واحسن دليل على ذلك نتائج التنقيبات الالثرية في قرية جرمو اذ تبين من الاحصاءات المنشورة عن عظام الحيوانات المستخرجة من هذا الموقع ان نسبة عظام الحيوانات غير المدجنة بلغت ٥٪ فقط وهذا معناه ان الصيد اصبح حرفة ثانوية في هذه القرية وان الاعتماد الرئيسي كان على الزراعة والرعي ، ومما هو جدير بالذكر ان تاريخ هذه القرية قد تحدد باختبار كربون ١٤ الاشعاعي بحدود ٩٠٤٠ زائد اوناقص ٢٥٠ سنة مضت اى حوالي عام ٧٠٠٠ قبل الميلاد . ويظهر من الدلائل المتوفرة لدينا ان اقتصاد العصر الحجري الحديث المنتج المعتمد على الزراعة قد تطور لأول مرة في اقطار الشرق الادنى وفي الارجح في شمال العراق منذ الالف الثامن قبل الميلاد وفي هذه المنطقة انتشرت تجربة التدجين الى بقية انحاء العالم القديم كفكرة طبقت على الحيوانات الوحشية القرية في اصولها من الحيوانات التي سبق تدجينها وكحركة للحيوانات الى مناطق لم تسكنها من قبل .

الفرى الزراعية الاولى

ان الانقلاب الزراعي الذي شهده شمال العراق لم يكن حدثا فجائيا بل حصل بخطوات تدريجية ومراحل متعددة من التطور كانت القرية في بدايتها صغيرة وبداية ثم نأست فرى اكثر اتساعا ونظيما وتقدما في المراحل التالية حتى ظهرت بوادر المدن في فجر العصور التاريخية ، ففي القرى المبكرة ظلت حياة الانسان ضيقة تقل فيها الادوات المتنوعة لحياته المادية ، ويجد المنقبون بين الادوات القليلة المطاحن المؤلفة من حجرين يدور احدهما فوق الاخر او يضرب احدهما بالاخر ، ويجد المنقبون كذلك الاطباق الفخارية البسيطة لفصل الحبوب عن قشورها وتوجد ايضا المعازق والمحاريث البدائية والمناجل التي تتالف من شظايا حجر الصوان المثبتة بالقيرو رؤوس النبال والسهام الحجرية واقراص المغازل التي استعملت لغزل خيوط الصوف تمهيد لنسجها وفي هذا الوقت تعلم المزارعون صنع الفخار وكانت الاواني الفخارية من النوع البدائي الخالي من الزخرفة والالوان او ملونة بلون واحد وكانت تلك الاواني مصنوعة باليد اذ لم يخترع دولاب الخزف بعد .

وظهر نوع من تقسيم العمل مارسه المجتمعات الزراعية الاولى فكانت المرأة بالاضافة الى تربية الاطفال تقوم بطحن الحبوب وتهية الخبز والطعام وبالفزل لنسج الملابس والعناية بالحيوانات المدجنة في حظائرهما وكان الرجل يصنع الآلات الحجرية والاسلحة ويحمي المزرعة ويصيد الحيوانات ويعد الحقل للزراعة وكانت زراعة الفلاحين في هذه القرى زراعة محدودة بمساحة صغيرة من الارض تكفي لاعالة اسرة واحدة كما كانت زراعة حقلية خالية من البستنة وغرس الاشجار المثمرة التي لم تعرف الا في العصور التالية وكانت الزراعة متنقلة ايضا لان الارض بعد ان تستنفد خصوبتها يتركها الفلاح الى ارض خصبة اخرى ، ونجم عن هذا الا انقلاب

الزراعي نسوء الملكية الفردية أي ملكية المزرعة وادوات الانتاج البدائية والحيوانات المدجنة في المرعى وكان انتاج القوت يعتمد على الزراعة بالدرجة الاولى وهذه الزراعة كانت ديمية تروىها مياه الامطار في الاقسام الشمالية من العراق وهي كافية في العادة للانبات ، ومن المحتمل ان يكون موسم الزراعة هو الذي أوحى بفكرة التقويم الشمسي اذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من موسم حصاد الى موسم حصاد اخر ولعل انسان ذلك العصر استعان في ضبط تلك المواسم باقترانها مع طلوع بعض الكواكب والنجوم . اما حساب الشهور فقد ظل على النظام القمري في جميع العصور القديمة وما لاشك فيه ان سكان قرى هذه المرحلة الزراعية كانت عندهم عقيدة دينية ولعل اول معبود تصوره وعبدوه كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة على هيئة الهة تمثل الارض وخصبها وهذه هي الالهة التي يطلق عليها اسم الالهة الام التي تمثلها دمي الطين المصنوعة بهيئة نسوة بدينات وجد الكثير منها في قرى هذه المرحلة واهم تلك القرى :

قرية جرمو

على الرغم من مرور اكثر من ثلاثين سنة على البدء بالتنقيبات في قرية جرمو (نسبة الى قلعة جرمو الحديثة) فما تزال اثار هذه القرية تتمتع بالاولوية باعتبارها اقدم القرى الزراعية المكتشفة لحد الان ، تقع قلعة جرمو الى الشرق من بلدة جمجمال بنحو احد عشر كيلو مترا وعلى بعد ٣٥ كيلو مترا شرقي مدينة كركوك ، وجدت اطلال القرية القديمة ممتدة في مساحة تبلغ في معدلها ١٤٠٠ متر مربع وترتفع عن مستوى السهل المجاور بما يقرب من ٢٣ قدما . اكتشفت خرائبها المؤسسة العامة للآثار والتراث ثم سرعت بعثة من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو بالحفر فيها منذ عام ١٩٤٨ واستمرت لغاية عام ١٩٥٥ وقد اسفر الحفريات عن اظهار

ست عشرة طبقة اثرية او دور سكنية مشيدة بالطوف او الطين غير المنتظم وكانت الطبقات الاحدى عشرة الاولى اعتبارا من التربة البكر في الاسفل خالية من الاواني او الكسرات الفخارية ولذلك سميت هذه المرحلة القروية التي عاشها طلائع الفلاحين من سكان هذه الدور بفترة ما قبل الفخار مما يدل على انها فترة بدائية في سلم التطور القروي . وقد كشفت التنقيبات اثارا مشابهة لهذه الفترة في عدة مستوطنات قديمة في اقطار الشرق ادنى نذكر منها قرية اريحة في فلسطين وقرية جتل هويوك في اسيا الصغرى ، وفي جرمو وجدت الصناعات الفخارية في الطبقات الخمس العليا فقط ، وكان فخار الطبقتين الخامسة والرابعة احسن الانواع التي ظهرت في هذه القرية ولكن الاواني الفخارية بوجه عام تدل على انها سحجة سمكة الجدران هشة بسبب اعدادها في درجة حرارة منخفضة نسبيا وطينتها غير نقية مخلوطة بشوائب كثيرة وهي غير مدلوكة وغير مزخرفة ولكن قليلا من فخاريات الطبقة الخامسة والرابعة كان مزينا بخطوط متقاطعة بلون اسود او احمر . لقد وجد مثل هذا المستوى من الانتاج للفخار في قرى اخرى مثل قرية تسنارة في سهل رانية وهي قرية تعاصر موجوداتها بقايا اثار سكان قرية جرمو كما وجد في قرية اخرى تسمى كرد علي آغا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا شرقي نينوى .

والاهم من الفخار ان هذه القرية كشفت عن بعض الحبوب الغذائية البرية الصالحة للتدجين فقد وجد نوعان من القمح ليسا بعيدين عن الاصل البري الذي ينمو نموا طبيعيا في المنطقة ووجد نوع من الشعير ايضا وكذلك العدس والحمص ووجدت كميات من هذه الانواع من الحبوب متفحمة وينفس الوقت استمر جمع ثمار بعض الاشجار مثل البلوط والفسق على غرار ما كان يحدث قبل الاهتداء الى الزراعة بدليل وجود نماذج منها في الانقاض اما الحيوانات التي دجنها القرويون في شال العراق ووجدت

بقايا عظامها في قرية جرمو فكانت الماعز والغنم والخنزير ، اما البقر فيبدو ان تدجينه لم يحصل في هذا الوقت بل تأخر قليلا ، ووجدت كميات كبيرة من القواقع مما يدل على انها كانت تؤلف جزءا مهما من طعام القرويين .

اما الآلات والادوات المنزلية التي استخرجت من الانقراض فتدل على تطور وتقدم صناعي فوجدت مثلا الملاعق وابر الخياطة المصنوعة من العظام كما وجدت صنارات الابواب الحجرية والاولاني الحجرية ويستدل من اقراص المغازل الصوانية على معرفة بالغزل والحياكة مثل غزل الصوف والقنب ، اما الآلات الحجرية فكانت دقيقة الصنع قطعت من حجر الصوان او الزجاج البركاني ومن بينها سطايا صغيرة جدا كانت تثبت بالخشب بواسطة القير على هيئة مناجل تستخدم للحصد وكان اهل القرية يستوردون الزجاج البركاني من منطقة بحيرة وان في ارمينيا ، اما الآلات الكبيرة فقد صنعت من الحجر البركاني او حجر الرمل او حجر الكلس مثل القؤوس والرحى والمطاحين والمدقات والهواوين والاولاني المنزلية والمجارش المستخدمة في طحن الحبوب كما اكتشفت تنانير لعمل الخبز تشبه التنانير التي يصنعها القرويون في هذه الايام. ومن الكماليات ومواد الزينة التي استعملها سكان قرية جرمو القلائد من خرز مصنوعة من الحجارة والطين او الصدف او المحار والاساور المصنوعة من انواع جيدة من الحجارة كالمرمر والرخام كذلك صنعوا الخواتم والصخور المعبولة بنسكل مستوى لسحق الاصباغ وتحضير عجائن الالوان فوقها وفي الفترة التي سبقت صناعة الفخار في جرمو صنع البعض من السكان مجموعة من الدمى الطينية ومن بينها نماذج ممثلة لنساء عاريات ومنفذة بشكل مصغر وتبدو النسوة بدينات حبالى من النوع الذي فسر بانه اقدم نموذج لما اطلق عليه اسم الالهة الام التي ترمز لقوى الخصب والانجاب وقوى الطبيعة المولدة الغامضة .

وتطور البناء فبعد ان كان الفلاحون يسكنون اكواخا بدائية مستديرة

النكل في الفترات السابقة تعلموا بناء بيوت مستطيلة من اللبن وكانت بعض البيوت تبنى فوق اسس من الاحجار الطبيعية وكانت الجدران تكسى بطبقة من ملاط طين ناعم وبلطت ارضيات الدور فوق القصب كما استعمل القصب واغصان الاشجار لتسقيف البيوت وبلغ معدل طول الغرف في البيت الواحد ما بين خمسة او ستة اقدام وكان البيت الواحد يحتوي اكثر من غرفة واحدة وقد قدر رئيس هيئة التنقيب الاستاذ روبرت بريدوود عدد سكان هذه القرية بحوالي مئة وخمسين شخصا وخمن استمرار القرية بطبقاتها الست عشرة بمدة اربعة قرون *

الخلاصة ان قرية جرمو تمثل اقدم القرى الفلاحية وقد تأسست حين صارت الزراعة وتدجين الحيوان عماد حياة الانسان منذ انقلاب العصر الحجري الحديث في الالف الثامن قبل الميلاد ، بيد ان هذا التحول كان آنذاك ينصف بالاكتماء الذاتي أي ان كل عائلة مزراعة تنتج بنفسها وتصنع الادوات البدائية الخاصة بها ولم يظهر التخصص الكامل بعد في حياة الانسان ومع ذلك فقد كان هذا التحول الاقتصادي يحمل جنين التطورات التي حصلت تدريجيا في القرى التي تأسست في العصور التالية *

قرية حسونة

شهدت هذه القرية تطورات الثورة الزراعية بشكل اوضح مما في قرية جرمو كما انها تشير الى انتشار القرى في السهول الشمالية بعد بدء الاستيطان الزراعي في سفوح الجبال * يضم تل حسونة الذي يقع في ناحية السورة بحافظة نينوى بقايا قرية مبكرة قديمة تقع على بعد خمسة وثلاثين كيلو مترا جنوبي بلدة الموصل * يبلغ ارتفاع التل زهاء سبعة امتار عن السهل المجاور ، جرب فيه التحريات الاثرية بادارة المؤسسة العامة للاثار والتراث في عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وقد كشفت التحريات عن استمرار

استيطان حوالي عشرة اجيال من التجمعات السكانية التي وجدت محفلة في ست عشرة طبقة رئيسية ظهرت في اسفلها اثار منسوطن زراعي مبكر على مايسميه الاثاريون بالتربة العذراء ، ويبدو ان المستوطنين كانوا يكتون الخيام اذ لم يعثر على بقايا بيوت مشيدة بل على كليات من فخار العصر الحجري الحديث . وجاء بعد الفلاحين الذين سكنوا في مضارب الخيام احفادهم الذين وجدت اثارهم في الطبقات التالية وقد تقدم هؤلاء مراحل ابعدهم اسلافهم اذ صاروا يشيدون مساكنهم من الطين ولكنهم سرعان ما عرفوا صنع اللبن من الطين ووجدت في قريتهم التي شغلت الطبقات الخمس السفلى مخازن للحبوب على هيئة احواض وجرار كبيرة من الطين غير المفخور كانت تدفن في ارض الدار حتى حافاتها وتغطي فوهتها بالتراب والقير وكانو يخزون الخبز في تنور من الطين وصنعوا الاتهم وادواتهم المنزلية من الحجارة والطين والخشب كالهواوين ومناجل الصوان والمحارث ورحى الطحن والقووس الحجرية واقراص المغازل ودمى الطين التي تشير الى نوع من عبادة الالهة الام ويستدل من بعض الاثار المكتشفة ان الفلاحين زرعوا القمح والتعير من انواع برية كانت تنمو في المنطقة نموا طبيعيا وقد اعتسدا على امطار الديم وخصوبة الارض واستخدموا مناجل لحصد الحبوب قطعت من حجر الصوان او الزجاج البركاني تتألف من نظايا صغيرة مثبتة بالقير في حامل خشبي كما استعملوا اطباقا فخارية ذات تنوءات لجرس الحبوب وفصل قشورها واستخدموا رحي حجرية لطحنها ، ويظهر من عظام الحيوانات انهم دجنوا الاغنام والماعز وظهرت في هذه القرية عدة انواع من الاواني الفخارية فالقديم منها ردىء بسيط الشكل خال من النقوش الملونة او مزخرف بنقوش هندسية ذات لون واحد هو اللون الاسود اما النوع النموذجي فمزين بزخارف هندسية محزوزة او ملونة باللون الاسود او محزوزة وملونة بنفس الوقت ، وهناك النوع المتطور الذي يسميه البعض

مجر سامراء ويخصص له دورا حضاريا متيزا ، ومهما يكن فان هذا
مجر المتصور هو وجد اللون وفيه نماذج ملونة ومحرزة في ان واحد
وزخارفه هندسية وبعضها طبيعية تتواجد فيها الطيور والاسماك والعقارب
والايائل والبقر وجميع هذه الانواع مصنوعة باليد ويستدل من مواد
لاوجود لها في المنطقة على صلات خارجية بالغير فقطع الزجاج البركاني
استوردت من تركيا وارمينيا لعمل الآلات وخصوصا المناجل ورؤوس
السهام واستوردت الاصداف البحرية من منطقة الخليج العربي لصنع الحلبي
كما استورد القير من منطقة حمام العليل لطلاء اطباق الجرش ومخازن
الجبوب . وما يشير الى صلاتهم الخارجية المجاورة انتشار اوانهم الفخارية
في كثير من المواقع القروية وفي موقع اقطار الشرق الادنى المجاورة ، لقد
عرف زمن هذه القرية باختبار كربون ١٤ الاشعاعي لمادة عضوية من الطبقة
الخامسة وكان التاريخ ٧٢٥١ زائد او ناقص ٢٠٦ سنة مضت ومن المحتمل
ان تكون بدايات هذه القرية اقدم عهدا ولكن الاستيطان فيها استمر في عصور
لاحقة ايضا .

قرية الصوان

ومن المواقع الاثرية التي اكتشفت فيها اثار القرى الزراعية الموقع
المسمى بل الصوان الواقع على ضفة دجلة اليسنى على بعد نحو احد عشر
كـم من ارجاء بلدة سامراء وهو تل صغير يرتفع عن السهل المجاور زهاء
ثلاثة امتار . قام بالنحري في هذا التل المنقب الالماني هرتسفلد في عام ١٩١٢
اثناء حفراته في مدينة سامراء واتضح اهميته بعد دراسته من قبل
المحسب في المؤسسة العامة للآثار والتراث حيث وجد ان اغلب اللقى الاثرية
التي جمعت من سطح التل هي من فخاريات عصر حسونة القديم والمتطور
(عصر سامراء) فيسرب بالحفر فيه منذ عام ١٩٦٤ واسفرت تلك الحفريات
عن نتائج مهمة في خمس طبقات رئيسية وجميعها يمثل مرحلة زراعية اكثر

بعدما من تلك الي اسفرب عيا الحنريات في جرمو فعد وجدت في انفسنا
الاولى بفايا بيوت مسبده باللبن وهي على جانب كبير من التفور بالنسبة
الى البوت السابقة كما وجدت آثار حديق بعبر الاول من نوعه في العراق
كان عرضه ٢٥ مترا وعمقه ثلاثة امتار ووجدت آثاره في خمس نقاط وبدل
هذا الخندق على وجود جباعه مستقرة قادرة على الدفاع المنظم واعتسده
اهل الطبقة الاولى من هذا المستوطن في قوتهم على زراعة القمح والشعير
وكانت زراعة هذين النوعين من الغلال نعتسده على السقي كما هي الحالة الان
في نفس المنطقة لقله الامطار في وسط العراق وقد وجدت نماذج من الحبوب
المتفحصة في جهة من الضلع الشمالي من الخندق الدفاعي وتبين من دراسة
المختصين لها انها حبوب القمح والشعير وبذور الكتان والقنب وبالاضافة
الى الزراعة مارس القرويون رعي الحيوانات الاليفة وصيد الوحشية منها
فقد زودنا البحث الدقيق في التربة من مختلف اجزاء البقايا البنائية بسجاميع
من بقايا عظام الحيوانات المدجنة والبرية التي اقتات سكان المستوطن على
لحومها واستفاد من بفاياها الاخرى ، وقد اكد المتخصصون ان تلك
العظام تعود للخراف وكذلك الغزلان والثيران البرية ومن الابنية التي
نستحق الذكر بقاء واسع منسبد باللبن وجدرانها مطلطة بالطين يرجح ان تكون
له صفة عامة او دينية ولعله كان من بيوت العبادة ويؤيد هذا الاحتمال ماوجد
فيه من التماثيل الصغيرة من المرمر من النوع الذي يسمى بتسائيل الالهة
الام وكشف في الطبقات الاولى من هذا التل عن مجسوعات من الفسور
المهتة يربو عددها على مائة قبر وجدت فيها بالاضافة الى الهياكل العظمية
مجسوعة شينة من الاواني الحجرية ودمى صغيرة منحوتة من حجر المرمر
السعبي الجليل كما وجدت مجسوعة من الحلبي بعضها من احجار كريمة مثل
العقيق والفيروز والزبرجد وقد حفرت هذه القبور في ارضيات بيوت الطبقة
الاولى فوق الارض البكر ووجد في احدها هيكل امرأة مطلي بالمغرة دفنت

معها فلأند من الخزف المختلفة من بينها خزف من النحاس الخام ، ومما يلفت النظر في اثار هذه القبور كثرة ما وجد فيها من تلك التماثيل المنحوتة من المرمر ووجدت في المخازن والغرف اعداد كبيرة من الالات والادوات المصنوعة من الحجر استعملت لطحن وجرش الحبوب وتهيئة الطعام وللجراحة والحصاد ومن بينها مجارش بعضها بشكل سرج الحصان ومدقات كروية وطويلة وهواوين ومناجل من حجر الصوان وثقالات لجومة الحياكة وطبقات لمزج الاصباغ وصنارة باب ، وعثر على مجسوة جيدة من عدة الخياطة من العظم كالابر والمخارز وهي ادلة قاطعة على ممارسة سكان هذا المستوطن لخياطة الملابس من الجلد او الصوف او الشعر الذي كان يغزل بمغازل تصنع اقراصها من الفخار او الحجر ، والكشف عن ثقالات من الحجر او الفخار تعود الى انواع بدائية من جوم الحياكة خير دليل على حياكة الاقشعة ونهيتها للسلاسل والحاجيات الاخرى .

ان فخاريات تل الصوان تدل على ان المستوطن يمثل الحدود الجنوبية لانتشار القرويين من عصر حسونة فقد وجدت في الطبقات السفلى اوانسي وكسور فخارية من نوع فخار حسونة القديم ثم النموذجي ثم المتطور في الطبقتين الاخيرتين ، وقد توفرت كافة الانواع كالواواني البسيطة الخالية من النقوش والمدلوكة والملونة والمحززة ثم الملونة والمحززة بنفس الوقت . يعود تاريخ الطبقة السفلى من قرية الصوان حسب اختيار كربون ١٤ الاشعاعي لحوالي ٧٤٥٦ زائد او ناقص ٧٣ سنة مضت .

قرية مطارة

وجدت اثار زراعية مبكرة في تل قرّة يطخ الذي يبعد نحو اربعة كيلو مترات من بلدة مطارة التي تقع جنوبي مدينة كركوك ، لقد كشفت اثار هذا التل بعثة امريكية من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في سنة

١٩٤٨ ووجد شبه قوى بين اثارها واثار تل حسونة ولاسيما في الفخاريات حتى انه يمكن القول ان قرية مطارة تمثل تنوعا جنوبيا للماوجد في قرية حسونة من فخار قديم ونموذجي ومتطور اضافة الى الالات والادوات الزراعية وعظام الحيوانات المدجنة وبقايا الحبوب الزراعية مما يدل على ان سكان القرية لهم علاقة وثيقة بالزراعة وبرعي الحيوانات من اجل فوائدها الاقتصادية ويعود تاريخ هذه القرية حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي الى حوالي ٧٥٧٠ زائد او ناقص ٢٥٠ سنة مضت وقد استمرت هذه القرية مأهولة بالسكان في العصرين اللاحقين حلف والعبيد .

قرية ام الدباغية

وفي تل ام الدباغية التي تقع في هضبة الجزيرة على بعد ستة وعشرين كيلو مترا الى الغرب من مدينة الحضر وجدت بعثة انكليزية اطلال قرية زراعية كانت تعيش على زراعة القمح والشعير والعدس والبازلياء وعلى رعي الماعز والاعنام والماشية والخنازير وقد اتضح بان اقدم المقرات السكنية في هذه القرية كانت عبارة عن مباني مدورة او بيضوية متجاورة وقد استخدم بعض اجزائها للخبز ، وهناك مخازن تبدو وكأنها جماعية وليست خاصة بعائلة واحدة ويجدر بنا ان نذكر ان فخاريات هذه القرية تشبه كثيرا فخاريات قرى حسونة ومطارة مما يدل على تزامن هذه القرى الثلاث وعلى نوع من الصلات بينها ولقد تحددت بقايا هذه الفترة الحضارية تاريخيا بمقارنتها مع موقعين اخرين هما تلول الثلاث وتل السوطو ويؤرخ الموقع الاول باختبار كربون ١٤ الاشعاعي بحدود ٧٥٧٠ زائد او ناقص ١٢٠ سنة مضت .

قرية نينوى

تقع خرائب هذه القرية القديمة في مدينة الموصل تحت انقاض المباني

الاشورية في مكان يسمى تل فوينجق • قامت بعثة انكليزية من المتحف البريطاني بتحرياتها في عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ للحصول على فكرة عن تسلسل عصور قبل التاريخ في هذه المنطقة فكتشفت خمس طبقات رئيسية وجد فيها قليل من المخلفات وقد وجدت اثار قرية مبكرة في الطبقة الاولى المستقرة على الارض البكر وفي القسم الاكبر من الطبقة الثانية التي تليها حيث عثر على بعض انواع فخاريات حسونة واستمرت هذه القرية مأهولة بالسكان في الازمان اللاحقة في عصر حلف والعبيد وفجر التاريخ وفجر السلالات •

قرية يارم تبة

تقع انقاض هذه القرية القديمة في سهل سنجار على بعد سبعة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من بلدة تلعفر وتتألف من ستة تلول تمتد على جانبي نهر صغير يسمى آرى ثلاثة منها على كل جانب • جرت الحفريات فيها من قبل بعثة اثارية سوفيتية ووجدت اثار قرية مبكرة في التل الاول في اثنتي عشرة طبقة سكنية اما التل الثاني فقد بدأ الاستيطان فيه في زمن لاحق حيث وجدت فخاريات ملونة وغير ملونة ومبان مستديرة الشكل تعود لعصر حلف •

قرية شمشارة

تل شمشارة هو احد مواقع سهل رائية التي اسفرت التحريات الاثرية فيه عن نتائج مهمة من ناحية الزراعة والحياة القروية المبكرة • يقع هذا التل على الضفة اليمنى من نهر الزاب الصغير وعلى بعد نحو ثمانية كيلو مترات جنوب شرق بلدة رائية • وعندما بدأ تنفيذ مشروع خزان دوكان في عام ١٩٥٦ قامت المؤسسة العامة للاثار والتراث بتحريات اثرية في المنطقة التي غمرتها فيما بعد مياه هذا الخزان فرصدت كثيرا من التلول الاثرية ثم اختارت المهتم منها لاجراء تنقييات اثرية أنقاذية وكان نتيجة تلك التحريات

تسجيل نحو اربعين موقعا اثريا في منطقة الفيضان والشروع بالتنقيبات في المهم جدا منها منذ سنة ١٩٥٦ واستمر العمل الى عام ١٩٦٠ وكان السد قد تم بناؤه في عام ١٩٥٨ . وقد ابانت نتائج التنقيش والتنقيب ان هذا السهل الخصيب استوطنه الانسان في عصور القرى الزراعية المبكرة واستمر الاستيطان فيه في جميع عصور قبل التاريخ والعصور التاريخية التالية وفي تل شمشارة الذي ارتفاعه عن السهل المحيط به نحو تسعة عشر مترا نقبت بعثة اثرية دانمركية في عام ١٩٥٧ وبعد توقف اعمال هذه البعثة في عام ١٩٥٨ تولت المؤسسة العامة للآثار والتراث العراقية التنقيبات فكشفت في الخندق الاثري من اعلى التل الى اعلى الطبقات في الاسفل عن بقايا عشر طبقات اثرية تعود الطبقات الثماني الاولى منها (١٦-٩) الى عصر المرحلة الاولى من القرى الزراعية وكانت الطبقات الثلاث الاولى (١٦-١٤) خالية من البقايا الفخارية ويرجح انها كانت تعاصر قرية جرمو في الزمن الذي سبق صنع الفخار فيها ووجدت الات حجرية زراعية دقيقة الصنع اما القرى التي تمثلها الطبقات الاخرى (١٣-٩) فقد ظهر فيها الفخار الذي كان قوى الشبه بفخار حسونة مما يرجح تزامن القرينتين .

وفي الالف الخامس قبل الميلاد تأسست قرى المرحلة الثانية وهي اكثر تطورا من سابقتها وشهدت تقدما حضاريا مهما مهد الطريق لقيام الحضارة في مطلع الالف الرابع قبل الميلاد ففي هذه الفترة ازدادت القرى واتسعت رقعتها وتطور بعضها في النهاية الى المدن ، واتسعت الزراعة التي كانت تتصف فيما مضى بالاكتماء الذاتي من ناحية الانتاج الزراعي وصار الفلاحون يبادلون فائض الانتاج والسلع والحاجات التي تخصصت في صنعها وبعبارة اخرى ظهر في هذا الوقت تقسيم العمل وطلائع التخصص وفي هذا الوقت بدأ استيطان السهول الزراعية ثم السهول الرسوبية في الاقسام الوسطى والجنوبية من القطر وظهرت زراعة الري بالانهار والجداول وتميزت

فخاريات هذه القرى بكونها من النوع الملون والمزخرف وبعض انواعه من اجمل ما انتجته الحضارات القديمة •

قرية الاربعية

الاربعية او تبة رشوة كما تسمى في الوقت الحاضر تقع على بعد ثمانية كيلو مترات شمال شرق نينوى العاصمة الاشورية القديمة وهو تل صغير يرتفع عن مستوى الارض المجاورة بمقدار خمسة امتار ونصف المتر اكتشف هذا الموقع في سنة ١٩٢٨ وفي عام ١٩٣٣ تحرت فيه بعثة انكليزية وفي عام ١٩٧١ نقت فيه بعثة عراقية • تشتهر هذه القرية بفخارياتها الجميلة التي اكتشفت اول مرة قبل الحرب العالمية الاولى في تل حلف الذي يقع على نهر الخابور بالقرب من قرية رأس العين على الحدود السورية التركية ولما كانت الفخاريات لاثير اهتمام المنقبين آنذاك ، فقد بقيت أهمية الدور الحضاري الذي تشله تلك الفخاريات مجهولة الى ان نشرت المعلومات عنها في عام ١٩٣١ ومنذ ذلك الوقت بدأ الاهتمام بها وخصوصا بعد ان جرت التنقيبات في قرى قديمة اخرى وفي الحقيقة اتضحت أهمية تلك الفخاريات ومارافقها بشكل ادق بعد التنقيبات التي اجرتها البعثة الانكليزية هنا في قرية الاربعية حيث امكن تمييز دورين رئيسين الاول في خندق الاختبار العاشر والتاسع والثامن ، والثاني في خندق الاختبار السابع والسادس والخامس وامكن تمييز اثار الدورين ايضا فيما استخرج من سفوح التل ايضا واستمر الاستيطان في هذه القرية طيلة عصر العبيد التالي ومما يزيد الاعجاب بتلك الاواني الفخارية انها صنعت باليد حيث لم يستعمل دولا ب الخزف بعد ولكن روعة هذه الاواني وانتظام شكلها وجمال زخارفها مازالت تثير الدهشة والاعجاب وصنعت انواع عديدة من الاواني مثل القدور والصحون والاطباق والاقداح والجرار والاباريق اما الزخارف فهي ذات اشكال متناسقة كالنقوش الهندسية:

والنباتية والحيوانية مثل الازهار واوراق النبات والشجيرات والطيور والافاعي
والغزلان ، ورؤوس الثيران الطبيعية او المرسومة بهيئة رمزية وشاع تلوين هذه
الاولاني في الدور الاول باللون الاسود وفي الدور الثاني بلونين او بعدة ألوان،
كالاخضر والبرتقالي والاصفر والبني والاسود واختلف الباحثون في اصل هذا
الفخار وتحديد الموطن الذي نشأ فيه ، ويرى البعض انه من اصل سوري
ويرى آخرون انه من اصل اغريقي ويستدلون على ذلك بالمباني المدورة
الشكل التي عثر عليها في شمال العراق والتي وجد مثلها في قبرص وكريت
ومايسيناي من وقت احدث بالنسبة الى تاريخ اثار عصر حلف في العراق ،
يضاف الى ذلك استعمال بعض الدمى والرموز الدينية مثل الدمى التي تمثل
الالهة الام والحمامة والفأس ذات الحدين ورأس الثور ، وقد وجدت مثل
هذه الرموز في كريت ولما كان فخار حلف اقدم من هذه الاثار بعدة قرون فمن
المعقول القول ان هذه المظاهر الحضارية الاغريقية هي ذات تأثير عراقي ومما
يرجح رأينا في ان هذا الفخار من اصل محلي بشمال العراق هو اكتشافه في
قرى عراقية قديمة كثيرة قريبة من بعضها بشكل طباقى وسليم يتدرج فيه
تطور تقنية صناعته واشكاله ونقوشه من انواع بسيطة الى انواع معقدة
وراقية ووجوده مع فخاريات عصر حسونة السابق في طبقات انتقالية في عدة
قرى اثرية وهذا هو الذي يجعلنا نرشح شمال العراق موطننا له ويظهر ان
هذه الصناعة الفخارية انتشرت في الجهات الغربية بطرق القوافل التجارية
عبر الفرات والجزيرة الى منطقة البحر المتوسط والاناضول فقد وجدت في
منطقة الخابور في قرية براك وقرية شاغر بازار وقرية حلف وانتشرت كذلك
عن طريق نهر الباطح حيث وجدت في تل اسود وتل زيدان وعن طريق كركميش
(جرابلس) الى اوغاريت (راس شمرا) القديمة على ساحل البحر المتوسط
والى تلكي تبة على بحيرة وان في اسيا الصغرى *

وتشير سعة القرية التي اكتشفت بقاياها في تل الاربعية الى تقدم قرى.

الفلاحين من حيث التنظيم واساليب البناء واصبحت الاربعية بفضل ذلك اقرب ماتكون الى مدينة صغيرة تقدم فيها بناء بيوت السكن وترتيبها في شوارع مبلطة بالاحجار الطبيعية ومع ان الطين بقي المادة الشائعة في بناء البيوت الا انه ظهر كذلك استعمال اللبن . وفي أواخر عصر حلف تأسس في هذه القرية نوع غريب من الابنية هي الابنية المدورة التي اكتشف منها في قبرص وكريت ومايسيناي في البلاد اليونانية . وفي الاربعية وجدت عشرة مبان من هذا النوع يبلغ قطرها ما بين خمسة ونصف متر وسبعة امتار وهي مشيدة من الطين على اسس من الحجارة على هيئة خلايا النحل ويظن انها كانت تسقف معقودة ووجد للبعض منها مدخل امام البناء بشكل حجرة مستطيلة ولكن لم يعثر في أي منها على بقايا عظمية بخلاف مايمثلها من المباني القبرصية والميسينية التي كانت قبورا ولم يجد الباحثون حتى الان تفسيراً مقبولا وواضحا لوظيفة هذه الابنية في شمال العراق ، ويرجح البعض ان يكون الكبير منها كالمبنى الموجود في مركز قرية الاربعية نوعا من المعابد او المزارات الدينية او مضيفا للمجتمع القروي ووجد آخرون فيها طرازا خاصا من دور السكن وما يؤيد هذا الرأي الانواع الجديدة المكتشفة في قرية ترلو باسيا الصغرى حيث ثبت انها بيوت للسكن .

وبالاضافة الى الفخار والمباني السكنية وجدت في هذه القرية آلات وادوات زراعية وبقايا حيوانات مدجنة تدل على ممارسة الزراعة والرعي كما وجدت انواع جيدة من القلائد والاقراص الحجرية الصغيرة المزخرفة بخطوط مستقيمة او متقاطعة ربما كانت تستعمل لختم السدادات الطينية للجرار كما وجدت رؤوس العصي الحجرية والعود الحجرية والدمى الحيوانية والتماثيل البشرية للالهة الام التي صنعت بهيئة امرأة بدينة تضع يديها على ثدييها وجسمها مزين بخطوط ونقط يظن انها نوع من الوشم ، تعود هذه القرية حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي لنحو ٧٠٧٧ او ٦٩٨٠ سنة مضت .

قرية بانا هلك

يقع كرد بانا هلك في منطقة راوندوز على بعد كيلو متر واحد جنوب غرب قرية ديانا الحديثة وهوتل صغير لا يزيد ارتفاعه عن مستوى السهل المجاور اكثر من خمسة امتار . تقبت فيه بعثة امريكية من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في عام ١٩٤٥ واخرجت منه فخاريات حلف بنوعها الملون وغير الملون التي ظهرت نماذجها في قرية الاربعية ايضا .

وبالاضافة الى الاواني الفخارية فقد تم الكشف عن عدد من المخلفات الاثرية كالاولاني والالات الحجرية والصناعات العظمية ، ويظهر من اختبار كربون ١٤ الاشعاعي ان هذه القرية عاشت قبل ٦٩٠٤ زائد او ناقص ٧٢ سنة مضت وحسب اختبار آخر قبل ٦٨٠١ زائد أو ناقص ٨٥ سنة مضت .

قرية بكم

يقع تل بكم في وادي شهرزور . تحرت فيه المؤسسة العامة للآثار والتراث العراقية في سنة ١٩٦٠ وتبين لها ان القرية كانت مستوطنا تأسس في عصر حلف حيث وجدت فخاريات كثيرة من هذا النوع كما وجدت مبان مدورة الشكل على غرار المباني التي اكتشفت في قرية الاربعية ويظهر من وجود فخاريات اخرى ان القرية استمرت مأهولة بالفلاحين في عصرى العبيد والوركاء التالين .

قرية ابراهيم عزو

تقع اطلال هذه القرية على بعد سبعة عشر كيلو مترا شمال غرب مدينة الموصل . حفرت فيها المؤسسة العامة للآثار والتراث في عام ١٩٨٢ فوجدت مباني مدورة الشكل واواني فخارية حلفية الطراز كما استخرجت منها اواني حجرية ومجموعة من اقراص المنازل والادوات العظمية والدمى الطينية ويظهر ان القرية استمرت مأهولة في عصرى العبيد والوركاء التالين

قرية حسن

مخلفات هذه القرية القديمة يضمها نل معروف بهذا الاسم يقع بالقرب من عيون الخشالات بمنطقة حميرين ، وقد وجدت المؤسسة العامة للآثار والتراث العراقية فيه مستوطنا قديما بقيت منه مخلفات عمارية لمبنى مدور الشكل وفخاريات متعددة الالوان من عصر حلف ، ويبدو ان القرية استمرت في عصر العبيد التالي .

قرية جوخة مامي

نقع انقاض هذه القرية القديمة على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من بلدة مندلي . بدأت التنقيبات فيها بعثة اثرية مشتركة من المدرسة الاثرية البريطانية في بغداد والمعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في عام ١٩٦٧ وتم اخراج فخاريات عصر حلف من بئر في القرية وكانت هذه الفخاريات متعددة الالوان ولها شبه بفخاريات قرية الاربجية وقد امكن الوصول الى تاريخها بطريقة كربون ١٤ الاشعاعي بحوالي ٦٨٩٦ سنة مضت ويظهر ان القرية تمثل النهاية الجنوبية لانتشار قرى عصر حلف في العراق ، وتدل الآثار على استمرار السكن في هذه القرية في عصر العبيد وفجر السلالات والعصر الاكدي .

اما قرى المرحلة الثالثة فقد انتشرت في جميع انحاء العراق في عصر العبيد بينما كانت القرى السابقة منتشرة في المنطقة الشمالية بالدرجة الاولى ووجد قليل منها في الوسط ولم يعثر لها على اثر في الجنوب . فقبل نهاية عصر حلف في تبة كورا بدأت عناصر قوية من حضارة العبيد بالظهور ويمكن القول انه في المناطق الوسطى الجنوبية قامت المدن التاريخية المشهورة فوق انقاض القرى العبيدية كما تشير الى ذلك التحريات التي تمت في مدن كثيرة مثل اور واريديو ولجش ونقر والوركاء وغيرها ويمكن ان يقال ايضا انه في نهاية الالف الخامس قبل الميلاد كانت عدة قرى من عصر العبيد منتشرة على نهيرات

المتفرعة من الانهار الرئيسية وتتميز هذه القرى المتطورة بالاسوار وبازدياد عدد سكانها بدليل ازدياد عدد دور السكن وكثرة القبور التي تجمعت بهيئة مقابر عامة خارج المستوطنات فقد وجد مالا يقل عن الف قبر في اريدو وكانت هذه القبور منتظمة ومبنية باللبن وتطورت المعابد من حيث ازدياد مساحتها وتعدد مرافقها ومتانة بنائها وتطور طرزها العمارية وحصل بعض التقدم في التعدين اذ وجدت فؤوس نحاسية في قرية تبه كورا مع الالات التي صنعت من الحجارة او الفخار مثل رؤوس المحاريث التي كانت تجرها الثيران والحمير ومثل المناجل الفخارية واقراص المغازل والمسامير والاوئاد اما صناعة الاواني الفخارية فتدل على ضعف في المستوى الفني اذا قورنت بالاوواني الفخارية من القرى السابقة من حيث تقنية الصناعة والزخرفة والتلوين ، اذ لونت بلون واحد هو اللون الاسود ، وقد اضيف هذا اللون الى سطح خال من الطلاء اما النقوش الزخرفية فقد اصبحت اقل روعة وجمالا واتسعت الزراعة واصبحت بالضرورة زراعة ري في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبية وكانت زراعة الري في مراحلها الاولى تمثل اولى تجارب ومحاولات مشاريع الري وكانت في مقدمة العوامل التي حفزت الانسان على تنظيم المجتمع وظهور المعالم الاولى من نظام الحكم ، ومع ان الحبوب استمرت طعاما رئيسيا في الجنوب مثلما كانت في الشمال فان التمر دخل في قائمة مواد الطعام وكان السمك مع لحم المواشي مصدرا مهما للغذاء ، وكان لظهور المعبد اثر مهم في التنظيمات الادارية والاقتصادية والاجتماعية .

وكان لسكان هذه القرى اتصالات تجارية مع الاقطار المجاورة لتوريد المواد الضرورية وكانت تلك الاتصالات تستخدم في الغالب الطرق البرية مع بلاد الشام واسيا الصغرى وايران فقد وجدت لهم آثار كثيرة في القرى

الزراعية بهذه الاقطار مثل قرى وادى العمق وقرية الشيخ وقرية الاحيسر وقرية جدل وقرية مفش وقرية زيدان وقرية حلف في القطر السوري وقرية يومك وقرية كوبا وقرية سكجة كوزو بآسيا الصغرى وقرية الشوش في ايران ووجدت دلائل اثارية تشير الى ان بعض تلك الاتصالات كانت بطريق البحر ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في قرية اريدو ويعتقد ان اريدو واور القرية منها كانتا قريتين من ساحل الخليج العربي وربما كانتا تتصلان بالخليج بواسطة منخفض مائي كبير وفي السنوات الاخيرة تم تفتيش اثارى في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولاسيما في المناطق الساحلية من الخليج ورصد اكثر من سبعة عشر موقعا اثريا وجد في البعض منها اثار من عصر قرى العبيد كما وجدت آثار قروية من عصور لا حقة في واحة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين ومن بين العديد من المستوطنات الزراعية القروية القديمة التي كشفت عنها التحريات الاثرية نود ان نذكر هنا قرى : اريدو واور وحاج محمد والعقير وتبه كورا وخفاجة وتل اسمر ولجش والوركاء وبساية ونوزى وكري رش وقرة تبه وتل سفرة وبحريات والهبة وسنوجز في السطور التالية الكلام عن القرى التالية :

قرية اريدو

تقع قرية اريدو القديمة على بعد نحو اربعة وعشرين كيلو مترا جنوب غرب مدينة اور القديمة في منطقة رملية صحراوية ولكنها لم تكن كذلك في العصور السالفة ، اذ تشير الادلة الاثرية الى ان مجرى نهر الفرات القديم او فرع منه كان يرويه بعد مروره بمدينة اور القريبة منها وابرز ما يشاهد الآن في هذه القرية القديمة عدة مرتفعات تغطيها الرمال وبقايا برج مدرج بني في عصر فجر التاريخ ، باشرت المؤسسة العامة للآثار والتراث

تنقيباتها في السنوات ١٩٤٦ - ١٩٤٩ ونشرت النتائج في تقرير عام في سنة
١٩٨١ •

ويستدل من نتائج تلك التنقيبات ان اريدو كانت واحدة من اقدم
اماكن الاستيطان في السهل الرسوبي اذ وجدت فيها مخلفات تسع عشرة طبقة
اثرية تمثل كل منها دورا سكنيا وتعود الطبقات الخمس العليا منها الى عصر
الوركاء وفجر التاريخ وفجر السلالات والبقية الى عصر العبيد ، ويظهر من
نتائج التحريات ان استيطان الفلاحين في هذه القرية انقطع تقريبا من بعد
عصر الوركاء واقتصرت حياة القرية في العصور التاريخية اللاحقة على جملة
بنايات ذات طابع رسمي وديني تعهدها الموظفون والكهنة التابعون للمعبد
والزقورة وما يتبعهما وقد تبين ان اقدم قرية تأسست في الطبقة التاسعة عشر
فوق ارض كانت خالية من المباني مما يشير الى ان طلائع القرويين سكنوا في
الاكواخ . اما مباني القرى الاخرى في الطبقات التالية فقد شيدت من الطين ثم
من اللبن وكشفت التنقيبات بالقرب من منطقة الزقورة عن سلسلة من المعابد
شيد بعضها فوق بعض ، وكان المعبد السادس عشر قد سلم من التلف وبقي
محافظا على خصائصه العمرانية رغم ان تشييده كان باللبن ويتألف هذا المعبد
من حجرة مربعة تقريبا فيها دكة القرايين ومذبح المعبد وتتميز جدرانها
بالطلعات والدخلات وهي الميزة المعمارية التي ظلت ملازمة لبناء المعابد
العراقية الى اخر عهودها التاريخية القديمة ، وبمرور الزمن ازداد تطور البناء
في المعابد التالية فالمعبد الحادي عشر والعاشر والتاسع شيد باللبن واقسم
فوق مصطبة منحدرية الارتفاع ويرقى اليها بمنحدرات ترابية • كانت هذه هي
بداية الزقورات او الابنية الدينية المرتفعة التي تميزت بها حضارة العراق
منذ العصور التاريخية •

هريسة اور

وجدت بقايا قرية قديمة في تل المغير القريب من محطة القطار في الناصرية وقد جرت فيه تنقيبات اثارية في سنة ١٨٥٤ وسنة ١٩١٨ وسنة ١٩١٩ واكثر التنقيبات اهمية هي التنقيبات التي اجراها المتحف البريطاني بالاشتراك مع متحف جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الاميركية في السنوات ١٩٢٨ - ١٩٣٠ وقد لاحظ المنقبون وجود طبقة ثخينة من الغرين والرواسب الخالية من الاثار فيما بين ٦٩٠ مترا و ٢٠٥ مترا فوق مستوى سطح البحر وقد فسرت هذه الظاهرة بانها من اثار الطوفان المذكور في الكتب الدينية بعد ان وجدت كسورا فخارية وبعض الطابوق والرماد اسفل تلك الطبقة اذ استمر ظهور الاثار حتى توقف عند طبقة ترتفع بمقدار ١٠١ مترا فوق مستوى سطح البحر * واعتبرت هذه النقطة هي النهاية الفعلية السفلى للمستوطن العسدي الذي كان مأهولا بالناس قبل حدوث الطوفان واستمر مأهولا ايضا بعد الطوفان وفي العصور التالية ، وكانت المواد الفخارية المكتشفة قريبة الشبه جدا بتلك التي في قرية العبيد .

قرية حاج محمد

في قلعة حاج محمد التي تقع على ضفة نهر الفرات جنوب غرب الوركاء بنحو ثمانية عشر كيلو مترا قامت بعثة اثرية المانية بالتحريات في عام ١٩٣٥ - ١٩٣٧ ووجدت البعثة اواني فخارية وكسورا فخارية تحت طبقة ثخينة من الترسبات الغرينية يبلغ سمكها زهاء عشرة اقدام ولكنها كانت تظهر للعيان في جرف شاطئ النهر ابان انحسار ماء الفرات واعتقد البعض ان مكان هذا الاكتشاف هو بقايا مستوطن من عصور قبل التاريخ سبق عصر العبيد ولكن ارتفاع مستوى الارض بفعل الترسبات الغرينية جعله مطمورا تحت سطح

الأرض وفي الحقيقة وبعد دراسة الموجودات دراسة دقيقة اتضح ان المكتشفات تعود لقرية عبيدية *

قرية العقير

تقع ركام هذه القرية القديمة على بعد خمسة وسبعين كيلو مترا جنوبي مدينة بغداد وتمثل استيطاننا مبكرا في السهل الرسوبي ، وكشفت مؤسسة الآثار والتراث اثناء تنقيباتها في سنة ١٩٤٠ عن بيوت شيدت من اللبن وبنيت على جانبي ازقة او طرق مرصوفة ويحتوي البيت الواحد على عدة حجرات ذات تخطيط منظم الى حد ما ، ووجدت في هذه البيوت نماذج للتور شبيه بالتور العراقي الحديث ، واستعمل الفلاحون في هذه القرية المناجل والفؤوس المصنوعة من الفخار الصلب جدا المعد في درجات الحرارة العالية كما استعملوا الحجارة الطبيعية في صنع ادواتهم الزراعية المحدودة مثل المحاريث ولم يكن المحراث المعدني الكبير من النحاس قد شاع استعماله بالرغم من دخول النحاس عالم الصناعة على نطاق ضيق جدا، ووجدت كذلك ابر من العظم واقراص للمغازل تدل على تقدم في الحياكة والنسيج ، اما الفخار الذي صنعه اهل هذا المستوطن فهو من نوع صناعة عصر العبيد الذي يتميز باللون الواحد وهو اللون الاسود في الغالب ويظهر ان قرية العقير استمرت مأهولة بالسكان في العصر التالي وهو عصر الوركاء *

قرية تبة كورا

وهي من قرى المرحلة الثالثة وتعتبر نموذجية من ناحية سعتها وجودة مبانيها ومخلفاتها المتطورة * تقع خرائبها على بعد يزيد قليلا على العشرين كيلو مترا شمال مدينة الموصل وقد اسفرت التحريات التي قامت بها بعثة

جامعة بنسلفانيا الامريكية عن اظهار عشرين طبقة اثرية مسكونة تبدأ ازمائها من عصر حلف في الطبقة السفلى وتنتهي بالعصر الاشوري المتوسط ، ومعظم هذه الطبقات تمثل عصر العبيد حيث عثر فيها على كميات كبيرة من فخاريات هذا العصر وشيدت بيوت هذه القرية مثل باقي بيوت عصر العبيد الجنوبية باللبن ولكن بعض البيوت شيدت بالحجارة لتوفرها في المنطقة ووجدت في البيوت ادوات مصنوعة من النحاس اكثر مما في القرى الجنوبية ، ومن المحتمل ان تكون الادوات النحاسية في قرى الجنوب قد بلبت واندثرت بسبب كثرة الاملاح في تربة السهل الرسوبي وبلاضافة الى معدن النحاس وجدت بعض الكماليات مثل الخرز المصنوعة من الذهب ، ووجدت في تبه كورا بقايا ثلاثة معابد وهي تضاهي معابد اريدو من نفس العصر من حيث متانة البناء ودقة التصميم والى جانب ذلك عثر في الطبقة الثالثة عشرة على بناءين مدورين من النوع الذي شاع وجوده في قرية الاربعية في العصر السابق مما يدل على استمرار بعض التقاليد المعمارية في هذا العصر ومثل ذلك يقال ايضا عن دمي الطين التي تمثل الالهة الام وهي جالسة ، وبخلاف المقبرة التي وجدت في اريدو مبنية باللبن خارج القرية كانت القبور في تبه كورا عبارة عن حفر دفن اعتيادية بالقرب من المعابد ، اما الاطفال فكانوا يقبرون في جرار كبيرة من الفخار .

وفي قرى المراحل الاخيرة من عصور قبل التاريخ استمر التقدم الحضاري بوضوح في عدة مجالات فقد اكتشفت انواع جديدة من الفخار استخدم في صنعها الدولاب لأول مرة ، وظهرت من جديد الاواني الفخارية المتعددة الالوان بنقوش هندسية أو طبيعية وصنعت لأول مرة الاختام الاسطوانية واستعملت عجلة العربة في المواصلات وانتشر استعمال المعادن

وتقدمت الزراعة ووسائل الري من حيث الاتساع والانتظام وصنعت قطع فنية رائعة من النحت البارز والمجسم مثل مسلة صيد الاسود والائاء النذري والرأس الرخامي لامرأة ، وتطورت المعابد وازدادت سعة واناقة وزخرفة وظهرت المعابد العالية او الزقورات ويعد معبد قرية العقير من اولى المعابد العالية فقد اقيم على مصطبة بلغ ارتفاعها زهاء اربعة امتار وزينت جدرانه بصور جداريه ملونة جميلة للبشر والحيوانات ومن بين تلك الصور صورتان لاسدين رابضين وتعد هذه اقدم صورة جدارية اكتشفت لحد الان ووجد في قرية الوركاء عدد من المعابد بني كل زوج منها متجاورين لبعضهما ربما لعبادة زوج من الالهة .

وكان احد المعابد مزخرفا بنقوش تتألف من الطين المشوي لونت رؤوسها باللون الاسود والاحمر والاييض ، وفي الوركاء ايضا معابد للاله آنو تطورت الى زقورة ترتفع خمسين قدما وشيد فوقها معبد سمي بالمعبد الايض ووجدت اثار معابد متطورة اثناء التنقيبات في قرية جمدت نصر بالقرب من كيش، وقرية نقر بالقرب من عنك، وقرية خفاجي في منطقة ديالى وقرية تبه كورا وقرية برالك على الخابور ولاريب في ان ابرز انتاجات هذه المرحلة هو اختراع الكتابة لأول مرة في تاريخ الحضارة وكانت اولى نماذجها كتابة صورية .

المصادر

1. Braidwood, R., From Cave to Village in Prehistoric Iraq, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, No. 124, 1951.
2. Braidwood, R., et. al., The Iraq - Jarmo Project, Sumer, Vol. X, 1954.
3. Braidwood, R., The Near East and the Foundation for Civilization, Oregon, 1952.
4. Braidwood, R., and Howe, B., Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdistan, Chicago, 1960.
5. Braidwood, R., et. al., Matarra, A Southern Variant of Hassuna Assemblage Excavated in 1948, JNES, Vol. XI, 1952.
6. De Morgan, Memoires de la delagation en Perse I, 1900.
7. Garrad, D., Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Merd, 1930.
8. Ingholt, H., Danish - Dokan Expedition, Sumer, Vol. XIII, 1957.
9. Lloyd, S., and Safar, F., Tell Hassuna, JNES, Vol. IV, No. 4, 1957.
10. Lloyd, S., Tell Uqair, JNES, Vol. 11, No. 11, 1935.
11. Mallowan, M. and Rose, J., Prehistoric Assyria, Excavations at Tell Arpachiyah, Iraq, Vol. 2, 1935.
12. Oates, J., Choga Mami, 1967 - 1968, Iraq, Vol. 31, 1969.
13. Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolithic Site in Northern Iraq 1955.
14. Solecki, R., Zawi Chemi Shanidar, Warsaw, 1961.
15. Tabler, A., Excavations at Tepe Gawra, II, 1960.
16. Woolley, L., Ur Excavations, Vol. IV, The Early Periods, 1956.
- ١٧- تقي الدباغ : الاثار والمستوطنات الزراعية الاولى في العراق . مجلة الاستاذ ١٩٦١ .
- ١٨- تقي الدباغ : الاثار وتدجين الحيوان . مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد لسنة ١٩٨١ .
- ١٩ - تقي الدباغ ووليد الجادر : عصور قبل التاريخ . بغداد ١٩٨٣ .

الفصل الخامس
الديانة
والبحر الأول
المعتقدات الدينية

د. فوزي رشيد
المؤسسة العامة للآثار والتراث

نشأتها

ان مبدأ التطور الذي يتحكم في جميع النتاجات البشرية سواء كانت تلك
النتاجات مادية أم فكرية يفرض علينا القول بان المعتقدات الدينية لفترة
العصور التاريخية لا بد وان تكون منشعبة عن المعتقدات التي سادت خلال
الحضارات الزراعية التي انتشرت في الاقسام الشمالية من العراق خلال الفترة
المحصورة ما بين ٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق م ، مادمننا نعتقد بان اصل القوم الذي
سكن قسمه الجنوبي من بعد تكونه في اواخر الالف السادس قبل الميلاد يتمثل
في المناطق التي شملتها هذه الحضارات الزراعية .

معلوماتنا عن هذه الحضارات تؤكد انها كانت تعتمد في زراعتها

بصورة رئيسية على المطر كما هو الحال في الوقت الحاضر بالنسبة لزراعة الحبوب في المناطق الشمالية من العراق والسبب في ذلك واضح وبسيط لان اراضي هذه المناطق متموجة ولا ينفع معها استخدام انظمة الري ولذلك فأنها مضطرة للاعتماد على مياه الامطار . وبسبب هذه الحقيقة فان اولى هذه الحضارات الزراعية الدائمة قد نشأت في المناطق التي كانت امطارها الفصلية كافية لنمو الزرع اي عند سفوح الجبال في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق .

ومن خلال الآثار التي خلفتها لنا هذه الحضارات الزراعية الدائمة تأكد لنا بان سكانها قد عبدوا الخصوبة وكل شيء يساعد على وفرة الانتاج في الحياة وقد رمزوا لهذه العبادة بالدمى المصورة للالهة الام . والسبب الذي دعا سكان هذه الحضارات الى عبادة الخصوبة يرجع الى انها كانت العامل المهم والاساسي الذي يتحكم في حياتهم حيث مادامت كمية الامطار كافية لنمو الزرع فان الانتاج الوفير لا يتحقق الا من خلال توفر الخصوبة في الارض غير ان انتشار هذه الحضارات منذ بداية الالف السادس قبل الميلاد في المناطق الواقعة جنوب خط المطر والممتدة حتى موقع تل الصوان الواقع الى الجنوب من مدينة سامراء الحالية قد ادى الى زعزعة اركان تلك العبادة حيث ان امطار هذه المناطق السنوية كانت متذبذبة وغير مستقرة ونقص بالتذبذب هو ان كميتها تكون سنة كافية لنمو الزرع وفي السنة الاخرى غير كافية .

وهذا التذبذب في كمية الامطار دفع انسان تلك المناطق الى ان يتجه باظاره الى العوامل الجوية المؤثرة على المطر والزرع والحصاد اكثر من اهتمامه بالخصوبة وكل مايولد الوفرة في الانتاج لان الخصوبة بدت لا قيمة لها بلا مطر ذي كمية كافية لنمو الزرع ، والحيوانات التي هي مصدر اساسي لتوليد الغذاء يتهدد حياتها ايضا انعدام الزرع الذي يتسبب المطر في نموه ولذلك

ثلاث دمي مختلفة لالهة الام ، يشاهد فيها التركيز على المناطق الخصبة في المرأة



فان هذه الظروف قد ادت الى ظهور فكرة دينية جديدة تعتمد في طقوسها على قدسية العوامل الطبيعية والنظر الى الماء على انه اساس الحياة .

ومما لا شك فيه ان المناطق ذات الامطار المتذبذبة لا يمكنها ان تستوعب كثافة سكانية عالية حيث كثيرا ما يصادف ان يوزع انتاج العام الواحد على مدى عامين وذلك تحسبا للسنين الشحيحة المطر . وهذه الحقيقة تؤكد على ان اية زيادة في عدد السكان عليها ان تهجر المنطقة والا فان التوازن بين عدد السكان وكمية المواد الغذائية المنتجة سوف يختل ويؤدي الى نتائج وخيمة على سلامة المجتمع وأمنه ومادام سكان هذه المناطق هم اصلا من المناطق الشمالية كذلك فان العدد المتزايد والفائض عن الحاجة لا طريق امامه يستطيع ان يسلكه سوى الطريق المؤدي الى القسم الجنوبي من العراق لان القسم المذكور كان انذاك في بداية تكوينه وخاليا من البشر ، وعلاوة على ذلك فان كثرة اهواره وماتحتويه من اسماك وطيور توفر الغذاء السريع لمن يقدم له ولذلك كانت الزيادات الحاصلة في المناطق ذات الامطار المتذبذبة تتجه على الفور الى القسم المذكور وهذه الجماعات المهاجرة نقلت معها اليه فكرة عبادة القوى الطبيعية المؤثرة في المطر والزرع والحصاد ونشرتها فيه .

الآلهة السومرية الرئيسية

بالرغم من ان مذكراته عن نشأة المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية يستند على اسباب منطقية الا ان ذلك وحده ليس كافيا مالم تكن طبيعة الديانة خلال العصور التاريخية تنسجم ونوعية الاسباب التي شرحناها ومما يؤكد على ان الفترة التي انتشرت فيها حضارة سامراء قد ادت الى ظهور افكار دينية جديدة اعتمدت في اساسها على تقديس العوامل الجوية المؤثرة على المطر وعلى الزرع والحصاد وان هذه الافكار التي انتقلت الى القسم الجنوبي من العراق هي من نوعية الآلهة الرئيسية التي عبدها السومريون والتي كانت تمثل بالآلهة انو ، اله السماء والآله أنليل ، اله الهواء والآله افسكي

اله الارض والاله اوتو (= شمش) اله الشمس ، تلك الالهة التي ذكرتها وعظمتها اغلب الملاحم والاساطير السومرية والبابلية ومادامت هذه الالهة تمثل فعلا العوامل الجوية المختلفة او انها تحتضن تلك العوامل فان ذلك يؤكد صحة مذهبنا اليه .

ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص ايضا هو ان الملاحم المذكورة قد بينت لنا ان سكان بلاد وادي الرافدين لم يتساءلوا على الاطلاق عن نوعية القوة التي قامت بخلق الالهة الرئيسة بل اعتبروا وجودها من الامور الازلية التي لا تحتاج الى نقاش وان هذه الالهة هي التي قامت بخلق الكون والانسان . وسبب هذا الايمان واضح وبسيط ايضا لانهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل على حياتهم وعلى محاصيلهم الزراعية ولكنهم لا يعلمون كيف تكونت في الاصل فحولوها الى الهة واعتبروها ازلية ايضا وفيما يلي نقدم ماهو متوفر من معلومات عن ابرز هذه الالهة .

(١) الاله آنو — وهو اله السماء ويقع ترتيبه من حيث الاهمية في قمة الالهة السومرية الرئيسة ويكتب اسمه بالعلامة المسماة التي كانت في الاصل صورة تشبه صورة النجمة ذات الثمانية رؤوس وبواسطة هذه العلامة كتبت كلمة سماء وكلمة اله ايضا ولذلك استخدمت علامة النجمة ذات الثمانية رؤوس كعلامة دالة تسبق اسماء جميع الالهة العراقية القديمة .

وعند التحري عن سبب كتابة اسم الاله آنو وكلمة اله المطلقة بنجمة ذات ثمانية رؤوس تأكد لنا بان هذه الرؤوس الثمانية ماهي في حقيقتها الا مؤشرات الى جميع جهات الكون الجغرافية وهذا يعني ان هذه الرؤوس الثمانية كانت تعبر عن الشمول وتهدف ايضا الى التأكيد على ان الاله موجود في كل مكان من الكون .

المرحلة التطويرية التي مرت بها المعدن مع السحابة الخاصة بالاله آنو

الفترة السومرية ٢٩٠٠-٢٥٥٠ م	الفترة البابلية القديمة ٢٥٠٠-١٥٠٠ م	الفترة الحديثة ١٥٠٠-٦٥٠ م	الفترة الحديثة ٦٥٠-١٥٠ م	الفترة الحديثة ١٥٠ م - الحاضر

ومما يؤكد ان هذه الرؤوس الثمانية لا علاقة لها بالنجمة بل انها تؤشر فعلا جميع جهات الكون هو ان العلامة لم تستخدم اطلاقا للدلالة على النجمة ولكن شبهها للنجمة دفع العراقيين القدامى الى ان يكتبوا كلمة نجمة

بتكرار العلامة المذكورة ثلاث مرات كي يفرقوا بين كلمة « آنو » اله وبين كلمة « نجمة » والاله آنو كما يبدو من النصوص المسماة والد للعديد من الآلهة ، مثل اله الهواء أنليل ، واله الجواشكور (= ادد) والهة الحب والحياة اانا (علما ان هناك اعتقاداً آخر مفاده بان الآلهة اانا هي ابنة لاله القمر) وهو ايضا والد الآلهة بابا الهة مدينة لكش وزوجة الاله نكرسو والآلهة كاتوم دوك ، التي تعتبر ام جميع الاطفال وام مدينة لكش والآلهة نسابا الهة الحبوب وعلاوة على ذلك فقد كان الاله آنو والدالعدد من الجن والعفاريت ووالد الآلهة الشريرة السبعة التي تدعى « سييتو » *

ومن خلال ابوة هذا الاله لعدد من الآلهة الطيبة وابوته ايضا لعدد من العفاريت والارواح الشريرة اضافة الى قيامه بكثير من الاعمال المؤذية للبشر دفع ذلك العراقيين القدامى الى ان يروا في هذا الاله السبب في معظم ماكان يصيبهم من خير او شر ومن ابرز اعمال الاله آنو السلبية اتجاه البشر هو ماخبرتنا به ملحمة كلكامش حين اكدت على ان الاله آنو هو الذي خلق ثور السماء بناء على طلب الآلهة اانا (= عشتار) وانزله الى الارض ينشر بواسطته الرعب بين البشر وان كلكامش ورفيقه انكيديو هما اللذان اتقذا البشرية من شرور هذا الثور وان الاله آنو هو الذي قرر موت كلكامش بعد ان تحول الى رجل يؤمن بان خلود البشر يتحقق من خلال القيام بالاعمال الجبارة المفيدة للشعب ولل البشرية عموما وهو الذي خلق للبشرية اله المرض والهة الموت . ومما لاشك فيه ان السبب الذي جعل الاله آنو يبدو بنظر سكان بلاد وادي الرافدين على انه مصدر الخير والشر في آن واحد يعود الى ان السماء هي التي تحتضن العوامل الجوية التي تؤثر سلبا او ايجابا على الانسان وعلى موارده الغذائية هذا وقد اعتبرت الارض على انها زوجة الاله آنو ولكنها ماكانت تسمى « كي » وهو الاسم الاعتيادي للارض بل سميت « اوراش »

ومنذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد بدأت التسمية « كي » تحل محل التسمية « اوراش » .



رمز الاله آنو

وفيما يخص اللغة الاكدية فقد اطلقت التسمية « آنتوم » على زوجة الاله آنو . ومدينة الوركاء التي كانت تتألف من منطقتين هما كولاب و « اي انا » كانت تمثل مركز عبادة هذا الاله وعبادة ابنته انا حيث ان الاله آنو قد عبد بصورة خاصة في منطقة كولاب والالهة انا عبت في منطقة « اي انا » وشعار الاله آنو على المنحوتات وخاصة على احجار الحدود هو التاج المقرن والموضوع فوق دكة .

(ب) الاله أنليل — وهو اله الهواء ويأتي في المرتبة بعد الاله آنو اله السماء لانه كما ذكرنا احد ابناء الاله المذكور . ومما يشير الانتباه في هذا الاله هو كثرة القابه حيث لقبته النصوص المسمارية المختلفة بسيد جميع البلدان وبأبي جميع الالهة وبالجبل الكبير وبالاله الذي يقرر المصائر والاله الذي لا رجعة لقراراته وبصاحب العينين البراقطين وبالاله الذي يمتلك بين يديه الواح القدر . وعلاوة على ذلك فان الملاحم الخاصة بخلق الكون قد اكدت

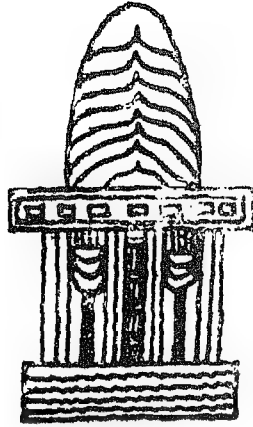
- على ان الاله انليل هو الذي قام بفصل السماء عن الارض وهو الذي خلق القأس اداة العمل ، ومدينة نر هي مقر عبادة هذا الاله وهي تبعد بمسافة ٧ كم عن ناحية عفك في محافظة القادسية والنصوص المسمارية قد اوضحت لنا اهمية هذا الاله واهمية مدينة نر من خلال التقليد الذي كان يفرض على بقية الآلهات ان تذهب سنويا لزيارة الاله انليل في مقر عبادته وتطلب منه الرحمة والبركة لحكام المدن التي تعبد فيها تلك الالهة . ومعبد في مدينة نر يسمى «ايكور» ويعني « بيت الجبل » وهذا المعنى ينسجم مع اللقب « الجبل العظيم » الذي هو احد القاب الاله المذكور ويشير ايضا الى ان لقب الجبل العظيم كان من ابرز القاب الاله انليل والا لما سمي معبد بيت الجبل والسبب في نشأة هذا اللقب ربما يرجع الى قدرة الهواء على جلب العواصف الترابية الكبيرة او الغيوم الكثيفة التي تشبه الجبال العالية في اشكالها .

ولاله انليل مواقف سلبية ايضا اتجاه البشر والالهة فقيما يخص البشر فهو الذي قرر الفيضان على الارض الذي اباد كل البشر باستثناء من انقذهم « اوتونا بشتهم » في سفينته وذلك وفق ما اخبرتنا به قصة الطوفان احدى اجزاء ملحمة كلكامش الشهيرة وهو الذي كان يلاحق كلكامش ورفيقه انكي دو بخلق المشاكل امامهما ليمنعهما من اداء مهمتهما .

وفيما يخص مواقفه من الالهة ، فالالهة « نكال » زوجة اله القمر قد حملت الالهين انو وانليل مسؤولية دمار مدينة اور على يد العيلاميين والسوئيين واطافة الى ذلك فان الاله انليل هو الاله الوحيد من بين الالهة الذي اغتصب زوجته نليل . وحول هذا الاغتصاب هناك ملحمة ملخصها هو ان والدة الالهة نليل قد نصحت ابنتها بالاستحمام في قناة تسمى « نويرا » وقالت لها بان الاله انليل سوف يغازلك وعليك ان لا تمانعي وفعلت الالهة

نليل ما اوصتها به والدتها ولكنها مع ذلك لم تستجب لنزول الاله الليل مما دفعه ذلك الى اغتصابها فحملت منه نتيجة ذلك الاغتصاب بالاله « نار » اله القمر وبناء على ذلك فقد قرر الالهة الخمسون الكبار والالهة السبعة التي تقرر المصائر في مدينة نمر اداثته على عمله اللا اخلاقي فطرده من مدينة نمر وعلى اثر ذلك خرجت الالهة نليل من المدينة ايضا لمتابعته وفي اثناء ذلك قام الاله اينليل بأخفاء شخصيته عن الالهة نليل وجعلها تحمل منه بثلاثة الهة اخرى اضافة الى الاله نار اله القمر ومن دون ان تعرف بأن الفاعل هو الاله أنليل نفسه وهذه الالهة الثلاثة الاخرى كانت جميعها من آلهة العالم السفلى .

وبناء على ماتقدم فان العراقيين القدامى كانوا يرون في الاله أنليل الاله الذي لا يرد له طلب ولذلك نصحت والددة الالهة نليل ابتها بالاستجابة لنزول الاله أنليل لأنها كانت تعرف مسبقا ان ممانعتها معه لا تنفع بشيء وكانوا يرون في القمر ايضا على انه متولد من علاقة غير شرعية . وتفسير هاتين الظاهرتين يعود في اعتقادنا الى ما يحدثه الهواء من عواصف واعاصير وغير ذلك من حالاته المتعددة التي لا يستطيع الانسان التحكم بها ومعنى ذلك انه يفعل ما يشاء ولا يستطيع احد ان يقف في طريقه ونحن حتى الوقت الحاضر نصف ايضا الاشخاص غير مستقرى السلوك بالهوائيين ، وفيما يخص نظرة سكان بلاد وادي الرافدين الى القمر فتعود ايضا الى انه الجرم الوحيد في السماء الذي يماثل تقريبا الشمس في حجمه الظاهري ولكنه متلون ويضيء مرة ويختفي في المرة الثانية ليس له ثبات لا في شكله ولا في ضوئه مثلما هو الحال مع ثبات شكل الشمس وضوئها تقريبا ولذلك شبهوا سلوكيات القمر بسلوكيات الابناء غير الشرعيين . اما رمزه ضمن المنحوتات واحجار الحدود فهو التاج المقرن الموضوع فوق دكة وهو بذلك يشبه تماما رمز والده الاله أنو .



رمز الاله انليل

(ج) الاله انكي - وهو اله الارض واله المياه الجوفية ومرتبته بين الآلهة تأتي بعد مرتبة الاله انليل ولهذا الاله ضمن اللغة الاكدية تسمية اخرى تختلف عن تسميته السومرية وتلفظ « ايا » وسبب ذلك ربما يعود الى ان اقوام الجزيرة العربية قد سوا الارض كاله قبل مجيئهم الى بلاد وادي الرافدين ولذلك كانت له في لغتهم تسمية ولا بد لهذه التسمية ان تختلف عن التسمية السومرية وذلك للفرق الكبير الموجود بين اللغتين .

وعلاوة على ان الاله انكي هو اله الارض وسيد المياه الجوفية فقد اعتبرته النصوص المسمارية على انه اله الحكمة ايضا وبحوزته القوى الالهية التي تسمى سومريا « مي » ولذلك كانت الالهة تستشيريه في المواقف الصعبة وتطلب منه النصيح والمساعدة ومن ابرز الامثلة على ذلك هو ما جاء في اسطورة نزول الالهة انا الى العالم السفلي حيث ارادت انا ان ينزل بها في اسطورة على العالم المذكور وتخليص البشرية من الموت وان خوف الالهة انا من فشل مهمتها لثلاثيتها اختها « ايرش - كيكال » ملكة العالم السفلي جعلها تحتاط للامر فأوصت وزيرتها الالهة « نشوبر » وقالت لها ان لم اقلح في العودة من العالم السفلي بعد ثلاثة ايام فعليك ان تسألني الاله انليل ليقوم بمساعدتي وان

رفض فأسألي الاله نثار ،اله القمر ، وان رفض فأسألي الاله انكي وبالفعل فان الاسطورة قد بينت بان الاله الذي تدخل فعلا في مساعدة الالهة انا هو الاله انكي وانقذها من موت اكيد .

والاله انكي على العكس من الالهين انو وأنليل فهو دائما حسن النية والشعور اتجاه البشر ، وملحمة الطوفان شاهد اكيد على ذلك حيث ان الاله أنليل قرر احداث الفيضان واغراق البشر بينما الاله انكي يقوم بأخبار اوتو نابشتم بقرار الالهة وطلب منه ان يهدم بيته ويبني له سفينة ويضع فيها من كل زوجين اثنين واطافة الى ذلك فان الملاحم الخاصة بخلق الانسان قد اعطت للاله انكي دورا فاعلا في عملية خلق الانسان .

وانكي هو والد الاله اسارلوكي (مردوخ) الذي يعمل على مساعدة والده في الطقوس الخاصة بطرد الجن والارواح الشريرة من اجسام المرضى لانه يستطيع ان يرى تجمعات الجن والارواح الشريرة فيصنفها لوالده بدقة ، ومهمة الاله اسالوكي دليل اخر على محاولة الاله انكي للقيام بكل ما هو يساعد البشر ويوفر لهم الصحة والسعادة ومن ابناء وبنات هذا الاله هي نانشيه الحدي الهات مدينة لكش ومن اهم مهامها كانت مهمة تفسير الاحلام .



رمل الاله انكي

ومدينة اريدو من اقدم المدن السومرية في عبادة هذا الاله ، ومعبد فيه يسمى « اي - ايسو » أو « اي اينكورا » ورمز هذا الاله هو كائن مركب من صخلة وسمكة ، تمثل الصخلة الجزء الامامي منه والسمكة تمثل الجزء الخلفي منه مع دكة لمعبد .

وحول الاله انكي عدد من الاساطير ، اهمها الاسطورة المعروفة باسم انكي والالهة ننخرسالك حيث لهذه الاسطورة علاقة بنظرة العراقيين القدامى الى الفردوس والى مكان وجودها . تبدأ هذه الاسطورة بذهاب الالهة ننخرسالك الى دلمون (= البحرين ودولة الامارات العربية) التي رأى فيها السومريون جنتهم وتطلب هناك من الاله انكي ان يحول مياهها الجوفية الى مياه عذبة صالحة للشرب ولسقي المزروعات باعتباره المسؤول عن المياه الجوفية وبعد ان يقوم الاله انكي بالمهمة على خير مايرام يقوم بمضاجعة الالهة « نن - تو » وهو الاسم الاخر للالهة ننخرسالك وبعد فترة حمل مدتها تسعة ايام تلد له الالهة « نن - مو » وبعد ولادة هذه الالهة يبدأ الاله انكي بعشقها عشقا عظيما يؤدي به الى مضاجعتها وبعد حمل مدته تسعة ايام ايضا تلد له الالهة « نن - كورا » ومن ثم يفعل الاله انكي الشيء نفسه مع الالهة (نن - كورا) وبعد فترة حمل تسعة ايام تلد له الالهة « اوت - تو » . الهة النسيج والغسيل وعند هذا الحد تتدخل الالهة ننخرسالك في الامر وتعلم الالهة « اوت - تو » كيف تتصرف مع الاله انكي لتوقف بذلك هذه الولادات ومع ذلك فان الاله انكي يستطيع من التسلل الى حديقة بيت الالهة « اوت - تو » على اعتبار انه بستانى خبير باشجار الفاكهة ومن خلال هذه الحيلة يتمكن الاله انكي من مضاجعة الالهة « اوت - تو » وهنا تأتي الالهة ننخرسالك وتتدخل بالامر بصورة فعلية بحيث جعلت البذرة التي زرعها الاله انكي في رحم الالهة « اوت - تو » تعطي ثمانية انواع من النباتات بدلا من ان تنسب في ولادة اله او الهة ويبدو من الاسطورة ايضا ان الاله انكي

يطلب من وزيره انسمى « اسيمو » ان يجمع له هذه النباتات وبعد ان تسم له ذلك قام بأكلها جميعا فغضبت لذلك الالهة نخرسالك والقت بلعنة الموت عليه ولكي لا تغير في قرارها اختفت من بين الالهة •

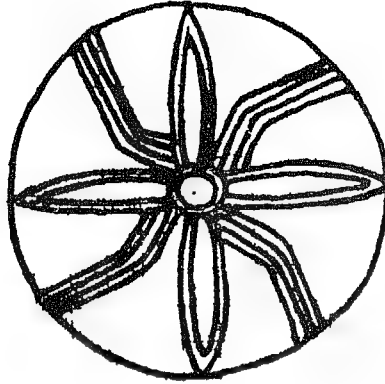
وبدأت صحة « انكي » تتردى ومرضت ثمان من جوارحه • ولما كاد الاله « انكي » يشرف على الموت حزنت الالهة العظام وجلسوا في الرغام حتى أنليل اله الهواء حار في الامر ولم يستطع ان يفعل شيئا لاققاذ « انكي » فأنبى الثعلب وقال للاله اينليل انه اذا أحسن مكافأته فسيأتي بالالهة نخرسالك من مخبئها ونجح الثعلب بطريقة لم تتمكن من التعرف عليها بسبب النقص الموجود في النص المسماري من جعل الالهة نخرسالك تقرر العودة الى مجمع الالهة وتشفي اله الماء المشرف على الموت فأجلسته بجانبها واخذت تسأله عن علله فذكر لها ثمانية انواع من المرض فخلقت الالهة نخرسالك لكل واحد منها الها خاصا لشفائه ولما ان شفي انكي من امراضه عاد الى تبوء مركزه بين الالهة وقرر مصير كل اله منهم وخصص لبلاد دلون الها خاصا بها يسمى « اينزاك » •

(د) الاله اوتو - وهو اله الشمس وبالرغم من انه من جملة الالهة الرئيسة الا انه يأتي في المرتبة من بعد مرتبة اله القمر والعلامة المسمارية التي كتب بها اسم هذا الاله كتب بها ايضا كلمة « يوم » وللصفة « ناصع » واسم هذا الاله يلفظ باللغة الاكدية « شمش » والاله شمش اعتبرته النصوص المسمارية على انه ابن اله القمر ، ولذلك جاءت مرتبته من بعد مرتبة والده واعتبر ايضا اخا للالهة انا (= عشتار) اما زوجته فأسمها سومريا هو « شي - نير - دا » وبالاكدية « ايا » ورسوله هو الاله بوينه والاله شمش الذي يستطيع ان يكشف بضيائه الظلمات وهو قادر على رؤية كل شيء لذلك اعتبر اله الحق والعدل وعلاوة على ذلك فقد اعتبر سيد الكهانة والعرافة ومما يلفت النظر في موضوع هذا الاله هو ان الحرارة التي تسببها الشمس

في أحر شهور فصل الصيف لم تنسب الى الاله شمش من قبل سكان بلاد وادي الرافدين وانما اعتبروا الاله نركال احد الهة العالم السفلي هو السبب في ذلك وكذلك اله النار المسمى « كييل » وحسب المعتقدات السومرية فان الاله شمش يغور ليلا في البحر وفي الصباح يطلع من بين الجبال ومشهد ظهور الاله شمش من بين الجبال مصور على الاختتام الاسطوانية بهيئة رجل تخرج من ظهره أحزمة الاشعة الشمسية وهو واضع قدمه اليمنى على جبل وفي يده منشار وامامه آلهان يفتحان له ابواب السماء *



والاله شمش لا يختلف عن الاله انكي من حيث نواياه الحسنة نحو الالهة والبشر ففي ملحمة كلكامش يساعد كلكامش وانكيدو على قتل حارس غابة شجر الارز خمبابا بديلا عن الالهة انا في اسطورة نزول الالهة انا الى العالم السفلي وهو الذي ساعد ايتانا على ان يجد النسر الذي صعد به الى سماء الاله انو ، اي السماء السابعة ليحصل من الاله المذكور على النبات الذي يشفي زوجته من العقم في اسطورة ايتانا وفيما يخص رمز الاله اوتو (= شمش) فهو قرص الشمس ، الذي يرسم في اغلب الاحيان مثلما هو مصور في الرسم التخطيطي المرفق واما مركز عبادته فقد كان في مدينة سبار وفي مدينة لارسا ايضا *



رمز الاله اوتو (= شمس)

ابرز الآلهة الممثلة للسلطات السياسية

بالرغم من ان الالهة التي سنتحدث عنها في هذه الفقرة تعتبر اركانا بارزة في هيكل معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين ، الا انها مع ذلك ترمز بالدرجة الاولى الى السلطة السياسية اكثر من رمزيتها الى السلطة الدينية . والسبب في ذلك يعود الى ان المعلومات التاريخية قد اكدت على ان العراق القديم قد شهد منذ بداية النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد مرحلة انتقال قيادة السلالات السومرية من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية ذلك الانتقال الذي رجبت به السلطة الدينية نفسها، لان ظروف تلك السلالات آنذاك كانت بحاجة الى القيادة العسكرية اكثر من حاجتها الى السيادة الدينية وذلك من اجل المحافظة على كيانات تلك السلالات وحماية اراضيها الصالحة للزراعة ، تلك الاراضي التي كان قسم كبير منها يعود الى ملكية المعبد ، أي الى ملكية السلطة الدينية .

(أ) الاله نكرسو - ومعنى اسمه هو « سيد مدينة كرسو » وهذا المعنى لأسمه يؤكد على انه الاله الرئيس لمدينة كرسو ، احدى المدن التي شغلتها سلالة لكش وانه ايضا تجسيد للسلطة الحاكمة في تلك المدينة ، أي

نجدد للسلطة السياسية التي ظهرت الى حيز الوجود كما اشرنا منذ حوالي ٢٥٠٠ ق م ، وذلك لان اسمه لم يرتبط باي مظهر من المظاهر الطبيعية او بأية مهمة من مهمات الالهة الاخرى ، بل نسبت اليه وظائف ومهام كثيرة . لهذا الاله عدد من الاخوات والاخوة وقد عبدوا جميعا وبصورة خاصة ضمن منطقة نفوذ سلالة لكش وهم الالهة فانشيه مفسرة الاحلام والالهة نسابا ، الهة الحبوب ، والالهة كاتوم دوك ، التي توصف بأمر جميع الاطفال والالهة خيندورسكا ، الذي يسمى ايضا « ايشوم » وهو البطل ومقدم المشورة الى الاله نركال ، اله العالم السفلي ، اما زوجته فهي الالهة بابا ، اخت الاله آنو وفيما يخص والده فان الاله نكرسو يعتبر ابنا للاله اينليل اله الهواء . وعلاوة على ذلك فان النصوص المسمارية قد اعتبرت الاله نكرسو صورة ثانية للاله نورتا واعتبرته ايضا « الها » للخصوبة وسييدا للاراضي الزراعية ومنظما لقنوات الري . واطافة الى هذه المواصفات المرتبطة بشؤون الزراعة والري فقد صورت النصوص المسمارية الاله نكرسو ، الاله المحارب .

واوسع المعلومات عن الاله نكرسو مثبتة في كتابات الامير كوديا . ٢١٤٤ - ٢١٢٤ ق م ثاني أمراء سلالة لكش الثانية . وهذه الكتابات قد وصفته بأنه اله العدالة علاوة على مهامه الاخرى اما مظهر هذا الاله الخارجي فقد جاء وصفه كاملا في كتابات الامير المذكور ، حيث اكدت هذه الكتابات على انه كان كبيرا بحجم السماء والارض وان رأسه كرأس الاله وان جناحه تشبه جناحي الطائر آنزو ، وان القسم الاسفل من جسمه كان البركان .

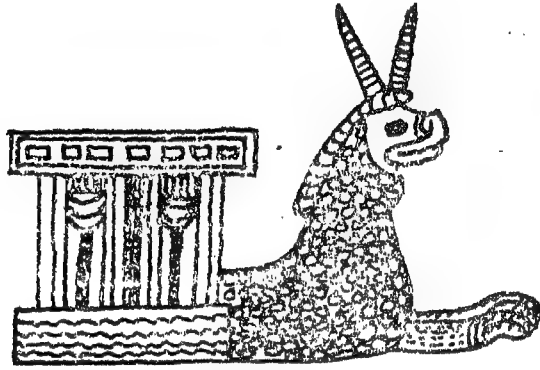
ومعبد هذا الاله في مدينة لكش يسمى بمعبد « الاينينو » ومعناه معبد الخمسين ، اما رمزه على المنحوتات فهو صورة الطائر المعروف بأسم « آنزو » . (ب) الاله مردوخ - وهو اله مدينة بابل الرئيس ومعنى اسمه باللغة السومرية « عجل اله الشمس » اما اسمه باللغة البابلية فهو « مار - دوكو »

اي بمعنى ابن الاله « دوكو » ومعنى دوكو هو « التل المقدس » والذي يعتبر على أنه مجلس الالهة ، ويقع ضمن المنطقة الجبلية الشرقية لمنطقة بابل ، اي ضمن سلسلة جبال حميرين . ظهر اسم الاله مردوخ منذ عصر ميسالم ، حوالي ٢٦٠٠ ق.م اما ارتباط اسمه بمدينة بابل واتخاذها له كآله رئيس فقد حدث ذلك منذ زمن سلالة اور الثالثة ٢١١١ - ٢٠٠٣ ق.م . والاله مردوخ يعتبر ابنا للاله انكي بينما المعنى الذي يتضمنه اسمه يشير الى علاقته بالاله شمش اكثر من علاقته بالاله انكي .

واقدم وصف ادبي للاله مردوخ ظهر في مقدمة شريعة حمورابي وقد جاء فيه مايلي :

« عندما (قضيا) الاله آنو المتسامي ، ملك الأنوناكي والاله انليل سيد السماء والارض مقرر مصائر البلاد ، قضيا للاله مردوخ الابن البكر للاله انكي (ان يتمتع) بقدسية الاله انليل على كل البشر وجعله عظيما بين الهة الايكيمي » وعندما عظمت مكانه مدينة بابل في زمن الملك حمورابي وخلفائه واصبحت عاصمة لسلالة بابل الاولى التي أقامت دولة واسعة الارحاء ارتفع شأن الاله مردوخ وصار مقدسا في جميع البلاد ، ولهذا السبب اعتبرت قصة الخليفة البابلية الاله مردوخ على انه هو الذي قام بخلق الانسان وهو الذي قرر قيامه بالعمل ، الذي كانت تقوم بأدائه الالهة قبل خلقه . ومنذ ١٤٠٠ ق.م انتقلت بطقوس الاله مردوخ الى منطقة اشور ، فأصبح منذ ذلك الحين منافسا مؤثرا للاله اشور في منطقة اشور نفسها ومادام الاله مردوخ كان بالدرجة الاولى رمزا للسلطة السياسية البابلية فقد انيطت به ايضا الكثير من المهام . وذلك على غرار مارأيناه مع الاله تكرسو ، لذلك اشارت النصوص المسمارية الى انه اله الحكمة واله طرد الارواح الشريرة وشافي الامراض وسيد القنوات والحقول والاله الحاكم والمجلب للضياء . وللاله مردوخ عدة رموز، الاول هو الرمز المستخدم في مدينة بابل والذي هو عبارة عن حيوان مركب كل عضو فيه

مأخوذ من حيوان يختلف عن الحيوان المأخوذ فيه العضو الاخر . وهذا الحيوان المركب يدعى باللغة البابلية « الموشخوشو » اما رموزه الاخرى فقد ظهرت على احجار الحدود حيث يصور احيانا بدكة معبد مع حيوان الموشخوشو او دكة معبد موضوع فوقها اداة المر . ومعبد في بابل يسمى ايساكيلا ويعني المعبد المرفوع الرأس .



رمز الاله مردوخ

(ج) الاله اشور - وهو الاله القومي للاشوريين . والشئ الغريب في اسم هذا الاله هو أننا لا نعرف معناه ولا نعرف ايضا اصله ، ولذلك نعتقد ان اصله قديم جدا وربما يعود الى فترة العبادات الطوطمية . ومما يؤكد على قدم اسم هذا الاله هو ظهور اسمه ضمن كتابات ابيلا المسمارية التي تؤرخ في حدود ٢٥٠٠ ق م ، وآخر ذكر للاله آشور ظهر ضمن الكتابات الaramية المكتشفة في الحضر في حدود القرن الثاني بعد الميلاد . ومنذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد اخذ الاشوريون يشبهون الاله آشور بالاله انليل ولذلك صارت القابه نفس القاب الاله المذكور وهي « الجبل الكبير » و « سيد البلدان » و « ابو الالهة » ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد اصبح اشور مساويا للاله « ان - شار » والد الاله آنو ، وبذلك ارتفعت مكانة الاله اشور فوق جميع الالهة .

والنصوص المسمارية لم تذكر لنا اسم والد الاله اشور ، وهذه الحقيقة ربما
نعتبر دليلا اخر على ان اصل هذا الاله قديم جدا . اما زوجته فهي عشتار
الخاصة بمدينة اشور . والاله ننورتا ابن الاله انليل اعتبر ايضا على انه ابن
الاله اشور . ومن القاب الاله اشور الاخرى هي « سيد جبال حميرين »
ورمزه هو قرص الشمس المجنح وفي داخلها محارب يحمل قوسا . اما مهام
الاله اشور فهي كثيرة ايضا مادام هذه الاله يمثل السلطة السياسية ، لذلك
اعتبر الاله المقرر للمصائر والاله الحاكم والاله المقاتل واله الحكمة ايضا .



رمز الاله اشور

خلق الكون والانسان

لم يترك العراقيون القدامى جانبا من جوانب الحياة الا وناقشوه مناقشة
موضوعية تنسجم وطبيعة المرحلة الحضارية التي يعيشونها ، ففيما يخص
خلق الكون والانسان فان الملاحم والاساطير المتعلقة بالموضوع قد افرزت لنا
بعض الاختلافات في وجهات النظر وخاصة فيما يتعلق بخلق الانسان والاله
الخالق له ، حيث ان بعضها قد اعتبرت الاله انليل على انه الخالق للكون

وللإنسان والبعض الآخر اعتبرت الآلهة أنكمي هو الخالق للإنسان ، ومجموعة أخرى اعتبرت الآلهة مردوخ هو الخالق للكون وللإنسان .

وهذا الاختلاف في وجهات نظر الملاحم والأساطير قد ساعدنا على معرفة الأصول الأولى لتلك المعتقدات وساعدنا أيضا على معرفة المراحل التطورية التي مرت بها . علاوة على أن هذا الاختلاف يعتبر الدليل الأكيد على موضوعية العراقيين في هذا الخصوص ، وأن الآراء التي قدموها وأن اختلفت في بعض الجوانب فهي لم تنبع من الخيال وإنما هي نتائج طبيعية لذلك الصراع المستمر بين الإنسان وبيئته ولتوضيح ذلك نشير إلى أننا قد ذكرنا بأن المعتقدات السومرية التي تمثلت بتقديس العوامل الطبيعية التي سادت في الألف الرابع قبل الميلاد قد ظهرت بدايتها الأولى في الأقسام الشمالية وخاصة في المناطق ذات الأمطار المتذبذبة . وهذا يعني أن الأشخاص الذين فلسفوا هذه الديانة الجديدة لأول مرة كانوا يعيشون في منطقة لا تشبه في طبيعتها طبيعة القسم الجنوبي من العراق . ولذلك لم نجد في أقدم الآراء الخاصة بهذه المعتقدات الجديدة سوى تأثيرات المنطقة التي ظهرت فيها تلك المعتقدات وطبيعة المنطقة التي ظهرت فيها المعتقدات الجديدة لأول مرة كان لا يعوزها سوى سقوط المطر بالكميات الكافية لنمو الزرع وما دام الهواء كان العامل الفعال في جلب المطر أو إبعاده ، لذلك صار لآله الهواء دور كبير في الموضوع ، وليس هذا فحسب وإنما اعتبر الآلهة أنليل آله الهواء ضمن المعتقدات الجديدة على أنه خالق الكون وخالق الإنسان .

ومما يؤكد على ما ذهبنا إليه بخصوص الآلهة أنليل هو لقبه « الجبل العظيم » حيث يؤكد هذا اللقب على أن تعظيم هذا الآلهة كان منذ الفترة التي كانت لا تزال فيها المناطق الشمالية ممثلة لمركز الحضارة . وعلاوة على ذلك فإن أقدم الملاحم الخاصة بخلق الإنسان والتي تسمى « المعول » تقدم البرهان الأكيد على ذلك ومضمونها كالآتي :

« السيد الاله انليل قد جعل كل ماهو نافع يبدو ناصعا
السيد الذي تقريره للمصير لا يمكن ان يتغير ،
قد اسرع لفصل السماء عن الارض
قد اسرع لفصل الارض عن السماء ،
وبعد ذلك عمل على ان يظهر الانسان الاول ،
فحفر شقا في الارض في منطقة دورانكي ،
وخلق المعول ، وعندها انتهى النهار ،
ثم قرر واجبات العمل وقرر المصير •
وبينما كان يثبت مقبض المعول ومقبض سلة العمل ،
مجد الاله أنليل المعول الذي قام بخلقه ،
وجلب المعول الى « اوزو - آيا » •
ووضع بدايات البشرية في الشق ،
وعندما بدأ البشر يظهر مثل الحشيش من الارض ،
كان الاله انليل ينظر مرتاحا الى شعبه السومري ،
ووقفت الى جانبه الهة الانوناكي ،
واضعة ايديها على افواهها ،
وهي تقدم الصلوات للاله انليل ،
ووضعت المعول في ايدي الشعب » •

والسبب الذي دفعنا الى الاعتقاد بان ملحمة « المعول » قد كتبت قبل
انتقال الافكار الجديدة المتمثلة بتقديس العوامل الطبيعية الى القسم الجنوبي
من العراق هو انها الملحمة الوحيدة التي تؤكد ان الانسان قد ظهر مثلما
يظهر الحشيش من باطن الارض ، وان فكرته مثل فكرتها لا بد ان تكون
انعكاسا لمفهوم زراعي صرف • وهذا التفكير الزراعي هو الذي كان سائدا
ولاشك في الاقسام الشمالية من العراق ، وخاصة خلال الفترة التي سادت

فيها الحضارات المعتمدة على الزراعة الدائمة خلال الفترة المحصورة ما بين ٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق م .

وتأكيدنا على ان مثل هذه الافكار ما هو الا انعكاس لمجتمع زراعي صرف يعود الى ان افكار الملاحم والاساطير التي انتجت بعد سكنى القسم الجنوبي من العراق ما هي الا انعكاس واضح لمجتمع زراعي صناعي ، وضافة الى ذلك فأنها كانت تعتمد على مقومات متوفرة بشكل بارز في القسم الجنوبي من العراق .

هذا ومن الاساطير الاخرى المتعلقة بموضوع الخلق وخاصة خلق الحيوان والنبات والتي يعتقد ايضا على انها قد كتبت قبل الانتقال الى القسم الجنوبي من العراق هي اسطورة « اله الشعير - أشنان - والنعجة » ومضمون هذه الاسطورة هو ما يلي :

« على جبل السماء والارض ،

قد ولدت الهة الانوناكي العظام ،

لان أشنان اله الشعير لم يولد بعد ولم ينبت بعد ،

وان الاله « اوت - تو » لم يخلق الخيط في البلاد بعد ،

وان الاله « اوت - تو » لم يحفر الحفرة بعد ،

ولم تخلق النعجة بعد ولم تتكاثر الحملان ،

ولم تخلق العنزة بعد ولم تتكاثر صغارها ،

ولم تلد النعجة توأما بعد ،

ولم تلد العنزة ثلاثة توأمة بعد ،

لان الهة الانوناكي العظام واشنان المليء بالطهارة لم يعرفوا النعجة بعد ،

ولان شعير « شيكوشو » ذا الثلاثين يوما لم يعرف بعد ،

ولان شعير « شيكوشو » ذا الاربعين يوما لم يعرف بعد ،

ولان شعير « شيكوشو » ذا الخمسين يوما لم يعرف بعد ،
ولان الشعير الصغير ، شعير المنطقة الجبلية وشعير (آدم - كو) لم
يعرف بعد •

الملابس التي يرتديها المرء لم تعرف بعد •
والاله « اوتو » لم يك قد ولد بعد ولم يلبس تاجه بعد ،
والاله « سموقان » لم يذهب الى البلاد الجافة بعد ،
البشر الاوائل لم يعرفوا اكل الخبز بعد ،
ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد •
وكانوا يسرون على ايديهم وارجلهم •
وكانوا كالخراف يعلقون الحشيش ،
ومن القنوات يشربون الماء •
آنذاك في المكان الذي كانت فيه الالهة •
في معبدهم ، التل المقدس ، قررت الالهة ظهور النعجة والشعير •
في المعبد ، المكان الذي تأكل فيه الالهة الخبز ،
تجمعوا على انتاج النعجة والشعير
واكل آلهة الانوناكي ، الهة التل المقدس ،
ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الشبع •
المشروب اللذيذ ، انتاج حضيرة الاغنام ،
شربته آلهة الانوناكي ، الهة التل المقدس ،
ولكنهم لم يبلغوا مرحلة الارتواء •
في حضيرة الاغنام الطاهرة تركوا مايسعدهم ،
تركوا البشرية روح حياتهم •
آنذاك تكلم الاله اينكي الى الاله انليل •
ايها الاب انليل : ان النعجة والشعير ،

التي نمت في التل المقدس ،
تتمنى قفلها من التل المقدس الى الارض •
وبناء على طلب الاله انكي واستجابة الاله انليل له ،
فقد انتقلت النعجة والشعير من التل المقدس الى الارض » •

وعلاوة على ان فكرة هذه الاسطورة هي الانعكاس لتفكير رراعي صرف ،
فأن احداثها تتضمن ايضا البدايات الاولى للزراعة ولعملية تدجين الحيوان ،
حيث ان الحديث عن ظهور النعجة والشعير لا يدل الا على بداية الانسان
لممارسة الزراعة وتدجينه للحيوان ، كما انها اي الاسطورة قد عكست الافكار
المتناقضة عن طبيعة البشر الذين عاشوا خلال الفترة التي سبقت ظهور الزراعة ،
حيث اشارت الى انهم كانوا يمشون على ارجلهم وايديهم وكانوا كالخراف
يلفون الحشيش ويشربون الماء من السواقي وهذا الرأي المطروح بخصوص
الانسان يشير ويؤكد على ايمان العراقيين القدامى بان الانسان القديم جدا
كان يشبه الحيوان في مواصفاته ، ويؤكد ايضا على ان ماجاء به جارلس
دارون بخصوص اصل الانسان لا يختلف كثيرا عن هذا الرأي •

وعلاوة على ذلك فان هذه الاسطورة قد اكدت على ايمان سكان بلاد
وادي الرافدين بان الانسان لم يكتسب الحضارة منذ بداية خلقه بل تدرج
في التطور ، وذلك على عكس الملاحم الخاصة بخلق الانسان التي دونت في
القسم الجنوبي من العراق ، حيث انها قد خلقت الانسان من الطين وخلقته
كامل النمو والتطور مرة واحدة وهذا ما سنراه فيما بعد •

والسبب في هذا الفرق بين المفهومين الشمالي والجنوبي يعود الى ان
سكان الحضارات الزراعية الديمة التي انتشرت في الاقسام الشمالية من
العراق كانوا مايزالون يعيشون في مرحلة قريية نسبيا من مرحلة جمع القوت ،
اي مرحلة التقليل وراء الماء والغذاء كما تفعل ذلك الحيوانات ، ولذلك فان

ذكريات المرحلة المذكورة لاتزال تعيش في اذهان سكان هذه الحضارات • اما انسان القسم الجنوبي فقد بلغ شوطا بعيدا في التطور واصبحت بينه وبين مرحلة جمع القوت فترة زمنية طويلة ، علاوة على اختلاف بيئته اختلافا كليا عن بيئة المناطق التي سادت فيها مرحلة جمع القوت ، كل هذه الامور جعلته ينسى تأثيرات تلك المرحلة ولذلك خلقت ملاحمه واساطيره الانسان كامل التطور وفيه ايضا من حكمه الاله الخالق •

والحقيقة ان هذا الفرق الموجود بين الملاحم والاساطير التي كتبت في بداية ظهور الافكار الجديدة المعتمدة على تقديس العوامل الطبيعية وبين الملاحم والاساطير التي كتبت بعد هجرة تلك الافكار الى القسم الجنوبي من العراق لا يتمثل في النظرة الى الانسان ولا في نوعية المادة التي صنع منها الانسان او كيفية الصنع وانما الفرق امتد ايضا الى نوعية الاله الخالق • فالملاحم والاساطير الاولى جعلت من الاله انليل ، اله الهواء هو الخالق للكون والانسان بينما الملاحم والاساطير التي دونت في القسم الجنوبي من العراق قد جعلت الاله انكي هو الخالق للانسان •

ان هذه الفروق بين ملاحم واساطير المنطقتين لا تشير الى حدوث تغيير جوهري في طبيعة تلك المعتقدات ولكنها تشير الى تغير في نوعية بيئة كل من المنطقتين اذ عندما ظهرت تلك المعتقدات لأول مرة في المنطقة الشمالية من العراق كانت المنطقة المذكورة تعتمد في زراعتها على المطر ، ولذلك صار لاله الهواء المؤثر في المطر وفي حركة الغيوم دور بارز في حياة سكان تلك المنطقة • وبعد ان انتقلت تلك المعتقدات الى القسم الجنوبي من العراق اخذ دور الاله انليل اله الهواء يتضاءل امام المكانة التي بدأ يتمتع بها الاله انكي اله الارض والمياه وذلك بسبب اعتماد القسم الجنوبي من العراق في زراعته على الري دون المطر •

واضافة الى هذه الحقيقة فان طبيعة القسم الجنوبي قد ابرزت اهمية الطين في حياة السكان لانه المادة الوحيدة المتوفرة بكثرة والتي يسهل الحصول عليها ويمكن صياغتها بسهولة الى اي شكل يريد الانسان . فمنه بنيت المعابد والبيوت ومنه صنعت الاواني والدمى وعليه كتبوا عقودهم وآدابهم وعلومهم ، وفيه نبئت محاصيلاتهم ، لذلك صار الطين عماد الحياة بالنسبة للقسم المذكور .

ولذلك اعتبر سكان الجنوب ، الطين المادة الاساسية التي خلق منها الانسان ومما دعم هذا الاعتقاد كثيرا هو لون هذه المادة الذي يشبه الى حد كبير لون بشرة سكان القسم الجنوبي من بلاد وادي الرافدين .

وبناء على ذلك فان هذه التغيرات التي طرأت على عبادة العوامل الطبيعية بعد انتقالها الى القسم الجنوبي من العراق لا يمكننا ان نعتبرها ثورة على تلك المعتقدات بل يجب ان نشبهها بالثورة الثقافية ، اي بالثورة التي حاولت ان تضع تلك المعتقدات في المسار الذي ينسجم مع بيئة الجنوب وحاولت ان تصلح كل السلبات التي برزت نتيجة هذا الانتقال . وفيما يلي نعرض اسطورة الاله انكي والالهة تنماخ الخاصة بخلق الانسان والتي تبرز دور الاله انكي في الموضوع :

« عندما ولدت الآلهات الام

وعندما تزوجت الآلهات الام

وعندما توزعت الآلهات الام بين السماء والارض .

وعندما ولدت الالهات الام في « أبا »

آنذاك كتب على الالهة العمل وتوجب عليها تزويد نفسها بالطعام

والشراب وكان على الالهة العظام ان تراقب العمل وعلى الالهة الصغار

ان تحمل السلال .

في « خرافي » كدس الالهة التراب من أجل شق القنوات ،

وكانت الالهة تتسارع الى هناك وكانت تتشكى من نوعية العمل •
 آنذاك كان الاله انكي الحكيم ، الذي اوجد الالهة ،
 في « اينكور » الوعاء الذي تتدفق منه المياه ،
 والمكان الذي لا تستطيع الالهة دخوله ،
 كان الاله انكي يضطجع في غرفة نومه وهو غارق في النوم ،
 بينما كانت الالهة تبكي وتتنحب ، لانه قد خلق لهم العناء ،
 ولكن الالهة لم تجرؤ على الدخول اليه في غرفة نومه •
 غير ان الالهة « نمّو » الام التي تفوق الجيوع والتي ولدت عددا
 كبيرا من الالهة ،
 قد اخبرت ابنها الاله انكي بشكوى الالهة قائلة :
 يا بني انك نائم حقا •
 فان الالهة العظام تضرب أجساد الالهة الصغار •
 يا بني أخرج من غرفة نومك •
 فأنت من خلال حكمتك تدرك كل فن ،
 اصنع بديلا عن الالهة حتى يحمل سلة العمل عوضا عنها •
 نهض الاله انكي على كلمات والدته الالهة « نمّو » ،
 ودخل القاعة المقدسة واخذ يضرب فخذه وهو يفكر ،
 الحكيم ، العليم ، البصير ، الذي يدرك كل شيء وكل فن •
 وبعد ذلك جلب الاله انكي الايدي وصاغ صدر الانسان •
 انكي •• الخالق وضع داخل مخلوقه شيئا من حكمته ،
 ثم نادى على أمه الالهة « نمّو » وقال لها :
 امي : المخلوق الذي اوجدته اربطي به عمل الالهة •
 وبعد ان تخطي الطين الذي تأخذينه من مياه الابو ،
 عليك ان تصوعي الاعضاء وتكوني الانسان ،

وعسى ان تساعدك في ذلك الالهة ننماخ ،
وبقية الالهة التي قمت انتِ بانجابها ،
عساهم ان يساعدوك عند العمل •
امي : قرري مصير الانسان ، تجيب الالهة ننماخ :
عسى ان يكون العمل مصيره » •

وعلاوة على ماجاء في اعلاه فان الاسطورة المسماة « انكي والالهة
نخرساك » والتي ذكرنا مختصرا لتفاصيلها اثناء حديثنا عن الاله انكي
يمكننا ان نعتبرها البداية في ابراز دور الاله انكي ، لانها قد بينت في
نهايتها قيام الاله انكي بتقرير مصير الالهة وقيامه ايضا بتخصيص اله الى
« دلمون » التي اعتبرتها الاساطير السومرية على انها الموطن الذي
تكنن فيه فردوس العراقيين القدامى واطافة الى اسطورتني « الاله انكي
والالهة ننماخ » و « الاله انكي والالهة نخرساك » هناك اسطورة ثلاثة تبين
اهمية الاله انكي في وضعه لنظام الكون ولذلك تسمى « الاله انكي ونظام
الكون » وملخصها : ان الاله انكي قام برحلة حول العالم وبدأها من بلاد
سومر وذلك من اجل ان يمنح سكان العالم بركاته وينشر بينهم عناصر
ال عمران والحضارة ، واضطلع من بعد ذلك بتنظيم احوال الارض وانهارها
وبحارها ، فملا نهر دجلة والفرات بالمياه العذبة وبالاسماك وعين ايضا آلهة
يتولى كل منها ناحية معينة من النشاط الحضاري •

وبالرغم من هذه المكانة الكبيرة التي حصل عليها الاله انكي في القسم
الجنوبي من العراق ، الا انه لم يتمكن من الاحتفاظ بمكانته هذه على مر
العصور لان الحياة كما نعلم في تطور مستمر ولا تثبت على حالة واحدة فقبل
كل شيء ان المعلومات التاريخية قد اكدت على ان زعامة السلالات او ماتسمى
بدويلات المدن بدأت منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد تنتقل من يد

السلطة الدينية الى يد السلطة العسكرية ، اي السياسية لان الظروف التي أحاطت بتلك الدويلات جعلتها تحتاج الى القائد العسكري الذي يحمي حدودها وارضها الزراعية اكثر من حاجتها الى رجل الدين . وبروز هذه الحاجة بالطبع هو الذي ادى الى انتقال الزعامة الى يد السلطة السياسية ومما سهل هذا الانتقال كثيرا هو مصلحة السلطة الدينية نفسها ، حيث انها قد اقتضت ان تتسلم السلطة السياسية القيادة بيدها لان نسبة كبيرة من الاراضي الزراعية التي تعمل السلطة المذكورة على حمايتها تعود الى المعبد ، اي الى السلطة الدينية .

والحقيقة ان هذه الظروف التي احاطت بدويلات المدن لم تعمل على نقل القيادة من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية فقط بل ادت ايضا الى ظهور الهة جديدة ترمز الى السلطة السياسية والى هيبتها . وهذه الالهة الجديدة بدأت تستقطب الى نفسها الكثير من مهام الالهة الرئيسة ولذلك فان الاله انكي لم يعد الاله الوحيد المهم في القسم الجنوبي من العراق . هذا من جهة ومن الجهة الاخرى فان الملوحة التي اخذت تتكاثر في تربة القسم الجنوبي من العراق بدأت تؤثر على انتاج المحاصيل الزراعية . ومن اولى مظاهرها انها دفعت سكان الجنوب الى زراعة الشعير بدلا من الحنطة ، لان الشعير يتحمل الملوحة اكثر من تحمل الحنطة لها .

ان الانخفاض في انتاج الحبوب أضطر حتى مراكز السلطة السياسية ان تتخلى عن مواقعها في الجنوب وتبعد قليلا الى الشمال ولذلك بدأت اهمية مدينة بابل تزداد منذ حوالي ٢٠٠٠ ق م وفي حدود ١٨٠٠ ق م اصبحت مركزا للسلطة السياسية في بلاد وادي الرافدين . ومادام الاله مردوخ هو اله مدينة بابل ورمزا لسلطتها السياسية ايضا فان هذه المواصفات قد دفعت به لان يفوق في مكانته مكانة الاله ايا (= انكي) ، ولذلك عدلت صياغة الملاحم والاساطير الخاصة بخلق الكون والانسان وهذا التعديل ادى الى كتابة

ملحمة جديدة ، الا وهي قصة الخليقة البابلية ، تلك القصة التي اشارت الى ان الاله مردوخ هو الذي خلق الارض والسماء بعد ان قطع جسم الالهة « تيامة » الى نصفين ، نصف كون به السماء وبالثاني كون الارض وتيامة تمثل المياه المالحة ، اي البحر . واما الانسان فان الاله مردوخ يأمر بخلقه ولكن الخالق الحقيقي بقي الاله ايا (= انكي) وفيما يلي تقدم الجزء الخاص بخلق الانسان من قصة الخليقة البابلية :

« بعد ان سمع الاله مردوخ كلمات الالهة ،
تحرق قلبه من اجل ان يخلق الكمال .
وعندها أخبر الاله ايا (= انكي) بقراره ،
وشرح له خطة العمل التي رسمها في ذهنه
اريد ان يحضر لي الدم والعظام ،
اريد ان اخلق - لوللو - الذي سيكون اسمه الانسان ،
اريد حقا ان اخلق الانسان ،
لاني اريد ان القي عليه غناء الالهة حتى تنعم هي بالراحة ،
واريد ان اجعل طريق الالهة محاطا بالابداع ،
واريدها ان تبجل جميعا وبشرط ان تقسم الى قسمين .
فأجابه الاله ايا (= انكي) واثناء الاجابة ،
عرض على الاله مردوخ خطة اسعاد الالهة ،
وقال لمردوخ ايضا : يجب احضار احد اخوانك ،
لنذبحه ونصنع منه البشر ،
وليت الالهة العظام تتجمع الآن ،
ويجلب الاله صاحب الاثام ، وتعترف عليه الالهة ..
جمع الاله مردوخ الالهة العظام ،
وبلطف أمرهم ان يقدموا المشورة ،

وبينما كانت الالهة تستمع لكلامه ،
قال الاله مردوخ ، الملك ، مخاطبا الهة الانوناكي :
فأن كنتم الهة الانوناكي حقا
فسوف أضعكم الآن تحت القسم واطلب منكم الحقيقة •
من منكم تسبب في نشوب الحرب ؟
تيامات اثارها ونظمت الثورة •••
عليكم احضار الذي تسبب في نشوب الحرب ،
لأنني اريد ان احمله وزرها لتميشوا أتم بهدوء •
آلهة الانوناكي ، الالهة العظيمة قد ردت ،
على مستشارها وعلى سيدها :
« كنكو » هو الذي تسبب في نشوب الحرب ،
وتيامات قد اثارها ونظمت الثورة •
فربطوا كنكو وجاءوا به الى الاله ايا (= انكي) ،
وحملوه وزر جريته وسفكوا دمه ،
ومن دمه خلق الاله ايا (= انكي) البشر ،
وحمله (أي حمل الانسان) عناء الالهة وتحررت هي من العمل •
وبعد ان خلق الحكيم ، الاله ايا البشر ،
حملهم عناء عمل الالهة •••
وعندها قسم الاله مردوخ ، ملك الالهة ،
آلهة الانوناكي الى قسمين علوي وسفلي ،
وضع ٣٠٠ في السماء كحراس لها ،
ثم ثبت طرق الارض ،
وترك ٦٠٠ اله يسكنون في السماء والارض •
وبعد ان قدم لهم نصائحه ،

فتحت الهة الانوناكي فاهها ،
وقالت مخاطبة الاله مردوخ سيدها :
اله القمر سيدنا قد حررتنا من عناء العمل ،
كيف يمكننا ان نعبر لك عن شكرنا » •

الحياة والموت

تبين لنا من خلال الملاحم الخاصة بخلق الانسان بان الالهة قد قررت منذ البداية الموت على الانسان وهذا القرار في الحقيقة يعتبر أمر طبيعي للغاية لان التجارب التي مرت بها البشرية عبر عصورها المختلفة لم تر ولم تسمع عن كائن حي واحد استطاع ان يفلت من الموت ولذلك فان قرار الالهة في الملاحم الخاصة بخلق الانسان ان يكون الموت من نصيب البشر هو امر اعتيادي ولا يتعارض وطبيعة الحياة نفسها •

وبالرغم من حقيقة الموت التي شهدتها الانسان عبر جميع مراحلها ، الا ان الموت لم يتمكن من انهاء الحياة من على سطح الارض ، بل بقيت الحياة في تجدد مستمر وحتى نسبة تجددتها هي اعلى من نسبة الموت • وهذه الحقيقة هي التي دفعت الانسان القديم الى ان يعتقد بان الموت ماهو في حقيقته الا اختفاء مؤقت عن الحياة وبعد ذلك يعود الميت الى الحياة • وهذا الاعتقاد أدى الى ايمان الشعوب القديمة وخاصة سكان بلاد وادي الرافدين بوجود علاقة جدلية بين الحياة والموت • وتقصد بهذه العلاقة ايمانهم بان لا حياة من دون موت وليس هناك موت من دون حياة • وقد رمز الاقدمون الى هذه العلاقة باللون الاحمر ، الذي ما زال نستخدمه حتى الآن للدلالة على الحب ، اي استمرارية الحياة وللدلالة ايضا على الخطر ، اي الموت •

والحقيقة ان الانسان القديم قد تلمس بوضوح هذه العلاقة فيما بين

الموت والحياة ولكنه لم يستطع ان يتعرف بدقة على الكيفية التي يتحول فيها الموت الى الحياة ، ولذلك نجد ان الكتابات المسمارية لم تقدم لنا صورة موحدة بل صوراً مختلفة ولكنها جميعاً تقع ضمن اطار واحد •

ففيما يخص فترة الالف السادس قبل الميلاد وهي الفترة التي شهدت بداية ظهور عبادة القوى الطبيعية تلك العبادة التي نمت وترعرعت فيما بعد في النصف الجنوبي من العراق يبدو من المخلفات الاثرية وخاصة تلك التي كانت توضع مع الميت في قبره ، ان سكان هذه الفترة كانوا يعتقدون بان الحياة تعود الى الانسان بعد دفنه ولذلك كانوا يضعون معه الحاجات الاساسية التي يحتاجها بعد عودة الحياة له • وقد تأكد لنا ذلك من خلال قبور الاطفال التي اكتشفت في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء ، حيث احتوت جميع تلك القبور على دمية للأم واهيلاً للام والاب لان الطفل لا يحتاج بعد عودة الحياة اليه سوى أمه بالدرجة الاولى وايه بالدرجة الثانية ولكن هذا الاعتقاد قد تعدل قليلاً لان عودة الميت نفسه مرة ثانية الى الحياة ناحية لا يمكن استمرار الاعتقاد بها لان ذلك من الناحية العملية غير ممكن على الاطلاق ولذلك تحول الاعتقاد الى ان الميت لا يعود هو نفسه ثانية الى الحياة بل الذي يعود منه هي الروح وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان الموت في نظر سكان بلاد وادي الرافدين هو عملية انفصال الروح عن الجسد ، وان الذي يعيش الحياة الاخرى هي الروح وليس الجسد ولكن للروح ملامح لا تختلف عن ملامح المتوفى قبل مماته •

وان روح الانسان بعد مماته تسمى سومرياً «كيديم» واكدياً «ايطيμο» • وان هذه الروح هي التي تتحمل حسنات او سيئات الشخص المتوفى ، ومقر سكنى الروح هو العالم السفلي • اما الاشخاص الذين يموتون موتاً غير طبيعي او ان جثثهم تترك بلا دفن فان ارواحهم تتعذب وتتحول الى

قوة شيطانية وتخرج من العالم السفلي وتصل الى العالم العلوي وتخلق راحة الاحياء على الارض • والعالم السفلي يمثل في معتقدات سكان العراق القدامى بالطبقة الاخيرة من الارض وفوق سقفه كانت تمتد المياه الجوفية العميقة وهذا العالم كان محاطاً بسبعة اسوار وبنهر يحيط بالسور الاول منه ويسمى « خوبور » وكان لا يسمح للموتى بعبور هذا النهر الا بعد انجاز الشعائر الجنائزية • وان الوصول الى العالم السفلي كان يتم من خلال عدة منافذ ، الاول من خلال حفرة القبر والثاني من خلال اية حفرة اخرى في الارض او من خلال المدخل الرئيس الموجود في مدينة الوركاء •

والسبب الذي دعا سكان العراق القديم وخاصة سكان القسم الجنوبي منه لان يجعلوا من باطن الارض مقراً لعالمهم السفلي يعود الى طبيعة الجو في القسم المذكور حيث ان جو العراق بشكل عام حار ورطب • وحرارة جنوبه صيفا شديدة نسبياً ولذلك صارت الاماكن الميئة في عمق الارض كالسرايب مثلاً من افضل الاماكن التي يقضي الناس فيها اوقاتهم بعيداً عن تلك الحرارة وعن الرطوبة ايضاً ولذلك لم يك ممكناً لسكانه ان يتصوروا العالم السفلي في مكان اخر غير باطن الارض •

هذا ويعتقد سكان بلاد وادي الرافدين بان مايعيشه الانسان من عمر ، طويلاً كان ام قصيراً فهو مقرر له من قبل الالهة وان كل مايصيبه في حياته مقرر له ايضاً منذ لحظة ولادته ولذلك حاول العراقيون القدامى من خلال الكثير من الممارسات التي تحمل طابع الممارسات السحرية ان يتعرفوا على ماهو مقرر للانسان • وخير شاهد على ذلك هي نصوص الفأل العديدة حيث كلها تسعى الى معرفة ارادة الالهة بخصوص الشخص الذي يكشف طالعه •

والحقيقة اننا مهما جمعنا من معلومات عن معتقدات العراق القديم فان هذه المعلومات سوف لا تتمكن من ان تقدم لنا صورة واضحة كالصورة

التي يمكن استخلاصها من دراسة الملاحم والاساطير التي خلفها لنا سكان بلاد وادي الرافدين لان هذه الصورة تمثل الخلاصة لكل ما فكروا به نظريا وما جربوه عمليا ، فالملاحم والاساطير اذن هي النتيجة الجاهزة من جراء تحويل النظريات الفكرية الى ممارسات فعلية .

والملاحم والاساطير الخاصة بخلق الانسان قد اكدت على ان سكان بلاد وادي الرافدين قد آمنوا بنسبة عالية بان الانسان مخلوق من الطين المجفف غير المخفور ، وان دل هذا الايمان على شيء فانما يدل على ملاحظتهم للسهولة التي كان يفقد فيها الانسان حياته وخاصة اثناء انتشار الاوبئة او طغيان مياه الفيضان مضافا الى ذلك الاسباب الكثيرة الاخرى التي نعرفها والتي تسبب في فقدان الانسان لحياته . ومما يدعم هذا الاعتقاد ايضا اضافة الى الملاحم الخاصة بخلق الانسان هو الوصف الخاص بموت الملك اورنمو ٢١١٣ - ٢٠٩٦ ق م مؤسس سلالة اور الثالثة حيث جاء فيه بان « اورنمو قد سقط على الارض مثل اناء محطم » . وبالتأكيد ان نظرية العراقيين القدامى الى الانسان والى حياته بهذا المنظار هو الذي جعلهم يتطلعون الى الوسيلة التي يمكن ان تمنع عنهم الموت ، ونتيجة لهذا التطلع فقد كتب عدد من الملاحم والاساطير التي حاول من خلالها انسان وادي الرافدين ان يبحث عن الخلود ليمنع عن نفسه الموت والشيء الذي يلفت النظر في الملاحم والاساطير الخاصة بالخلود هو ان ابطالها كانوا على ثلاثة اصناف ، الصنف الاول جعل من المرأة الشابة الجميلة ، البطلة التي اخذت على عاتقها مهمة البحث عن الخلود وقد تأكد لنا ذلك من خلال اسطورة « نزول الالهة إانا » (= عشتار) الى العالم السفلي . ومن مجمل احداث هذه الاسطورة يبدو واضحا ان الالهة إانا ، سيدة السماء والهة الخصب والجمال قد اقلقها كثيرا موت الانسان فقررت ان تضع حدا له فوجدت ان افضل وسيلة تحقق هدفها هو قيامها باحتلال العالم السفلي اي عالم الاموات

ولذلك تبدأ الاسطورة بقرار الالهة اينانا بالنزول الى عالم الاموات والسيطرة عليه وبوصف الاستعدادات ايضا التي اتخذت لذلك النزول .

اما القسم الاخير من الاسطورة فقد اوضح لنا فشل الالهة إنانا في محاولتها للسيطرة على ذلك العالم وضرورة ايمانها بان الموت حق على البشر ومن دونه لا حياة جديدة على الارض وهذه الملحمة على ما يبدو قد ألقت قبل او اثناء انتقال عبادة القوى الطبيعية الى القسم الجنوبي من العراق لان المرأة في هذه الاثناء كانت تتزعم الممارسات الدينية ودليلنا في ذلك دمسى الالهة الام التي كانت سائدة في العبادة قبل الانتقال الى القسم المذكور .

والصنف الثاني هو الذي اتخذ من الرجل الناضج الحكيم الوسيلة التي قد تستطيع بسبب الحكمة التي يمتلكها هذا الرجل ان تحصل على الخلود وقد برز هذا الصنف من خلال ملحمة « ادبا » التي ستذكر تفاصيلها عند الحديث عن الادب في العراق القديم .

واما الصنف الثالث فهو الذي اتخذ من الشاب القوي مثل كلكامش على انه البطل القادر على تحقيق الخلود للبشرية ولكن كلكامش كما وضحت ذلك تفاصيل ملحمة قد فشل ايضا في محاولته ولم يتمكن لا من تحقيق الخلود لنفسه ولا من امكانية تجديد الشباب ولكن ملحمة قد اكدت على حالتين ، الاولى ان الخلود ممكن ولكن فقط في حالة تقديم الاعمال الخارقة في الاهمية والتي تخدم البشرية جمعاء كخلود اوتونا بشتهم ، لانه انقذ البشرية من الاقراض عندما احدثت الالهة الطوفان على الارض والحالة الثانية هي الخلود المعنوي الذي يتم بتقديم الاعمال المفيدة للانسان وللمجتمع اضافة الى تأكيدها على ان افضل انواع الخلود المعنوي بالنسبة للأشخاص الاعتياديين عندما يضحي الواحد منهم بنفسه من اجل الوطن . وخير شاهد على ذلك هو الحديث الذي توجه به انكيدو الى كلكامش وهو الآتي :

« يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة
سوف لن اموت ميتة رجل سقط في ميدان الوغى ،
كنت اخشى القتال ولكنني سأموت ذليلاً حنفاً انهي ،
فمن يسقط في القتال يا صديقي فإنه مبارك (= شهيد) » •

وهذا القول يعتبر الدليل الاكيد على ان الانسان الاعتيادي اي الخالي من الثقافة والصنعة كان يستطيع ايضا ان يخلف ذكراً حميداً عندما يستشهد دفاعاً عن وطنه وقومه لان انكيادو يحمل في شخصيته تجسيدا لنوعية الانسان الاعتيادي •

وعلاوة على ما ذكرناه بخصوص ملحمة كلكامش فانها تبرز ايضا دور السلطة السياسية اي بمعنى انها قد كتبت بعد انتقال الحكم من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية والنتيجة التي وصلت اليها ملاحم واساطير البحث عن الخلود قد ادت بدورها الى ظهور مجموعة ثالثة من القصص التي نخصصت في استعراض التحرشات التي كان يقوم بها سكان المنطقة الشرقية على الحدود العراقية وكيفية القضاء عليها وذلك من اجل التأكيد على ان الدفاع عن الوطن والاستشهاد من اجله هو افضل ما يمكن للانسان ان يقدمه خلال حياته ومن ابرز الملاحم والاساطير في هذا الخصوص هي الملاحم التي تحدثت عن الاعمال العسكرية للملكين « اينمركار » و « لوكال بنندا » وكلاهما من ملوك سلالة الوركاء الاولى ٢٧٠٠ - ٢٦٠٠ ق م •

تأليه الملوك لأنفسهم

لقد اظهرت لنا النصوص المسمارية ان عدداً من ملوك العراق القديم قد استخدموا العلامة المسمارية الدالة على الألوهية قبل اسمائهم وهذا الاستخدام يشير ولاشك الى انهم قد اعتبروا انفسهم من صنف الالهة •

والتفسير الذي طرحه الاستاذ هنري فرانكفورت بهذا الخصوص قد نال في حينه رضى اغلب الباحثين ومفاده : « ان الملوك الذين يتقمصون شخصية الاله تموز اثناء طقس الزواج المقدس هم الذين اضيفت الى اسمائهم العلامة الدالة على الالهية ، والزواج المقدس الذي يسمى ايضا بالزواج الالهي هو زواج يتم بين اله والهة من الهة الخصب وكان الملك او الحاكم هو الذي يقوم بتمثيل دور الالهة مع احدى الكاهنات من الدرجة العليا التي تقوم بدور الهة الخصب ، وكان المعتقد ان هذا الاقتران المقدس ينتج عنه احلال الخصب والخير في البلاد .

والحقيقة ان هذا الرأي الذي تقدم به الاستاذ فرانكفورت وان يبدو منطقياً الى حد ما ، الا انه لا يستطيع تعليل السبب الذي دعا بعض ملوك العراق القديم وليس جميعهم الى تأليه انفسهم ويمعز ايضا عن تعليل السبب الذي جعل الملك حمورابي ومن خلفوه من ملوك في سلالة بابل الاولى ١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق م ماعدا الملك سمسويلونا يمتنعون عن تأليه انفسهم في الوقت الذي تؤكد فيه المعلومات على استمرارية طقس الزواج المقدس خلال فترة حكم سلالة حمورابي التي عاشت ٣٠٠ سنة ولذلك فمن غير المستبعد ان نفترض بان الاطفال الذين كانوا يتولدون من عملية الزواج المقدس هم الذين كانوا يؤلهون انفسهم عندما تسنح لهم الظروف بتسلم مقاليد الحكم ، لانهم كانوا يعتبرون انفسهم اطفالاً تولدوا من ابوين كل منهما كان يتقمص شخصية اله ساعة تكوينهم .

والسبب الذي دفعا الى الاعتقاد بان الملوك الذين ألهموا أنفسهم ما هم الا اولاد تنجوا من عملية الزواج المقدس يرجع الى ان ظاهرة التأليه قد اختفت ما بين الملوك البابليين منذ بداية الفترة التي حرم بها انجاب الاطفال على كاهنات الناديتوم والايثوم بالرغم من استمرارية طقوس الزواج المقدس اذ لو كان السبب الرئيس للتأليه هو تقمص شخصية الاله تموز لوجب ان

تستمر ظاهرة التأليه ، ولكن ارتباطها بالاطفال الذين تنتجهم عملية الزواج المقدس هو الذي تسبب في اختفائها لان الكاهنات الممارسات للزواج المذكور لم يعد ممكناً لهن انجاب الاطفال لينحوا انفسهم فيما بعد صفة الالوهية .

هذا وان عودة ظاهرة تأليه الملوك لانفسهم مجددا في العهد الكشي يعود الى ان الكاشيين هم في واقعهم من بلاد ايران جاءوا الى العراق على شكل جماعات طالبة للعمل وبمرور الزمن زاد عددهم بحيث تمكنوا في حدود ١٦٠٠ ق.م من ازاحة البابليين وتسلم مقاليد الحكم بأيديهم . ومادام طقس الزواج المقدس هو طقس سومري الاصل فقد سمح الكشيون للكاهنات الممارسات له بالانجاب لسبيين : الاول ليتمكنوا من رفع مكانة اولادهم الى مرتبة الالوهية والثاني ليكسبوا به ود السومريين على حساب دحر قوة ومكانة البابليين .

وبالفعل فان هذه السياسة استطاعت ان تدمر سكان القسم الجنوبي من العراق واغرقتهم في منازعات قومية مستمرة بحيث بقي القسم المذكور حتى سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م يحكم من قبل اقوام لم يكن اصلها من القسم الجنوبي . وفيما يخص ظاهرة التأليه فانها زالت ثانية ونهائيا بعد ان تمكن الاشوريون من دحر الكشيين وتسلموا مقاليد الحكم بأيديهم .

المعبد

ان المعلومات المتوفرة عن الدين تؤكد ان ظهور اولى المعتقدات الدينية في حياة الانسان يرجع الى فترة سحيقة في القدم وبعض الباحثين يرجعها الى ما قبل حوالي (٩٠) ألف سنة من الآن وبالرغم من هذه الحقيقة الخاصة بظهور الدين الا اننا مع ذلك نستطيع ان نؤكد ان ظهور المعبد كمؤسسة دينية لم يحدث الا في القسم الشمالي من العراق وفي حدود منتصف الالف الخامس قبل الميلاد اي منذ بداية سكنى القسم الجنوبي من العراق .

وظهور المعبد كمؤسسة دينية منذ التاريخ المذكور يؤكد على ان القسم الجنوبي قد احتوى منذ بداية سكناه على مجموعة بشرية تحمل افكارا دينية تختلف في جوهرها عن الافكار التي سادت في الاقسام الشمالية ولذلك استوجب انتشار هذه الافكار الى بناء المعبد . هذا وقد سبق لنا ان قلنا ان ظهور المسجد في حياة المسلمين كان مرتبطا بنجاح الدين الاسلامي وكذلك الحال بالنسبة للمعبد حيث ان ظهوره كان مرتبطا ايضا بنجاح فكرة تقديس العوامل الطبيعية ، ومن الحقائق الاخرى التي تدعم هذا الاعتقاد الخاص بظهور المعبد هي نوعية اقدم المعابد المكتشفة في القسم الشمالي من العراق وبساطة اقدم انواع المعابد تؤكد ان فكرته لم تتأثر بأبنية سابقة وانما هي فكرة جديدة .

والحقيقة الاخرى تتمثل بان المعبد في القسم الشمالي من العراق كان دائما وبدون استثناء يمثل مركز القرية او المدينة ومن حوله تبنى بقية الابنية الاخرى سواء كانت رسمية او مدنية .

ومن الامور السلبية التي كانت تؤثر كثيرا على ابنية القسم الجنوبي من العراق ناحيتان اساسيتان الاولى تتمثل بالمياه الجوفية التي كانت وماتزال تظهر احيانا على عمق قدم او قدمين من باطن الارض وهذه المياه كانت تؤثر كثيرا على جدران المعابد وبقية الابنية الاخرى والناحية الثانية تتمثل بالفيضانات الكثيرة التي كانت تغمر القسم المذكور بين الحين والآخر وهاتان الناحيتان دفعتا سكان الجنوب الى ايجاد الحل المناسب الذي يمنع المياه الجوفية ومياه الفيضان من التأثير على الابنية وخاصة ابنتهم المقدسة والحل الذي وجدوه هو انهم قد بنوا معابدهم على مصاطب مرتفعة بعض الشيء عن مستوى سطح الارض وذلك منعا للمياه المذكورة من التأثير على ابنتهم المقدسة وبمرور الزمن زاد عدد المصاطب حتى بلغت في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ثلاث مصاطب ، والمعبد كان يقام على أعلى تلك المصاطب

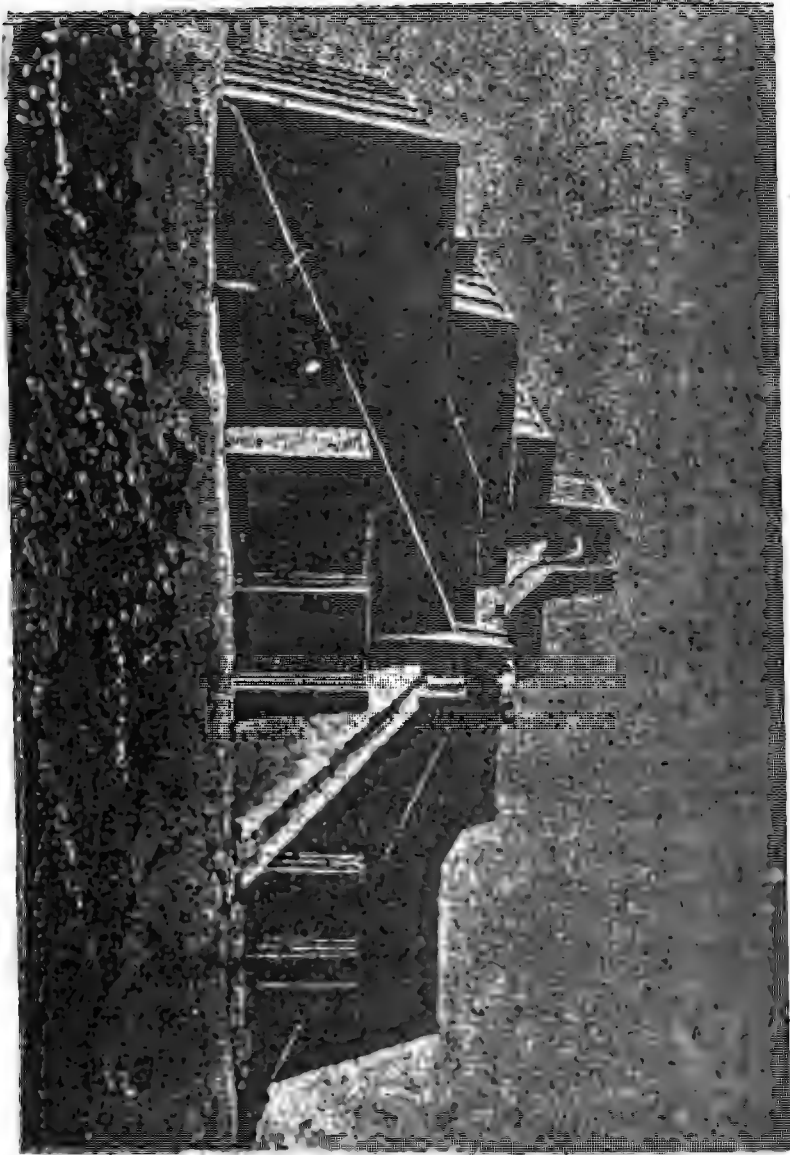
ومثل هذه الابنية كانت تسمى قديما بالزقورة • وفي مدينة بابل بلغ عدد طبقات زقورتها سبع طبقات •

ومنذ ان زاد عدد المصاطب عن مصطبة واحدة ظهرت الحاجة الملحة الى ان يكون هناك معبد ارضي لممارسة الطقوس اليومية ومعبد اخر فوق الزقورة ولكن هذا المعبد لا يستخدم الا لاغراض الاحتفالات الدينية المهمة وخاصة اثناء احتفالات اعياد رأس السنة •

ورب سائل يقول ان مصطبة واحدة كافية لان تحمي المعبد من المياه الجوفية ومياه الفيضانات فما هو اذن سبب زيادة عدد المصاطب ؟ للجواب على هذا السؤال نقول بان سكان بلاد وادي الرافدين لم يستخدموا في حساباتهم للوقت وسريان الزمن سوى التقويم القمري ولذلك كانت رؤية الهلال تعتبر ناحية مهمة حيث كانت تعتمد عليها كثير من الامور الدينية والدينية • وضرورة رؤية الهلال منذ يومه الاول قد ابرزت الحاجة الى الاماكن المرتفعة ولذلك نعتقد ان زيادة عدد الطبقات كان لغرض خدمة هذه الحاجة من جهة وتكون الابنية المقدسة قريبة ايضا من مقرات الالهة من الجهة الاخرى (انظر الصورة رقم ١) •

ومادام المعبد كان يمثل منذ بدايته مركزا للمدينة ومادامت النصوص المسمارية قد بينت على ان الحكم في العراق القديم خلال الالف الرابع قبل الميلاد كان حكما دينيا ايضا فان هاتين الناحيتين تؤكدان على ان المعبد في مراحل الاولى لم يستخدم للاغراض الدينية الصرفة فقط وانما للمهام الاخرى التي يحتاج اليها الحكم الديني والمجتمع ولذلك فان النصوص المسمارية قد بينت على ان المعابد قد مارست اعمال اقراض الفضة والشعير ومن ابرز الادلة المادية على ذلك هي فائدة الفضة التي كانت تسمى بفائدة الاله شمش، اي بمعنى الفائدة التي كان معبد الاله شمش يفرضها على من يقترض منه

الصورة - ١



نموذج تخيلي لوقورة مدينة اور أثناء اواخر الالف الثالث قبل الميلاد

الفضة • والمعبد كان يستخدم لاغراض فض النزاعات بين الناس ولذلك كان يقوم مقام المحاكم • والنصوص المسمارية قدمت لنا الكثير من الادلة على

هذا الاهتمام قد عظم منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد اذ ان هذا التاريخ يمثل مرحلة انتقال الحكم من يد السلطة الدينية الى يد السلطة السياسية ومن اجل ان تبقى هيمنة السلطة السياسية ومن اجل ان تبقى هيمنة السلطة الدينية على المجتمع فقد اهتمت بالتعليم لنشر تعاليمها الدينية من جهة ولأستقطاب الناس اليها من الجهة الاخرى ولكن هذا الاهتمام لم يمنع من ظهور التعليم الخصوصي ولم يمنع القصور الملكية من اقامة المكتبات الكبيرة ضمن مرافقها بغية استقطاب العلماء والادباء لخدمة اهداف السلطة السياسية *

وفي ختام الموضوع نود أن نشير الى ان المعابد العراقية القديمة وان كان اصلها جميعا يكمن في القسم الشمالي من العراق الا انها اختلفت قليلا في تصميمها عن تصميم المعابد الجنوبية حيث ان المعابد الجنوبية قد جعلت اقدس مكان في المعبد يقع على نفس محور المدخل ، اي بمعنى ان الداخل الى المعبد يواجه مباشرة قدس الاقداس اي المحراب ، اما المعابد الشمالية فقد حرفت المداخل عن المحارب وجعلتها في جهة تضطر الداخل الى المعبد ان يدور بزواية قدرها تسعون درجة حتى يواجه المحراب *

والناحية الاخرى التي اتصفت بها جميع المعابد العراقية وعبر جميع العصور هو انها جميعا قد بنيت من اللبن ماعدا المرافق التي تتعرض للمياه فقد كانت تبنى اما بالحجر او الطابوق او القير والسبب في بناء جميع المعابد العراقية باللبن يعود في اعتقادنا الى ان المادة الوحيدة المتوفرة للبناء الصلد في القسم الجنوبي من العراق كانت مادة الطين ولذلك فقد بنيت اقدم المعابد باللبن وهذه الحقيقة هي التي جعلت المعابد اللاحقة تسير على نفس المنوال اي انها استخدمت مادة اللبن لبنائها * والتعليل الاخر ربما يعود السبب الى سكان القسم الجنوبي من العراق والى كونه المادة التي خلق منها الانسان

حيث ان هاتين الناحيتين قد منحتة اي للطين نوعا من انواع القدسية ولذلك
بنيت على ما نعتقد المعابد جميعها باللبن وعلى الاخص الجدران الرئيسة .

الكهنة

لابد ان يكون لكل مرفق من مرافق الحياة اليومية قديما كان
أو حديثا ، جهاز يدير شؤونه الاساسية . والكهنة هم الاجهزة التي
كانت تدير شؤون المعابد في العراق القديم وادارة اي جهاز لابد وان تتضمن
مواقع عمل مختلفة ولكل موقع من هذه المواقع شخص او اكثر يقوم
بتشغيله وبناء على هذه الحقيقة فعلينا ان نعلم مقدما بان الكهنة كانوا ايضا
على درجات وكل حسب موقع ونوعية عمله . وفي ادناه سنعرض نماذج من
درجات الكهنة المتعددة خلال مراحل حضارة وادي الرافدين المختلفة :

١- الاين (= اينتوم واينتوم) :

مما هو معروف عن اللغة السومرية انها لا تفرق بين المذكر والمؤنث
ولذلك فان كلمة « اين » السومرية المجردة تعني كاهنا او كاهنة اما اللغة
الاكدية التي كانت تفرق بين الجنسين فقد لفظت الكلمة « اينوم » ان كان
المقصود بها الكاهن و « اينتوم » اذا كان المقصود بها الكاهنة . وكاهنة
الاينتوم كما بينا في حديثنا عن تأليه الملوك لانفسهم كانت تكتب ايضا
بالعلامتين « نن ودينكر » . اما الكاهن فيكتب دائما بالعلامة « اين » .

وكاهنة الاينتوم التي كان اسمها يكتب بالعلامتين « نن ودينكر » كانت
تسمى خلال العصر البابلي القديم « اوكبابتوم » او « كوبابتوم » ايضا
والسبب في ذلك يعود الى ان كاهنة الاوكبابتوم هي من نفس درجة كاهنة
الاينتوم ولذلك كتبت بنفس العلامات المسمارية وهذه الناحية تدفعنا الى
القول بان كاهنة الاوكبابتوم لابد ان ادعت بشكل من الاشكال الالهوية

لنفسها ولذلك كتب اسمها بالعلامتين « ن.ن. و دينكر » اللتين تعنيان « السيدة التي هي الهة » .

والمعلومات التاريخية المتوفرة تؤكد ان كاهنة الاينتوم خلال العصر السومري القديم كانت ارفع منزلة من كاهن الاينوم لان النصوص المسمارية تذكر اسمها باستمرار قبل اسم الكاهن حتى لو كانت هي زوجة له . ونفس هذه المعلومات قد اكدت على ان الزواج وانجاب الاطفال كان مسموحا لهذا النوع من الكاهنات ولكن ذلك قد حرم عليهن منذ فترة حكم الملك حمورابي وذلك في ١٧٩٢ ق.م ويبدو من نفس هذه المعلومات بان كاهن الاينوم قد حرم على نفسه الزواج ايضا منذ الفترة التي حرم فيها الزواج وانجاب الاطفال على كاهنة الاينتوم ومن يرتضي لنفسه دخول هذا الصنف من الكهنة رجالا كانوا أم نساء ولم يلتزم بالابتعاد عن الجنس بل يختلسه اختلاسا فعقابه وعقابها كان الحرق بالنار .

ومن اهم واجبات كاهنة الاينتوم هو القيام بدور العروسة في عملية الزواج المقدس وكاهن الاينوم كان يقوم في بعض الاحيان وليس في كلها بدور المريس . واختيار هذا النوع من الكاهنات والكهنة كان يتم عن طريق استخارة القال ويتم تعيينهم بارادة ملكية، وكاهنة الاينتوم كانت لا تسكن الا في بناء خاص بها يسمى « كيبار » وكاهن الاينوم كان لا يجلس الا على عرش فخم يصنع خصيصا لمنصبه وهذا العرش على ما يبدو لا يختلف عن العرش الذي كان يجلس عليه الحاكم خلال الالف الرابع وخلال النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد وذلك عندما كان الحكم بيد السلطة الدينية لان رئيس السلالة أو مانسميها بدولة المدينة كان يسمى آنذاك « اين » ايضا ومما يسند هذا الافتراض كثيرا هو التسمية التي اطلقت على غطاء رأس كاهن الاينوم حيث كانت تعني التاج .

وهذا النوع من الكهنة يمثل اعلى مرتبة في السلم الكهنوتي لتاريخ

العراق القديم ولذلك كانوا جميعا يختارون من العوائل الملكية او ما يوازيها في المكانة الاجتماعية .

ب - ناديتوم

هذا النوع من الكاهنات يأتي بالمرتبة من بعد مرتبة كاهنات الايتوم واسم الناديتوم يكتب بالعلامة المسمارية التي تلفظ سومريا « لوكور » والتي تتألف اصلا من علامتين : الاولى تدل على المرأة ، والثانية تدل على القوى الالهية . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان معنى « لوكور » يرمز الى المرأة التي تحمل نوعا من القوة الالهية واختيار هذا النوع من الكاهنات الا يتم عن طريق استخارة الفأل وانما عن طريق نذرهن الى المعبد منذ الولادة والمعلومات المتوفرة تؤكد على انهن جميعا بنات لكبار موظفي الدولة ، ونفس هذه المعلومات تؤكد على تمتعهن بحق الزواج ولكن بشرط عدم انجاب الاطفال ولهذا السبب كانت الناديتوم تهدي زوجها امرأة من وسط ديني تدعى « شوكويتم » لتقوم مقامها بعملية انجاب الاطفال لزوجها واطفال الشوكويتم يعتبرون في نفس الوقت اطفال الناديتوم . والمكان الطبيعي لسكنى كاهنة الناديتوم هو ال (ككوم) والذي يمكن ان نشبهه بالدير ، وموقعه يكون داخل المعبد الرئيس للمدينة والمشراف على هذا الدير كاهن يدعى « شانكوم » ، وعلاوة على المشراف هناك الحراس والحائكات والطحانات اللاتي يقمن بخدمة حاجات هذا الدير . وبالرغم من وجود ال (ككوم) الا ان لبعض كاهنات الناديتوم حق العيش خارج هذا الدير ولكن لا يحق لهن القيام بالاعمال غير المسموح بها والا فأن عقوبتهن الحرق بالنار ايضا .

ج - شوكويتم

لقد علمنا مما تقدم بانها تكون احيانا زوجة ثائية لزوج كاهنة الناديتوم وواجبها في هذه الحالة انجاب الاطفال الا أن ذلك لا يعني ان تكون هي

بالضرورة ودائما زوجة ثانية بل المعلومات تؤكد على انها في كثير من الاحيان زوجة لرجل خاص بها وليست زوجة ثانية • ومن اهم واجباتها الدينية هي المساهمة في مراسيم الزواج المقدس وخاصة مرافقة العروسة ليلة الزفاف وهي بأجمل ملابسها وحليها •

د - قادشتوم

وتعني باللغة الاكدية (الموهوبة الى الاله) أو المقدسة اما تسميتها السومرية فهو « نو - كيك » وهذه التسمية لا تتطابق في معناها مع التسمية الاكدية وللقادشتوم الحق في الزواج وانجاب الاطفال وكثيرا ماتشير النصوص الى انها تعمل كمرضعة والى انها ايضا استعملت كلقب للالهة عشتار ولفظت اشتاريتوم • والقادشتوم تعمل في خدمة القصر والمعبد في آن واحد ولذلك فهي لا تعتمد في عيشها على المعبد فقط •

هـ - كولماشيتوم

ويلفظ اسم هذه الكاهنة باللغة السومرية « نو - بار » ويتم اختيار هذا النوع من الكاهنات من عوائل معروفة لها مكاتنها الاجتماعية ولكاهنة الكولماشيتوم الحق في الزواج وانجاب الاطفال • وعلاوة على ذلك فان التقاليد لا تفرض عليها السكن في الدير وانما لها حرية الاختيار في السكن والكولماشيتوم أقل مرتبة من القادشتوم غير ان وظيفتها في المعبد تشبه الى حد ما وظيفة القادشتوم •

و - شانكوم

وهذا النوع من الكهنة يوازي في مرتبته مرتبة الكهنة من نوع الاينوم والفرق بين النوعين هو ان الاينوم يتولى بالدرجة الاولى المهام الدينية للمعبد بينما الشانكوم يتولى المهام الادارية والتنظيمية ولذلك فانه يترأس

خدمة حاجات المعبد وله الحق ان يجلس مع القضاة اثناء الاجتماعات التي يتدارسون فيها شؤون القضاء •

ز - آشيبوم

من ابرز مهام هذا النوع من الكهنة هو القيام بطقوس التعزيم التي تهدف بالدرجة الاولى الى طرد الارواح الشريرة من اجسام المرضى كما يمارس ايضا طقوس « غسل الفم » وهذه الطقوس في حقيقتها تتمثل بالخطوات الاساسية التي يجب ان تتبع اثناء تقديم الثور كقربان الى الاله • ومن مهام الايشيوم الاخرى هي المساهمة في الطقوس الخاصة بتطهير المعبد • والنصوص المسمارية المختلفة قد اكدت على ان هذا الصنف من الكهنة يجب ان يكون عاريا تماما عندما يقوم بتأدية واجباته الاساسية •

ح - لوماخم

ومن اسم هذا النوع من الكهنة الذي يعني باللغة السومرية « الرجل الكبير » يبدو انه يترأس مجموعة من العاملين في احد المرافق الدينية والنصوص المسمارية قد اكدت على انه يشرف على المعبد الذي يبنى في اعلى الزقورة والذي يسمى « كيكونو » ويتم اختيار هذا النوع من الكهنة عن طريق استخارة الفأل •

ط - كودايشوم ونيشاكوم

من ابرز اعمال هذين النوعين من الكهنة هو القيام بتطهير المعبد وبتطهير كل مآثر التقاليد الدينية بتطهيره قبل او بعد او اثناء اجراء الطقوس الدينية وسواء كان ذلك في داخل المعبد او خارجه •

ي - باشيشوم

ومعنى هذا الاسم باللغة الاكدية هو « المدهن » ولكن عمل الباشيشوم

الرئيس هو القيام بواجبات التطهير ولذلك يبدو لنا انه يمسح بالزيت الاشياء التي يقوم بتطهيرها • والباشيشوم يساهم بطقوس تقديم القرابين الى الالهة تلك الطقوس التي كان يرافقها العزف على القيثارة ولذلك كان عليه أن يجيد العزف عليها •

ك - ناروم وكالوم

ومن واجبات هذين النوعين من الكهنة هو القيام بمهام الغناء والعزف على الآلات الموسيقية وكاهن الناروم كان متخصصا باداء الاغاني المفرحة والتي تؤدي على انغام الموسيقى اما كاهن الكالوم فكان متخصصا باداء الاغاني الحزينة والتلاوات التي لا ترافقها الموسيقى • والناروم يعني النصوص المكتوبة باللغة الاعتيادية بينما الكالوم كان لا يؤدي تلاوته الا للنصوص المكتوبة باللغة الادبية التي تسمى لغة النساء •

ل - باروم

وهذا الصنف من الكهنة كان يتولى مهمة الكشف عن الطالع وذلك باستخارة الفأل بأنواعه المختلفة • وعلاوة على هذه المهمة فقد كان كاهن الباروم يقوم بمهمة تفسير الاحلام • واحسن تشبيه لهذا الكاهن هو « القوال » الذي كان يجوب المحلات قبل ثلاثين او اربعين سنة •

واضافة الى ما تقدم هناك عدد آخر ولكنه قليل من الكهنة الذين كانت اعمالهم لا تختلف اطلاقا عن اعمال الكهنة الذين تحدثنا عنهم في اعلاه •

المصادر

- ١ - عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة - رسالة ماجستير للسيد نائل حنون عليوي ، ١٩٧٥ .
- ٢ - الاعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين - رسالة ماجستير - للسيدة راجحة خضر عباس النعيمي ، ١٩٧٦ .
- ٣ - مجلة سومر - المجلد الثاني والثلاثون - ١٩٧٦ .
- ٤ - مجلة آفاق عربية - السنة السادسة - أيار - ١٩٨١ .
- 5- Th. Jacobsen, the Treasures of Darkness, a history of Mesopotamian Religion, New-Haven and London, 1976.
- 6- Fischer Weltgeschichte 2, die Altorientalischen, Reiche, I.
- 7- A. Falkenstein, An Or 30 = die Inschriften Gudeas von Lagash I, Einleitung, Roma, 1966.
- 8- Zeitschrift für Assyriologie, Neue Folge 24 (1967), 25 (1969), J. Renger, Untersuchungen zum Priestertum der Altbabylonischen Zeit.
- 9- G. Pettinato, das Altorientalische Menschenbild und die Sumerischen und Akkadische Schöpfungsmythen, Heidelberg, 1971.
- 10- XXVI. und XXVII. Vorläufiger Bericht über die von dem Deutschen Archäologischen Institut und der Deutschen Orient - Gesellschaft aus Mitteln der Deutschen Forschungsgemeinschaft Unternommenen Ausgrabungen in Uruk - Warka, 1968 und 1969, von Jürgen Schmidt.

البحر الثاني العرافة والسحر

د. فاضل عبد الواحد علي

استاذ السومريات - جامعة بغداد

العرافة

ترتبط العرافة والسحر ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية والعادات والتقاليد الاجتماعية * وتهدف العرافة اساسا الى الاتصال بالقوى العليا (الآلهة) لمعرفة ما تقدره من خير وشر للفرد والمجتمع على حد سواء، بينما يهدف السحر الى تحقيق او احداث غرض معين قد يكون مفيدا احيانا مثل شفاء المرضى او مضرا احيانا اخرى مثل الحاق الاذى بفرد او اكثر * ولا شك في ان المعتقدات الخاصة بالسحر والعرافة قديمة جدا لان الانسان عرف كثيرا من المعتقدات والطقوس الدينية ومارس انواعا من الاساليب السحرية منذ عصور ما قبل التاريخ *

استخدم السومريون تعابير عديدة للدلالة على العراف نذكر منها "i-zu" بمعنى « الذي يعرف » اي « العراف » * اما في الاكدية فيسمى العراف او البصار « بارو » وسمي كبير العرافين « راب بارى » * ويظهر من النصوص المسمارية ان العراف « بارو » كان يقوم بالعرافة على الصعيد

الرسمي اي للملك والدولة وعلى الصعيد الشعبي لعامة الناس • وكانت مهنة العرافة وثيقة الصلة بالمعبد لان العراف كان كاهنا شأنه في ذلك شأن العزام ومفسر الاحلام وغيرهما من كهنة المعبد • ومن جهة اخرى ترد اشارات كثيرة في النصوص المسمارية تدل على ارتباط العراف بالقصر وهو امر ناتج عن ان الملك كان يستشير قبل اتخاذ القرارات المهمة لمعرفة مشيئة الالهة بخصوصها ، مثل ولاية العهد او القيام بمشروع بناء او صيانة • وبالإضافة الى ذلك فقد كانت مهنة العراف شديدة الارتباط بالجيش والعمليات العسكرية • اذ قرأ في بعض النصوص ان العراف كان يتقدم الجيش في زحفه وان بعض العرافين وقعوا اسرى اثناء المعركة • ولا شك في ان هذا الارتباط يعود الى ان الملك كان يستطلع رأي الآلهة قبل القيام بالعمليات العسكرية ليتعرف على احتمالات النصر او الفشل •

يقسم الباحثون العرافة الى قسمين رئيسيين بموجب الطريقة التي تنجز بواسطتها • فهناك العرافة العملية التي يستعمل فيها العراف وسائل وطرقا عملية من اجل الاتصال بالقوى العليا • ويشمل هذا النوع من المعرفة :
أ - ضرب القداح : وهي سهام صغيرة محززة ، مثل الازلام عند عرب الجاهلية ، كان البابليون يستعملونها لاستطلاع رأي الآلهة في مناسبات او قضايا معينة •

ب - سكب الزيت في الماء : يقوم العراف بسكب شيء من الزيت في اناء فيه ماء • ثم يراقب حركة الزيت وهو يطفو فوق الماء • فاذا ماتكونت حلقة كاملة واتجهت نحو الشرق كان ذلك في اعتقاده فالأحسن اما اذا انكسرت الحلقة او انتشر الزيت فوق الماء دون ان يكون حلقات فكان ذلك نذير شؤم لصاحب العرافة •

ج - تصاعد الدخان : وهي طريقة في العرافة تعتمد على حرق البخور او انواع معينة من الاعشاب ومراقبة تصاعد الدخان من المبخرة وانتشاره .

اما النوع الثاني من العرافة فيسمى بالعرافة السحرية لانها تعتمد على قوى وظواهر خفية لا دخل للانسان فيها مثل حدوث تغييرات في الظواهر الكونية والطبيعية كالخسوف والكسوف وحركة الرياح ، كما انها تعتمد على مراقبة التغيرات التي تحدث في سلوك الطير او الحيوانات وفي احشائها الداخلية (وخاصة الكبد) . وتشمل العرافة السحرية انواعا مختلفة نذكر منها :

أ - العرافة المستمدة من الظواهر الكونية والطبيعية : اذ يعتمد هذا النوع من العرافة بالدرجة الاولى على مراقبة الشمس والقمر والنجوم سواء من حيث مواقعها او اشكالها او الوانها لاستنباط الفأل من كل ظاهرة . ويسمى هذا النوع من العرافة بالتنجيم الذي كان الغرض منه التنبؤ بالمستقبل على الصعيد الرسمي للملك والدولة وعلى الصعيد الشعبي للافراد ايضا .

ب - العرافة المستمدة من مراقبة حركة وسلوك الطيور والحيوانات والحشرات : ويذكر ان العرافة المستمدة من الطيور كانت معروفة في بلاد آشور كما كانت شائعة ايضا في اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين . وقد اطلق العرب تسمية « زاجر الطير » على العراف المتخصص باستنباط الفأل من حركة الطير وسماه الاكديون « داغل إصوري » (حرفيا : مراقب الطير) . ويظهر ان حرفة « زاجر الطير » كانت من الاهمية بالنسبة للبلاط الاشوري بحيث ان هذا الكاهن كان يؤدي القسم بالولاء الى الملك مع غيره من اصحاب كبار الحرفيين التابعين الى البلاط مثل الكتاب والعزامين والاطباء .

ج - العرافة المستمدة من الاجنة والولادات المشوهة سواء البشرية منها او الحيوانية *

د - العرافة المستمدة من فحص الكبد والاحشاء : وقد اشتهر العراقيون القدماء خصوصا بعرافة الكبد ، فبعد ان ينهر العراف الذبيحة يبدأ بفحص احشائها بحثا عن عرافة يستنبطها من الوضع العام للعضو ومن شكله ولونه ، تضخمه او ضموره مع ملاحظة ماعليه من اعراض غير اعتيادية او تشوهات وخاصة ما يظهر على الكبد من فقائيع او تشققات ووضع الغدة الصفراء والقنوات . وقد استنبط العراقيون من كل واحدة من تلك الظواهر فألاً معينا ونظموا في ذلك كله قوائم خاصة تعرف بين الباحثين بالعرافة المستمدة من الكبد . وجدير بالذكر انه تم اكتشاف نماذج عديدة مصنوعة من الطين على هيئة الكبد وعليها شروح تمثل اجزائه المختلفة في وادي الرافدين وفي ماري (تل الحريري) وفي بوغازكوي في اسيا الصغرى *

وبالاضافة الى قيامه بالعرافة للملك والدولة ، فقد كان العراف « بارو » يقدم خدماته الى الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية . وكثيرا ماقرأ في النصوص الادبية شكوى اولئك الذين تعرضوا لنوائب الدهر حتى لم يعد باستطاعة العراف او العزام ان يفعل شيئا لوضع حد لعذابهم *

كان الاعتقاد السائد لدى سكان بلاد وادي الرافدين انه على الرغم من ان قرارات الآلهة تعتبر مسألة حتمية ، فان الانسان لم يترك دون دلائل تمكنه من التعرف على المشيئة الالهية . كما اعتقدوا ايضا ان نوايا الالهة تنعكس بشكل وقائع او احداث سواء كانت جسيمة ام بسيطة . ولهذا فانهم

ربطوا بين اية ظاهرة او حادثة كونية او طبيعية وبين مايقع بعدها مباشرة على الصعيد الاجتماعي او الفردي . وبتعبير اخر انهم لاحظوا تتابع الاحداث واعتبروا الاول علة والثاني معلولاً ، وقد تصوروا ان النتيجة ذاتها من الممكن ان تحدث فيما لو وقعت الظاهرة او الحادثة مرة اخرى . اي انهم اعتقدوا بالمنطق البدائي القائل بالقياس على الاشياء . فنذكر هنا على سبيل المثال انه لو حدث وان نطق غراب في بيت رجل ذات يوم وصادف ان مات الرجل في ذلك اليوم فان الاقدمين تصوروا وجود علاقة سببية بين نطق الغراب باعتباره نذيراً للهياً بما سيحدث على الارض وهو موت صاحب الدار . وانطلاقاً من هذا الاعتقاد ، نظم العراقيون القدماء قوائم مطولة بالاحداث الاعتيادية وغير الاعتيادية مع ما تمخض عنها من نتائج واعتمدها اساساً للتنبؤ بالمستقبل وهذا مايعرف بين الباحثين في الاشوريات بنصوص الفأل .

السحر

السحر من المعتقدات القديمة التي عرفها سكان بلاد وادي الرافدين وسائر الشعوب الاخرى . وهو يقوم على مبدأين يرجعان اصلاً الى المنطق البدائي . اولهما الاعتقاد بإمكانية احداث الشيء بتقليد عملية حدوثه ، وهو مايعرف بمبدأ التشابه وينعكس هذا المبدأ في العديد من الاثار التي تركها انسان العصور الحجرية ومنها الرسوم التي نقذها على جدران الكهوف . فرسم صورة الحيوانات التي كان الانسان يرغب في اصطيادها لتوفير غذائه ، سوف يمكنه حسب هذا المبدأ ، ان يوقع تلك الحيوانات نفسها فريسة سهلة اثناء المطاردة . وبالمثل فان عمل دمية تشبه شخصاً ومن ثم كسر يدها او اثلاف عينها يلحق بالرجل المقصود نفس الاضرار التي حلت بالشبيه . اما

المبدأ الثاني فيقوم على الاعتقاد بان الاشياء التي كانت جزءا من جسم الانسان تبقى على صلة به حتى بعد انفصالها عنه ، وهو ما يعرف بمبدأ المصاحبة . فعلى سبيل المثال كان يعتقد انه بمقدور الساحر ان يسبب الاذى لشخص معين من خلال تأثيره السحري في خصلة من شعر ذلك الرجل او قلامة ظفره او ضرس مقلوع .

والسحر كما قلنا ظاهرة شائعة في كافة حضارات الشعوب القديمة وهو يجسد اقدم مرحلة في تطور العقل البشري . والحقيقة هي ان الاعتقاد بالسحر مايزال يؤثر في اعماق النفس البشرية للانسان وذلك من خلال شعورنا واعتقادنا بامكانية حدوث الاشياء التي نتمناها بمجرد رغبتنا الذاتية فيها . وعلى اية حال فان هناك نوعين من السحر ، الاول ضار والغرض منه الحاق الاذى بعدو فردا كان ام جماعة . وقد حرمت القوانين البابلية ممارسة هذا النوع من السحر وفرضت عقوبة الموت على من يقوم به . والنوع الثاني من السحر حلال لانه يهدف اساسا الى منفعة الناس من خلال شفائهم من الامراض وتخليصهم من الارواح والاشباح الخبيثة التي كان يعتقد انها تلاحقهم وتحل في اجسامهم . واعتقد الاقدمون ان الارواح والاشباح الخبيثة هذه عبارة عن ارواح الموتى خاصة اولئك الذين يتركون دون دفن . بالاضافة الى وجود اصناف من الشياطين الخالصة التي كانت تسبب انواعا مختلفة من الامراض الجسدية والعقلية للناس .

وفي سبيل حماية الشخص من خطر الشياطين والارواح الشريرة او شفائه من المرض الذي سببته له ابتدع السحرة القدماء الحرز الذي كان يحتوي على تمويذة مكتوبة فيها دعوة للالهة العظيمة لحماية صاحب الحرز

كما يحتوي احيانا ايضا على صورة للشيطان المقصود الذي يراد تخليص المريض منه • وتقتبس في ادناه نموذجا من التعاويذ البابلية :

« تعويذة • انه ذلك الشيطان الذي اقترب من بيتي ، يخيفني وأنا في فراشي ، انه يمزقني ويرسل على الكابوس في الليل • فعسى ان يسلموه الى الاله حارس بوابة العالم السفلي بأمر من ننورتا امير العالم السفلي وبأمر من مردوخ الذي يقيم في ايساكيل في بابل ، وعسى أن تعرف الباب والمزلاج انني بحماية هذين السيدين • تعويذة » • وقد وصلتنا حروز اخرى منها ماهو معمول ضد الشيطان « بازوزو » الموكول برياح الصيف اللافحة • ويحمل احد تلك الحروز المصنوعة من الحجر صورة بالنحت البارز تمثل هذا الشيطان : وجه مخيف يكشف عن انياب حادة ، له صدر كصدر طائر ويدان تشبهان يدي انسان لكنهما تنتهيان بمخالب ، وله ذيل طويل معقوف واربعة اجنحة • ويظهر فوق صورة الشيطان « بازوزو » صف من الكهنة العزامين وهم يلبسون في رؤوسهم اقنعة لحيوانات مختلفة •

كما وصلتنا حروز عمل بعضها خصيصا لحماية النسوة اثناء الحمل والرضاعة من شيطانة سماها البابليون « المشتو » التي صورت على حوز حجري برأس اسد وجسم امرأة وهي تقف على حمار وترضع حيوانين • وكان يعتقد ايضا ان الشيطانة « المشتو » تصيب الرجال بالامراض ولهذا تورد بعض النصوص المسمارية تفاصيل عن الطقوس والمراسيم التي كان يتوجب على كاهن التعزيم القيام بها لمعالجة المريض المصاب بفعل هذه الشيطانة • يذكر احد النصوص في هذا الصدد الآتي : « عليك بتطهير المكان اولاً ثم خذ شيئاً من الطين واصنع دمية للمشتو وضعها عند رأس الرجل المريض •

املاؤا المبخرة بالرماد ودس فيها خنجرا ثم اتركها عند رأس المريض ثلاثة ايام •
وفي اليوم الثالث ، عند انتهاء النهار ، خذ الدمية واطعنها بالخنجر ثم ادفنها
في الزاوية عند الجدار » •

كان العزامون المختصون بطرد الارواح الشريرة يقومون بفحص المريض
لمعرفة الروح الشريرة التي اصابته واختيار التعويذة المناسبة التي كانت
تقرأ مع تأدية طقوس معينة • وكانت عملية التعزيم تجري في المعبد او في
بيت المريض • وفي كل الاحوال تؤكد النصوص المسامرية ذات العلاقة
ضرورة تطهير المكان قبل كل شيء • وكان ايا ، اله الحكمة عند البابليين ،
هو الاله الموكل بالسحر وبدوره علم مردوخ اله بابل اسرار السحر وفنونه •
ولهذا كان المرضى يتضرعون للاله مردوخ عن طريق الكاهن لان يخلصهم من
فعل الارواح الشريرة التي يعانون منها • ويظهر من التفاصيل التي تذكرها
نصوص التعزيم ان الاله مردوخ كان يذهب بدوره الى ابيه الاله ايا ليعرض
عليه حالة الشخص المستغيث وان اباه كان يخبره بالاجراءات الواجب
انجازها لشفائه • كما يظهر من تلك النصوص ايضا ان اشعال النار اثناء
التعزيم كان واحدا من الطقوس الفعالة لطرد الشياطين والارواح الشريرة من
جسم المريض • فبعد اشعال النار يقوم العزام بدعوة واستشارة الهة النار
الثلاثة (جيرا ، جبل ، نوسكو) للاقتضاض على تلك الارواح وطردها •

وهناك طرق سحرية اخرى كان يلجأ اليها العزامون لشفاء المريض منها
ان يصنع العزام دمية من الشمع تشبه المريض ثم يدفنها في المقبرة مع دمية
اخرى تمثل الروح الشريرة التي سببت له المرض • ان الغرض من هذه العملية
السحرية تحقيق هدفين ، الاول القيام بدفن رمزي للروح الشريرة لاعادتها

الى مقر الاموات في العالم السفلي والثاني ايهاهما بان المريض قد مات وانتهى امره . وفي احيان اخرى ، يلجأ السحرة الى اتباع طريقة « البديل » اي توفير شيء آخر يحل فيه الشيطان او الروح الشريرة بدلا من جسم المريض . وهذا البديل في الغالب يكون حيوانا كالجدي مثلا . فوسط قراءة التعاويذ واداء الطقوس السحرية يقدم العزام الجدي فدية وبديلا للرجل المريض . وعندئذ يخرج الشيطان من جسمه ليحل في الجدي وبذلك يشفى من المرض . ومما نجدد الإشارة اليه ان الاعتقاد بإمكانية حلول الشياطين والارواح الخبيثة في اجسام بديلة هي الحيوانات له ما يوازيه في انجيل متي (سفر ٨ : ٢٨-٣٢) حيث قرأ : « ... وكان بعيدا منهم قطع خنازير كثيرة تزعم . فالشياطين طلبوا اليه قائلين : ان كنت تخرجنا فأذن لنا ان نذهب الى قطع الخنازير . واذا قطع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات في المياه . اما الرعاة فهربوا ومضوا الى المدينة ... » .

المراجع

- (١) المعلومات التي قدمناها عن العرافة في العراق القديم تمثل ملخصاً مركزاً لبحث مستفيض سبق أن نشرناه تحت عنوان « طرق العرافة في النصوص المسمارية » ، مجلة كلية الآداب ، العدد ٢٥ ، ص ٦٩٥-٧٠٧ .
 - (٢) الدكتور سامي سعيد الأحمد « معتقدات العراقيين القدماء في السحر والعرافة والاحلام والشرور » ، المؤرخ العربي ، العدد الثاني (١٩٧٥) .
 - (٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٥٥) ص ٢٦٧-٢٧٦ .
- Goetze, Old Babylonian Omen Texts, Yale Oriental Series X.
———, "Historical Allusions in old Babylonian Omen Texts",
Journal of Cuneiform Studies, (1947).
Saggs, The Greatness That was Babylon, (1962) P. 303 ff.

الفصل السادس

الحياة والاحتفالات

د. فاضل عبد الواحد علي

استاذ السومريات - جامعة بغداد

شغلت الاعياد والاحتفالات حيزا مهما في الحياة اليومية للانسان في وادي الرافدين • والاعياد كما هو معروف تقام في ايام محددة من السنة ويشارك فيها عامة الناس بينما تقام الاحتفالات بمناسبة معينة كأن تكون الانتهاء من بناء معبد لاله المدينة او عودة الجيش منتصرا من جبهة القتال او اية مناسبة اخرى مهمة تستوجب التقدير والاعتزاز •

قبل الدخول في تفاصيل الاعياد والاحتفالات في العراق القديم لابد لنا من الاشارة في البداية الى الجذور البعيدة التي ترتبط بها والتي عملت على تحديد اطرها العامة وتفاصيلها الدقيقة • هنا يقودنا الحديث الى عصور ما قبل التاريخ عندما كان انسان الكهوف والقرى الزراعية الاولى في صراع مستمر مع قوى الطبيعة من اجل ضمان غذائه ووجوده • وقد ادرك الانسان في تلك العصور المبكرة ان الطبيعة بخصبها وكثرة مياهها وحيواناتها عرضة لان تتغير فتختفي كل مظاهر الخصب مما يهدد حياته بصورة مباشرة • وتصور

الانسان من خلال مرحلة من مراحل تطوره الفكرى ان باستطاعته التأثير على الظواهر الطبيعية المحيطة به وبالتالي تسخيرها لصالحه لتفادى النتائج السلبية التي كانت تؤدي اليها تلك التغيرات . وهكذا كانت بداية ما يعرف بالسحر القائم على مبدأ التشبيه ، اي الاعتقاد بإمكانية استحداث الشيء بتقليد عملية حدوثه . وقد ادى ذلك بدوره الى ان يقوم الانسان بطقوس سحرية يتقمص من خلالها ظاهرة طبيعية معينة او شيئا معيناً أصبحت الحاجة ملحة الى وجوده كأن يكون مثلاً سقوط المطر او وفرة الصيد او تكاثر الحيوانات.

ان هذا الاعتقاد يفسر ايضا وجود رسوم الحيوانات والطيور والاسماك التي نقدها الانسان على جدران الكهوف وسفوح الجبال في مناطق مختلفة من شمال افريقيا واسبانيا وفرنسا . فوجود صور تلك الحيوانات على جدران الكهوف كان سيجعل، حسب اعتقاده، الحيوانات الاصلية ذاتها تحت سيطرته اعتقاداً بإمكانية التأثير على الاصل من خلال التشبيه والطقوس . وقد سجل انسان العصور الحجرية بعض ما كان يجري من طقوس سحرية من خلال المشاهد التي رسمها على جدران الكهوف منها مشهد يمثل سحره في ازياء تنكرية حيوانية .

وفي مرحلة لاحقة جسد انسان عصور ما قبل التاريخ القوى والظواهر الطبيعية بهيئة الهة تصورها على غرار البشر في جنسين مؤنث ومذكر . وكان منطقياً ان يعزو كل مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة سواء بين الانهسان او الحيوان او النبات الى قوى الخصب المتمثلة بالالهة الام التي صنع لها دمي تمثلها بهيئة امرأة جبلية ذات ثديين كبيرين وردفين ضخمين وهي صفات تجسدت في العصور التاريخية بالالهة إانا (عشتار) آلهة الخصب والجنس . وبالمثل فقد كان منطقياً ايضا ان يعزو اسباب الجفاف واصفرار العشب وفدرة المطر وقلة ما تدره الماشية من لبن الى اختفاء اله الخصب وهذا ما تتج عنه في العصور التاريخية اسطورة موت الاله في العالم السفلي لمدة معينة من السنة

وظهور ما يعرف بالحزن الجماعي على الالة دموزى (تموز) * وكان الفيضان السنوى الذى يهدد حياة الانسان ومزروعاته وممتلكاته في ظن الانسان القديم انعكاسا لغضب الهة المياه الازلية القديمة وان انحسار مياه الفيضان يعكس هو الآخر اندحار تلك الالهة امام قوى الهية فتية وهذا ما تجسد في العصور التاريخية في اسطورة الخليقة البابلية التي تحكي قصة ذلك الصراع وكيف انه انتهى بخلق الكون ثم الانسان *

غير ان مثل هذه التغيرات للظواهر الطبيعية لم تبطل ايمان الانسان بقوة السحر واعتقاده بإمكانية التأثير على ظواهر الطبيعة من خلال الطقوس * فاذا كان الخصب يعزى الى القوى الخلاقة التي تتجسد في كل من إناثا (عشتار) وتموز فباستطاعة الانسان ان يستحضر اسباب الخصب والتكاثر في مجتمعه من خلال محاكاة زواج الهى الخصب وهذا ما ادى الى ظهور « الدراما » السنوية التي هي عبارة عن تقليد او محاكاة للالهة في اعراسها (وهو ما يعرف في العصور التاريخية القديمة بطقوس الزواج المقدس) او في موتها وبعثها (المعتقدات الخاصة بموت وبعث تموز) أو في صراعها مع بعضها وانتصار قوى الخير على الشر (قصة الخليقة البابلية) *

لقد ذكرنا في بحث سابق لنا عن هذا الموضوع بالذات « ان الفرد في العصور القديمة كان ينطلق في فهمه وتفسيره للظواهر الطبيعية والحضارية من منطق يختلف تمام الاختلاف عن منطق الانسان المعاصر * فانسان العصور القديمة كان حاضره آنذاك يرتبط بسلسلة احداث صنعتها قوى خارقة في البدء اى ان الابطال الذين صنعوا تاريخه كانوا الهة وهو لذلك تاريخ مقدس يجد الانسان القديم نفسه ملزماً ليس فقط بمعرفته ولكن بأعادته من وقت لآخر، وهنا يكمن فرق جوهري في عقلية الانسان القديم والانسان المعاصر * فقد يجد الاخير ما يبرر تخليد او استعادة ذكرى معينة غير انه لا يجد مبررا لاعادة تمثيل وقائع تلك الحادثة *

وعلى النقيض من ذلك فقد كان امرا ضروريا وممكنا للانسان في العصور القديمة ان يعيد ما حدث في البدء عن طريق الطقوس . ذلك لان معرفة الانسان القديم بالاساطير اي بتاريخه القديم كان امرا ضروريا ليس فقط لانها تعطيه تفسيراً لاسرار الكون وعن كيفية وجوده بالذات في هذا الكون ، وانما يستطيع من خلال استذكار الاساطير ومن خلال اعادة وقائعها ان يعيد ما صنعه الالهة والابطال والاجداد في الماضي » .

اعراس تموز والزواج المقدس

ذكرنا في بداية حديثنا ان مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة تجسدت في العصور التاريخية القديمة بالهة الخصب والجنس إناثا (عشتار) وبجسدها وزوجها الاله دموزى (تموز) . وقد وصلتنا قصائد سومرية عديدة تحكي قصة الحب بين الاله الراعي تموز وعشتار وكيف انه ضحى بالغالي والنفس من اجلها وكيف ان قصة حبه تنوجت في النهاية بزواجه منها حيث عاشا سوية في بيتهما الجديد الذي سماه الشاعر السومري « بيت الحياة » . ولا يخفى ان هذه التسمية لها مدلولها في معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين اذ ان الحياة توجد وتتجدد بوجودهما سوية وانها تنعدم بافتراقهما . لذلك كان منطقيا وضروريا من وجهة نظر الفرد في العصور القديمة ان تعاد وقائع ذلك الزواج الالهي كل عام فيقوم ممثلو الالهة من البشر كالملك او الكاهن بتقمص شخصية الزوج - الاله تموز بينما تقوم الكاهنة العظمى بدور الزوجة الالهة عشتار في احتفال كبير يعرف بين المختصين بأسم الزواج المقدس (Hieros Gamos) والذي كانت مراسيمه تشكل المحور الاساس من عيد رأس السنة السومرية المعروف بالمصطلح السومري (Zag - mug) .

هناك اشارات في النصوص المسمارية تعزز الافتراض القائل بان مراسيم الزواج المقدس ربما كانت تقام في سومر في وقت مبكر من عصر فجر السلالات .

ولكن ليس هناك من شك في ان الاحتفال بالزواج المقدس كان معروفا في زمن سلالة لكش الثانية وعلى وجه التحديد زمن الامير كوديا (في حدود ٢١٥٠ ق م) حيث ترد اشارات صريحة الى قيامه بدور الزوج للالهة باؤ في لكش والى تأدية الطقوس والمراسيم الخاصة بهذا الزواج كالاغتسال وتقديم هدايا الزواج والقرايين . وقد وصلتنا نصوص سومرية فيها تفاصيل وافية عن مراسيم الزواج المقدس من سلالة اور الثالثة وخاصة من الملك شولكي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق م) وشو - سين (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق م) ومن زمن سلالة ايسن وخاصة من الملك ادن - دكان (١٩٧٤ - ١٩٥٤ ق م) .

يظهر من هذه النصوص المسمارية ان الملك كان المرشح الطبيعي للقيام بدور الزوج - الاله خلال الزواج المقدس باعتباره الممثل الشرعي للالهة ، كما جرت العادة على اختيار واحدة من كاهنات المعبد لتقوم بدور الزوجة - الالهة . وما يجدر ذكره في هذا الصدد انه عثر في المعبد المخصص للالهة (عشتار) في الوركاء على قلادتين كتبت على خرزة من القلادة الاولى عبارة « ابا بشتي الكاهنة محبوبة شو - سين ملك اور » وكتب على القلادة الثانية « كوباتم الكاهنة ، محبوبة شو - سين » ويظهر ان الكاهنة الاخيرة قد نالت استحسان الملك خلال تأديتها مراسيم الزواج المقدس اذ انها اصبحت احدي حريم قصره او (ملكة) على حد تعبير النص السومري .

جاء في احد النصوص المسمارية التي تعود الى الملك شولكي ان الزواج المقدس كان يقع في « يوم رأس السنة ، يوم الطقوس » و « يوم القمر الجديد » . ولما كان عيد رأس السنة يبدأ في الاول من نيسان لذلك يجوز لنا القول بان الزواج المقدس في هذا العصر (الالف الثالث والنصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) يعتبر بداية لاعياد رأس السنة (آكيتو) ويشكل المحور الاساسي الذي تدور حوله تلك الاعياد . وكانت المراسيم الخاصة

بالزواج المقدس تقام في المعبد ، وعلى وجه التحديد في الجناح المعروف باسم
كيبارو (giparu) وهو المكان المخصص أيضا لإقامة الكاهن الأعظم
(enu) والكاهنة العظمى (entu) .

يمكن القول في ضوء التفاصيل التي تذكرها النصوص المسمارية ذات
العلاقة بالموضوع ان الزواج المقدس كان يبدأ بوصول موكب الملك الى
المعبد . ويصف احد النصوص وصول الملك شولكي الى معبد الالهة إنانا
(عشتار) في الوركاء من اور في سفينة ومعه الهدايا والقرايين وقد احتشدت
الجماهير لاستقباله . ويصف نص آخر كيف ان العروس - الكاهنة استعدت
لهذه المناسبة فاغتسلت بالماء والصابون وطيبت جسما بالدهان والطور
وفمها بالعنبر وزينت عينيها بالكحل وارتدت اجمل ثيابها وحليها . وعندما
يلتقي العريس بعروسته تبدأ الاخيرة بترديد أغنية عاطفية هي في الواقع دعوة
سافرة «للوصال» باعتباره الهدف الاساس الذي تدور حوله المعتقدات
الخاصة بالزواج المقدس . ونقتبس في ادناه احدي تلك الاغاني التي انشدتها
العروس بين يدي سيدها الملك شو - سين (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق م) رابع
ملوك سلالة اور الثالثة :

ايها العريس عزيز انت على قلبي

لذيذ « وصالك » حلو كالشهد

ايها الاسد عزيز انت على قلبي

لذيذ « وصالك » حلو كالشهد ...

ايها العريس دعني أقبلك

فقبلتي حلوة الذ من الشهد ..

دعني اتمتع بجمالك اللطيف

ايها الاسد دعني أقبلك

فقبلتي حلوة الذ من الشهد ..

نفسك ! اني اعرف كيف ادخل السرور الى نفسك :
ايها العريس تعال وبت عندنا حتى الفجر
قلبك ! اني اعرف كيف ادخل السرور الى قلبك :
ايها العريس تعال وبت عندنا حتى الفجر
ايها الاسد تعال وبت عندنا حتى الفجر
وانت مادمت تحبني
اتوسل اليك ان اقبلك
يا سيدي الاله يا سيدي الحافظ
يا شو - سين يا من يدخل السرور الى قلب الليل
اتوسل اليك ان اقبلك .

ولما كان الزواج المقدس يهدف اساسا الى الاستزادة من اسباب الخصب
والرخاء وزيادة المحاصيل وتكاثر الحيوانات ، فاننا نقرأ في نص زمن الملك
ادن - دكان ان الكاهن اخذ بيد الملك « وجاء به الى حجر إناثا (عشتار)
المقدس » ثم بدأ بترديد دعاء يسأل فيه الالهة - الزوجة ان تمنحه شارات
الملوكية وتوطد حكمه في البلاد وان تسبغ نعمها وخيراتها على الناس في السهول
والاهوار والغابات وفي ادناه تقتبس المقاطع مما جاء على لسان الكاهن :

عسى ان يستمتع سيدي الذي دعوته الى قلبك
الملك زوجك المحبوب ، بايام طويلة في حجرك المقدس
وعسى ان تمنحني حكما صالحا وممجدا
وتمنحني عرش الملوكية على اسس مستديمة
وتاجا مستديما واكليلا يرفع الرأس
وتمنحني - من حيث تشرق الشمس الى حيث تغرب الشمس
من الجنوب الى الشمال
ومن البحر العلوى الى البحر السفلي

وعلى كل بلاد سومر واكد - العصا والصولجان
وعسى ان يرعى الناس حيثما استوطنوا
ويجعل الحقول منتجة مثلما يفعل الفلاح
وعسى ان يكثر حظائر الاغنام كالراعي الامين
وان ينمو الزرع ويكثر الحب في ظل حكمه ...
وعسى ان تجعل الملكة المقدسة للزرع من الحب اكواما مقدسة
وان ينمو الخس والرشاد عاليا في الحقول
وعسى ان تكون حياة طويلة دائمة في القصر
وان تأتي مياه كثيرة الى دجلة والفرات
وعلى ضفافيهما عسى ان ينبت العشب عاليا وتكتسي المروج
وعسى ان تجعل ملكة الزرع المقدسة من الحب اكواما مقدسة
يا ملكتي يا ملكة الكون ، ايتها الملكة التي تحتضن الكون
عساه ان يستمتع بايام طويلة في حجره المقدس

ومن الاهداف الاساسية الاخرى لاقامة الزواج المقدس هو تقرير
المصير للملك والبلاد على يد الالهة - الزوجة . اذ كان الاعتقاد السائد لدى
سكان بلاد وادي الرافدين ان الالهة وعلى رأسهم آنو وانليل يقررون شؤون
الملوكية والبلاد واقدار الناس مرة كل سنة وان ما تقرره الالهة سوف يتحقق
وغير قابل للتبديل . لذلك يكون امرا ضروريا ان تقوم الكاهنة بالدعاء لتحقيق
ما يصبو اليه الملك والشعب خلال السنة المقبلة . وهذه بعض المقاطع من دعاء
توجهت به الكاهنة من اجل زوجها الملك شولكي وهي تقرر له المصير :

انت ايها الراعي المختار
انت يا مؤازر المعبد العظيم لانو
في كل الاحوال انت كفوء :
لأن ترفع رأسك على العرش العالي - انت كفوء

لان تجلس على عرش من اللازورد - انت كفوء
وتضع التاج على رأسك - انت كفوء
وتلبس ثيابا فضفاضة - انت كفوء
وترتدى بدلة الملوكية - انت كفوء
وتحمل الصولجان والسلاح - انت كفوء ..
فعسى ان تطول أيام قلبك المحبوب
هكذا قرر المصير لك الاله آنو ، فعسى ان لا يتغير
والاله الليل ، مقرر المصير ، فعسى ان لا يتغير ..

وتختتم مراسيم الزواج المقدس عادة باقامة احتفال كبير يشارك فيه عامة الناس وتعزف خلاله الموسيقى وتردد الاغاني وتقدم المأكولات والمشروبات ، اذ يصف احد النصوص السومرية زواج الملك ادن - دكان من عروسته التي كانت تقوم بدور الالهة إانا (عشتار) فيذكر ان الملك كان يجلس على العرش والى جانبه العروس وانه كان يضع ذراعه حول كتفها « وانها كانت تبدو مثل ضوء النهار وهي تعتلي العرش » على حد تعبير النص . ثم وضعت صنوف من الطعام والشراب امام العروسين وبدأت مواكب المحتفلين تمر امامهما وهم يرددون الاغاني العذبة على انغام الطبل والقيثارة . « فكان القصر في عيد والملك في سرور والناس في نعيم » .

اعياد رأس السنة البابلية (آكيتو)

رأينا من خلال حديثنا عن الزواج المقدس كيف انه كان يشكل المحور الاساس لاحتفال رأس السنة (في السومرية Zag - mug) خلال الالف الثالث ومنتصف الالف الثاني قبل الميلاد وبحلول الالف الاول قبل الميلاد اصبح الزواج المقدس جزءا من عيد آخر اطول واكثر تعقيدا هو عيد آكيتو Akitu الذي هو عيد رأس السنة البابلية .

والحقيقة ان هذا العيد كان معروفا عند السومريين ايضا في الالف الثالث قبل الميلاد وتحت نفس التسمية تقريبا (Akiti) وكان يقام في المدن السومرية في اور في العصر السابق للسلالة الاكدية ، وفي الالف الاول صار عيد آكيتو واسع الانتشار ليشمل معابد معظم المدن في بلاد وادي الرافدين وكانت مراسيمه تدور حول نقطتين اساسيتين في معتقدات البابليين • الاولى قصة الخليفة البابلية التي تروى قصة الصراع بين الالهة القديمة بزعامة تيامة والالهة الفتية بقيادة مردوخ الاله الاعظم لبابل وهو الصراع الذي انتهى بمقتل تيامة وقيام مردوخ بشرط جسمها الى شطرين خلق منهما السماء والارض • والثانية هي الزواج المقدس الذي جئنا على تفاصيله في اعلاه •

تبدأ اعياد آكيتو في اليوم الاول من نيسان وتستمر احد عشر يوما • وكانت الايام الاربعة الاولى مخصصة لاقامة الصلوات وقراءة التراتيل والاناشيد الدينية في معبد ايساكيلا الخاص بالاله مردوخ • وفي مساء اليوم الرابع يقوم الكاهن بقراءة قصة الخليفة البابلية كاملة والتي تحكى ، كما قلنا ، قصة انتصار الاله مردوخ على تيامة وجيوشها •

اما اليوم الخامس فانه مخصص للقيام بطقوس التطهير • اذ يقوم كاهن متخصص برش المعبد بالماء المقدس وبتريد تراتيل معينة ثم يحرق البخور ويذبح كبشا ويمسح جدران المعبد بدمه لاجل ان يزيل ذنوب السنة بكاملها • بعد ذلك يلتقى بالكبش في مياه النهر • وكان على هذا الكاهن ان يبقى خارج المعبد في العراء الى حين الانتهاء من احتفالات عيد السنة لانه اصبح في اعتقادهم نجسا من خلال تلك العملية •

وفي هذا اليوم ايضا يصل الملك الى المعبد ويقوم الكهنة بتقديمه الى تمثال الاله مردوخ ثم يترك لوحده مدة من الزمن • بعد ذلك يدخل كبير الكهنة فيخلع عنه تاجه وشارات الملوكية ويضعها امام تمثال الاله • عندئذ

يركع الملك امام الاله ويردد اعترافا يؤكد فيه انه لم يذنب ولم يهمل وانه عمل على حماية بابل والحفاظ عليها وعلى معبدها العظيم ايساكيلًا واقام الطقوس والشعائر الدينية على اتم وجه • بعد ذلك يصنع الكاهن الملك على وجهه ويعرك اذنه وكلما كانت الصفعة اقوى كانت ضمانا اكيدا لرضى الاله مردوخ وبركاته • والراجح ان هذا الاجراء من جانب الكاهن كان لتذكير الملك بطبيعته البشرية لكي لا يصيبه الغرور فالحصول على رضا الاله امر واجب وان استمراره في الحكم مرهون بموافقته • وفي مساء اليوم نفسه يشارك الملك والكهنة في نحر ثور ابيض ضحية للاله وفي ترتيل دعاء خاص بالمناسبة • وفي اليوم السادس يصل موكب الاله نبو (ابن الاله مردوخ) الى بابل قادما من مدينة بورسبا المجاورة كما تصل الهة اخرى من نقر والوركاء وكوثي وكيش • اما مراسيم الايام الخمسة المتبقية من عيد آكيتو فانها لم تصل الينا لحد الان، ولكن هناك اشارات عديدة الى تفاصيل عن اعياد رأس السنة البابلية في نصوص مسمارية متفرقة تشير الى ان مشاركة الملك في هذه الاعياد امر واجب وانه اذا تعذر حضوره تلغى الاحتفالات مثلما حصل زمن الملك نبونائيد • من جهة اخرى كان عيد آكيتو يتضمن مسيرة كبرى الى « بيت آكيتو » الذي ربما كان معبدا يقع على مقربة من قناة خارج اسوار المدينة • وكانت المسيرة الى « بيت آكيتو » تمر خلال بوابة عشتار المزينة بالآجر الملون تمثل الثيران والأتنان • وكان الملك في مقدمة المشاركين في هذا الموكب حيث انه « يمسك بيد الاله مردوخ » على حد تعبير النص البابلي ليقوده من معبده ايساكيلًا الى « بيت آكيتو » • ويعتقد بعض الباحثين انه بعد وصول موكب الاله الى « بيت آكيتو » يجرى ترتيل قصة الخليفة البابلية وتمثيل وقائعها للتأكيد على ضرورة انتصار قوى الخير المتمثلة بالاله

مردوخ على قوى الشر (تيامة) انطلاقا من الاعتقاد القائل بإمكانية استحداث الشيء عن طريق تقليد عملية حدوثه من خلال الطقوس ، وهو ما اشرنا اليه في مقدمة حديثنا عن الاعياد والاحتفالات . كما يعتقد ايضا ان الايام المتبقية من عيد رأس السنة البابلية كانت تتضمن طقوس الزواج المقدس وتقرير المصير للسنة المقبلة على النحو الذي اوجزناه عند حديثنا عن الزواج المقدس .

الاحتفال بالنصر

كان احراز النصر على الاعداء مناسبة عزيزة عند الملوك والمواطنين في بلاد وادي الرافدين ومدعاة لاقامة احتفالات كبيرة . كما ان كثيرا من الملوك خلدوا تلك الانتصارات في مسلات ونصب حجرية وصفائح برونزية تصورهم ينتزعون النصر من اعدائهم ويلحقون بهم الهزيمة . والحديث عن هذا الموضوع يقودنا الى عصر فجر السلالات والى الاثر المتعارف عليه بين المختصين « راية اور » التي يعود تاريخها الى حدود ٢٥٠٠ ق م تصور هذه الراية عن طريق التطعيم بالفسيفساء مشهدين رئيسيين اولهما الحرب وثانيهما الاحتفال باحراز النصر . ففي المشهد الاول يظهر الملك السومري في عربته وهو يكتسح الاعداء، كما يظهر الجنود المشاة وهم يقتادون الاسرى ليمثلوا في النهاية امام الملك الذي ترجل من عربته بعد حسم المعركة . ويصور المشهد الثاني الملك جالسا وهو يرفع كأسا بيده وقد جلس امامه كبار رجال الدولة ويبد كل منهم كأس ايضا وهم يحتفلون باحراز النصر . ويظهر في نهاية المشهد امرأة تغني على انغام عازف القيثارة .

ومن القطع الفنية الشهيرة التي تسجل احتفالا بالنصر المنحوتة التي تمثل الملك اشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق م) جالسا في حديقة قصره مع

الملكة وهما يستمتعان بتناول المشروبات وسماع الموسيقى احتفاء بالنصر الساحق الذي حققه الجيش الاشوري على العيلاميين * وفي الطرف الايسر من المنحوتة يظهر رأس الملك العيلامي تيومان يتدلى من احد الاشجار *

لقد كان احراز النصر مدعاة ايضا لتكريم الابطال من القواد والمقاتلين واقامة احتفال بالمناسبة * ومن اقدم الوثائق المسمارية التي تسجل هذا التكريم « وثيقة النصر » للملك البابلي نبوخذ نصر الاول (١١٢٤ - ١١٠٣ ق.م) التي تسجل الانتصار العظيم الذي حققه البابليون بقيادة هذا الملك على ضفاف نهر اولاي ، احد فروع نهر كرخة * وتقديرا من الملك البابلي نبوخذ نصر الاول لقائد عرباته رتي - مردوخ ولافراد قبيلته (كرزيايكو) الذين شاركوا في المعركة فانه منحهم جملة من الحقوق والامتيازات جاء ذكرها في الوثيقة وشهد على اعلانها اربعة عشر شاهدا من كبار رجال الدولة ذكروا باسمائهم ومناصبهم ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا القائد كان قد قام بدور بطولي عندما اقتحمت العربات التي تحت قيادته صفوف الاعداء واكتسحتها فاستحق هو وافراد عشيرته التكريم والتقدير من الملك البابلي *

المراجع

١ - لابد لنا من الإشارة هنا الى ان المعلومات التي قدمناها عن المعتقدات الخاصة بالاعباد والزواج المقدس في بلاد وادي الرافدين هي في الواقع ملخص للتفاصيل التي اوردناها في كتابنا الموسوم «عشتار ومأساة تموز» والذي يجد فيه القارئ الكريم تفاصيل وافية عن الهه الخصب تموز والهة الحب والجنس عشتار .

٢ - حول مزيد من التفاصيل عن الزواج المقدس والنصوص السومرية الخاصة به ، انظر :

Kramer, The Sacred Marriage Rite, Indiana, 1969.

٣ - حول عيد آكيتو ، انظر :

Saggs, The Greatness That was Babylon, New York 1962 (P. 385 ff.)

الفصل السابع الكتابة

د. - بهيجة خليل اسماعيل

مديرة المتحف العراقي - بغداد

مقدمة

تعد الكتابة المسمارية اهم محصلة حضارية كبرى حققها الانسان العراقي القديم ، وتأتي على رأس الدلائل المادية للنضوج الحضاري في قطرنا ، اذ كان لها الفضل الكبير في وضع اصول التاريخ المدون للبشرية ، كما تركت اثرا كبيرا على مجمل الحضارة الانسانية ، ولولاها لما استطاع الانسان ان يسجل علومه ومعارفه وتراثه وينقله الى الاجيال .

لقد عرفت الحضارة العراقية الوركاء (اوروك تقع في جنوب شرقي السماوة) وقبل اية منطقة في العالم اصول التدوين وذلك قبل اكثر من خمسة آلاف سنة ، حيث عثر في الطبقة الرابعة (ب) من المدينة المذكورة وفي احد معابدها على اكثر من الف رقيم طيني تتضمن وثائق اقتصادية باقدم انواع الكتابة وبأبسط اشكالها وهي الكتابة الصورية Pictographic وذلك في حدود (٣٥٠٠ ق م) في العصر المسمى « الشبيه بالكتابي Protoliterate » ويشمل هذا الدور النصف الثاني من عصر الوركاء وعصر جمدة نصر .

ويظهر ان الحاجة هي التي دفعت بالسومريين الى استنباط الكتابة وذلك لتسجيل وضبط واردات المعابد وحساباتها وغير ذلك مما يتعلق بالشؤون الاقتصادية ، لان المعبد كان مركز الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية آنذاك .

نشأة الخط وتطوره




كان اختراع الكتابة من اهم مقومات الحضارة العراقية القديمة وقد ظهرت بوادرها في الالف الثالث ق.م وكانت في اول اطوارها تتألف من التي علامة صورية . وبالنظر لكثرة العلامات المعقدة وصعوبة استخدام العلامات الصورية للتعبير عن معان كثيرة اخذ السومريون يسيطون ويختصرون في اشكالها وعلى سبيل المثال ان الكلمة السومرية (UDU) التي تؤدي معنى الغنم كتبت بما لا يقل عن ٣١ علامة صورية في الطبقة الرابعة من عصر الوركاء ، اما في الطبقة الثالثة من هذا العصر فقد استخدمت لها ثلاث علامات ، وفي الطبقة الاحدث منها زمتا اصبحت العلامات المعبرة عن الغنم علامتين فقط واستمر الكتبة في اختزال العلامات حتى اصبح عددها في منتصف الالف الثالث ق.م اي اواخر عصر فجر السلالات الثاني حوالي ٨٠٠ علامة بدلالة النصوص التي عثر عليها في مدينة فارة (شروباك) .

وفي مطلع الالف الثاني ق.م اصبح عددها يتراوح بين ٥٥٠ - ٥٠٠ علامة مسمارية .

المراحل التطورية

لم يقتصر السومريون على اختراعهم اسلوب الكتابة بل طوروها وجعلوها منها اداة ناجحة للتدوين ونقل الافكار ومرت هذه الكتابة بمراحل وهي كالآتي :



١ - المرحلة الصورية (Pictographic)

لقد بدأ الخط المسماري بهيئة صورية قوامها علامات تمثل الاشياء المراد تدوينها اي ان كل صورة تمثل كلمة فمثلا عبر الكاتب العراقي القديم عن كلمة سمكة ، برسم صورة لها  كما عبر عن كلمة قدم برسم صورة للقدم  ولكن اذا اراد ذلك الكاتب التعبير عن انسان رسم له صورة موجزة له  وهكذا .


وتعتبر هذه المرحلة من اقدم المراحل في تاريخ الكتابة وقد وصلتنا نماذج منها من الطبقة الرابعة من الوركاء مدونة بهذا النوع وتتضمن نصوصا اقتصادية وجداول باسماء المواد التي كانت كافية لتؤدي الغرض المطلوب .
وعثر ايضا على لوح من الحجر عليه كتابة صورية يضم نصا اقتصاديا من مدينة كيش (تل الاحمر) .

٢ - المرحلة الرمزية (Logogram / Ideogram)

اهتدى الكاتب العراقي الى ابتكار الطريقة الرمزية لكي يتمكن بواسطتها من تدوين الافكار والاشياء المعنوية وذلك برسم صور لها بهيئة مختصرة ، فاصبحت العلامات لاتعبر عن الشيء الذي تصوره فقط بل تعبر عن افكار ذات صلة بما تمثله تلك العلامة او بعبارة اخرى استخدم الكاتب قيما جديدة لعلامات كانت قائمة سابقا ، مصدرها افكار تتعلق بالمعنى الاصلي للشيء ذاته ، فمثلا اصبحت صورة القدم لاتستخدم لتدوين القدم او الرجل بل اتخذت لها معان جديدة مستمدة من معناها الاصلي مثل (ذهب ، وقف ، مسى ، قام ، اتى) وصارت صورة الشمس تعبر ايضا عن المعاني المشتقة منها كالضوء والحرارة والليل والنهار ، وبالمثل اصبحت علامة المحراث تعبر عن معاني اخرى مثل الفعل (حرث) وكذلك تعبر عن كل فلاح .

كما قاموا بدمج علامتين او اكثر فمثلا اذا اراد الكاتب التعبير عن الفعل (اكل) رسم صورة الفم وبداخلها قطعة من الخبز  واذا اراد التعبير عن الفعل (شرب) رسم صورة الفم وبداخله صورة الماء  وبجمع المرحلتين الصورية والرمزية صار بالامكان التعبير عن معان وجمال كثيرة ولكن بقيت الكتابة ناقصة بسبب استحالة التعبير بهذه الطريقة عن مختلف شؤون الحياة فدعتهم الحاجة لتلافي هذا النقص باستخدام العلامات بهيئة مقاطع لكتابة الكلمات والجمال المختلفة وهذه المرحلة هي :

٣ - المرحلة الصوتية (Phonetic)

تمثل هذه المرحلة آخر مراحل التطور التي توصل اليها النساخ العراقي في استخدام الخط المسماري، لانهم لم يصلوا الى الطور الهجائي (Alphabetic) اي استخدام الحروف الهجائية . والمقصود بالمرحلة الصوتية هو اعطاء اصوات للعلامات تتناسب ولغتهم مجردة عن مدلولاتها الصورية والرمزية ، وهذه المرحلة ظهرت في الطبقة الثالثة من عصر الوركاء ، اذ كشف في هذه الطبقة على نص مسماري استخدم فيه المصطلح السومري  ti لكي يدل على كلمة « سهم » كما استخدم لفظ او صوت العلامة لاداء معنى كلمة «حياة»، ومن هنا يتضح لنا ان لكل من العلامتين « سهم وحياة » لفظا متطابقا بالرغم من اختلاف معنيهما . وبهذه الطريقة استطاع السومريون كتابة الاسماء والاشياء على هيئة مقاطع صوتية فمثلا اذا ارادوا ان يكتبوا اسم حسين كتبوه بهيئة مقطعية hu - se - en فالعلامة hu تعني سمكة والعلامة se تعني قرن والعلامة en تعني السيد . وهذا يعني انهم أخذوا لفظ او صوت العلامة بغض النظر عن معانيها في كتابة الاسم .

ومما ساعد على نشوء التطور المقطعي الصوتي هو ان العلامات من حيث قيمتها الصوتية كانت تضم نوعين من العلامات هما العلامات المتعددة الالفاظ (Homophones) بعضها ذو معنى وبعضها الاخر مجرد مقاطع صوتية ليس لها اي مدلول ، ونذكر على سبيل المثال ان العلامة الدالة على الفم لها الفاظ ومعان متعددة فتقرأ (ka) وتعنى (فم) وتقرأ (inim) وتعنى (كلمة) وكثير من العلامات المقطعية كان لها عدة اصوات اي ان المقطع كان يقرأ قراءتين او اكثر فالمقطع a يقرأ (a) ويقرأ (aplu) الابن البكر .

اما النوع الثاني فهي العلامات المختلفة صورة والمتفقة صوتا وتعرف بالمصطلح (Monophones) وعلى سبيل المثال توجد عشرون علامة ذات اشكال مختلفة في القيمة الصوتية (du) ولما كان للعلامة المسماة الواحدة قراءات عديدة وكل قراءة تدل على معنى خاص لذلك اصبح لعدد كبير من العلامات المسماة قراءات متشابهة ولتمييز الفرق بين العلامات ذات القراءات المتشابهة وضع علماء الدراسات المسماة اسنوبا خاصا وهو اعطاء العلامات المتشابهة ارقاما للدلالة على تسلسلها بالنسبة للقراءة ولناخذ مثلا على ذلك ان العلامة (u) اعطيت لها الارقام (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) وهكذا . وبالنظر لصعوبة الكتابة المسماة واحتوائها على هذا العدد الضخم من العلامات اضطر الكتبة القدماء الى استخدام بعض الوسائل التوضيحية للاستعانة بها في مهمة تعلم الكتابة وقراءة النصوص فاستخدموا العلامات الدالة (Determinative Signs) وهي علامات ورد البعض منها قبل الكلمات والبعض الاخر بعد الكلمات لتعيين المراد منها دون ان تقرأ في سياق الكلام واهم هذه العلامات هي التي تسبق اسماء الالهة والبلدان والشعوب واسماء الاعلام من ذكور واثاث واسماء الانهار .

اما العلامات الدالة اللاحقة فتستخدم للدلالة على اسماء المدن والمناطق واسماء انواع الاسماك والطيور واسماء الخضروات وتوجد ايضا علامات تدل على الجمع وعلامة تستخدم للدلالة على التثنية .

والعلامات الدالة الرئيسة هي ما يلي :

١ - العلامات التي توضع قبل الكلمات :

dingir 𒀭 وهي تدل على لفظة اله وتوضع قبل اسماء الالهة .

kur 𒆸 توضع قبل اسماء البلدان والجبال

diš 𒄩 توضع قبل اسماء الذكور .

mi 𒄠 توضع قبل اسماء الاناث .

id 𒄡 تستخدم للدلالة على الانهار .

giš 𒄢 (خشب) وتستخدم للدلالة على انواع الاشجار والاخشاب والادوات المصنوعة من الخشب .

uru 𒆪 (مدينة) تستخدم للدلالة على اسماء المدن

na, 𒂗 (حجر) وتستخدم للدلالة على انواع الاحجار .

lu 𒆺 (رجل) وتستخدم للدلالة على الحرف والمهن .

٢ - العلامات التي توضع بعد الكلمات :

sar 𐎶𐎵 (خضار) وتستخدم للدلالة على
انواع المخضرات .

ki 𐎧𐎫 (مكان) وتستخدم للدلالة على
اسماء المدن والمناطق .

ku₈ 𐎧𐎫 (سمكة) وتستخدم للدلالة على
الاسماك .

وغيرها

ولابد لنا ان نذكر بان الكاتب العراقي استخدم ايضا مبدأ التسمم
اللفظي (Phonetic Complement) وكان الغرض منه تحديد اللفظ الذي
اراد تدوينه من قراءة العلامة ، فالعلامة التي تمثل صورة
الجبل تقرأ بعدة قراءات فتقرأ ' kur ' šadû ' kašādu الخ ، فاذا اراد الكاتب
استخدامها لتدوين šadû كان يلحق بالعلامة kur
العلامة ú واذا اراد استخدامها لتدوين الفعل akšud كان يلحق
بالعلامة kur العلامة ud وهكذا وكان القصد منها تحديد لفظ
العلامة للقارئ .

KUR = mātu بلاد

KUR - ú = šadû جبال

KUR = Kašādu يغلب ، يسيطر

اما KUR - ud = akšud فتأتي في الكتابات الماكية بمعنى غلب ،

سيطر ، احتل

وبمعنى آخر ان العراقيين استخدموا النهايات الصوتية وغيرها من وسائل الايضاح . بالاضافة الى ما اسلفنا من مراحل التطور التي مرت بها الكتابة فقد حدثت تغييرات اخرى في شكلها فأخذت العلامات تفقد شكلها الصوري وذلك بسبب استخدام الكتبة قلماً من القصب مثلث الرأس فبعد الشبه بين اشكالها واشكال الاشياء التي كانت تمثلها فأصبحت العلامات تشبه المسامير . ومن هنا جاءت التسمية الكتابة المسمارية (Cuneiform) المأخوذة من اللاتينية (Cuneus) مسمار و (Form) « شكل » واصبحت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة ، وافقية وعمودية ومائلة .

ومما يجدر بالتنويه ان الكتابة المسمارية بقيت الى آخر الفترات الزمنية خليطاً بين الطريقة الرمزية وبين الطريقة المقطعية الصوتية وفيما يخص اتجاه الكتابة فانها كانت بالاصل تكتب من الاعلى الى الاسفل ثم اصبحت تكتب من اليسار الى اليمين اي عكس الخط العربي .

ظلت الكتابة المسمارية مستعملة في التدوين حتى بعد انتهاء آخر الادوار الحضارية في العراق وسقوط بابل في عام ٥٣٩ ق.م وقد وصلت الينا رقم طينية من الفترات المتأخرة نخص منها بالذكر قطعة ادبية فريدة مكتوبة بلهجة من لهجات اللغة السومرية والمعروفة عند الباحثين في الدراسات القديمة بلهجة (emesal) اي « لهجة النساء » ومؤرخة بسنة ١٥٠ ق.م وتحمل اسم الكاتب بيل أدنا Bēl - iddina الذي كان مساعداً لاحد الكهنة . ويظهر ان الخط بقي مستخدماً من قبل الكهنة في تدوين ملاحظاتهم حول الفلك الى سنة ٥٠ ميلادية اذ حصلنا على نص فلكي من هذا التاريخ معروض حالياً في المتحف العراقي . وبهذا فان الكتابة المسمارية بقيت مستعملة في التدوين عبر مسيرة من الزمن تنوف عن ثلاثة الاف سنة .

استخدم الخط المسماري لتدوين لغتين هما اللغة السومرية واللغة

الأكدية ، والأكدية تفرعت الى لهجتين هما اللهجة البابلية التي بدورها تفرعت الى لهجات واللهجة الاشورية التي تفرعت الى لهجات ايضا .
وتمثل اللغة الأكدية الفرع الشرقي من لغات اقوام الجزيرة العربية ،
اما الفرع الغربي فيضم الكنعانية والفينيقية والارامية والعبرية .

كيف حلت رموز الكتابة المسمارية

يعود الفضل في حل رموز الكتابة العراقية القديمة (الكتابة المسمارية) الى العلماء الذين تمكنوا من حل هذا اللغز والذين زاروا منطقة الشرق القديم بهدف التعرف على مواطنه الحضارية وآثاره الشاخصة .

وكان اولهم التاجر الرحالة الايطالي (بيترو ديلافالي Pietro Della Valle) الذي زار اطلال مدينة برسيبوليس الواقعة على بعد ٥٠ كم الى الشمال من مدينة شيراز والتي كانت عاصمة للملوك الاخمينيين ، فعثر على آجرة مكتوبة من اليسار الى اليمين بكتابة مسمارية ، كما اثار اهتمامه الكتابات المسمارية المنقوشة على الابنية والمنحوتات في تلك المدينة فقام باستنساخ خمسة رموز منها ، ورجع الى اوربا عام ١٦٢١ ، وبعد عودته نشر عن الكتابات التي شاهدها .

وفي عام ١٧٦٥ قام العالم الالماني (كارستن نيبور C. Niebuhr) باستنساخ مجموعة من كتابات برسيبوليس ونشرها في عام ١٧٦٨ واثبت بان هذه الكتابات تضم نصا واحدا مكتوبا بثلاثة انواع من الخطوط المسمارية وان هذه النصوص الثلاثة تكتب من اليسار الى اليمين ، وان احد هذه الانواع الثلاثة يضم ٤٢ علامة مسمارية واتخذ هذا النوع اساسا لمحاولة حل الخطوط المسمارية .

ومضى العلماء في بحوثهم الأخرى هذه إلى أبعد من ذلك، حتى تسنى للعالم الباحث نيكسن (O. Tychsen) الاستاذ في جامعة روستوك في عام ١٧٩٨ قراءة علامات والتوصل إلى معرفة إحدى العلامات المتكررة في النص، وهي المسار المائل واثبت بأن هذه العلامة توضع لفصل الكلمات عن بعضها وتتمكن نيكسن من البرهنة على أن هذه النصوص تمثل ثلاث لغات مختلفة، وأعقب هذه الخطوة نجاح الباحث الآثاري مونتر (F. Münter) في سنة ١٨٥٢ في إثبات كون كتابات برسيوليس تعود إلى السلالة الأخمينية، وأن لنتها متماثلة إلى اللغة المدون بها الكتاب المقدس المعروف بـ (زند أفيستا Zend Avesta) معتمدا بذلك على بعض الأدلة التاريخية وعكف مونتر على دراسة هذا التشابه ومحاولة إيجاد نوع العلاقة التي تربط الكتابة المارة الذكر وبين ما جاء في الزند أفيستا •

وأخيرا استطاع أن يحدد العلامات التي تتألف منها كلمة (ملك) وهذه ساعدت كثيرا في التوصل إلى حل الكتابة، وأكد أيضا على أن الكتابة تضم نصا واحدا وليس ثلاثة نصوص مختلفة وهذا النص مدون بثلاث لغات مختلفة •

كما افلح العالم الألماني ج. ف. كروتفند G.F. Grotefend الذي كان يعمل مدرسا للغة اليونانية في مدينة كوتنكن الألمانية أن يكمل العمل الذي قام به مونتر وأن يتوصل إلى فك الخط الأول الذي كان يضم ٤٢ علامة مسارية والتي كانت تمثل حروفا هجائية وليست مقطعية، وتمكن من قراءة بعض العلامات المنقوشة فوق رأس أحد التماثيل التي تعود للأخمينيين وبعد دراسات ومقارنات مع الكتب التي ترد فيها أسماء حكام السلالة الأخمينية تمكن من التوصل إلى معرفة بعض أسماء الأعلام التي حواها النص الأول والتي تشير إلى اللغة الفارسية القديمة •

وفي ٤ ايلول من العام نفسه القى محاضرة امام جمعية العلوم لمدينة
(كوتنكن) عرض فيها النتائج التي توصل اليها اثناء دراسته وهي ان
ترتيب القاب الملوك الاخمينيين مشابهة لترتيب القاب الملوك الساسانيين ،
وان الاسم الذي يرد في مقدمة النص هو اسم الملك وبعده تأتي الالقاب وهي
على النحو التالي (الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلدان) ، وبذلك
استطاع ان يتوصل الى تعيين العلامات الخاصة باسماء الملوك والقباهم .

واستعان ايضا بنصين من الكتابة المسمارية التي تضم بعض اسماء
الملوك ، حيث لاحظ ان العلامات في النص الاول تختلف عن تلك التي في
النص الثاني ، وتبين له انها يحويان اسمين لملكين مختلفين ، ولاحظ كذلك
ان مجموعة العلامات التي تؤلف اسم الملك في النص الاول جاءت في النص
الثاني بعد مجموعة العلامات التي تمثل اسم والد الملك ، وبذلك استنتج ان
اسم الملك في النص الاول هو اسم الاب في النص الثاني وهذا يعني ان النص
الثاني يعود الى الابن والنص الاول لوالده وبذلك استطاع ان يحدد العلامات
الخاصة باسم مؤسس السلالة وباسم ابيه وابنه . وهذه ساعدت
العلماء الذين قاموا فيما بعد بحل رموز هذه الكتابة .

واذا كان كروتفند قد وفق في ايجاد المفتاح لحل رموز الكتابة
المسمارية فان الفضل يعود الى الباحثين الذين استمروا في دراسة الخطوط
والتوصل الى نتائج اخرى ومنهم برنوف E. Burnouf الذي تمكن من
قراءة علامات اخرى وكذلك الاستاذ لاسن Chr. Lassen الذي
استطاع ان يصحح بعض القراءات التي اخطأ فيها كروتفند .

ان كتابات برسيبوليس لم تساعد الباحثين على معرفة القيم الصوتية
لكل العلامات المسمارية وهذه الحقيقة تقودنا الى الحديث عن تلك الجهود
التي بذلها (هنري رولنسون Henri Rowlinson) الضابط الانكليزي

في الجيش الايراني في محاولته عام ١٨٥٣ لحل رموز الخط المسماري ، حيث قام باستنساخ نصين قصيرين من الكتابة المسمارية المنقوشة في جبل الفند جنوب همدان ، هذا بالاضافة الى استنساخه الكتابة المدونة بثلاثة انواع من الكتابات المسمارية ، وبثلاث لغات وهي اللغة الفارسية واللغة العيلامية واللغة البابلية ، والتي تركها داريوس الاول على الاثر المعروف بحجر (بهستون) الواقع بالقرب من كرمشاه ويبلغ ارتفاع هذا الاثر ٥٤٠م والكتابة منقوشة على جرف صخري عمودي ، وتقع على ارتفاع يتراوح من ١٣٠ - ١٤٠م وتتألف من خمسة حقول وتضم هذه الحقول التي تتألف من اكثر من اربعمائة سطر الاعمال السلمية والحربية التي قام بها الملك المذكور .

ان استنساخ مثل هذه الكتابة لم يكن بالامر السهل فقد لاقى رولنسون صعوبة في استنساخها فكان عليه ان يتسلق الى قمة الجبل ، ثم يتدلى بالجبال الى عمق ما بين ٥٠ - ٦٠ مترا لكي يصل الى الكتابة . وحيث لم يكن في استطاعته نصب منصة خشبية بهذا الارتفاع الشاهق قام رولنسون باستنساخ بعض من النص واخذ قالباً له ، ولكنه اضطر الى التوقف بسبب بعض الاشغال العسكرية وعاد مرة ثانية في سنة ١٨٤٤ لتكملة استنساخ النص . وفي عام ١٨٤٨ بعث رولنسون حصيلة اعماله الى الجمعية الاسيوية الملكية في لندن لنشرها .

اما بالنسبة الى النوع الثاني من الكتابات المسمارية والتي تتضمن اللغة العيلامية فقد جرت محاولات اخرى للتوصل اليها ، فقام الاستاذ نوريس Norris الانكليزي الجنسية بدراسة واستخدم لهذا الغرض كتابات بهستون التي سبق ان نشرها رولنسون واثبت بواسطتها النتائج التي توصل اليها . وبسبب ندرة النصوص المدونة بهذه اللغة فانها لاتزال قيد الدرس .

اما النوع الثالث من الكتابات المسمارية المدونة باللغة البابلية ، فقد كانت مشكلة حل رموزها مضنية للغاية ، حيث لاقى العلماء صعوبة في التوصل اليها بسبب تدوينها بعلامات مقطعية تزيد عن (٥٠٠) علامة مسمارية . ومما ساعد على حل رموز الكتابة البابلية هو ازدياد رغبة العلماء في اواسط القرن التاسع عشر في قراءة الكتابات المسمارية ، وكذلك الكشف عن مجاميع كبيرة من الرقم الطينية المدونة بهذا الخط اثناء التنقيبات التي اجراها الفرنسي اميل - بوتا Emil Botta في عام ١٨٤٣ في قصر الملك الاشوري سرجون في مدينة خرسباد والمنقب الانكليزي ليرد Layard الذي حالفه الحظ في العثور على عدد من القصور الاشورية في مدينة نمرود الاثرية . وكانت هذه القصور مزينة بمتحوتات من الرخام تصور الملك في اوضاع مختلفة وتحمل هذه اللوحات نصوصا مكتوبة بالخط المسماري واللغة الاشورية ، تذكر الاعمال التي قام بها الملك المذكور وقسم منها معروض في المتحف العراقي وتبين من شكل العلامات الموجودة عليها بأنها لا تختلف عن علامات النوع الثالث من الخط المسماري المدون على حجرة بهستون ، فاثارت هذه النتائج اهتمام الباحثين لحل رموز النص البابلي ، وقد تكلفت جهودهم بالنجاح حيث توفق العالم السويدي (لوفن شتينر Lowenstern) في عام ١٨٤٥ في تعيين العلامات المكونة لاسم (ملك عظيم) وكذلك العلامة الخاصة بالجمع .

اما المحاولة الاخرى فقد جرت من قبل المستشرق ادوارد هنكس A. Hincks الذي استطاع في عام ١٨٤٧ تحديد الضمير بالاكديّة (anaku) ويقابلها بالعربية (انا) واتضح له بأن هذه الكتابة مقطعية وليست هجائية بسبب كثرة العلامات الواردة في النص ، كما لاحظ ايضا انها ليست مقطعية صرفة بل ان البعض من مقاطعها يستخدم

للدلالة عن كلمة واحدة ، اي ما يعرف بالعلامات الرمزية ، كما عرف بأن هذه العلامات تتألف من حرف عله وحرف صحيح او بالعكس ، وتوصل الى قراءة اسماء الاعلام وذلك بالاستعانة باحد النصوص التي آلت اليه اثناء التنقيبات في مدينة نينوى . وهذا النص يضم اسماء اعلام مدونة في حقلين ، الحقل الاول يضم الاسماء بالعلامات الرمزية والحقل الثاني يضم الاسماء المدونة بالعلامات المقطعية . فشجع بذلك العلماء الباحثين وفي مقدمتهم رولنسون على مواصلة دراسته للنص البابلي المنقوش على جبل بهستون ، وتمكن من خلال استنساخ النص ودراسته من التعرف على القيم الصوتية لاكثر من ٢٥٠ علامة مسمارية ولعدد من الكلمات المدونة باللغة البابلية . وبجهود عدد آخر من الباحثين الذين تابعوا دراساتهم لحل رموز هذا الخط وقدموا خدمات جلى في هذا الحقل حيث قاموا بمقارنة نتائج ابحاثهم مع مفردات لغات اقوام الجزيرة العربية (اللغات الجزيرية) توصل العلماء الى حل رموز الخط المسماري المدون باللغة البابلية .

وبالرغم من النتائج التي توصل اليها الباحثون في حل رموز الخط المسماري الا ان الشك بقي يساور عددا من المشككين بصحة المعلومات ، لذلك ارادت الجمعية الاسيوية الملكية Royal Asiatic Society التاكيد من صحة المعلومات فوزعت على الباحثين في هذا النوع من المعرفة في عام ١٨٥٧ اربع نسخ من كتابة آشورية تعود الى الملك الاشوري (تجلاتيلزر الاول Tigrat - Pileser I) (١١١٥ - ١٠٧٧ ق م) وهم (اوبرت J.Oppert) الاستاذ في جامعة السوربون والعالم الايرلندي (هنكس Hincks) والمستشرق الانكليزي (تالبوت F. Talbot) والعالم الانكليزي (هنري رولنسون H. Rowlinson) لترجمة النص كل على انفراد وبعد شهرين وصلت النتائج في ظروف مختومة الى الجمعية السالفة الذكر فتشكلت لجنة من خمسة اعضاء وفتحت الظروف امامهم وبعد مقارنة

الترجمات الاربع اتضح ان النتائج متقاربة رغم وجود بعض الاختلافات البسيطة في قراءاتهم وبهذا اقرت المحافل العلمية الاعتراف بولده علم جديد اطلق عليه اسم علم الاشوريات Assyriology نسبة الى اللغة الاشورية لان العلماء اعتمدوا على النصوص المسمارية التي تعود الى الفترة الاشورية اي الى الالف الاول ق.م في حل رموز الكتابة المسمارية ولا يزال هذا الاسم مستخدما حتى الان على الرغم من معرفة الباحثين فيما بعد بأن اللغة الاشورية واللغة البابلية هما لهجتان تفرعتا من اللغة الاكدية التي تعتبر اللغة الام للاقوام الجزرية .

وبمرور الزمن اصبح هذا العلم يدرس في الجامعات المشهورة ذات العلاقة بحضارة وادي الرافدين والحضارات القديمة فاختص به كثير من العلماء الاجانب وبعض المواطنين العراقيين والعرب .

انتشار الخط المسماري

لم ينحصر استخدام الخط المسماري في بلاد وادي الرافدين بل خرج من موطنه الاصلي وانتشر الى مناطق اوسع فتأثرت به الاقوام التي عاشت على اطرافه والبعيدة منه فاقتبست الكثير منه وتغذت من معينه .

ان اقدم انواع الكتابة ، هي الكتابة الصورية ، انتقلت الى مدينة شوشا عاصمة عيلام فظهر فيها خط صوري مشابه للخط العراقي مع بعض الاختلافات البسيطة ولكن بعد مرور ٢٠٠ سنة على ظهوره في العراق ظل هذا الخط مستعملا في عيلام الى العصر الاكدي ، اي حتى منتصف الالف الثالث ق.م ثم استبدل بالخط المسماري المقتبس من الخط المسماري العراقي ، كما اقتبسوا العلامات الرمزية والدالة وكذلك الارقام التي ابتكرها العراقيون القدامى وسبقوهم في استعمالها ، وهناك الكثير من

الشواهد المادية والكتاتية في عيلام تشير الى ذلك ، كما حلت اللغة الاكديّة محل اللغة المحليّة في زمن الملك الاكدي نرام سين Naram Sin (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق م) عندما ضم عيلام الى حكمه ، وخير دليل على ذلك الآجر المنقوش بالخط المسماري وباللغة الاكديّة الذي تم العثور عليه في عيلام ، وكذلك المنحوتة التي وجدت في سربيل زهاب في هورين شيخان والمنقوشة بالخط المسماري ، وتعود الى احد الامراء الذين حكموا المنطقة في حدود منتصف الالف الثالث ق م عليها كتابة بالخط المسماري وباللغة الاكديّة وهي مشابهة لمنحوتات الملك نرام سين وهكذا بالنسبة الى المنحوتة التي تركها آنو - بانيني Anu banini وغيره ولا تشير هذه المنحوتات الى اقتباس الخط واللغة فقط وانما الى اساليب النحت الاكدي ايضا .

ولا بد لنا ان نذكر ان منطقة عيلام تعتبر من الناحية الجغرافية امتدادا طبيعيا لسهول الرافدين ، كما ان هذه المنطقة تبعت وارتبطت ثقافيا وحضاريا بمقومات حضارتنا العريقة ، وكانت جسرا لنقل مفاهيم واسس الثقافة والحضارة العراقية الى الاقوام الايرانية التي اعقتب العلميين او تلك التي غزت العراق في فترات ضعف سياسي كالكوتيين والميديين والفرس والاخمينيين والفريثيين والساسانيين .

وهناك ادلة كثيرة تشير الى اعتماد هؤلاء الاقوام على الكتابة المسمارية لفترة غير قصيرة من الزمن بدلالة المجاميع الكبيرة من الرقيم الطينية والمنحوتات المكتوبة والآجر المدون بالخط المسماري التي عثر عليها في مواقع مختلفة من ايران ونخص منها بالذكر الكتابات التي تركها لنا دارا الاول ، والتي عرفت باسم بهستون المدونة بالخط المسماري وبلغات احداها اللغة البابلية التي سبق ان تكلمنا عنها ، كما ان فكرة تصوير دارا وتوزيع المناظر في صفوف على تلك المنحوتة مقتبسة عن فنون العراق . ونشير هنا ايضا الى الاختتام الاسطوانية التي تحمل كتابة مسمارية والتي

ظهرت في قطرنا ، حيث ان فكرتها وفنونها انتقلت الى مناطق متعددة في ايران ، منها سوسا وخوجة زمبيل وغيرها حيث ظهرت اختتام مشابهة من حيث الموضوع والتقنية وتحمل كتابة مسمارية . وشاع الخط المسماري في البلدان القديمة من الوطن العربي حيث كشفت البعثة الايطالية التي بدأت التنقيب في عام ١٩٦٤ - ١٩٧٩ في تل مارديخ (ابل - تقع هذه المدينة على بعد ٥٥ كم جنوب غرب حلب) عما يناهز ١٦٥٠٠ نص كتابي مدون بالخط المسماري ، وتعود الى عصر فجر السلالات الثالث وهي ذات مضامين مختلفة ، منها معاجم لغوية مدونة بلغتين على غرار المعاجم اللغوية الحديثة ونصوص ادبية وعلمية واخرى اقتصادية وادارية بالاضافة الى قوائم باسماء جغرافية وغيرها .

وهذه النصوص كانت محفوظة في غرفة في قصر احد الملوك وربما في المكتبة الخاصة بالقصر حيث وجدت بعض الرقم منضدة فوق رفوف معمولة من الطين . وهذه الرفوف كانت ملاصقة للجدران وهي شبيهة بطريقة حفظ الرقم عند العراقيين القدامى كما هي الحال في التل الابيض في عقروق ومدينة نمر ونيوى وغيرها من المواقع العراقية .

وعثرت البعثة الالمانية في سوريا بالقرب من شيخ حماد وفي اعالي الخابور على مجموعة من الرقم الطينية مدونة بالخط المسماري وباللغة الاشورية تعود بتاريخها الى منتصف الالف الثاني ق.م ، وهي نصوص اقتصادية وادارية لاتختلف في مضامينها عن النصوص التي تم العثور عليها في تل علي (اتماني) الواقع قرب الحويجة ، هذا بالاضافة الى الكشف عن تمثال يحمل كتابة مسمارية .

وتشير المدونات الكتابية التي تم العثور عليها في آسيا الصغرى والتي تعود بتاريخها الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد الى انتشار الخط المسماري من بلاد آشور الى المستعمرات التجارية التي انشأها التجار الاشوريون في

كول تبه (كائش) وبوغاز كوي (خاتوشا) وعلي شار (انكوبا) وغيرها ، حيث تم العثور على مجموعة مؤلفة من أكثر من ٢٨ الف رقيم طيني مكتوب بالخط المسماري وباللغة الاشورية القديمة . وتشمل رسائل متبادلة بين التجار واصحاب المشاريع ووكلائهم ، والتي تخص عقد الصفقات التجارية وكافة الاعمال المتعلقة بالامور الصيرفية ، وعقودا اقتصادية تتعلق بالمعاملات التجارية والمالية ، منها منح القروض وتتضمن قيمة القرض + الفائدة + الضمان الشخصي (الكفالة) والوقت المحدد لاطفائه ، ووثائق تخص الضرائب والتهريب وتنظيم القوافل التجارية ، ووثائق تبحث في الشؤون القضائية كالمنازعات وقرارات المحاكم بالاضافة الى وثائق تخص الاحوال الشخصية وغيرها .

وتشير النصوص المسمارية الخاصة بالتجار الى ان عددا كبيرا من رجال الاعمال التجارية في بلاد الاناضول كانوا يجيدون اللغة الاشورية ، وكانوا يفضلون كتابة الرسائل الى وكلائهم التجار في آشور بانفسهم ، وكانوا يكتبون بلغة بسيطة لا تتجاوز مقاطعها ١١٥ علامة وهذه العلامات كانت تدرس الى الاشخاص المعنيين لتساعدهم على القراءة والكتابة .

واقتشر الخط المسماري بين الحوريين والميتانيين وذلك في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد بدلالة العثور على ما يزيد عن اربعة الاف رقيم طيني في موقعي نوزي (يورغان تبه) وتل الفخار (كورو خاني) kurru - hani كلها قد كتب بالخط المسماري وهي ذات مضامين مختلفة منها عقود قضائية تخص الزواج والتبني والارث ومنها عقود اقتصادية وادارية ورسائل متبادلة بين الاشخاص .

كما عثر في رأس شمرة (اوغاريت) على الواح طينية مكتوبة بعلامات مسمارية باللغة الكنعانية وهي نصوص دينية واساطير شعرية .

واصبح الخط المسماري في القرن الرابع عشر ق.م وسيلة لتدوين الوثائق المتبادلة بين ملوك وامراء اقطار العالم العربي القديم ، كما اصبحت اللغة الاكدية اللغة الدبلوماسية بدليل الكشف عن مجاميع من المراسلات الدبلوماسية ، تتضمن رسائل شخصية متبادلة بين هؤلاء الملوك وتعرف برسائل العمارنة ويمكن الاستدلال على ذلك من الرسائل المرسلة الى امينخوتب الثالث واخناتون من الملك الميتاني والملك الحثي وملك الاشيا (محتمل قبرص) وحكام سوريا وفلسطين وجميعها مكتوبة باللغة الاكدية ويذكر الاستاذ كنودتسن Knudtson في كتابه « رقم من العمارنة » ان الكتاب المصريين في فترة حكم الملك امينخوتب الثالث وامينخوتب الرابع (اخناتون) كانوا يجيدون اللغة الاكدية بلهجتيا البابلية والاشورية . فكانوا يكتبون الرسائل بتفويض من الملك الى الملوك والحكام الاشوريين باللغة الاشورية ويذكر ايضا ان من ضمن الرقم الطينية التي تم العثور عليها في العمارنة جداول تمثل نصوصا تعليمية الهدف منها تدريب المبتدئين على القراءة والكتابة واعدادهم للعمل في هذا المجال مستقبلا ، كما تم الكشف على بعض التأليف الادبية التي كتبت في بلاد بابل وارسلت الى مصر ومنها نسخة لقصة ادا ، نركال وايرشكيكال وقصة المعركة لسرجون الاكدي ، وذلك لتدريب الكتبة المصريين من المتعلمين على قراءتها وفهمها .

وعثر ايضا في الاخير (تل العشيانة في سوريا) على رقم طينية تعود بتاريخها الى القرن الرابع عشر ق.م من ضمنها معاجم لغوية تتضمن الكثير من المفردات والمصطلحات الاكدية ونصوص ادبية ، ويبدو ان الغاية من هذه النصوص هي تدريب الكتبة السوريين على تعلم اللغة الاكدية .

لقد اصبحت الخط المسماري وسيلة للتدوين في الاراضي الفلسطينية ايضا ويتضح لنا من احدى الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة والمرسلة من

قبل احد الملوك الكنعانيين والتي تعود بتاريخها الى مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد ان الكاتب الكنعاني استخدم اللغة الاكدية في كتابة هذه الرسالة وضمنها بعض المفردات الكنعانية التي كانت قريبة الشبه بالمفردات العربية .

وانتقل الخط المسماري في اوائل القرن التاسع قبل الميلاد الى منطقة اورارتو في ارمينية وقد عثر على مجاميع من الرقم الطينية المدونة بهذا الخط في تلك المنطقة وهي ذات مواضيع شتى منها عقود اقتصادية وادارية وقضائية وقسم منها يشبه الى حد كبير الرقم الطينية التي عثر عليها في الوركاء وبابل والتي تعود الى نهاية القرن الرابع ق.م وجاءتنا نصوص مدونة بالخط المسماري والخط الارامي وتعود بتاريخها الى القرن السابع قبل الميلاد واخيرا لا بد لنا من التنويه الى ان الاغريق الذين سكنوا بلاد بابل في القرن الثاني قبل الميلاد حاولوا تعلم اللغة البابلية كما ارسلوا اولادهم الى المدارس البابلية وتدريب هؤلاء الطلبة على استنساخ بعض النصوص المكتوبة بالسومرية والاكدية وعثر المتقنون على نماذج من هذه الرقم الطينية ، تتضمن نصوصا تعليمية وكتبت على وجه الرقم تمارين بالخط السومري والاكدي وعلى ظهر الرقم ما يقابلها بالخط الاغريقي ، وهذا الصنف من النصوص المدرسية عبارة عن نسخ وضعت لغرض التدريس وتدريب المبتدئين على الكتابة واللفظة .

لقد ساعد الخط المسماري واللغة الاكدية على انتشار تراثنا الثقافي والحضاري في الوطن العربي وفي معظم اجزاء الشرق القديم ، فقد انتقلت الكثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتائج الادبية التي نشأت في قطرنا الى بلدان العالم القديم ونخص بالذكر عبادة الاله تموز حيث ظهر ما يشابهها في المعتقدات الخاصة بالاله بلع عند الكنعانيين والاله اوسيريس عند المصريين كما ورد ذكر هذا الاله في التوراة ايضا .

اما بالنسبة للإدابات فقد انتقلت ملحمة كلكامش الى الحثيين والهوريين

واليونانيين ، وتدل الدراسات على ان ملحمة كلكامش ترجمت الى لغات اخرى كالحثية والحدورية بدلالة العثور على بعض اجزائها في بوغاز كوي عاصمة الدولة الحثية ، كما انتقل الكثير من الاساطير وقصص الملحم التي تشيد باعمال الالهة وبماثر ابطالهم الى بلدان الشرق القديم .

وبالنظر لسعة معرفة العراقيين القدماء بعلم الفلك لذلك كان اليونانيون على اتصال دائم بالمعارف البابلية حتى ان كتابهم ذكروا اسماء بعض الفلكيين البابليين وفي هذا المجال نستشهد بسترابون حينما قال :

كان اليونانيون يجهلون احتساب مدة السنة الحقيقية وامورا كثيرة مشابهة ، حتى انتشرت لديهم ترجمات يونانية عن الفلك البابلي فاخذ الفلكيون المعاصرون ينهلون معوماتهم وما زالوا يستقون من هذه المعلومات حتى اليوم .

لذلك كان الكثير من الرياضيين والفلكيين والفلاسفة اليونان قد قصدوا العراق لينهلوا من ينابيع المعرفة .

كما انتقل الى بلاد اليونان علم الرياضيات فنجد ان الكثير من المبادئ التي كانت تعزى الى رياضيي اليونان مثل فيثاغورس واقليدس كان قد سبقهم اليها الرياضيون البابليون بالف عام ، فالبابليون في الالف الثاني قبل الميلاد اول من وضع اسس القوانين الرياضية اذ لم تكن من اختراع رياضيي الاغريق بل ان ما قام به علماء الاغريق هو اعادة اكتشافها بعد مضي فترة تزيد عن خمسة عشر قرنا على اختراعها . وهكذا نجد ان كتابات العراقيين القدامى لم تكشف النقاب عن فكرهم وحسب بل عن انجازاتهم ومقوماتهم الحضارية ايضا .

ولعل الكاتب السومري احسن حينما ذكر في احد النصوص :



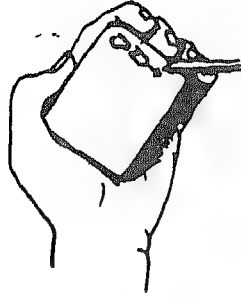
· NAM. DUB. SAR RA AMA GÜ. DE. KE₄. E. NE
A.A. UM. ME. A - KE₄. EŠ

ان « الكتابة هي ام للخطباء واب للتلاميذ » .

الطين مادة الكتابة

ان ما يميز الكتابة التي اخترعها سكان وادي الرافدين ، هو اعتمادهم على مادة الطين ، وقد استخدموا النوع النقي (الحر) من الطين الخالي من الشوائب كالاملاح والرمال والاعشاب . وكانوا يحصلون عليه اما من الشواطئ بعد انحسار الانهار ، او يقومون بتبقيته وصناعته بالشكل المطلوب . وبالرغم من ذلك فقد وصلت الينا بعض الرقيم تحمل مثل هذه المواد الداخلية ، كما تم العثور على بعض الكتل الطينية من مدينة الوركاء تحمل طبعة الشخص الذي قام بعجنها وتحضيرها لاجل استخدامها . وظلت مادة الطين مستخدمة للتدوين في العراق في جميع مراحل التاريخ ، كما شاع استخدامها لفترة محدودة في البلدان التي اتخذت الخط المسماري وسيلة للتدوين ، كالعيلاميين والفرس والحثيين والاورارتيين ، وفي الوطن العربي كسوريا وفلسطين ومصر ووصل استخدامها حتى جزيرة كريت .

اما طريقة الكتابة عليه فقد كان الكاتب يطبع العلامات المسارية على الطين وهو ما يزال طريا بواسطة قلم من الخشب او القصب مثلث الرأس . (شكل - ١) فيقوم باملاء وجه الرقيم والحافة وبعد ان يجف الوجه يبدأ باملاء الوجه الثاني (القفا) والحافة ايضا . وفي بعض الاحيان تكون الحافات خالية من الكتابة ، وبما ان مادة الطين تجف بسرعة لذلك وجب على الكاتب تدوين الرقيم كله قبل ان يجف الطين . اما اذا تعذر عليه ذلك خاصة بالنسبة

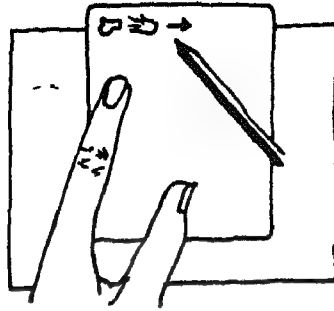


شكل - ١
كيفية الكتابة على الرقيم

الرقم الكبيرة التي يستغرق تدوينها فترة ليست بقصيرة ، فكان الناسخ يستخدم قطعة قماش رطبة يغطي بها الرقيم وقد وصلت الينا بعض النماذج من الرقم التي عليها طبعة قطعة القماش ، منها عقد اقتصادي من الموقع الاثري قل علي (الاسم القديم ناتماني Natamani الواقع بالقرب من الحويجة) ، وإذا لم يكن الامر كذلك فلربما تمثل الطبعة طرف رداء لآحد الاطراف المتعاقدة كأن يكون الدائن او المدين او البائع او المشتري .

كما عثر على سدادات من الطين في اور ونمرود ونفر وغيرها تحمل كتابة وطبعات اختام يلاحظ فيها اثار القماش ايضا . وكان العراقيون يستخدمونها لختتم فوهات الجرار لتوثيق محتوياتها . وتوجد بعض الرقم تحمل طبعة اصبع الكاتب التي تبدو واضحة على حافة الرقيم ، وتوضح كيف كان الكاتب يمسك بها عند الاستنساخ .

اما بالنسبة الى الرقم الكبيرة الحجم والتي من الصعوبة حملها بيد الكاتب فكانت حسب ما يذكر الاستاذ درايفر Driver في كتابه الموسوم «الكتابات السامية من الصورية الى الابدئية» توضع على مسند ، كأن يكون لوحا او طاولة من الخشب (شكل - ٢) وقد كشفت التنقيبات في بعض المواقع عن بقايا الواح خشبية مستطيلة الشكل مع ادوات مدرسية يعتقد انها استخدمت للغرض المذكور .



شكل - ٢
وضع الرقيم على لوح أو مسند

اشكال الرقيم الطينية ومضامينها

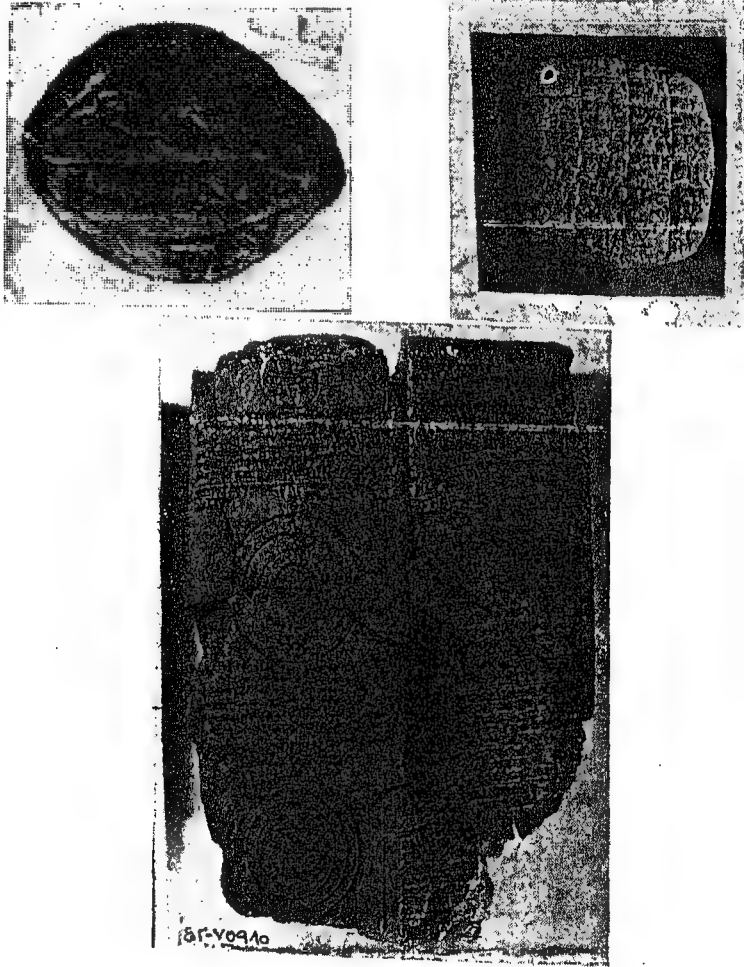
حصلنا على مجاميع كبيرة من النصوص السمارية المدونة على الطين ذات الاشكال والاحجام والمضامين المختلفة ، تقدر بمليون لوح ، محفوظة قسم منها في المتحف العراقي ، والقسم الاخر نقل الى متاحف العالم ومعاهد الاثار من قبل المنقبين الاجانب الذين عملوا في العراق وبعضها في حيازة بعض الاشخاص الاجانب .

وما تزال فرق التنقيب الاثرية التي تعمل في المواقع الانقاذية والاحيائية والتنقيبية في مواقع شتى من قطرنا تكشف لنا عن المزيد من هذه النصوص موسما بعد آخر ، ولايتسع لنا المجال للحديث بالتفصيل عن اشكال ومضامين جميع الرقيم ، ولكن نكتفي هنا بالاشارة الى ابرزها .

سمي الرقيم باللغة السومرية بالمصطلح « dub دب » ويقابل ذلك باللغة الاكدية كلمة « طبو او تبو tuppū , tuppū » اما اشكال واحجام الرقيم الطينية المكتشفة فتختلف حسب الفترات الزمنية والمواقع ونوعية المضمون . وحسب معلوماتنا الحالية ان اصغر رقيم لايتجاوز حجمه ١ × ١ سم وهو عبارة عن وصل يحمل التاريخ الذي دون فيه الرقيم مع طبعه لختم وكتابة تشير الى مالك الختم . وقد عثر على هذا الرقيم في التنقيبات الاخيرة لفرع الاثار في جامعة بغداد في (سبار ، بالقرب من المحمودية) وتوجد بعض الرقيم.

الصغيرة التي تحمل سطرا او سطرين من الكتابة المسمارية تمثل وصلوات
تسلم اكتشفت في بابل وتل الفخار بالقرب من كركوك ونيوى . واكبر الرقم
لا يتجاوز حجمه ٥٠×٥٠ سم اما اشكال هذه الرقم فهي كالآتي :

١ - المربعة والمستطيلة وبعضها زوايا مستديرة او غير منتظمة وكذلك
البيضوية الشكل (شكل - ٣) وهذه المجموعة ظهرت منذ العصور المبكرة.



شكل - ٣

رقم باشكال واحجام مختلفة وتعود لفترات زمنية متباينة من
ضمنها نص فلكي

لاختراع الكتابة وكانت مسطحة الوجه ومحدبة الوجه الثاني (القفا) وعليها مضامين تبحث في مختلف شؤون الحياة اليومية نخص منها بالذكر العقود الاقتصادية والادارية والقضائية التي شملت حوالي ٩٠٪ من مجموع النصوص المكتشفة لغاية الان . وتتناول معاملات البيع والشراء والايجار والرهن والقروض وعقودا تجارية ووصولات تسلم لكمية من المحاصيل الزراعية وبعض المعادن كالفضة والنحاس ، كما ان بعض مضامينها التفصيلية قدمت لنا معلومات عن اسماء الاعلام واصناف الحيوانات واسماء مدن ومواقع جغرافية وكما ان بعضا من العقود الاقتصادية تتعلق بالملكية الزراعية سواء منها ما يخص بيع الحقول الزراعية القريبة من مصادر الارواء ام تلك التي تتناول تأجيرها . وفي ادناه اذكر ترجمة احد النصوص من العهد البابلي القديم ويعود الى زمن الملك « ابا لبيل الثاني Ibalpiel II (١٧٦٠ ق م) الذي عثر عليه مؤخرا في مستوطن سليمة في حوض سد حميرين وهو خاص ببيع الحقول :

اشترى ابكوشا "Ipkuša" حقلا من خوبخي "Hubhi"

ابن شاكى مانو "Šakimanu"

يقع الحقل بالقرب من قناة ماش - ماش "Maš - Maš"

ومحاذي لحقل نابي ايليشو "Nabi - ilišu" واپل كوبي "Apilkubi"

وقد دفع المشتري الى البائع ثمن الحقل بالفضة

تمت صفقة البيع برضاء الطرفين

وكتب العقد امام الشهود

ثم تاتي العقوبة المترتبة على كل من يخل بالعقد وهي :

اذا اخل احدهما بالعقد فعليه ان يدفع مئتين من الفضة الى الملك

اباليل ويسحب لسانه »

اما النصوص القضائية فتخص الاحوال الشخصية، كعقود الزواج والطلاق والتبني والارث وقضايا المحاكم وقد افادتنا في معرفه الكثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك .

٢ - قرصية الشكل وهي نصوص مدرسية استخدمت لاغراض تدريب الطلبة على القراءة والكتابة وتضم علامة واحدة او اكثر في نفس الحقل واحيانا في حقول اخرى من نفس الرقيم مثال ذلك : مي - مي ، آ - آ ، دا - دي - دو ، اما النصوص الاخرى فتضم عبارات بسيطة متكررة ليتمكن الطالب من حفظها بسهولة وهذه النصوص على غرار القراءة الخلدونية للصف الاول الابتدائي . كما ان البعض منها يضم مقتطفات ادبية وعلمية وقانونية وتجارية كما هي في نصوص تل السيب وحداد في حميرين وتلوط خطاب بالقرب من بغداد الجديدة وغيرها من المواقع الاثرية .

وتوجد نصوص تعليمية اخرى للمتقدمين في مراحل الدراسة حصلنا عليها من معبد نابو - شا - خاري في بابل وهي مستطيلة النكل ومدونة عليها قوائم تعليمية وقسم منها مذيلة بما يعرف باسم الكولوفون ، تذكر الغرض الذي دون من اجله الرقيم ووجه اهدائه كأن يكون الى المعبد او الاله ومثال ذلك :

فلان ابن فلان

لاجل حياته ونجاحه في المدرسة

لحفظ جسمه وعقله . . الخ

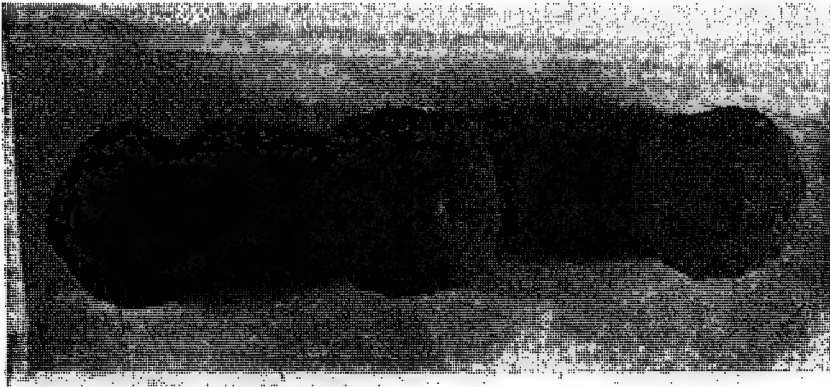
كتب هذا الرقيم ووضع في معبد نابو - شا - خاري

ان هذه الرقيم التعليمية اكدت لنا بأن وظيفة هذا المعبد لم تقتصر على الجانب الطقوسي فحسب ، وانما تكريس المكان للاغراض التعليمية في الوقت

نفسه ، انطلاقا من وظيفة المعبد في وادي الرافدين كمؤسسة دينية وديوية
ساهمت في شتى مجالات حياة مجتمعاتنا القديمة الاقتصادية والاجتماعية
والادبية والتعليمية *

بالاضافة الى ذلك هناك معاجم لغوية ظهرت منذ العهد البابلي القديم
واستخدمت لتدريب الكتبة والمتعلمين على اللغة السومرية ، اذ كانت تضم
كثيرا من المفردات والمصطلحات والجميل باللغة السومرية والى جانبها معناها
باللغة الاكدية وقد عثرنا على نماذج كثيرة نخص منها بالذكر المجموعة التي
وجدت مؤخرا في « بيت الكاهن » في مدينة آشور وتعود الى العهد الاشوري
الحديث *

٣ - كروية الشكل (كرات طينية) ومثقوبة من الوسط تستخدم للتعليق
(شكل ٤) قسم منها يمثل وصولات تسلم مواد معينة والقسم
الاخر عليه اسماء اشخاص ظهرت منذ العصر السومري القديم ، كما وجدت



شكل - ٤

كرات طينية (بلل) تمثل وصولات تسلم عشر عليها في تل خرمل
وتعود بتاريخها الى العهد البابلي القديم (الالف الثاني ق.م)

افراص لمغازل دائرية الشكل مدونة ببضعة اسطر من الكتابة المسماية-
وجدت في مواقع مختلفة منها تل حرميل والدير •

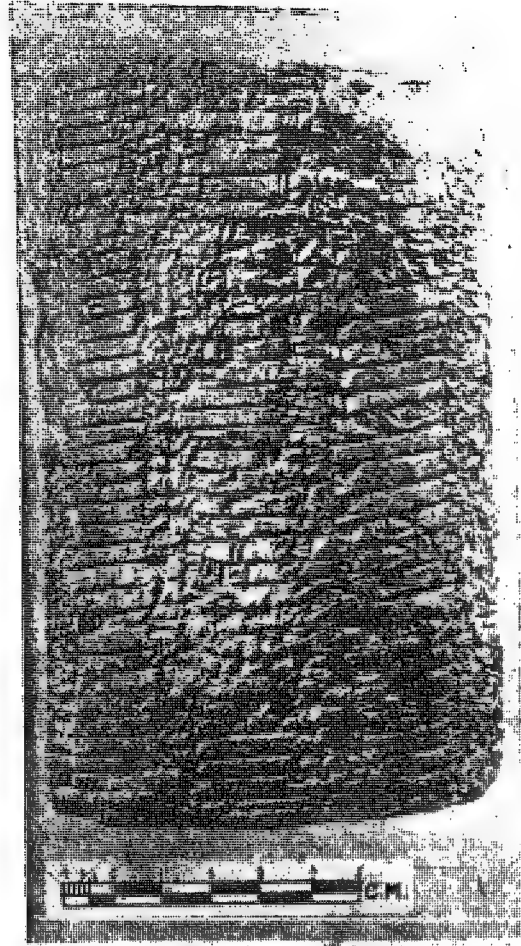
٤ - مثلثة الشكل عليها ثقب لغرض التعليق وتستخدم كبطاقات تعريفية
مدونة ببضعة اسطر من الكتابة تبين مضمون الرقم التي كان يتم حفظها على
الرغوف قسم منها يحمل طبعا اختام ايضا ، وقد عثر على نماذج منها في
احدى الغرف في سبار ، كما عثر في الاونة الاخيرة في مدينة لارسا على مثل
هذه البطاقات مع اكياس الصاغة وقسم منها يحمل نصوصا تعويذية •

٥ - مجسمات فخارية باشكل آدمية وحيوانية معظمها وجد داخل جرار
من الفخار كانت توضع في زوايا الابنية ، عليها نصوص سحرية او تعويذية-
او تستخدم للتبرك والصلاة ، اما بعض العبارات المدونة فهي :

- « اخرج ايها المرض الخبيث وادخلي ايها العافية » •
- « اخرج ايها الشيطان الخبيث وادخل ايها الملاك الطيب » •
- « اخرج ايها الموت وتعال ايها الحياة » •

وقد وجدت هذه المجموعة في مواقع كثيرة لفترات زمنية مختلفة منها-
الوركاء ، نقر ، بابل ، آشور ونمرود •

٦ - اسطوانية الشكل (شكل - ٥) وقد آلت اليها نماذج بمختلف
الاحجام وعليها حقلان او عدة حقول من الكتابة وجد القسم الاعظم
منها في بواطن واسس الجدران كالمعابد والقصور والاسوار وغيرها من
المنشآت قدمت لنا نصوصها معلومات عن الاعمال العمرانية والعسكرية التي
قام بها الملوك منها اسطوانة تمثل حوليات الملك الاشوري سنحاريب ٧٠٤
- ٦٨١ ق م) عثر عليها في نينوى ، ومنها ما يثبت الاعمال العمرانية للملوك



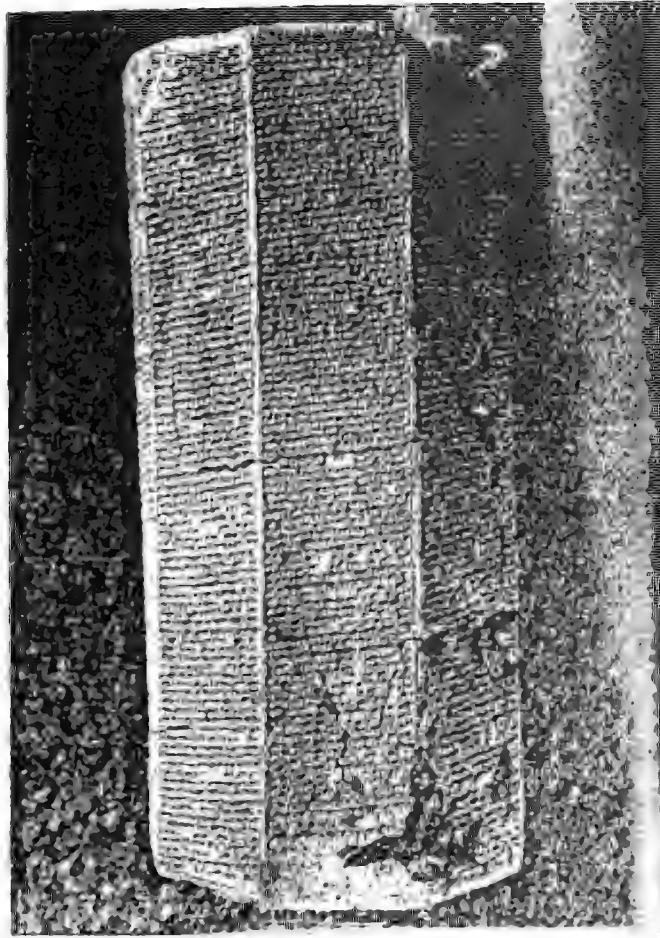
شكل - ٥

اسطوانة من الطين تتضمن كتابات لتعليم تلفظ اللغة وجدت في تل
حرمل ويقدر زمنها من بداية الالف الثاني قبل الميلاد

كبناء المعابد والقصور او تجديد المعالم البنائية الرئيسة في العواصم والمدن
ومن هذه النصوص ما عثر عليه في التنقيبات الاخيرة للمؤسسة العامة للاثار
والتراث في شارع الموكب في بابل وتعود الى الملك
نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق م) الخاصة بالتعليمات

الثلاث لشارع الموكب حيث يعطي المدون تفصيلا عن ارتفاعات كل تعلية ، وهذه المادة الجديدة تفيدنا كثيرا في دراسة الجانb العماري لهذا الشارع ، والابنية المحاذية له لمعرفة ادواره البنائية .

٧ - منشورية الشكل (شكل - ٦) وتضم ٨ اضلاع منها المنشور الذي

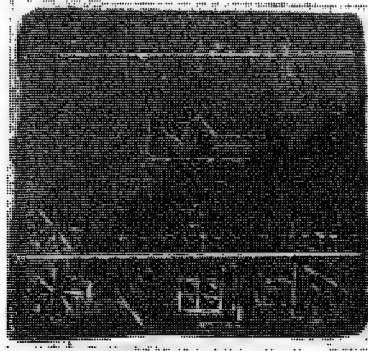


شكل - ٦

عشر عليه بالقرب من زقورة ادد في آشور ويعود الى الملك الاشوري تجلاتبليزر الاول (١١١٥ - ١٠٧٧ ق م) ويحمل ٧٠٠ سطر من الكتابة المسمارية مبرمجة في اعمدة . اما مضمون هذا المنشور فيتناول الحملات العسكرية للملك المذكور وما تحقق عن تلك الحملات من انتصارات عسكرية على اعدائه ، وكذلك ذكر لعدد من المعابد التي قام بانشائها او تجديدها في مدينة آشور ، وهناك منشور آخر يحمل ٨٢٨ سطرا من الكتابة استخدم لتدوين القوانين الاشورية . وتوجد اشكال اخرى سداسية الشكل بوذات (١٠) اطلاق ومعظمها تعود الى الفترة الاشورية . وكانت مثل هذه الاشكال تستوعب نصوصا مطولة بحيث انها تغطي حجم كراس او كتيب .

٨ - مخروطية الشكل دون فيها نصوص تذكر اسم الملك والقباه وبناءه المعبد الذي وضع فيه مثل هذه الوثيقة التاريخية والاثرية ، وقد وصلت اليها نماذج منها من فترات مختلفة منها مخاريط وجدت في لكش وتعود الى زمن كوديا حوالسي (٢١٤٤ - ٢١٣٤ ق م) .

٩ - طابوق (آجر) منقوش او مختوم بكتابات مسمارية (شكل - ٧) تتضمن نصوصا بنائية وتذكر اسم الملك وهذه الآجرات على اشكال مختلفة

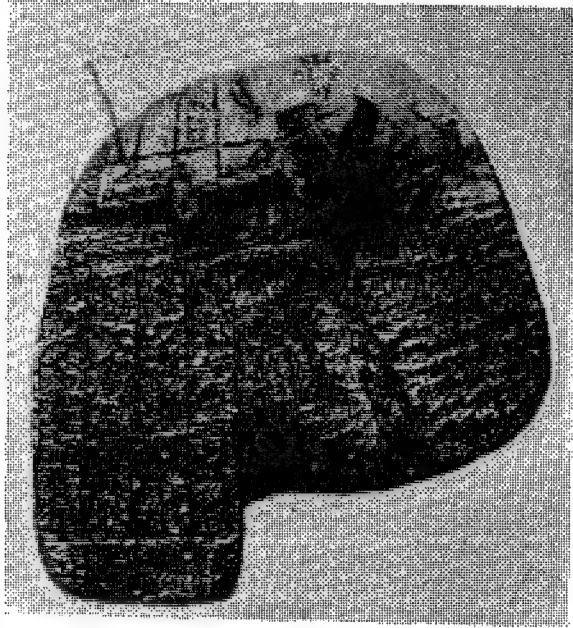


شكل - ٧

طبعة آجر تعود الى الملك الاكدي نرام - سين

وكتابات متباينة بالنسبة للعصور والازمنة منها الآجر الذي عثر عليه بكميات كبيرة في بابل ويعود الى الملك نبوخذنصر الثاني من العهد البابلي الحديث ومنها آجر عليه نص تاريخي يعود الى الملك آشور بانيال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) يخص توسيع ساحة معبد الاله نركال في مدينة سارارا عثر عليه في موقع تل حداد في حميرين .

١٠- اشكال مختلفة تحمل كتابة ، منها نموذج لرئة حيوان عليها كتابات ورسوم توضح مواضع معينة من الرئة (شكل - ٨) ويستخدم هذا الاثر



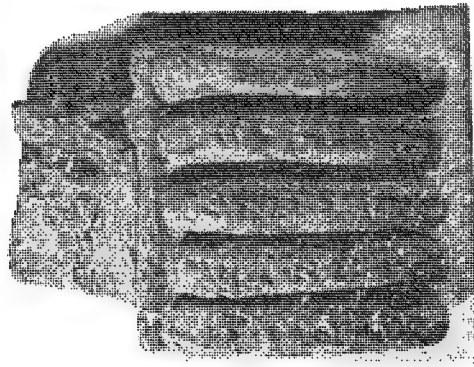
شكل - ٨
نموذج لرئة حيوان عليها كتابة تستخدم للفأل

لقراءة الفأل عثر عليه في نمرود ويعود الى العهد الاشوري الحديث ، ونموذج آخر يمثل كبند الحيوان المضحى ويتناول فحص الكبند بطريقة الفأل يعود الى الملك دادوشا حوالي (١٨٠٠ ق.م) من العهد البابلي القديم ويحدثنا النص :

« الجانب الايمن من المعدة غامق اللون
القلب يقع في الجانب الايسر غامق اللون
الاحشاء المتوية عددها ١٤ الخ
النصر لسي »

ثم ياتي اسم العراف والشهر الذي اعتلى فيه الملك دادوشا العرش وفي الخاتمة
يذكر الكاتب : « تم عمل هذا النموذج خلال حكم الملك دادوشا » .

بالاضافة الى اشكال اخرى من الطين تمثل ايادي حيوانات مكتوبة
بالمسمارية من المحتمل انها تمثل يد الالهة عشتار عشر عليها في نمروود
(شكل - ٩) ووصلت اليها خرائط مرسومة على الواح من الطين عليها
الانهار والبحار واقدام خارطة تعود بزمنها الى الالف الثالث ق.م وخرائط
اخرى منها خارطة نقر وتعود الى الالف الثاني ق.م وخارطة بابل وسبار
وغيرها .



شكل - ٩

يد عشتار عليها كتابة تعود للملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م)

مواد اخرى متنوعة

بالاضافة الى مادة الطين استخدم العراقيون مواد اخرى للكتابة مل :

١ - الحجر بانواعه المختلفة منها على سبيل المثال : صنارات من الحجر
نفشت بكتابة بناءية اسماء الملوك الذين شيّدوا المعابد الوارد ذكرها في
الكتابات وجدت في مواقع مختلفة وتعود لفترات زمنية متباينة منها اور
ونفسر .

بطات وزن من حجر الديورايت الاسود باحجام مختلفة عليها كتابة تذكر
مقدار وزنها ، اضافة الى عيار ذي شكل هرمي تسير الكتابة الى وزنه
ايضا وجد في اور ويعود الى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد .

٢ - رؤوس صولجانات من الحجر كانت توضع في المعابد تذكر الكتابة
المنقوشة عليها اسم الملك ، اكتشفت في اور وخفاجي وغيرها .

٣ - تسابيل معسولة من حجر الديورايت الاسود مثل نثال كوديا بحدود (٢١٤٤-
٢١٢٤ ق م) حاكم مدينة لكش جالس على كرسي وفي مقدمة النثال
كتابة تذكر ان كوديا قد شيّد معبدا للاله نكرسو اله مدينة لكش من
العهد السومري الحديث .

٤ - مسلات من الحجر (شكل - ١٠) منها مسلة حمورابي (١٧٩٢ -
١٧٥٠ ق م) المنهورة نقشت على حجر الديورايت الاسود باربعة
الاف سطر من الكتابة المسمارية (شكل - ١١) وتحمل ٣٠٠ مادة
قانونية مكتوبة باللغة البابلية وتعد هذه الشريعة اول عمل قانوني منظم
عالج مجالات متعددة ترتبط بواقع الوجود الاجتماعي البابلي القديم
بهدف سيادة القانون والعدل لحماية الضعيف . ومسلة النصر للملك
دادوشا حوالي ١٨٠٠ ق م من العهد البابلي القديم وهي من حجر



شكل - ١٠

مسلة تعود الى الملك الاشوري ادد - نيراري الثالث
تذكر اعماله السلمية والحربية عشر عليها في تل الرماح

الكلس وجدت بالقرب من موقع تل اسمر في منطقة دياالى نقش.
جانبا المسلة ب ١٧ حقا من الكتابة المسمارية وتضم هذه الحقول ٢٢١
سطرا وتذكر الاعمال العسكرية التي قام بها الملك ، ووصفا للمعركة
التي دارت بينه وبين العصاة وانتصاره في اليوم العاشر من المعركة على
خصمه « بونوعشتار Bunu - Istar » واحجار غير منتظمة منقوشة



شكل - ١١

مسلة الملك البابلي حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق م .)

برموز الهة مختلفة ، وتعرف مثل هذه الاحجار باللغة الاكدية باسم Kudurru «كودورو» اي احجار الحدود وهي عبارة عن رواقم تركز في الارض لتعيين الحدود بين مقاطعات واخرى ، ويوضع بعضها في المعابد كوثيقة لحقوق مالك الارض وتذكر اسم المالك وموقع قطعة الارض وعليها الادعية والتراويل الدينية •

بالإضافة الى ذلك كتبوا على الاحجار الكريمة وشبه الكريمة كالعقيق واللازورد والاختام الاسطوانية التي تشير الكتابة عليها الى مالكيها، ودلاية من الفيروز على شكل شبه معين غير منتظم مدون على احد اوجهها كتابة تعود الى الملك نينورتا ابل ايكور "Ninurta Apal Ekur" (١١٨٢ - ١١٥١ ق م) وخرزة من العقيق اليماني تشبه في شكلها عين القط عليها كتابة نذرية تعود الى الملك ادد ابل ادا "Adad - Apla - iddina" (١٠٦٧ - ١٠٤٦ ق م) احد ملوك بابل ومهداة الى الاله مردوخ .

واستخدم الكتبة الاشوريون مادة العاج بنطاق قليل وقد وصلتنا بعض النماذج مدونة بالخط المسماري منها تمثال صغير يعود الى الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق م) عثر عليه في نمرود يحمل ثلاثة اسطر من الكتابة تذكر :

قصر اشور ناصر بال ، ملك العالم ، ملك الاشوريين
ابن توكلتي نينورتا ، ملك العالم ملك الاشوريين
ابن ادد نيراري ، ملك العالم ، ملك الاشوريين

وصحيفة من العاج نقشت باربعة اسطر من الكتابة تذكر اسم الملك الاشوري سرجون (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) وجدت في نمرود (شكل - ١٢) وعثر على

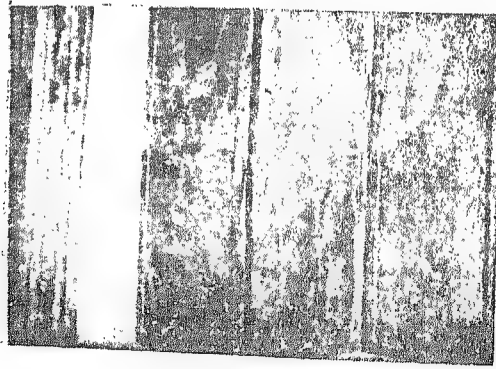


شكل - ١٢

لوح من العاج عليه كتابة تعود الى الملك الاشوري سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق م)

الواح من العاج في نمرود مستطيلة الشكل ومتصلة مع بعضها بأسلاك من النحاس وتؤلف بمجموعها ما يشبه الكتاب (شكل - ١٣) • ويجب ان تنوه هنا بأن المصريين صنعوا الكتب ايضا عن طريق استخدام ورق البردي في الكتابة ، في حين اتجه العراقيون الى تدوين محتويات الكتب على هيئة سلسلة من الرقم كما حصل ذلك بالنسبة لقصة الخليقة وكلكامش وقانون حمورابي وغيرها •

كما وصلت اليها كتابة مدونة على بعض المعادن كالنحاس ومنها الاسطوانة التي تعود الى الملك نور ادد (١٨٦٥ - ١٨٥٠ ق م) احد ملوك سلالة لارسا تحمل نسبه واعماله وجدت في مدينة لارسا • وعلى البرونز ومنها تماثيل وجدت في اور ومواقع اخرى وهي على هيئة انسان واقف على قاعدة او ينتهي نصفه الاسفل بما يشبه المسمار حاملا على رأسه سلة تحوي التراب رمزا للمباشرة ببناء معبد جديد ، وتشير الكتابة المدونة عليها الى اسماء الملوك وألقابهم واسم الاله المقام لاجله المعبد • وكانت مثل هذه التماثيل توضع في اسس الابنية •



شكل - ١٣

الواح من العاج مستطيلة الشكل ومتصلة مع بعضها بأسلاك وتؤلف بمجموعها ما يشبه الكتاب وجدت في نمرود

وعشر في قرية باسطكي في محافظة دهوك على الجزء الاسفل من تمثال معمول من البرونز يعود الى عهد الملك الاكدي نرام سين (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق م) وهذا التمثال يمثل شخصا جالسا على قاعدة وبجانبه لوح مكتوب بالمسمارية يشير الى اسم الملك نرام سين واعماله .

ولعل من المفيد هنا ان نتطرق الى ابرز اثر فريد في نوعه من البرونز وهو بشكل هلال وجد اثناء تنقييات المؤسسة العامة للآثار والتراث في المواسم الاخيرة في مشروع احياء مدينة بابل نقش بسطرين من الكتابة المسمارية ويشير النص الى ان احدى النساء التي لانتجب اهدت هذا الاثر الى الهة الحمل ايروا "Erwa" المعروفة باسم شيروا "Serua" ايضا بهدف مساعدتها على الحمل .

وجاءتنا بعض النصوص مدونة على الفضة كالاواني والرقم منها اللوح الذي يعود الى الملك اورلوما "Ur Lumma" ملك مدينة اوما ، وجد في تللول ام العقارب بالقرب من الناصرية ويعود بتاريخه الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ويحمل كتابة تخص الاعمال التي قام بها والرقم الاخرى تعود الى الملك الاشوري اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق م) وتوكلتي ننورتا الاول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق م) عشر على البعض منها في تل بو مارية بالقرب من الموصل والبعض الاخر في اسس معبد الالهة عشتار والاله اشور في مدينة اشور وكانت هذه الرقم محفوظة داخل انية او داخل صندوق من حجر الكلس ووجدت معها مجموعة من الرقم المعمولة من الذهب والمدونة بالكتابات المسمارية وتعود الى الملوك الاشوريين وجميعها تحمل عبارات بنايية تذكر اسم الملك والاله المقام له المعبد وهذه الرقم صغيرة الحجم اكبرها قياسه ٤ر٥ × ٣ سم وحافاتها محدبة وزواياها مدورة وحسب المعلومات المتوفرة لدينا ان مجموع الرقم من الفضة (٨) والمعمولة من الذهب (٨) وجميعها نقلت في حينه الى خارج العراق عن طريق المنقبين الاجانب ومحفوظة

حاليا في جامعة بيل في الولايات المتحدة الامريكية والمتحف البريطاني في لندن ومتحف برلين في المانية الديمقراطية ما عدا رقيم واحد من الفضة محفوظ في المتحف العراقي . كما توجد خرز صغيرة معمولة من الذهب ومنقوشة بكتابة ايضا منها ما عثر عليه في معبد نخرسالك في العبيد وتعود الى الملك آني بدا (٢٤٥٠ ق م) ملك اور وانية من الذهب منقوشة بالكتابة المسمارية تم الكشف عنها في المقبرة الملكية في اور وفي مدينة نمروود .

ان معظم اللقى الاثرية التي تحمل كتابة مسمارية ، والتي اشرنا اليها معروضة في قاعات المتحف العراقي ، اما البقية فمعروضة في متاحف العالم الشهيرة .

واخيرا لا بد لنا ان نذكر ان هناك احتمالا لقيام العراقيين باستخدام الخشب للكتابة فقد ورد في احد النصوص من العهد الاشوري الحديث ذكر لنصوص كتبت على خشب الارز واخشاب اخرى ، كما جاء في كتابات الملك سرجون الاشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) لأول مرة ذكر للكتابة على الجلود كما تدل على ذلك ايضا الصور المثلثة على المنحوتات الاشورية التي يظهر فيها كاتبان احدهما يحمل رقما طينيا والاخر قطعة من الجلد .

المدارس

لا يعرف بالضبط متى بدأ نظام المدارس في العراق القديم ، وتشير المعلومات الواردة في النصوص ، الى ان المدرسة كانت معروفة منذ بدايات استخدام الكتابة وسيلة للتدوين (الالف الثالث قبل الميلاد) ولربما هناك فترة تسبق الفترة التي نتحدث عنها ولكن لم تصل اليها ادلة اثريّة تؤكد ذلك . يضم المتحف العراقي اعدادا كبيرة من الرقم الطينية التي تعود بتاريخها الى الفترة السومرية والفتريات اللاحقة لها والمدونة بنصوص مدرسية ، وهي

تلقي الضوء على استخدامها لتدريب الطلاب المبتدئين * كما وردت في نصوص
اخرى اشارات الى وجود المدرسة منذ العهد السومري كمؤسسة تعليمية
بعضها امثلة او نصوص خصصت للاشادة باهمية المدرسة ومن هذه النصوص.
حزورة سومرية وهي كالآتي :

بيت باسس كالسـمـاء
البيت الذي يشبه وزه واقفة على قاعدة متينة
يدخلها المرء بعيون مغلوقـة
ويخرج منها بعيون مفتوحة
فما هي : الحل - المدرسة *

اطلق السومريون على المدرسة المصطلح (اي - دبا) é - dub - ba
« اي بيت الألواح » ويقابلها في اللغة الاكدية (بيت طبي bit tuppi) اما
التلميذ فكان يعرف باسم (Dumu é - dub - ba) اي « ابن بيت
الألواح » ومدير المدرسة او ناظرها يسمى اوميا Ummia وتعني الاستاذ
اي رئيس الصنعة والحرفة وتقابل الاسطة في مفهومنا الحالي.
لان المدرسة كانت بالدرجة الاولى ذات هدف حرفي وهو تعليم اصول الكتابة
اكثر مما هي مؤسسة اكاديمية ، وكان يديرها جماعة من الكتبة (مثل
الكتاتيب) ، يقومون باعداد وتدريب المبتدئين لقاء اجور معينة ومنهم « الاخ
الكبير » (šeš - gal) الذي ورد ذكره كثيرا في النصوص المسمارية
والذي كان من الطلبة المتقدمين في الدراسة ويقوم بمساعدة الطلاب
الجدد في تحضير واجباتهم اليومية *

وكانت المدارس في العصور المبكرة جزءا ملحقا بالمعابد وهي اشبه ما
تكون بمؤسسة دينية لتدريب الكهنة والاشخاص الذين يلتحقون بوظائف
الكتبة في خدمة المعابد والقصور غير انه وبمرور الزمن ونتيجة لاتتشار الكتابة

والمعارف والعلوم انتشرت المدارس بشكل واسع ، خاصة في بدايه الالف الثاني قبل الميلاد ، أي في العهد البابلي القديم حيث ظهرت المدارس الرسسية التي كانت تحت اشراف الدولة والمعبد ايضا ، وكان البعض منها ملحفا بالقصور والبعض الآخر بالمعابد ، كما ان هناك بيوتا خاصة استخدمت كمدارس للتعليم كما هو الحال في مدينة نمر حيت ، وجدت ٣ بيوت سكنية الواحدة مجاوره للآخرى عشر فيها على مجاميع من الرقم الطينية من ضمنها مجموعة من النصوص المدرسية ، وفي مدينة اوروك في منطقة قصر سين كاشد وجدت مجاميع من النصوص المدرسية وكذلك في معبد اي - انا في الوركاء .

ومن الاماكن المعروفة التي ظهرت فيها المدارس في العصر البابلي القديم هي اور ، كيش ، لارسا ، سبار ، ادب . كيسورا ، تل حرمل ، تل الدير وماري بدلالة العثور على مجاميع من النصوص المدرسية في هذه المواقع ، قسم منها وجد في القصور مثلا في لارسا في قصر الملك نور ادد والقسم الآخر في المعابد في تل حرمل وغيره . وفي الاحياء السكنية في بيت امكيل سين .

كما وجدت ابنية يستدل من ترتيبها انها كانت مدارس ففي ماري عشر في احدى القاعات في القصر الكبير على صفوف المصاطب مشيدة باللبن وعشر بجانبها على ادوات مدرسية واحواض مياه كانت تستخدم من قبل الطلبة لتحضير الرقم الطينية . ولعل خير ما يمثل المدرسة تلك البناية التي عثرت عليها المؤسسة العامة للآثار والتراث مؤخرا ففي تنقيبات تل السيب (حوض حميرين) تم العثور على بناية ، كان القسم الذي يشغل من قبل الطلاب عبارة عن ساحة مربعة الشكل تقريبا يحيطها من ثلاث جهاتها صفان من الطابوق ومستواها بمستوى الارضية اضافة الى وجود دكتين احدهما دائرية الشكل لجلوس الاستاذ مستطيلة الشكل ربما تكون لمساعدة الشيشكال (الاخ الكبير) وجد

في جانب الاخيرة وعلى الارضية مجموعة من الرقم الطينية يتجاوز عددها مئتي رقيم مرتبة بشكل منتظم ومغلقة بطبقة من الطين ومادة عازلة تضم بعض الرقم مما كان مقررا لكل دارس من المواد الغذائية كالحبوب وغيرها وهذه البناية الحقت بها مجموعة من الابنية المتصلة مع بعضها ربما كانت محلا لاقامة الطلبة او ربما كانت حيي الكتبة .

ولدينا ادلة كثيرة تشير الى ان المدارس الملحقة بالمعابد اغلبها كانت في المعابد المكرسة لعبادة الاله نابو اله الكتابة والقلم واله الحكمة والمعرفة وعلى سبيل المثال معبد اي - زيدا الذي كان مكرسا لعبادة الاله نابو في بور سيبا حيث وجدت فيه مجاميع من النصوص المدرسية والنصوص الخاصة بالترانيم والتراتيل الدينية وغيرها ، ومعبد الاله نابو في مدينة نمرود فان معظم النصوص التي جاءتنا كانت من منطقة المعبد او المنطقة القريبة منه وعلى وجه الخصوص الغرف التي كان يسكنها كتاب المعبد ، وقد وجدت الرقم مصنفة حسب مواضيعها الى (٥) اصناف وهي نصوص الفأل ، نصوص خاصة بالفلك ، نصوص دينية وتضم التراتيل والتعاويذ والصلوات والادعية ، ونصوص مدرسية قسم منها يضم تأليف ادبية والقسم الاخر نصوص معجمية ، ورقم ذات مضامين مختلفة ومن ضمن الرقم رقيم يضم فهرست للرقم المحفوظة مدون عليه مضامين الرقم .

ومعبد الاله نابو - شا - خاري في بابل الذي عثر فيه على اكثر من ثلاثة الاف رقيم طيني ومعظمها نصوص تعليمية .

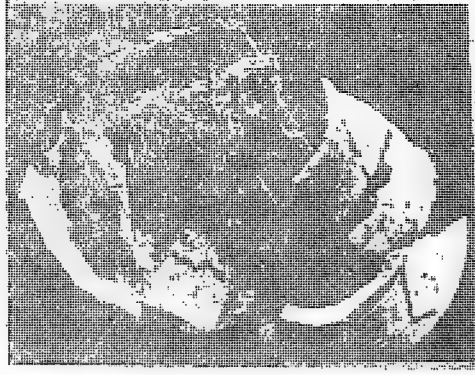
لم يقتصر التعليم في المدارس العراقية القديمة على تعلم الكتابة السمارية واللغتين السومرية والاكديية بل ان هناك فروعاً مهمة من العلوم والمعارف كانت من المواضيع التي تدرس للطلاب وخاصة للطلبة المتقدمين الراغبين في

تكملة تحصيلهم العلمي منها الرياضيات ، الادب ، الموسيقى ، الفلك ، والطب . والقانون وكانوا يتلقون مثل هذه العلوم في معاهد عالية خاصة اشبه ما تكون بدور العلم والحكمة ، وقد جاء في بعض النصوص الكتابية ذكر لوظائف بعض الاساتذة المختصين في مثل هذه الفروع منهم استاذ الهندسة والحساب والرياضيات والموسيقى بالاضافة الى الشعراء والادباء . اما التعليم فكان مقتصرًا على الطبقة الغنية وكان آباء معظم الكتبة من الحكام والامراء وكبار موظفي الدولة ومن طبقات الكهنة وغيرهم وذلك بالنظر للكلفة الباهضة والفترة الطويلة التي يستغرقها التعليم .

وبالرغم من ان معظم المتعلمين كانوا من الذكور الا ان المرأة كان لها ايضا حظ ولو قليلا في التعلم فظهرت بعض الكاتبات الجيدات ومعظمهن كن من الكاهنات من صنف الناديتو وبنات الامراء والملوك .

حفظ الوثائق و نظام المكتبات

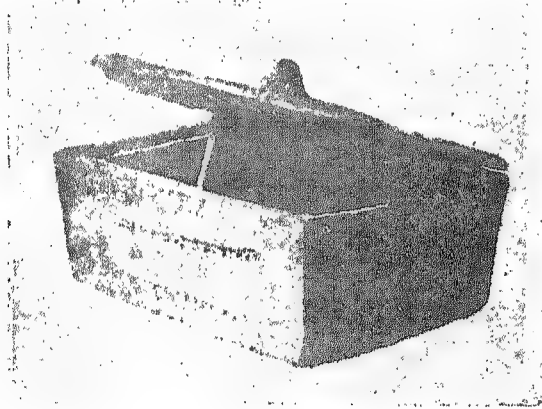
كانت الرقم تحفظ في سلال معمولة من الطين والقصب، ويوضع معها بطاقة تعريفية بموجب موادها المختلفة . وقد وجدت نماذج منها في تل قوينجق (في الموصل) وتل حرمل (بالقرب من بغداد الجديدة) . ويتم نقل الرقم الى مسافات بعيدة بواسطة السلال ايضا ، حيث جاء في احدي الرسائل التي عثر عليها في اشور والعائدة الى التاجر الاشوري ائليل باني الذي كان مقيما في كانيش في الاناضول والمرسلة الى اخته يطلب فيها ان تبعث له جميع الرقم العائدة اليه والخاصة بالصفقات التجارية الى هناك وقد تم نقلها فعلا من اشور الى كانيش بواسطة السلال ، كما حفظت الرقم داخل جرار فخارية (شكل - ١٤) . وقد عثر في كيش على جرار مكسورة مرتبة حول جدران



شكل - ١٤
حفظ الرقم داخل جرار وجدت في كيش

بعض الغرف ، وفي داخل البعض منها مجموعة من الرقم صُنفت حسب مضامينها؛ كالنصوص القواعدية والدينية واللغوية وغيرها لذا فقد عرف مخزن حفظ الرقم باسم (جرة رقم) والموظف المسؤول عنها باسم (ابن جرة الرقم) .

وحفظت الرقم داخل صناديق من الطين ذات اغطية مدون عليها من الخارج عنوان الرقم (شكل - ١٥) . وفي البعض الآخر وضعت بطاقة تعريفية.



شكل - ١٥
حفظ الرقم داخل صناديق معمولة من الطين

بمحتوياتها وكانت مثل هذه الصناديق تودع في ذمة شخص لقاء مبالغ تدفع له عرف باسم (رئيس او مدير صندوق الرقم) ومن المحتمل ان مثل هذه الصناديق استخدمت مقام خزانات الاضايير والسجلات المستخدمة في عصرنا الحاضر .

وكانت الرقم تودع في كوة داخل الجدران ايضا وقد تم العثور في التنقيبات الاخيرة للمؤسسة العامة للآثار والتراث في بيت الكاهن في آشور على نصوص ادبية معجمية واللوح الرابع من قانون حمورابي داخل تلك الكوة .

اما المجاميع الكبيرة من الرقم فكانت تحفظ في اماكن خاصة سميت باللغة السومرية « أي - دبا é - dub - ba » وباللغة الاكدية "bitṭuppi" وتعني (بيت الرقم) علما بأن المدرسة سميت بهذا الاسم ايضا .

كما ورد في النصوص المسمارية ذكر لبعض البيوتات التي كان يحفظ فيها ارشيف الرقم عرف باسم (بيت الوثائق) وربما كان هذا البيت يشبه (مركز او قسم حفظ الوثائق) في الوقت الحاضر . وكان يقوم بادارته موظف عرف باللغة الاكدية بالاسم "šandabakku" اي امين الارشيف (الوثائق) .

وفي اواخر القرن السابع قبل الميلاد حفظت الرقم الخاصة بالشؤون التجارية في المصارف ومنها المصرف التجاري المعروف باسم « اكيبى واولاده » وكان يتم حفظ الرقم في البيوت السكنية ايضا ، خاصة بيوت الكهنة والكتاب والتجار او لدى اشخاص معينين بدلالة العثور في منطقة شمشارة في قضاء رائية في احد البيوت على مجموعة من الرسائل الشخصية المتبادلة مع الملك الاشوري شمشي ادد الاول (حوالي ١٨٠٠ ق م) اما بالنسبة الى الوثائق والعقود الرسمية الخاصة بالمعبد او القصر فكانت تحفظ في مكان خاص ملحق بهما ويقوم بادارتهما رئيس يكون من كبار موظفي الدولة ونود الاشارة في هذا

المجال الى رسالة الملك حمورابي المعنونة الى سين ادنام حاكم مدينة لارسا يذكر فيها « من اجل فض النزاع حول قطعة ارض راجع الوثيقة المحفوظة في المتصر وسوف تفيدك كثيرا في حسم القضية » •

ومن هذا يتضح لنا بأن الوثائق الرسمية والقانونية كانت تحفظ في القصر • اما النصوص المدرسية او الخاصة بالطقوس والترايل الدينية فكانت تحفظ في المعابد والمدارس حيث عثر على مجاميع منها في معبد الاله اي - زيدا المكرس لعبادة الاله نابو « اله الكتابة والمعرفة » في مدينة نينوى وكذلك في معبد نابو - شا - خاري في بابل وحفظت الرقم في رفوف موازية للجدران حيث تم العثور في التل الابيض في عرقوف على مجموعة من الرقم منضدة على الرفوف الواحدة بجانب الاخرى والبعض الاخر موضوعة الواحدة فوق الاخرى على غرار نظام ترتيب الكتب في المكتبات في عصرنا الحاضر ، وكانت مثل هذه الرفوف تغطي بحصير او تغطي بطبقة من القار لمنع تسرب الرطوبة الى الانسواح •

وعثر ايضا في احدى الغرف في الموقع الاثري سبار على صفوف من الرقم الطينية وضعت على رفوف وربطت معها بطاقة تعريفية بواسطة حبل مبسوم مسمول من بعض الالياف النباتية •

وهكذا الحال في الوركاء ونفر وكيش وفارة وغيرها من المواقع • ربما كانت هذه بمثابة مكتبة او مركز لحفظ الرقم • الا ان اهم واكبر المكتبات هي المكتبة الملكية الغنية عن التعريف وهي مكتبة الملك الاشوري اشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق م) والتي تعتبر اول مكتبة منظمة وجدت في الشرق الاوسط ، تم الكشف عنها من قبل البعثة البريطانية التي كانت تنقب في مدينة نينوى وللأسف فقد نقلت في حينها الى لندن وتمثل الان اهم الكنوز المعروضة في المتحف البريطاني في لندن • ضمت هذه المكتبة ما يقارب (٢٥) الف رقم طيني بالاضافة الى اعداد كبيرة من الكسر وهذه الرقم ذات مضامين مختلفة

منها ما يتعلق بالامور الدينية كالقصص والاساطير والملاحم والادعية والتراتيل الدينية ومنها ما يخص العلوم كالطب والكيمياء والرياضيات وعلم الفلك والتنجيم والتاريخ والجغرافية والبعض الاخر معاجم لغوية دونت باللغتين السومرية والبابلية ، قوائم باسماء الالهة والمواد بشتى انواعها ، قوائم باسماء البلدان والمدن والجبال والانهار والطيور والنباتات وغيرها كثير. وكانت المكتبة تضم اعدادا كبيرة من الرقم التي كانت موجودة في المدن الاخرى . اما كيفية جمع هذه الاعداد الكبيرة من الرقم من قبل الملك اشور بانيبال فيذكر انه كان يبعث بكتاب البلاط الاشوري يجوبون البلاد لغرض جمعها ، كما انه جند عددا كبيرا من الكتاب لاستنساخ وترجمة النصوص القديمة كما كان يرسل اتباعه في بلاد بابل بخصوص جمع الرقم . ومن الامثلة على ذلك رسالة مرسلة من قبل ملك اشوري لم يذكر اسمه ولكن يعتقد بانها تعود الى الملك المذكور الى احد اتباعه في بورسييا حيث يقول :

انني بخير عسى ان تكون انت بخير ايضا . عندما تصلك رسالتي هذه استصحب معك ثلاثة اشخاص وكذلك الاشخاص المثقفين في مدينة بورسييا وفتشوا عن جميع الرقم التي بحوزة اهالي بورسييا والمحفوظة في بيوتهم وكل الرقم المودعة في معبد اي-زيديا معبد الاله نابو. فتشوا عن الرقم المهمة الموجودة هناك لقد كتبت الى الموظفين والمراقبين بخصوص الموضوع وسوف لا يمتنع اي شخص عن تزويدكم باي رقم ترغبون في اخذه واذا شاهدتم نصا علميا او رقما يخص الطقوس او النصوص التي تشير الى المعارك العسكرية والنصوص التي تحمل مفردات غنية وجميع النصوص التي تخص مدينة بورسييا وتدفع عنها الاذى وكل ما تعتقدون ان القصر بحاجة اليه فاجلبوه .

ورسالة اخرى من احد الكتب معنونة الى الملك آشور بانيبال يقول فيها الكاتب : سنسير على تعليماتكم الموجهة الينا بخصوص جمع الرقم المدونة باللغة السومرية ورسالة اخرى فيها تعليمات صادرة من الملك الى احد

موظفيه : اجلب الرقيم الذي فيه تعليمات رسمية من ملك بابل الى مدينة
بورسيا ورسالة موجهة من احد الكتبة الى الملك يذكر فيها : حسب اوامركم
سوف اجلب الرقيم الطيني الخاص بالملك حمورابي علما بأن النسخة الاصلية
لهذا الرقيم كانت قد تلفت لذلك كان الملك حمورابي قد امر باستنساخ نسخة
جديدة لها .

وبهذه الطريقة تم جمع واستنساخ النصوص الكتابية التي كانت محفوظة
في كل من بلاد بابل واشور ، وبالفعل وجدت بعض الرقم تحمل كولوفون
(تذييل) بخط دقيق تشير الى اصحابها منها رقيم يعود الى عائلة احد الكتبة
يذكر :

فلان ابن فلان الكاتب الذي هو سليل الكاتب الاكبر والد الشخص فلان
المشاور الرسمي في عهد الملك الاشوري اسر حدون . ويظهر ان الملك آشور
بانيال كان محبا وشغوفا بالعلم . فقد تعلم فن القراءة والكتابة منذ صغره لذلك
امر بإنشاء مكتبة في قصره تضم مجاميع كبيرة من الرقم ذات المضامين المختلفة
ليستقي منها هو ومن يريد الاستزادة من العلم من المثقفين وغيرهم . وقد ورد
في احد نصوصه ما يلي :

« استقيت المعارف الخاصة بالكتابة وحذقت آيات السماء والارض ...
ودرست ظواهر السماء ، وتمكنت ان احل قضايا صعبة في القسمة والضرب
واتقنت فن الكتابة السومرية والكتابة الاكدية الصعبة جدا ، وكنت احب
ان اقرأ الاحجار والانصاب المكتوبة من ازمان ما قبل الطوفان ... »

واخيرا لا بد لنا من الإشارة الى ان استعارة الرقم من المكتبات كان مالوفا
عند العراقيين القدماء ولا يختلف عن نظام الاعارة في عصرنا الحالي . حيث
كان سابقا يسجل على رقيم صغير اسم النص المعار واسم الشخص الذي
استعاره او تكتب إشارة على الرقيم نفسه :

تمت استعارة هذا الرقيم من قبل الشخص الفلاني وهكذا . وقد عثر على رقيم من مدينة الوركاء يحمل الملاحظة التالية : لقد تمت استعارة النسخة الثانية لآحد الرقم من الملك سرجون الاشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) تمت اعادته .

ورقيم آخر وهو عبارة عن بطاقة وضعت بجانب آحد الرقم وتذكر : ان هذا الرقم استعاره الملك البابلي نبوبولاسر (٦٢٦ - ٦٠٥ ق م) من الوركاء وهو بخصوص الالهة عشتار ولكن الرقيم لم يعد في حينه وفي مطلع القرن الثالث قبل الميلاد وجده آحد الكهنة في مدينة عيلام وعاد به الى موطنه الاصلي اوروك . ويظهر ان هذا الرقيم سلب من بمدينة بابل من قبل الفرس الاخمينيين عند غزوهم واحتلالهم لبابل .

وتوجد تعاليم للمكتبات تمنع من الاستيلاء على اللوح او اتلافها او تحويرها فكل من يزور او يحرف او يتلف او يسرق نصا فعليه غضب الالهة ولعنيتها . . وهناك عقوبة على كل من يقوم بتزوير الكتابة وهي :

« وضع الرقيم المزيف على جبن المزيف » ويقصد بها اهانة الكاتب الذي قام بالتزوير .

المراجع

- ١ - طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الاول ، بغداد ١٩٧٣
- ٢ - د. فاضل عبدالواحد علي : كتبوا على الطين ، مجلة كلية الاداب العدد ٢٧ بغداد ١٩٧٩
- ٣ - د. فوزي رشيد محمد : قواعد اللغة السومرية ، بغداد ، ١٩٧٢
- ٤ - عبدالهادي الفؤادي : دور الثقافة في العراق القديم ، بغداد ، ١٩٦١ رسالة غير منشورة
- ٥ - د. بهيجة خليل اسماعيل : مسلة حمورابي ، بغداد ، ١٩٨٠
- ٦ - د. بهيجة خليل اسماعيل : دلالة فيروز من عهد الملك نينورتا - ابل ايكور ، سومر ، ١٩٧٦
- ٧ - د. بهيجة خليل اسماعيل : نبذة عن الكتابات المكتشفة في نوزي ، سومر ١٩٧٨

Driver G.R. Semitic writing from pictograph to Alphabet
Oxford, 1976.

Dr. Bahija Khalil Ismail : Information über Tontafelfunde
im gebiet des Hamrīn Staudammes, Akkadica 9, Brussel,
1978.

Dr. Bahija Khalil Ismail : Neuere Tontafelfunde im Irak,
Archiv für Orientforschung, Beiheft 19, 1982.

Ellis R.S, : Foundation Deposits in Ancient Mesopotamia,
Yale, 1968.

Klíma. J, Gesellschaft und Kultur des alten Mesopotamia.

King, L., Babylonian Boundary stones, 1927.

Gadd, C. J, Teachers and Students in the Oldest Schools.
London, 1956.

الفصل الثامن السرقات اللغوية

ر . عامر سليمان

كلية الآداب - جامعة الموصل

أقدم اللغات العراقية

عاش الانسان في العراق منذ ازمة سحيقة في القدم ، تمتد الى ٦٠ الف سنة خلت او يزيد ، ومما لا ريب فيه انه استخدمت خلال تلك العصور الطويلة لغة او مجموعة من اللغات تفاهم بواسطتها الانسان مع اخيه الانسان ، غير انه ليس لدينا اية معلومات عن تلك اللغة او اللغات نظرا لان الكتابة ، وهي وسيلة نقل اللغة وحفظها للاجيال التالية ، لم تكن معروفة خلال القسم الاعظم من تلك العصور .

وفي اواسط الالف الرابع قبل الميلاد ، اي قبل اكثر من خمسة الاف سنة ، اخترع الانسان العراقي القديم اول كتابة معروفة في العالم حتى الان وهي التي سميت من قبل الباحثين المحدثين بالكتابة المسمارية ، وكانت آلاف اللوح الطينية المكتشفة والمدونة بالكتابة المسمارية سجلا حافلا نقل لنا لغة العراقيين القدماء وكثيرا من افكارهم ومعتقداتهم وعلومهم ومعارفهم .

عشر على اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات كتابية صورية يمكن فهم لغتها في بلاد سومر ، القسم الجنوبي من العراق ، وترقى بتاريخها الى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد (اي الدور الحضاري المعروف باسم دور جمدة نصر) . ومن دراسة هذه الالواح وتحليل علاماتها الصورية ومقارنتها مع علامات الالواح التالية زمنيا تبين بان لغة كاتبها كانت اللغة السومرية وهذا ما دفع بعض الباحثين للاعتقاد خطأ بان السومريين كانوا اول من استوطن ارض جنوبي العراق . غير ان العالم لاندزبركر (Landsberger) قام بتفنيد هذا الاعتقاد معتمدا في ذلك على دراسة وتحليل اقدم الاثار المادية المكتشفة في مدن جنوبي العراق وعلى التراث اللغوي الذي خلفه المستوطنون الاوائل لهذا الجزء من العراق في كل من اللغة السومرية واللغة الاكدية .

قام لاندزبركر بدراسة النصوص السومرية التي ترقى بتاريخها الى الالف الثالث قبل الميلاد فوجد ان فيها العديد من المفردات اللغوية الدخيلة التي لا تنتمي الى اللغة السومرية كما انها ليست من اللغة الاكدية التي انتشرت في المنطقة فيما بعد ولا الى اي من اللغات المعروفة . لذا افترض لاندزبركر بان هذه المفردات لا بد انها تعود الى لغة كانت سائدة في المنطقة قبل استخدام اللغة السومرية واللغة الاكدية غير انها لم تحفظ للاجيال التالية لان الكتابة لم تكن معروفة حتى حينئذ شأنها في ذلك شأن اللغات القديمة الاخرى التي سبقت الاشارة اليها . . ومما يؤيد هذا الافتراض ان غالبية المفردات الدخيلة هذه تمثل اسماء المدن الرئيسة واسمي النهرين العظيمين دجلة والفرات وبعض المفردات الخاصة باسماء عدد من الحرف والصناعات والادوات الاساسية في حياة الانسان . وبعبارة اخرى ظن لاندزبركر ان هذه المفردات ما هي الا بقايا لغة سكان القسم الجنوبي من العراق الاوائل الذين سبقوا السومريين والاكديين في استيطان المنطقة واليهم يرجع الفضل في وضع اللبنة الاساسية للحضارة العراقية القديمة التي ازدهرت في الالف الثالث

قبل الميلاد وقد عرفت آثار هؤلاء السكان من قبل الآثاريين بآثار طور العبيد، نسبة الى تل العبيد الذي اكتشفت فيه ولاول مرة آثار ترقى بتاريخها الى الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد .. وحيث ان تلك الآثار وما يماثلها من حيث الفترة الزمنية والدور الحضاري قد وجدت على اطراف القسم الجنوبي من نهر الفرات ، فقد اطلق على السكان الذين خلفوها لنا اسم (الفراتيون الاوائل) Proto Euphrates والى هؤلاء نسبت المفردات اللغوية الدخيلة آتفة الذكر ، وقد ايد هذا الرأي (Gelb) و اضاف اليه من الادلة ما عززه من الناحيتين اللغوية والتاريخية .

وفيما يلي قائمة باهم المفردات اللغوية التي يعتقد انها تنتمي الى لغة الفراتيين الاوائل والتي وجدت ضمن النصوص السومرية ومما تجدر ملاحظته ان بعض هذه المفردات قد انتقل الى اللغات التالية وظل مستخدما فيها حتى الوقت الحاضر :

اللفظ بالحرف العربي	اللفظ بالحرف اللاتيني	المعنى
إنكار	engar	فلاح
آپن	apin	محراث
نِمْبار	nimbar	نخلة
سولومب	sulumb	تمر
تِبيرَا	tibira	نحاس ، تعدين
سِمُك	simug	حدّاد ، نحّاس
نِگار	nagar	نجّار - ومنها كلمة نجّار العربية

اللفظ بالحرف العربي	اللفظ بالحرف اللاتيني	المعنى
مَلَاخ	malah	مَلَاخ - ومنها كلمة مَلَاخ العربية
پَخَار	pahar	فَخَّار - ومنها كلمة فَخَّار العربية
دَمْگار	damgar	تاجر
إِشبار	ishbar	حائك
أَشْگاب	ashgab	اسكافي ، جلاّد ومنه كلمة اسكافي

اما اسماء المدن والمواضع والانهار فيرى مؤيدو هذا الرأي ان اسماء معظم المدن المهمة في بلاد سومر واكد ترجع الى لغة الفراتيين الاوائل ومنها ابتداء من الجنوب :

الاسم القديم	الاسم حاليا
اريدو	Eridu اريدو (ابو شهرين)
اورم	Urum اور
اوروك	Uruk الوركاء
كُلاب ، كلابا	Kullab
لارسام	Larsam لارسا (سنكرة)
لگاشو	Lagashu لجش (تل الهباء)
گِرسو	Girsu تلّو
نينا	Nina سرغل

الاسم القديم	الاسم حاليا
سيرارا	Sirara
باد تـبـيرا	Bad - Tibira تلول المدينة في منطقة لجش
اوما	Umma تل جوخة
شـروپـاك	Shuruppak تل فارة
أدب او اودب	Adab, Udab بسمي
نـيـشـر ، نـبروا	Nippur, Nibrua نقر
كيش	Kesh
مرد	Marad ونة والصدوم
لراك	Larak تل الولاية !
ايسن	Isin ايشان بحريات
كيش	Kish تلول الاحير
سپار	Sippar ابو حبة
أكشاك أو اوبي	Akshak, Upi
أكاد	Akkad
بارسپ او بورسپا	Barsip برس نمود
اشنونا	Eshnunna تل اسمر
توتوب	Tutub خفاجي

يضاف الى هذه الاسماء اسما النهرين العظيمين دجلة (إدِگْنا) Idigna
والفرات (بُرْائِن) Buranun أو بورنُنا Burunna الذي
انتقل الى الاكديّة على هيئة پورائي Purati أو پراتم Puratum

اللغة السومرية

ومع ان لغة الفراتيين الاوائل تمثل لغة اول من استوطن ارض جنوب العراق الا ان اللغة السومرية تبقى اقدم اللغات العراقية ، بل العالمية ، طرا من حيث تاريخ التدوين . فقد تمكن الباحثون من تحليل العلامات الصورية البسيطة المدونة على الواح الطين المكتشفة في كل من الوركاء (الطبقة الثالثة والثانية) وجمدة نصر والعقير والتي ترقى بتاريخها الى اواخر الالف الرابع قبل الميلاد وتبين بانها تمثل اولى المحاولات في تدوين اللغة السومرية ، وانها ، أي العلامات المنقوشة على هذه الالواح ، عبارة عن ثلاث علامات صورية بسيطة متكررة عدة مرات ترمز الى اسم الاله السومري (انليل) اله الجو والهواء والفعل (يعيش ، يمنح الحياة) .

وعلى الرغم من ان اللغة السومرية هي اقدم اللغات العراقية من حيث تاريخ التدوين الا ان الباحثين لم يتعرفوا عليها وعلى هوية الاقوام التي استخدمتها ، وهم السومريون الا في فترة متأخرة نسبيا اي في اواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، فقد كان الاعتقاد السائد لدى الباحثين حتى حينئذ ان لغة جميع النصوص المسمارية المكتشفة في مدن العراق القديمة هي لغة الاقوام البابلية والاشورية، وفي عام ١٨٥٢م اثار احد الباحثين حقيقة وجود بعض النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة نينوى وهي تضم جداول ثنائية اللغة ، تمثل اللغة الاولى فيها ماكان يعرف باللغة البابلية أو الاشورية اما اللغة الثانية فجديدة ولا علاقة لها باللغة البابلية او الاشورية الا من حيث اسلوب الكتابة وقد اطلق هذا العالم ، وهو رولنسن الانكليزي الجنسية ، على هذه اللغة الجديدة اسم (اللغة الاكدية) وأشار الى ان هناك نصوصا اخرى اكتشفت في بلاد بابل وهي مدونة بهذه اللغة الجديدة فقط وخلص الى القول بان اصحاب تلك اللغة، اي الاكديين وفق هذه التسمية هم الذين

اخترعوا الكتابة المسمارية وبذلك اثبت رولنسن حقيقة وجود الاقوام السومرية ولغتها غير انه سماها خطأ باسم آخر.

وفي عام ١٨٦٩ اشار يوليوس اوبرت الى ضرورة تسمية الاقوام التي سماها رولنسن بالاقوام الاكدية بالاقوام السومرية وتسمية لغتهم باسم (اللغة السومرية) (Sumerian Language) مستندا في ذلك على ما جاء في اللقب الملكي الذي استخدمه عدد من الملوك والحكام الاوائل الذين تفاخروا بانهم كانوا ملوك (بلاد سومر واكد) .

ومع ان التسمية التي اقترحها اوبرت كانت دقيقة وصحيحة كما ثبت ذلك فيما بعد ، الا ان غالبية الباحثين لم يأخذوا بها في حينه واستمروا في استخدام التسمية الاولى وهي اللغة الاكدية للإشارة الى اللغة السومرية لفترة ليست بالقصيرة ، بل ان احد الباحثين اليهود وهو جوزيف هالفي انكر وجود الشعب السومري واللغة السومرية اصلا على الرغم من جميع الادلة المادية المتوفرة ونشر مقالات متتابعة حول رأيه هذا وقال بان ما يشار اليه باللغة السومرية ما هو في الواقع الالة من ابتداع الكهنة البابليين . ثم تابعت الاكتشافات الاثرية في مدن العراق المختلفة وكشف عن المئات من النصوص المدونة باللغة السومرية فقط وبدأت الدراسات العلمية لهذه اللغة ولقواعدها معتمدة على النصوص ثنائية اللغة اولا ومن ثم النصوص السومرية . ومنذ مطلع القرن العشرين ظهرت بحوث عدة تبين خواص هذه اللغة وقواعدها .

تشير الدراسات اللغوية التي تمت الى اللغة السومرية بان اللغة السومرية لغة منفردة لا تشبه اللغة الاكدية (البابلية - الاشورية) او غيرها من اللغات المحلية التي عرفت في العراق القديم سواء في التراكيب والقواعد اللغوية ام المفردات او حتى الاصوات . بل ان اللغة السومرية لا تنتمي

الى ايه عائلة من العائلات اللغوية المعروفة حتى الان .. وقد نتج عن هذا الغموض الذي يكتنف أصل اللغة السومرية وعدم انتمائها الى أية من العائلات اللغوية ان اختلف الباحثون في تحديد اصل السومريين وموطنهم الاول وظهرت آراء ونظريات عدة حول ذلك وكان اعتماد جل تلك الآراء على وجود بعض اوجه الشبه بين اللغة السومرية وبين بعض اللغات العالمية الاخرى كاللغة التركية واللغة الهنغارية والقوقاسية ولغة سكان التبت وغيرها .. غير ان اوجه الشبه في جميع تلك الحالات لا ترقى الى درجة القرابة أو الانتماء الى عائلة لغوية واحدة . ويبدو ان اللغة السومرية هي لغة تنتمي الى عائلة لغوية قديمة كانت فروعها معروفة في المنطقة ثم انقرضت خروج تلك العائلة اللغوية من قبل ان ت اخترع الكتابة وسيلة لتدوين وحفظ اللغة .. وكانت السومرية كما يبدو هي اللغة الوحيدة من افراد تلك العائلة التي وجدت طريقها للتدوين بفضل ابتداع الكتابة قبل ان ينقرض الشعب السومري وتموت لغته .. لذلك ظلت اللغة السومرية منفردة بين بقية اللغات التي وجدت طريقها للتدوين *

اهم خصائص اللغة السومرية

اللغة السومرية من اللغات التي تتصف بظاهرة الالتصاق Agglutination والالتصاق هو القدرة على تكوين الفاظ ذات معان جديدة بلمصق كلمتين او اكثر الى بعضها البعض . مثال ذلك تصاغ كلمة (لوغال Lugal) السومرية وتعني (ملك) من كلمة (لو Lu) بمعنى رجل و (غال gal) بمعنى عظيم فتصبح (الرجل العظيم) اي (الملك) . كما ان اللغة السومرية لغة غير قابلة للتصرف اي انها ليست من اللغات المعربة كاللغات العربية القديمة واللغات الهندية الاوربية .. وجذورها بصورة عامة لاتتغير اما وحدتها القواعديّة الاساسية فهي المركب اللفظي وليس

الكلمة المفردة * * وتميل ادواتها القواعدية للاحتفاظ ببنيته مستقلة اكثر من ميلها نحو الاتصال بجذور الكلمات اتصالا وثيقا *

ومن قواعد اللغة السومرية الصوتية اسقاط الحرف الصحيح ان هو جاء في نهاية الكلمة ولم تتبعه اداة نحوية تبدأ بحرف علة * * اما اذا اعقبته اداة نحوية مبتدئة بحرف علة فعندما يتكون من الحرف الصحيح وحرف العلة مقطع صوتي جديد *

وتتألف الجذور السومرية بصورة عامة من مقطع واحد وان كانت هناك جذور مؤلفة من اكثر من مقطع واحد * ولا تفرق اللغة السومرية بين الاسم المذكر والاسم المؤنث قواعديا الا اذا كانت طبيعة الاسم مذكورة او مؤنثة وقد تضاف اداة خاصة لتحديد جنس الاسم في حين هناك تفريق واضح بين العاقل وغير العاقل من الاسماء يتبع غالبا واقع الحال ، اما العدد فليس هناك سوى المفرد والجمع وللإشارة الى الجمع يضعف الاسم او تضاف اليه اداة نحوية خاصة بالجمع *

والفعل في اللغة السومرية نوعان : اصلي ومركب وكل الافعال على ثلاثة اصناف متعدد ولازم ومبني للمجهول ولل فعل زمان ماض ومضارع اضافة الى صيغة الامر *

والصفات في اللغة السومرية قليلة وغالبا ما يستعاض عنها بتعابير في حالة الاضافة وقلما تستعمل اسماء الصلة وادوات العطف بل توضع الكلمات الى جانب بعضها دون روابط *

وتتألف الجملة السومرية من :

١ - سلسلة من المركبات الاسمية تتعلق بالمسند اما كفاعل او كمفعول به .
٢ - ثان او كمفعول به يدل على زمان او مكان (ظرف) او مفعول به *

٣ - الادوات القواعدية التي تعبر عن هذه العلاقات •

٣ - المسند المؤلف من الجذر الفعلي المسبوق باداة جذرية وسلسلة من الاصناف التي تعيد باختصار توضيح العلاقة بين الجذر والمركبات الاسمية وتزخر اللغة السومرية بالمفردات الدخيلة منها الاكدية التي دخلت السومرية منذ فترة مبكرة ومنها ما يعود الى تراث الفراتيين
الاولى •

وفي اللغة السومرية ثلاثة حروف علة طويلة يعبر عنها بالحروف اللاتينية ā ' ē ' ū وثلاثة قصيرة يعبر عنها بالحروف u ' e ' a ، اما الحروف الصحيحة فهي ستة عشر حرفا ولا توجد بينها حروف حلقة ، باستثناء حرف الخاء ، او حروف مشددة كالتي نجدها في اللغة الاكدية •

كانت اللغة السومرية ، كما اشرنا ، لغة الاقوام السومرية التي وجدت في القسم الجنوبي من العراق منذ الالف الرابع قبل الميلاد • وظلت تستخدم لغة للتخاطب فترة طويلة شملت الالف الثالث قبل الميلاد بأكمله وجزءاً من الالف الثاني في حين ظلت تستخدم لغة للتدوين لفترة اطول من ذلك بكثير حيث جاءتنا نصوص سومرية من الالفين الثاني والاول قبل الميلاد ، غير ان استخدامهما للتدوين خلال الالفين الثاني والاول قد اقتصر احيانا على تدوين بعض النصوص الدينية او العلمية ذات الاهمية الخاصة كما ظل الكتبة يعكفون على استنساخ النصوص السومرية القديمة لاهميتها الدينية او العلمية وظلوا يؤلفون الجداول او القوائم ثنائية اللغة ليسهل عليهم فهم تلك النصوص •

ويميز الباحثون عدة مراحل مرت بها اللغة السومرية معتمدين في ذلك على النصوص المكتشفة حتى الان •

- المرحلة البدائية (٣٠٠٠ - ٢٦٠٠ ق م) ومعظم نصوص هذه الفترة مقتضبة وبسيطة وذات طابع اقتصادي .

- مرحلة العصر السومري القديم (٢٦٠٠ - ٢٣٥٠ ق م) ، وجل نصوص هذه المرحلة اقتصادية وملكية وقد عثر عليها في مدينة لجش بالدرجة الاولى .

- المرحلة السرجونية والكويتية (٢٣٥٠ - ٢١٥٠ ق م) ونصوصها قليلة ولا سيما من الفترة الكويتية .

- مرحلة العصر السومري الحديث (٢١٥٠ - ٢٠٠٠ ق م) وغالبية نصوص هذه الفترة التي تميزت بسيادة الاقوام السومرية في عهد سلالة اور الثالثة جاءت من مدينة لجش واوما ودرهم واور ومعظمها نصوص اقتصادية وبعض النصوص قانونية .

- مرحلة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م) وتضم نصوصها المستنسخات الادبية والنصوص ثنائية اللغة (المعاجم اللغوية) . ونصوصها اقتصادية وقضائية وتناجات ادبية واستنساخات للملاحم والاساطير .

- مرحلة ما بعد العهد البابلي القديم (١٦٠٠ - ١٠٠ ق م) ومعظم نصوص هذه الفترة عبارة عن استنساخات لنصوص سومرية من الفترات السابقة وبعض النصوص الملكية والنتاجات الادبية الكشية ولغتها متأثرة باللغة الاكدية .

أما اللهجات السومرية التي لا بد وان ظهرت تحت تاثيرات الظروف المحلية والفترات الزمنية ، فلا سبيل للتعرف عليها من خلال النصوص المتوفرة لدينا . مع ذلك ، ذكرت النصوص السومرية نفسها تسميات معينة للهجات سومرية منها :

– لهجة المخاطبة ، او اللهجة الاعتيادية وهي أهم اللهجات وتعد من قبل

المباحثين اللهجة الرئيسة •

– اللهجة (اللغة) الكبيرة او اللهجة (اللغة) العالية •

– اللهجة (اللغة) المنتخبة او اللهجة (اللغة) الشاذة •

اضافة الى ذلك ، وردت تسميات مختلفة للهجات بعض فئات واصناف

الناس منها :

– لهجة السفافة •

– لهجة رعاة الغنم •

– لهجة الكهنة

كما كانت هناك لهجة اخرى سُميت بلهجة النساء والتي اطلق عليها

باللغة الاكدية « لغة العراك » « لشان صلت » Lishanu siltu

وقد ظهرت في اوائل العهد البابلي القديم وكانت تستخدم غالبا عند الحديث عن النساء في النصوص الادبية ثم اصبحت لغة الكتابات الادبية في مرحلة مابعد العهد البابلي القديم •

اللغة الاكدية

١ – التسمية :

« اللغة الاكدية » تسميه مشتقة من اسم الاقوام الاكدية ، وهي اولى

الاقوام الجزرية او « الاقوام العربية القديمة » وهي التسمية التي

استخدمت هنا بديلا من التسمية القديمة « الاقوام السامية »

المعروفة التي استوطنت اواسط وجنوبي العراق منذ مطلع

الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير • وفي مطلع القرن الرابع والعشرين

قبل الميلاد (حدود ٢٣٧٠ ق • م) اسست دولتها التي عرفت بالامبراطورية

الاكدية والتي وحدت ولاول مرة جميع مدن واقاليم وادي الرافدين

بوضتها في دولة واحدة • وقد استخدمت تسمية « اللغة الاكديّة » لأول مرة من قبل العالم رولنسن عام ١٨٥٢ م ، كما سبق والمحنا . للدلالة على اللغة الثانية التي تضمنتها النصوص ثنائية اللغة المكتشفة في مدينة نينوى وغيرها ثم تبين خطأ هذه التسمية حيث اتضح ان لغة تلك النصوص هي في الواقع لغة الاقوام السومرية • وبعد ان عرف تاريخ الاكديين وتاريخ دولتهم الاكديّة استخدمت التسمية بمعنى ضيق ومحدود للدلالة على لغة الاقوام الاكديّة التي شادت الامبراطورية الاكديّة وخلفت لنا بعض النصوص • ومنذ الخمسينيات من هذا القرن اتسع مدلول التسمية وغدت تستخدم للدلالة على جميع اللهجات المتفرعة عن اللغة الاكديّة والتي انتشرت فيما بعد في بلاد بابل وآشور منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد عندما تضاءل استخدام اللغة الاكديّة ثم تلاشى امام اللغة الارامية وغيرها من اللغات التي استخدمت في وادي الرافدين بديلا عن اللغة الاكديّة ، اي ان مصطلح « اللغة الاكديّة » بهذا المفهوم الواسع اصبح يدل على جميع اللهجات (اللغات) التي تكلمت بها الاقوام الاكديّة والبابليّة (الامورية) والاشورية والكلدية واستخدمتها للتدوين • كما يدل المصطلح ايضا على جميع اللهجات المتفرعة عن هذه اللهجات الرئيسيّة التي استخدمت في مناطق معينة وفترات زمنيّة محدّدة كاللهجة الاكديّة التي استخدمت في بلاد عيلام واللهجة الاكديّة في منطقة كبدوكيا في اسيا الصغرى ولهجة رسائل العمارة في مصر ولهجة نوزي في منطقة ارباخا (كركوك) التي كانت متأثرة الى درجة كبيرة بالاقوام الخورية وغيرها من اللهجات الاقل اهمية •

ومن الجدير بالاشارة هنا ان البحوث والدراسات اللغوية التي تدرسه نسبيا ، اي تلك الصادرة في القرن الماضي والنصف الاول من القرن الحالي ، اطلقت على لغة النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد بابل واشور

اسم (اللغة الاشورية) او « اللغة البابلية » نسبة الى مناطق اكتشافها * ونظرا للتشابه الكبير بين اللغتين والذي تنبه اليه الباحثون منذ البداية واعتقادهم بان كلتا اللغتين تنتميان الى اصل مشترك واحد ، فقد شاع استخدام مصطلح « اللغة الاشورية - البابلية » او « اللغة البابلية - الاتشورية » كما سمي العلم المختص بدراسة هذه اللغة وبنصوصها المسماة ، وما يزال يسمى ، بعلم « الاشوريات Assyriology »

ولابد من الاشارة ايضا الى الخطأ الشائع في تسمية لغة النصوص المسماة باسم « اللغات المسماة » في حين ان الكتابة هي غير اللغة وقد تكتب اكثر من لغة واحدة بواسطة كتابة واحدة كما هي بالنسبة للكتابة المسماة التي استخدمت لتدوين اللغة السومرية واللغة الاكدية ، كما استخدمت بعد اجراء بعض التعديلات عليها لتدوين لغات غريبة اخرى * او كما تستخدم الكتابة العريية لتدوين اللغة الفارسية واللغة التركية *

ب - اصول اللغة الاكدية :

واللغة الاكدية بالمفهوم الواسع هذا تمثل الفرع الشمالي الشرقي من عائلة اللغات الجزرية . وتضم هذه العائلة اللغوية مجموعة كبيرة من اللغات المهمة التي انتشرت وسادت معظم انحاء الشرق الادنى القديم منذ اقدم عصوره التاريخية وحتى الان وهي اللغة الاكدية ، بلهجاتها البابلية والاشورية المختلفة ، واللغة الكنعانية ، بلهجاتها الاوغاريتية والعبرية والفينيقية ، واللغة الارامية ، بلهجاتها الارامية القديمة وaramية الدولة والارامية اليهودية والنبطية والمندائية ، واللغة العريية الشمالية والجنوبية وبعض لغات الحبشة * ويكاد يجمع الباحثون على ان الموطن الاول للاقوام التي تكلمت بهذه اللغات هي شبه الجزيرة العريية التي شهدت في عصور سحيقة في القدم استخدام « اللغة العريية الام » ومن ثم بدأت

هجرات الاقوام العربية القديمة الى خارج حدود شبه الجزيرة العربية •
وكان من بين تلك الهجرات هجرة الاقوام الاكدية والبابلية (الامورية)
والاشورية الى وادي الرافدين • وقد تميزت لغات هذه العائلة اللغوية
بجملة خصائص مشتركة منها :

١ - ان هذه اللغات تعتمد اعتمادا كبيرا على الاصوات الصامتة
(الصحيحة) لاعلى الاصوات المتحركة (العلة) • أي ان المعنى الرئيس
للکلمة يرتبط بالاصوات الصامتة فيها ، اما الاصوات المتحركة فهي لا تعتبر
في الكلمة الا عن تحوير هذا المعنى وتعديله •

٢ - تزخر هذه المجموعة من اللغات بالاصوات الحلقية كالعين والحاء
والهاء والاصوات المضخمة ، كالصاد والطاء •

٣ - يرجع معظم المفردات اللغوية الى اصل او جذر ثلاثي ، وهناك
بعض المفردات ذات اصول ثنائية ، ومن هذا الجذر البسيط نشأت صيغا
وصورا مختلفة فيها معنى الاصل وزيادة وذلك بتحويل حركات الاصل
البسيط او باضافة زيادات الى اوله او وسطه او آخره •

٤ - ما يميز الفعل في هذه اللغات انه محدود الزمن فالاصل في الزمن
هو كمال الحدث في الماضي وعدم تمام الحدث في الحاضر بالنسبة للمتکلم •
وقد يستخدم الزمن الحاضر للمستقبل بعد اضافة ادوات خاصة بذلك •

٥ - ليس في هذه اللغات الا جنسان هما المذكر والمؤنث •

٦ - هناك ظاهرة غريبة هي علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة
الى العشرة اي ان العدد يذكر مع المعدود المؤنث ويؤنث مع المذكر •

٧ - تتشابه هذه اللغات بوجه العموم بالاساليب النحوية ومن ذلك
تصريف الافعال وميزانها واشتقاقها وتتشابه في مفردات اللغة الاساسية •

ومع هذه الخصائص المشتركة بين افراد عائلة اللغات الجزرية « اللغات العربية القديمة » هناك اختلافات فرعية املتها ظروف كل لغة من هذه اللغات والتأثيرات التي تعرضت لها والحياة التي عاشتها ، وقد تمكن الباحثون من وضع قواعد عامة تبين هذه الاختلافات ولا سيما فيما يختص بتغير بعض الاصوات الصامتة في لغة دون غيرها كما سيتبين ذلك من مقارنة المفردات اللغوية الاكدية مع المفردات العربية .

ج - تاريخ اللغة الاكدية

تشير الدلائل الاثرية والنصوص المسماية الى ان الاقوام الاكدية كانت قد سكنت القسم الوسطي والجنوبي من العراق منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة وربما منذ اواخر عصور ما قبل التاريخ ، غير انها لم تتمكن من السيطرة على زمام الحكم والسلطة السياسية حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد . ومن هذه الدلائل ان اسماء العديد من حكام وملوك المدن السومرية في عصور فجر السلالات (من حدود ٣٠٠٠ الى قيام الدولة الاكدية في ٢٣٧٠ ق م) وردت بصياغة اكدية فمثلا نجد ان نصف اسماء حكام سلالة كيش الاولى ، وهي اول سلالة حكمت بعد الطوفان حسبما جاء في جداول الملوك السومريين ، هي اسماء اكدية كما اتنا نجد في المدونات السومرية من عصور فجر السلالات العديد من المفردات الاكدية الدخيلة في اللغة السومرية وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على وجود الاقوام الاكدية واستخدامها للغة الاكدية الى درجة اثرت في اللغة السومرية السائدة ، وفي اواخر عصور فجر السلالات وقبيل قيام الدولة الاكدية ، وصلت اللغة الاكدية من الاهمية الى درجة ان الملك السومري الشهير لوكال زاكيزي دوّن نصا على تمثاله الخاص باللغة الاكدية . ومنذ قيام الدولة الاكدية ، دخلت اللغة الاكدية طورا جديدا حيث بدأ استخدامها في تدوين النصوص التاريخية

والمعاملات اليومية وغدت لغة الدولة الرسمية الى جانب اللغة السومرية ثم اخذت تحل محل اللغة السومرية شيئاً فشيئاً غير انها لم تقض عليها بل ظلت اللغة السومرية مستخدمة في النصوص الادبية والعلمية والدينية الى اواخر ادوار الحضارة العراقية القديمة كما سبق واشرنا الى ذلك .

وكان الاحتكاك بين اللغتين السومرية والاكديّة ، وكلتاهما تحتل مكانة واهمية في نفوس العراقيين القدماء ، شديداً وأفرز نتائج غاية في الهمية . فالى جانب تأثير كل من هاتين اللغتين بالآخرى تأثيراً واضحاً من حيث استخدام المفردات والمصطلحات الفنية والقانونية ومن حيث اساليب التعبير بل وحتى القواعد النحوية ، فقد كان لهذا الصراع اثره في تخفيف الكتابة الذين استخدموا اللغة السومرية او اللغة الاكديّة على حد سواء او الكتابة الذين عكفوا على استنساخ النصوص القديمة الى تأليف قوائم او جداول لتعليم المبتدئين العلامات المسمارية المختلفة وقيمها الصوتية ومعانيها الرمزية في كل من اللغتين السومرية والاكديّة . وكانت تلك القوائم والجداول التي تطورت فيما بعد لتسجيل مفردات لغوية سومرية والى جانبها معانيها باللغة الاكديّة او مصطلحات لغوية فنية او قانونية او جمل وعبارات سومرية والى جانبها معانيها باللغة الاكديّة اولى المحاولات في تأليف المعاجم اللغوية . وقد افادت هذه المحاولات الباحثين المحدثين كثيراً في فهم ومعرفة ما غمض عليهم من مفردات اللغة السومرية او الاكديّة .

وعلى رغم من سقوط الدولة الاكديّة وسيطرة الاقوام الكوتية الغازية على بلاد اكد وتسلمها زمام الحكم لفترة تزيد عن مائة سنة ، الا ان اللغة الاكديّة ظلت اللغة المستخدمة الى جانب اللغة السومرية في المعاملات الرسمية والخاصة . ولم يؤثر على اللغة الاكديّة غزو الاقوام الكوتية التي لا بد ان تكلمت لغة اجنبية غريبة في بداية امرها الا انها ما لبثت أن استخدمت اللغة الاكديّة حتى ان اسماء العديد من الملوك الكوتيين جاءت بصيغ اكدية ، بل

ان المعلومات المتوفرة لدينا لا تشير الى ان الكوتيين الغزاة قد استخدموا لغتهم الخاصة في بلاد اكد على الاطلاق وهذا يشير دون شك الى قوة اللغة الاكدية ورسوخها وتغلغلها في النفوس . وقد تكررت هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة غلبة اللغة الاكدية على لغة الاقوام الغازية ، في فترة الاحتلال الكشي لبلاد بابل لفترة طويلة وبقاء اللغة الاكدية اللغة الرسمية الخاصة في جميع ارجاء بلاد بابل بل وابتعاثها .

وتشير الرقم الطينية التي ترقى بتاريخها الى عهد سلالة اور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق م) التي قامت في اعقاب طرد الاقوام الكوتية من بلاد اكد ، الى ابتعاث اللغة السومرية على حساب اللغة الاكدية نظرا لان حكام سلالة اور الثالثة كانوا من الاقوام السومرية فدونت لذلك معظم نصوصهم الملكية باللغة السومرية . ومع ذلك ظلت اللغة الاكدية تحتفظ بمكانة بارزة الى درجة ان ثلاثة من حكام هذه السلالة السومريين كانوا يحملون اسماء ذات صيغ اكدية .

وبتدقق الاقوام الامورية نحو بلاد بابل ، وهي من الاقوام الجزرية القديمة التي قدمت بلاد بابل سالكة الطريق المحاذي لنهر الفرات ، اتسع نطاق استخدام اللغة الاكدية حيث ان هذه الاقوام التي انتشرت في العراق في اعقاب سقوط سلالة اور الثالثة واسست لها عددا من الدويلات والممالك المهمة التي انضمت اخيرا تحت حكم سلالة بابل الاولى في عهد ملكها الشهير حمورابي ، لم تستخدم لغتها الامورية التي تنتمي هي الاخرى الى عائلة اللغات العربية القديمة ، بل استخدمت اللغة الاكدية بلهجتها البابلية القديمة في جميع المكاتبات والمعاملات الرسمية والشخصية وان معلوماتنا عن اللغة الامورية مستمدة من بعض المفردات والمصطلحات والصيغ اللغوية التي دخلت اللهجة البابلية القديمة ، ولا سيما في منطقة مملكة مارى على نهر الفرات ، ومن تحليل اسماء بعض الاشخاص ذات الصيغ الامورية ، وهي

كثيرة في النصوص المكتشفة في مدينة مارى ، ومن اللهجات الامورية الاخرى التي انتشرت في سوريا •

وكما كانت عليه الحال ابان الغزو الكوتي لبلاد اكد ، ظلت اللغة الاكدية اللغة الرسمية المستخدمة ابان الغزو الكشّي لبلاد بابل في اعقاب سقوط سلالة بابل الاولى • اضافة الى ذلك ، فقد شاع استخدام اللغة الاكدية خلال حكم السلالة الكشّية ، الذي استمر اكثر من اربعة قرون ، وتجاوز حدود بلاد بابل واشور ووصل الى وادي النيل ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد •

وفي بلاد اشور ، استخدمت اللغة الاكدية منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة لدينا من خلال النصوص المدونة وقد تميزت اللهجات التي انتشرت في بلاد اشور بخصائص معينة دفعت بعض الباحثين الى عدّها لغة مستقلة عن مجموعة اللهجات البابلية • وكانت اللهجات الاشورية ، ولا سيما اللهجة الاشورية الحديثة ، اولى اللهجات الاكدية التي عرفت في العصر الحديث حتى غلب اسم الاشوريين ولهجاتهم على اللغة الاكدية في معظم الكتب والبحوث القديمة نسبيا •

وظلت اللغة الاكدية بلهجتها البابلية الحديثة والمتأخرة (الكلدية) ، تستخدم في عهد الدولة البابلية الحديثة (٦٢٦ - ٥٣٩ ق م) غير انه بدأ تأثير اللغة الارامية يزداد شيئاً فشيئاً الى ان وصل انتشار استخدام اللغة الارامية في بلاد بابل واشور ان قضي على اللغة الاكدية وتلاشى استخدامها وحلت محلها اللغة الارامية بخطها الابجدي البسيط مقارنة مع الكتابة المسماة المعقدة •

وعلى الرغم من وقوع بلاد بابل واشور لفترة طويلة من الزمن تحت الحكم الاجنبي الفارسي الاخميني ثم المقدوني والسلوقي فالعراقي فالعراقي ،

واتنتشار اللغة الفارسية في فترة الاحتلال الفارسي واليونانية في فترة الاحتلال السلوقي ولا سيما في اوساط الطبقة الحاكمة والمتنفذة ، الا ان اللغة الاكدية ظلت تستخدم ولكن في نطاق محدود حيث استخدمت في تدوين بعض النصوص الدينية والعلمية والفلكية والرياضية ، وظلت كذلك حتى اواخر القرن الاول الميلادي حيث بطل استخدامها واستخدام الكتابة المسمارية نهائيا ودخلت طبي النسيان لمئات من السنين الى ان تم الكشف عنها ثانية في العصر الحاضر .

د - انتشار اللغة الاكدية

لم يقتصر استخدام اللغة الاكدية على حدود بلاد بابل واشور بل تعداهما الى عدد من البلدان والاقاليم المجاورة والبعيدة . فقد اثبتت التحريات الاثرية التي اجريت في المواقع القديمة في كل من بلاد عيلام واسيا الصغرى وسوريا ومصر ان اللغة الاكدية بخطها المسماري كانت معروفة في هذه البلدان في فترات معينة من تاريخها القديم .

ففي بلاد عيلام ، انتشر استخدام اللغة الاكدية والخط المسماري منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ولا سيما ابان السيطرة الاكدية على بلاد عيلام نفسها حتى ان جميع النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام والتي تمت قراءتها حتى الان مدونة باللغة الاكدية مما يشير الى مدى انتشار استخدام هذه اللغة في بلاد عيلام كما يشير في الوقت نفسه الى تواجد الاقوام الاكدية في بلاد عيلام بحيث غلب استخدام لغتهم الاكدية الخاصة على اللغة العيلامية المحلية .

وفي منطقة كبدوكيا في اسيا الصغرى ، تم العثور على مئات من النصوص المسمارية المدونة باللغة الاكدية بلهجتها الاشورية القديمة وتشير هذه النصوص الى ان عددا من المراكز او المستوطنات الاشورية القديمة كانت

قد تأسست في كبدوكيا في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وكانت من بين تلك المراكز مدينة كانش (كول تبة حاليا) • وقد استخدم التجار الاشوريون في هذه المراكز لغتهم الاكدية وخطهم المسماري ولا بد أن اثر هؤلاء التجار في السكان المحليين كما يظهر جليا في اقتباس الخط المسماري ، بعد تحويله ، من قبل الحثيين الذين جاءوا المنطقة فيما بعد •

كما استخدمت اللغة الاكدية في عدد من المدن والممالك السورية القديمة ولاسيما في تدوين المعاهدات والاتفاقيات التي كانت تبرم مع الدولة الاشورية كما استخدمت في المكاتبات الرسمية مع فراعنة مصر •

وتعد الرسائل الملكية المكتشفة في موقع العمارة (عاصمة الملك المصري اخناتون) اروع الامثلة على مدى انتشار استخدام اللغة الاكدية وخطها المسماري في بلدان الشرق الادنى القديم • فقد دونت هذه الرسائل التي كان قد بعث بها ملوك الممالك السورية والدولة الحثية والدولة الكشية الى اخناتون فرعون مصر بالخط المسماري العراقي واللغة الاكدية مع العلم ان اللغة الاكدية لم تكن لغة رسمية لا في مصر ولا في الدويلات والممالك السورية وان مجرد استخدامها في المكاتبات الرسمية التي كانت تتم بين حكام وملوك الشرق الادنى القديم في اواسط الالف الثاني قبل الميلاد دليل قاطع على ان اللغة الاكدية كانت قد احتلت مركزا مرموقا وبارزا بين لغات الشرق الادنى القديم على الرغم من عدم وجود دولة قوية آتخذ لا في بلاد بابل ولا في بلاد اشور تتمكن من فرض استخدامها في البلدان والاقاليم التابعة لنفوذها • اي ان اللغة الاكدية بخطها المسماري كانت في تلك الفترة اشبه باللغة الدبلوماسية التي يتفاهم بها الحكام والملوك الذين يتكلمون لغات مختلفة ويستخدمون اقلمة كتابية مختلفة ايضا •

اللهجات الاكديّة

قد لا يعبر مصطلح « اللهجات الاكديّة » تعبيراً دقيقاً عما يقصد به في هذا المجال . فما يقصد باللهجة عادة لسان فريق من الناس مراعى فيه قيود صوتية خاصة تلاحظ عند الاداء ، كتدقيق الحرف او تفخيمه ، همزه او تليينه ، سرعته او ابطائه ، امالته او عدم امالته . في حين يقصد باللغة الالفاظ الموضوعية لتمييز المعاني الموضوعية لها اكمل تمييز . لذا فان اكثر ما تظهر فيه اللهجة وتلمس في افواه الناطقين بها والسنة المتكلمين وهذا ما لا يتوفر لدينا بالنسبة الى اللغة الاكديّة ولهجاتها المختلفة التي نعرفها من خلال نصوصها المدونة فحسب .

ومع ذلك ، فقد استخدمنا مصطلح « اللهجات الاكديّة » للدلالة على اللغات التي تعرفنا عليها من خلال النصوص المدونة وميزنا بين لغة النصوص بالنسبة الى المناطق التي انتشرت فيها والفترات الزمنية التي استخدمت خلالها وكذلك بالنسبة الى بعض الخصائص والمميزات التي ظهرت على لغة النصوص بتأثير الظروف الخاصة التي تعرضت لها اللغة في هذه المنطقة او تلك وفي فترة زمنية محددة . وقد تكون لغة النصوص المعروفة لدينا مختلفة تمام الاختلاف عما كان سائداً على السنة المتكلمين غير انه لا سبيل الى معرفة اللهجات المحلية الا من خلال ما تعكسه من تأثيرات على لغة النصوص .

ومن المعروف ان اللغة الاكديّة تعرضت خلال تاريخها الطويل المزدحم بالاحداث الجسام والتقلبات الكثيرة الى العديد من المؤثرات الداخلية والخارجية كما انها خاضت صراعا عنيفا مع عدد من اللغات المحلية ، كاللغة السومرية ، واللغات الاجنبية ، كلغة الاقوام الكشية والخورية والفارسية واليونانية والارامية وغيرها . ومن البديهي ان تأثرت اللغة الاكديّة بهذه المؤثرات وكانت نسبة التأثير ونوعه تختلف من منطقة الى اخرى ومن فترة زمنية الى اخرى . ولم يقتصر هذا التأثير على دخول مفردات لغوية جديدة

الى اللغة الاكدية ولكن تعداه الى الاساليب النحوية واساليب نطق بعض الاصوات والحركات ونسبة المحافظة على القواعد النحوية وشيوع او بطلان استخدام او اتباع اساليب وقواعد معينة وغير ذلك من التأثيرات •

وكان من نتائج ذلك ان امكن تمييز عدد من اللهجات الاكدية المختلفة عن بعضها البعض في صيغتها المدونة ويبقى البعض الاخر خافيا علينا اما لان بعض اللهجات لم تأخذ طريقها للتدوين اصلا او انها لم تؤثر على لغة التدوين أو لان يد التنقيب والكشف لم تصل بعد الى النصوص التي تشير اليها وتعرفنا بها وفيما يلي تعريف موجز باللهجات الرئيسة التي ميزها الباحثون استنادا الى زمان ومكان انتشار استخدامهما ، كما يستدل على ذلك من النصوص المسمارية المكتشفة وقد تضاف اليها لهجات اخرى في المستقبل اذا ما اظهرت نتائج التنقيب خصوصا جديدة تحمل سمات خاصة بها •

اولا - اللهجة الاكدية القديمة :

وهي اقدم اللهجات الاكدية المدونة ، وغنها تفرعت جميع اللهجات الاخرى في الفترات الزمنية التالية ، استخدمت اللهجة الاكدية من قبل الاقوام الاكدية نفسها منذ قدومها العراق حتى نهاية سلالة اور الثالثة في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد • ويمكن التمييز بين لهجة نصوص ما قبل العصر السرجوني ولهجة النصوص التي ترقى بتاريخها الى الفترة التالية من ذلك حتى نهاية سلالة أور الثالثة •

وتظهر على هذه اللهجة التأثيرات السومرية بشكل واضح جدا بل ان النصوص الاكدية من هذه الفترة الزمنية مليئة بالمفردات والمصطلحات السومرية •

ومنذ اواخر عهد سلالة اور الثالثة ، تبدأ علامات الافتراق عن اللهجات التي استخدمت في القسم الوسطي والجنوبي من العراق أي في بلاد بابل

واللهجات التي استخدمت في القسم الشمالي من العراق ، اي بلاد اشور ، بالظهور . وقد عرفت المجموعة الاولى من اللهجات باللهجات البابلية في حين اطلق على المجموعة الثانية اسم اللهجات الاشورية .

ثانيا - اللهجات البابلية Babylonian Dialects

١ - البابلية القديمة Old Babylonian

وهي لهجة بلاد بابل خلال العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م) وهي الفترة التي تميزت بتدفق الاقوام الامورية وسيطرتها على الحكم في العراق وتأسيسها عدد من الدويلات والممالك التي انتهت بتوحيدها في دولة واحدة على رأسها الملك حمورابي . لذلك كانت لهجة هذه الفترة متأثرة باللهجة الامورية التي لم تستخدم للتدوين . وقد كشفت التنقيبات الاثرية عن عشرات الالوف من النصوص المسامرية الاكادية المعروفة باللهجة البابلية القديمة منها ما هو غاية في الاهمية ، كقوانين حمورابي وقانون اشنونا ، وبعض النصوص القانونية والادبية والدينية والاقتصادية والرياضية .

ونظرا لوفرة نصوص هذه الفترة وتوزعها على عدد كبير من المدن والمناطق ، يمكن تمييز عدد من اللهجات المحلية ضمنها تلك النصوص . فهناك لهجة المنطقة الجنوبية الموثقة بنصوص مكتشفة في مدينة لارسا ولهجة مملكة مارى على نهر الفرات التي تظهر عليها تأثيرات اللهجة الامورية بشكل واضح ولاسيما في اسماء الاعلام ، ولهجة نصوص بلاد عيلام ولهجة منطقة دىالى التي تأسست فيها مملكة اشنونا وغيرها .

ومن الجدير بالاشارة ان العلماء المختصين يعدون اللهجة البابلية القديمة بمثابة اللهجة الاكادية الكلاسيكية نظرا لمحافظةها على معظم الصيغ

والاشكال النحوية الصحيحة ومنها محافظتها على حركات الاعراب والتسيم وبعض الصيغ النحوية التي توقفت استخدامها فيما بعد .

٢ - البابلية الوسيطة Middle Babylonian

اطلق الباحثون على لهجة بلاد بابل خلال فترة حكم السلالة الكشية (القرن السادس عشر وحتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد) اسم اللهجة البابلية الوسيطة وقد تضاءل في اواخر هذه الفترة استخدام حركات الاعراب وطرات عليها بعض التغيرات الجديدة نتيجة استخدامها من قبل الاقوام الكشية الغريبة .

وقد نشطت حركة التأليف والاستنساخ في هذه الفترة ووصل اليها العديد من النصوص الادبية الرائعة المستنسخة عن نصوص اقدم مثل ملحمة جلجامش وقصة الطوفان المعنونة « اتراحاسيس » وقصة ايوب البابلي الى جانب النصوص الطبية والفلكية والكتابات الخاصة بالتنجيم وطائفة من الاثبات او المعاجم يتضمن بعضها بعض المفردات الكشية وما يقابلها باللغة الاكدية .

٣ - البابلية الحديثة New Babylonian

تتمثل اللهجة البابلية الحديثة بالنصوص الاكدية التي ترقى بتاريخها الى الفترة بين ١٠٠٠ ق م حتى سقوط الدولة الاشورية في حدود ٦٠٠ ق م . والمكتشفة في بلاد بابل وتحمل هذه النصوص تأثيرات ارامية واضحة وتتميز بفقدان حركات الاعراب .

٤ - البابلية المتأخرة Late Babylonian

وهي اللهجة التي استخدمت في بلاد بابل خلال العصر البابلي الحديث (٦٢٦ - ٥٣٩ ق م) وحتى زوال استخدام اللغة الاكدية في بلاد بابل واشور في حدود التاريخ الميلادي .

وفي هذه الفترة كانت اللغة الارامية اخذة بالانتشار كما كان حال الخط
'الارامي' الابجدي ذي الرموز القليلة والبسيطة مقارنة مع العلامات المسبارية
الكثيرة والمعقدة وعلى الرغم من محاولات كهنة بلاد بابل الياسة في المحافظة
على اللهجة البابلية وتقليد الاساليب القديمة الا ان اللغة الاكدية كانت في
طريقها للزوال . وقد استخدم الكهنة في محاولاتهم هذه صيغا وأساليب لم
تكن تستخدم في لغة التخاطب اطلاقا .

ثالثا - اللهجات الاشورية Assyrian Dialects

انتشر استخدام اللغة الاكدية في بلاد اشور منذ الالف الثالث قبل
الميلاد ، غير انها تميزت ببعض الخصائص التي اكتسبتها في بلاد اشور نتيجة
تعرضها لمؤثرات داخلية وخارجية تختلف عن تلك التي تعرضت لها في بلاد
بابل . ويميز الباحثون ثلاث لهجات اشورية رئيسة استخدمت في بلاد اشور
في ثلاث مراحل زمنية متتابعة هي :

١ - الاشورية القديمة Old Assyrian

وتمثل هذه اللهجة بنصوص الفترة ٢٠٠٠ - ١٧٥٠ ق . م وعدد هذه
النصوص قليل ومعظمها نصوص ملكية اكتشفت في بلاد اشور الاصلية
اضافة الى الرسائل والوثائق الرسمية الكثيرة المكتشفة في المراكز التجارية
الاشورية في منطقة كبدوكيا في آسيا الصغرى . وبديهي ان هناك بعض
الاختلافات بين لهجة النصوص المكتشفة في بلاد اشور نفسها وتلك المكتشفة
في منطقة كبدوكيا .

٢ - الاشورية الوسيطة Middle Assyrian

وتمثلها النصوص الاكدية التي تعود الى النصف الثاني من الالف
الثاني قبل الميلاد . ومن اهم هذه النصوص القوانين الاشورية الوسيطة
المكتشفة في مدينة اشور والعديد من النصوص القانونية الاخرى وبعض

الرسائل والنصوص الادبية والملكية ومعظم النصوص الادبية والملكية تحمل تأثيرات بابلية .

٣ - الآشورية الحديثة New Assyrian

لقد وصل الينا اعداد كبيرة جدا من النصوص المدونة باللهجة الاشورية الحديثة منها ما هو غاية في الاهمية التاريخية ، كالمراسلات الملكية والمعاهدات والاتفاقات والرسائل الشخصية المكتشفة في العواصم الاشورية ولا سيما مدينة نينوى والنمرود ومنها الوثائق الاقتصادية والقانونية وفي اواخر هذه الفترة تظهر على اللهجة تأثيرات ارامية قوية جدا .

وهناك لهجة اكديّة اخرى استخدمت في الفترة بين (١٤٠٠ - ٦٠٠ ق م) لتدوين النصوص الادبية والحواليات الملكية في كل من بلاد بابل واشور ولم تكن لغة هذه النصوص تستخدم للتخاطب بل اقتصر استخدامها على التدوين فقط . لذلك حوت بعض الاساليب والصيغ النحوية التي لا تستخدم في اللغة الاكديّة الاعتيادية اطلاقا .

ومع الاختلافات الموجودة بين اللهجات الاكديّة البابلية والاشورية ، الا انه من اليسير على الباحث المتخصص في احدى اللهجات ان يقرأ نصوصا مدونة بلهجة اكديّة اخرى ان هوالم الماما بسيطا بخصائص تلك اللهجة . فالتباين الموجود بين اللهجات الاكديّة هو بالتأكيد اقل من التباين الموجود بين اللهجات العربية نظرا لان المساحة التي انتشرت فيها اللهجات العربية هي اوسع بكثير من المساحة التي انتشرت فيها اللهجات الاكديّة الرئيسيّة وان لذلك اثره في زيادة او نقصان اوجه الاختلاف بين لهجات اللغة الواحدة .

و - تدوين اللغة الاكدية

(١) الكتابة المسمارية واللغة الاكدية

من المعروف ان للنظام الكتابي المستخدم في تدوين اللغة ، اية لغة ، اثرا كبيرا على دقة التعبير عن اصوات تلك اللغة واسلوب نقل الفاظها الى الغير ، فالنظام الكتابي المستخدم لتدوين اللغة مهما بدا صادق التعبير ودقيق النقل فانه عاجز عن نقل اصوات اللغة المحلية نقلا دقيقا كاملا وان ظن الكاتب والقاريء ذلك . فمحاولات الكاتب والقاريء المستمرة لمطابقة الرموز المستخدمة في الكتابة مع الالفاظ والاصوات المحلية تدخل الشعور في النفس بان هذه الرموز تمثل في الواقع اللغة المحلية تمثيلا دقيقا في حين ان تمرير هذه الرموز ببعض الاختبارات يشير الى غير ذلك . فمثلا ، اذا ما استخدمت كتابة ما لتدوين اللهجات المحلية ، ولاسيما تلك اللهجات التي لم يسبق تدوينها والتعارف على اسلوب كتابتها وقراءتها ، لتبين بان الكتابة غير قادرة في احيان كثيرة على نقل اصوات اللهجة وسيصعب على القاريء قراءة مادون من الفاظها ان لم يكن ملما اماما كاملا باسلوب نطق تلك اللهجة ، فاذا ما استخدم الحرف العربي مثلا ، المعروف بكثرة رموزه وملاءمته لنقل اصوات اللغة العربية ، والذي وجد اصلا لتدوينها ، لتدوين بعض اللهجات المحلية التي لم يسبق تدوينها ، كاللهجة البدوية او الموصلية لتبين بوضوح عجزه عن التعبير عن كثير من الاصوات والالفاظ بشكل دقيق على الرغم من ان هذه الاصوات والالفاظ لا تختلف كثيرا عن اصوات والفاظ اللغة العربية الفصحى او اللهجات العربية الاخرى التي سبق تدوينها ، كاللهجة البغدادية او المصرية ، والتي تعارف الناس على اسلوب قراءتها واعتادوا على طريقة نقل اصواتها للغير .

اما اذا كانت الكتابة المستخدمة لنقل اصوات والفاظ اللغة العربية هي كتابة وجدت اصلا لتدوين لغة اخرى تختلف عن اللغة المراد تدوينها ،

كما هي الحال عندما ندون اللغة التركية مثلا بالحرف العربي او عندما دون الاكديون والبابليون والاشوريون لغتهم الاكدية بواسطة الكتابة المسمارية التي وجدت اصلا لتدوين اللغة السومرية ، فإن نسبة الدقة في التعبير عن اصوات تلك اللغات تقل كثيرا .

فقد جاءت علامات الكتابة المسمارية الصورية والرمزية ومقاطعها الصوتية مطابقة لما كان موجودا في اللغة السومرية من مفردات الى درجة كبيرة ومعبرا عن الاصوات التي احتوتها اللغة السومرية نفسها . لذا كانت الكتابة المسمارية ملائمة لنقل اصواتها ومعبرة عن الفاظها ، اما في حالة استخدام الكتابة المسمارية لتدوين اللغة الاكدية ، وهي لغة تختلف تمام الاختلاف عن اللغة السومرية باصواتها ولفظها ومفرداتها واسلوب نطقها ، فان دقة التعبير تقل كثيرا . واللغة السومرية تكاد تخلو من الاصوات الحلقية والاصوات المشددة أو المضخمة . لذا جاءت العلامات المسمارية خالية من العلامات المعبرة عن هذه الاصوات . وعندما اراد الاكديون تدوين لغتهم بواسطة الكتابة المسمارية واجهوا صعوبات جمة في التعبير عن اصوات والفاظ لغتهم حيث ان اللغة الاكدية على العكس من اللغة السومرية تزخر بالاصوات الحلقية والمشددة شأنها في ذلك شأن بقية افراد عائلة اللغات العربية القديمة التي تنتمي اليها ، كاللغة الارامية واللغة العربية . ولنا ان نفترض ان اللغة الاكدية بصيغتها التي نطق بها الاكديون كانت تضم الاصوات التي يرمز لها عادة بالرموز حوع وغوت وطوص وضوظوثوذ اسوة ببقية اللغات العربية القديمة ولاسيما اللغة العربية . وحيث ان الكتابة المسمارية لا تضم علامات تعبر عن هذه الاصوات ، فقد أضطر الكتبة للتعويض عن هذا النقص اما باستخدام علامات ذات مقاطع صوتية قريبة من حيث النطق الى تلك الاصوات الاكدية او انهم خصصوا بعض العلامات المسمارية للتعبير عنها وتعارفوا على ذلك أو انهم استحدثوا علامات جديدة لسد النقص

الموجود في الكتابة المسمارية وتشير النصوص المسمارية الاكديّة الى انهم فعلوا ذلك جميعا فاستخدموا المقاطع الصوتية التي تضم صوت ت او د للتعبير عن صوت ط الاكدي ، كما استخدموا العلامات الخاصة بحروف العلة للإشارة الى بعض الاصوات الحلقية القريبة منها من حيث النطق وخصصوا بعض المقاطع الصوتية لتدوين الاصوات الحلقية والمشددة . وكان من نتائج استخدام الكتابة المسمارية في تدوين اللغة الاكديّة ان فقدت اللغة الاكديّة تدريجيا بعض خصائصها الصوتية في صيغتها المدونة على اقل تقدير ، وابتعدت عن بقية افراد عائلتها التي استخدمت نظما كتابية اكثر ملائمة للتعبير عن اصواتها .

وقد يتساءل المرء عن كيفية قراءة النصوص الاكديّة من قبل الاكديين انفسهم وهل انهم تجاوزوا النقص الموجود في الكتابة المسمارية ولفظوا المفردات الاكديّة بأسلوب اللفظ الاكدي الاصيل وبغض النظر عما عبرت عنه العلامات المسمارية ام انهم غيروا في اسلوب لفظهم ونطقهم المفردات الاكديّة المدونة ؟ اي هل انهم لفظوا ونطقوا الاصوات الحلقية والمشددة ام انهم خففوا تلك الاصوات وقرأوها كما يقرأ الاوربي لغتنا العربية المدونة بالخط اللاتيني ؟ ان الاجابة على هذه التساؤلات ليست بالأمر الهين ويبدو لنا ان الاكديين حافظوا على اسلوب لفظ لغتهم الاكديّة الى درجة كبيرة ، في الفترات المبكرة من تدوينها على اقل تقدير ، وتجاوزوا النقص الموجود في العلامات المسمارية لاسيما ان الكتابة لم تكن منتشرة انتشارا واسعا بين الاقوام الاكديّة لتؤثر تأثيرا واضحا على اسلوب نطق اللفاظ وتغير منها مما جعل تأثير الكتابة على الاسلوب الكتابي فحسب .

الى جانب هذه التأثيرات السلبية التي افرزتها الكتابة المسمارية على اللغة الاكديّة فان لهذه الكتابة تأثيرات ايجابية غاية في الاهمية حيث انها

تميزت عن غيرها من الكتابات التي استخدمت لتدوين اللغات العريسة القديمة (السامية) بانها تعبر دائما عن الحركات في الكتابة ، وذلك لانها كتابة مقطعية وليست ابجدية ، وان كانت لاتفرق كثيرا بين الحركات الطويلة والقصيرة . وقد افادت هذه الميزة كثيرا في دراسة قواعد اللغة الاكدية وفهم نصوصها فهما دقيقا .

(ب) الحرف العربي واللغة الاكدية

وهكذا اخذ الاكديون الكتابة المسمارية ودونوا بواسطتها لغتهم الاكدية منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد فكانت اللغة الاكدية بذلك اولى اللغات العربية القديمة التي وجدت طريقها الى التدوين والحفظ ، فقد كان لطبيعة المواد التي استخدمت للكتابة المسمارية ، وهي الطين والحجر بالدرجة الرئيسة ، اكبر الاثر في الحفاظ على النصوص الاكدية لآلاف من السنين بصيغتها وشكلها الاصلي دون ان تتعرض للمؤثرات الخارجية خلافا لما قاسته نصوص بعض اللغات الاخرى التي دوت على مواد سريعة التلف ، كورق البردي والرق والقرطاس ، والتي تعرضت اما للفقدان والتلف الكامل او للاستنساخ تلو الاستنساخ وما قد يطرأ عليها نتيجة ذلك .

وظلت اللغة الاكدية تدون بواسطة الكتابة المسمارية حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد ثم بطل استخدامها واستخدام الكتابة المسمارية وغابت في بطون التلال والمواقع الاثرية لمئات من السنين ولم يعد يعرف عنها وعن المتكلمين بها شيء يذكر . ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي ، بدأت محاولات العلماء الاوربيين في حل رموز الكتابة المسمارية ومن خلالها التعرف على اللغات التي دوت بواسطتها وكافت في مقدمتها اللغة الاكدية ، وبعد أن حلت رموز الكتابة المسمارية في اواسط القرن التالي وعرفت اللغة

الأكادية كان على العلماء ان يجدوا طريقة مناسبة لنقل محتواها الى القاريء المعاصر بديلا عن الكتابة المسمارية المعقدة التي لا يعرف علاماتها الا عدد قليل من العلماء المتخصصين . فكان طبيعيا ان يستخدم العلماء الاورييون الحرف اللاتيني لنقل اصوات اللغة الاكادية الى القاريء المعاصر على الرغم من عدم ملائمة هذا الحرف لنقل اصوات اللغة الاكادية . فاللغة الاكادية شبيهة باللغة العربية وفيها العديد من الاصوات الحلقية والمشددة وغيرها من الاصوات التي لاوجود لها في اللغات الاوربية وقد قاسى الاكديون انفسهم من مشكلة نقل تلك الاصوات بواسطة الكتابة المسمارية التي وجدت اصلا لتدوين اللغة السومرية ، كما ألمحنا الى ذلك ، وتضاعفت المشكلة وزادت تعقيدا في العصر الحاضر عندما بدأ الاورييون بنقل اصوات اللغة الاكادية التي وصلتنا من خلال النصوص المسمارية الى الحرف اللاتيني الذي يخلو هو الاخر من الرموز التي تعبر عن البقية من الاصوات الاكادية القريبة من اللغات الاخرى وقد اضطر الاورييون الى ابتداع رموز واشارات جديدة اضيفت الى الحرف اللاتيني لكي يمكن بواسطتها التعبير عن بعض تلك الاصوات . ومن الرموز والاشارات المضافة ومايقابلها بالحرف العربي الرموز التالية :

q ' K =	ق
' =	ع
, =	د
h =	خ
s =	ص
š. =	ش
t =	ط

اما اذا اريد بيان اصول وجذور المفردات الاكدية وما يقابلها في اللغة العربية او غيرها من اللغات العربية القديمة فلابعد من استخدام الرموز التالية للإشارة الى الاصوات التي اختفت من اللغة الاكدية نتيجة استخدام الكتابة المسمارية :

t =	ث
t ' z =	ظ
h =	ح
g ' g =	غ
d =	ذ
d ^h =	ض

وبهذه الطريقة ، استطاع الاوربيون نقل اصوات اللغة الاكدية الى القراء المعاصرين وغدت الطريقة التي ابتدعوها بما فيها من رموز تعارفوا على استخدامها هي الطريقة الوحيدة والشائعة لنقل اللغة الاكدية حتى بين العلماء والمتخصصين العرب وغدت النصوص الاكدية المنقولة بواسطة الحرف اللاتيني برموزه واشاراته المستخدمة الكثيرة نصوصا تبدو غريبة على كثير من القراء باستثناء المتخصصين في دراسة اللغة والكتابات الشرقية كما اثرت هذه الطريقة على اسلوب نطق وتلفظ الاصوات والالفاظ الاكدية التي حاول الكتبة القدماء نقلها اليها حيث ان الغربيين لا يحسنون نطق العديد من الاصوات الحلقية والمشددة .

وحيث ان اللغة الاكدية هي من اللغات العربية القديمة « الجزرية » التي تنتمي اليها لغتنا العربية وان الحرف العربي الابجدي هو اكثر الحروف ملاءمة لنقل اصوات هذه اللغات ، لذا فأن استخدامه لنقل اصوات اللغة الاكدية الى القاريء المعاصر سيقضي على العديد من المشاكل والصعوبات التي تواجه

الباحث عند نقله أصوات اللغة الاكديّة بواسطة الحرف اللاتيني وسوف لن يضطر الى ابتداء رموز واشارات جديدة تعبر عن الاصوات الحلقية والمشددة وغيرها من الاصوات التي لا توجد رموز لها في الحرف اللاتيني بل سيكون من اليسير على الباحث ان يعبر حتى عن الاصوات التي اهملت نتيجة استخدام الكتابة المسمارية في تدوين اللغة الاكديّة حيث ان الحرف العربي يضم معظم الاصوات التي يفترض انها كانت موجودة في اللغة الاكديّة وفي اللغة الجزرية (الأم) ومثال ذلك رموز الاصوات : ض ، ظ ، ث ، خ ، غ ، ذ . ولتوضيح ذلك نورد فيما يلي بعض المفردات الاكديّة مدونة بالحرف اللاتيني والحرف العربي من أجل المقارنة :

الكلمة الاكديّة بالحرف اللاتيني	المعنى	جذر الكلمة	الكلمة الاكديّة بالحرف العربي
ahū	أخ	أخ	أخ
ṭābu	طيب	طيب	طاب
ṭabāḥu	قتل (طَبَخ)	طبخ	طَبَاخ
šaṭāru	كَتَب ، سَطَّر	شطر	شَطَار
ṣalmu	اسود ، ظلام	صلم	صَلَم
qalû	يحرق ، يqli	قلي	قَلَو

اما بالنسبة للاصوات الاكديّة التي لا يوجد ما يعبر عنها بواسطة الحرف العربي فهي صوت الباء المخففة p والتي يقابلها في العربية صوت الفاء ، والكاف الثقيلة g التي يقابلها صوت الجيم وبالأمكان استخدام الباء والكاف الفارسية پ و گ للإشارة الى ذلك .

ان نقل اللغة الاكديّة الى القاريء المعاصر بواسطة الحرف العربي

سيوضح للقارئ بشكل جلي الترابط القوي بين اللغتين العربية والاكادية وبالتالي سيعمل على تحفيز المتخصصين باللغة العربية لدراسة اللغة الاكادية والافادة منها في فهم وتفسير ماغض فهمه وتفسيره من مفردات لغوية او تراكييب واساليب نحوية نظرا لان اللغة الاكادية هي اولى اللغات العربية القديمة المدونة . اضافة الى ذلك ، فان وضوح الترابط اللغوي بين الاكادية والعربية سيشجع على دراسة اللغة الاكادية وقراءة نصوصها ومقارنتها مع ما هو متوفر لدينا من تراث مدون باللغة العربية .

د - اللغة الاكادية واللغة العربية

ليس غريبا ان يلاحظ الباحث في قواعد اللغة الاكادية التشابه الكبير بين اللغة العربية واللغة الاكادية ، فكلتا اللغتين تنفرعان من اصل شجرة واحدة كان منبتها الاول في شبه الجزيرة العربية ، تلك هي شجرة اللغات الجزرية «العربية القديمة» ولقد امتدت اغصان تلك الشجرة لتغطي معظم انحاء الشرق الادنى القديم منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة حتى الآن .

ومع التشابه العام بين هذه اللغات ، فان هناك اختلافات كثيرة في التفاصيل املتتها الظروف التي تعرضت لها كل لغة من هذه اللغات في حياتها الطويلة بعد تفرعها عن الاصل وقد حاول الباحثون المتخصصون ان يضعوا تلك الاختلافات في حدود قواعد عامة مستنديين في ذلك على دراساتهم اللغوية المقارنة .

وبالنسبة الى اللغة الاكادية التي انتشرت في العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد وحتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد ، فان ارتباطها التاريخي والجغرافي مع اللغة العربية وثيق الى درجة كبيرة تستوجب منا الاهتمام بدراسة قواعدها دراسة مفصلة وعقد المقارنات بينها وبين اللغة

العربية للتعرف من خلال ذلك على اوجه التشابه بينهما ومدى ارتباطهما ببعضهما .

ولسنا هنا في مجال البحث في قواعد اللغة الاكدية ولكن يبدو من المفيد ان نشير الى بعض اوجه الشبه الرئيسة بين قواعد اللغتين الاكدية والعربية وبشكل موجز جدا .

فاذا اخذنا الاسم في اللغة الاكدية فان معناه يحدد ، كما في اللغة - العربية ، بالجنس والعدد وحالة الاعراب . فمن حيث الجنس يكون الاسم اما مذكرا او مؤثا وليس هناك جنس محايد كالذي نجده في اللغات الاوربية . وليس للاسم المذكر علامة خاصة به في حين تلحق معظم الاسماء المؤنثة تاء التأنيث التي تضاف الى جذع الاسم المذكر قبل حركة الاعراب تماما كما هي الحال في اللغة العربية . وقد يكون الاسم في حالة المفرد او المثنى او الجمع ، ويصاغ الاسم المثنى بزيادة الف ونون او ياء ونون اما الجمع فيصاغ اما بعد حركة الاعراب لتصبح واوا في حالة الرفع ، وياء في حالتي النصب والجر او باضافة الف ونون الى الاسم المفرد قبل حركة اعرابه . وبالنسبة الى جمع المؤنث فالقاعدة الاساسية في ذلك مشابهة لجمع المؤنث السالم في اللغة العربية حيث تتم باضافة الف وتاء الى جذع الاسم تلحقها حركة الاعراب المناسبة . وحركات الاعراب في الاسم ثلاث هي الضمة والفتحة والكسرة يلحقها التميم . ويقصد بالتميم الصوت الذي يعبر عنه حاليا بصوت الميم الذي يلحق الاسم والصفة في حالة المفرد وحالات جمع المؤنث وذلك بعد حركة مباشرة . وكان التميم يستخدم في العصور الاولى بشكل منتظم ولاسيما في العهد البابلي القديم ثم بدأ يتناقص استخدامه تدريجيا حتى تلاشى في العصور المتأخرة . وعلى الرغم من الشبه الكبير بينه وبين التنوين في العربية فان التميم هو غير التنوين .

وتتبع الصفة الاسم الموصوف من حيث التذكير والتأنيث وتتفق معه من حيث العدد وحالة الاعراب .

وفي اللغة الاكدية انواع عدة من الضمائر فهناك الضمائر الشخصية المنفصلة والضمائر الشخصية المتصلة بالاسم او الفعل . وقد يكون الضمير في حالة الرفع او النصب او الجر كالاسم تماما .

اما بالنسبة للفعل في اللغة الاكدية فينقسم من حيث قوة احرفه الى صحيح ومعتل ومن حيث اصله الى ثلاثي ورباعي ومن حيث معناه الى متعدد ولازم . وللفعل في اللغة الاكدية اربع صيغ رئيسة هي الصيغة البسيطة والصيغة المضغفة والصيغة السببية وصيغة المبني للمجهول ويمكن اشتقاق صيغ ثانوية من هذه الصيغ الاربعة باضافة المقطع تَ ta او تَن tan الى الفعل .

وللفعل في اللغة الاكدية اربعة ازمنة اضافة الى صيغة الامر هي الزمن المضارع (او الحال) والزمن الماضي والزمن التام والحالة المستمرة .
ويصرف الفعل باضافة الضمائر الشخصية المتصلة الى بدايته ونهايته في حالتي الماضي والمضارع وبذلك فان اللغة الاكدية تختلف عن بقية اللغات العربية القديمة ، ومنها اللغة العربية في تصريف الفعل الماضي حيث تلحق الضمائر باول الفعل الماضي .

اما بالنسبة للتشابه بين مفردات اللغة الاكدية واللغة العربية فكبير جدا . فاصول وجذور معظم الافعال والمفردات اللغوية واحدة وان اختلفت بعض اصوات اللغتين وفق قواعد لغوية معينة كتبدل الشين في الاكدية الى سين في العربية والضاد الى صاد والغين الى خاء والذال الى راء وسقوط اغلب الحروف الحلقية في اللغة الاكدية واحلال حروف العلة بدلا عنها ، كما يلاحظ تغير بسيط في المعنى العام للكلمة اما الاساس فهو واحد في كلتا اللغتين وفيما يلي بعض الامثلة على ذلك :

الكلمة العربية	الكلمة الآرامية	
أب	أَبْ	abu
أمة	أَمة	amtu
بيت	بَيت	bitu
قضى ، دان	دان	dānu
ذكر	زَكَار	zakāru
طاب	طَاب	tābu
ارسل ، طرد	طَرَاد	tarādu
لب ، قلب	لِب	libbu
لسان ، لغة	لِشَان	lišanu
مرض	مَرَّاص	marāṣu
مرض	مَرَّص	mursu
نفس ، حياة	نَپِشْت	napištu
حمى ، نصر	نَصار	naṣāru
نهر	فَار	nāru
نور	نور	nūru
فم ، فو	پو	pû
فتح	پِتو	pitû
مسك ، ضبط	صَبَات	ṣabātu
صغير	صِخْر	ṣiḥru
قرب	قَرِيب	qirību
كبر ، ربى	رَبو	rabû
كتب ، سطر	شَطَار	ṣatāru
سلم	شَلام	ṣalāmu

التراث اللغوي

نقد كان للعمر الطويل الذي عاشته اللغة الاكدية لغة تدوين وتخطيب ولانتشار الواسع الذي شهدته وللصراع العنيف الذي خاضته مع اللغات الاخرى المحلية والاجنبية ، اثر واضح في دخول الكثير من المفردات اللغوية الاكدية الى تلك اللغات وبالعكس فمنذ الفترات المبكرة من وجود الاكديين في العراق ، دخلت مفردات اكدية عديدة في اللغة السومرية ، وفي الفترات التالية ، ولاسيما في الفترات التي اعقبت سقوط الدولة الاشورية والدولة البابلية الحديثة ، انتقل العديد من المفردات اللغوية الى اللغات الاجنبية التي انتشر استخدامها في العراق وبقية انحاء الشرق الادنى القديم كاللغة اليونانية والفارسية والارامية . وقد تنتقل المفردات الاكدية الدخيلة في هذه اللغات الى لغات اخرى ، كما حدث ذلك بالنسبة لبعض المفردات التي انتقلت بواسطة اللغة اليونانية الى اللغات الاوربية ، او المفردات التي انتقلت من خلال اللغة الارامية او الفارسية الى العربية . وحيث ان اللغة الاكدية لم تكن معروفة للباحثين اللغويين قبل القرن التاسع عشر الميلادي لذا اكتفت المعاجم اللغوية ، ومنها المعاجم العربية ، في عد تلك المفردات الغريبة من « الدخيل » او « الاعجمي » او ارجاع اصولها ، في احسن الاحوال ، الى احدي اللغات التي كانت معروفة انذاك كاللغة الفارسية او السريانية او العبرية او اليونانية .

اضافة الى ذلك ، هناك الكثير من الرواسب اللغوية العراقية القديمة التي يمكن ملاحظتها في اللهجات الدارجة سواء في اسلوب اللفظ او المفردات اللغوية وتلاحظ هذه الرواسب بشكل خاص في اسماء بعض النباتات والالات والادوات الزراعية وماله علاقة بالحرف والصناعات اليدوية التي كانت معروفة منذ الازمنة القديمة غير ان ليس هناك دراسات متكاملة تجمع تلك

الرواسب وتبين اصولها القديمة باستثناء الجهود القيمة التي بذلها استاذنا
المرحوم طه باقر في كتابه الاخير «من تراثنا اللغوي القديم» والذي جمع
فيه عددا من المفردات اللغوية السومرية والاكادية التي دخلت لغتنا
العربية *

ونورد فيما يلي قائمة باهم المفردات اللغوية العراقية القديمة التي
دخلت اللغة الانكليزية وبعض اللغات الاوروبية الحديثة الاخرى عن طريق
اللغة اليونانية *

لفظ الكلمة بالحرف العربي	لفظ الكلمة بالحرف اللاتيني	المعنى	الكلمة الانكليزية
خَرْبٌ	haruba	خرنوب ، خروب	Carub
كُرْكَنٌ	kurkanu	كركم	Crocus
كَمَنٌ	kamanu	كمون	Cummin
گَصٌّ	gaşşu	جبس ، جص	gypsum
زُطٌ	zupu	حشيشة الزوفاء	hyssop
لَدَنٌ	ladanu	لاذن	ladanun
مُرٌّ	murru	مر	myrrh
نَپْتُ	naptu	نפט	naphtha
أَزْپِرَنٌ	azupiranu	زعفران	saffron

وهناك مفردات لغوية اخرى دخلت اللغات الاوروبية الحديثة ، ومنها
اللغة الانكليزية ، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتراث اللغوي العراقي القديم
ومن هذه المفردات :

الكلمة الانكليزية	المعنى	لفظ الكلمة بالحرف اللاتيني	الكلمة الاكديّة بالحرف العربي
Alcohol	الكحول	guhlu	كُخْلُ
Alkali	ملح القلي	qalāti	قَلَات
Cane, Canor	قصب	qānu	قَانُ
dragoman	عصا القياس		
horn	ترجمان	targumānu	تَرْگَمَانُ
mesquin	قرن	Karnu	كَرْنُ
meschino	فقير (فرنسية) بخیل (ايطالية)	muškēnu	مُشْكِينُ
mina	من	mina	مِنا
plinth	آجرة ، طابوقة	libittu	لِبِتُّ
shekel	شاكل	šiqu	شِقلُ
cherry	كرز	karšu	كَرشُ

اضافة الى ذلك ، فان الدراسات اللغوية الحديثة بينت ان هناك الكثير من المفردات اللغوية الدخيلة في اللغة العربية ، والتي حار اللغويون في معرفة اصولها سابقا ، ترجع باصولها الى التراث اللغوي العراقي القديم . وقد قام الاستاذ الفاضل المرحوم طه باقر بجمع وتصنيف هذه المفردات وبيان اصولها في كتابه القيم المشار اليه سابقا .

وفيما يلي نماذج منتخبة من هذه المفردات :

الكلمة العربية	الاصل العراقي القديم	اللاحقات
آجر	آجر	agurru
اجاص	انگاش	angaše
ارجوان	آرگمان	argamanu
اسكافي	آشكاف	aškapu
اسكفة	آسكپت	askuppatu
اسفين	سپن	suppinu
الآس	آس	asu
اشكاره	إشكار	iškaru
اكو - ماكو	اكو - ماكو	akū, makū
بارية	بر	buru
تبليہ	تبال	tabālu
ترجمان	ترگمان	targumānu
جص	گص	gašsu
جمار	گشمار	gišimmāru
خلال	تخل	tuḫallu
خبط	خماط	ḫamātu
خمش	خماش	ḫamāšu
دبس	دشِب	dišbu
زمبيل	زبَل	zabbilu
سعف	سپات	sappātu
سمسم	شمسم	šamašammu
شاقل	شقل	šiqlu
عدن	إدن	edinu

العامية بمعنى يوجد - لا يوجد
نوع من الحصر (عامية) آلة
يرقى بواسطتها الى اعلى النخلة

بلح لم ينضج بعد
اخذ بسرعة

عسل

الاصول المرافقة القديم	الاصول	الكلمة العربية
palâšu	فلش	فلش
quppu	قبة	قبة
gunnabu	قنب	قنب
kippatu	كبة	كبة
kitu	كتان	كتان
kitinu	كتين	كتين
guhlu	كحل	كحل
Kur	كر	كر
Karšu, karsu	كرش	كرز
Kussû	كسي	كرسي
Kurkanu	كركن	كركم
Kalakku	كلك	كلك
Kamešarru	كمش	كمش
Kamanu	كمن	كمون
lubbu	لب	لوبياء
marru	مر	مر
muškênu	مشكين	مشكين
muštu	مشط	مشط
mina	مين	مين
nagar (naggàru)	نجر	نجار
naptu	نبت	نبت
nîru	نير	نير
habâšu	خباش	هبش
ekallu	إكل	هيكل

أسماء معظم اشهر السنة المتداولة في العراق والاقطار المجاورة والتي تسمى خطأ بالاشهر الرومية او السريانية ترجع باصولها الى تراث العراق العظيم ومنها :

nisanu	نيسان	نيسان
ayyāru	أيار	ايار
tammuzu	تموز	تموز
abu	آب	آب
ululu	أيلول	ايلول
tišritu	تشرين	تشرين
šibāṭu	شباط	شباط
addaru	آذار	آذار

كما يرجع الى التراث اللغوي العراقي القديم اسماء العديد من المدن والانهار ، منها :

Arba - Ilu	أربا - إيل	اريل
Bāb-Ilu (Ka-Dingir -ra)	باب - إيل	بابل
Ḫabaru	خَبَر	الخابور
Baliḫu	بَلِيخ	البليخ
Buranun	پُرَاتَم	الفرات
Puratum		
Zabu šaplu	زاب شَبَل	الزاب الاسفل
Zabu elu	زاب إيل	الزاب الاعلى

Idigna	إِدِغْنَا	دجلة
Tikrita	تِكْرِتَا	تکريت
Ninua	نِنْ أ	نينوى
A-nāt	آ نَاة	عانة
Itu	إِيتُو	هيت

المراجع

- طه باقر ، من تراثنا اللغوي القديم ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- هاري ساكر ، عظمة بابل ، ترجمة : د . عامر سليمان ، لندن
١٩٦٢ .
- د . سامي سعيد الاحمد ، المدخل الى تاريخ اللغات الجزيرية ، بغداد ،
١٩٨١ .
- د . عامر سليمان ، الكتابة المسمارية والحرف العربي ، الموصل ، ١٩٨٣ .
- د . فاضل عبدالواحد علي ، الخط المسماري واللغة الاكدية ، مجلة
كلية الاداب ٣٢ (١٩٨٢) ، ١٨٩ - ٢٠٤ .
- صموئيل كريم ، السومريون ، ترجمة د . فيصل الوائلي ، شيكاغو ،
١٩٦٣ .
- د . فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، بغداد ، ١٩٧١ .
- W. von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma, 1952.
- I. M. Diakanoff, Semito - Hamitic Languages, Moscow, 1965.
- L. A. Lipin, The Akkadian Language, Moscow, 1973.

الفصل التاسع الأدب

د . فاضل عبد الواحد علي

استاذ السوريات - جامعة بغداد

مقدمة

كان لاجدادنا القدماء منجزات عديدة في ميادين الفكر والعمران اسهمت في تطوير حياة الانسان نحو الافضل . ولكن يبقى فضل العراقيين القدماء في تعليم الناس الكتابة في مقدمة تلك المنجزات العظيمة التي افادت منها الشعوب القديمة . فبواسطة الكتابة تدون الكلمة وتحفظ وتنقل من السلف الى الخلف وهذا هو التاريخ في ابسط معانيه . وبقدر ما يتعلق الامر بالادب في العراق القديم ، فقد خلف لنا اجدادنا الاوائل تركة ضخمة مدونة على رقم الطين في اللغة السومرية والاكديية ، وهي ايضا تركة غنية تتميز بالاصالة والتنوع . فالباحث في ادب بلاد وادي الرافدين يجد نفسه امام تناجات ذات موضوعات مختلفة مثل الاساطير المتعلقة بخلق الكون والانسان والظواهر الطبيعية واساطير الموت والعالم السفلي وملاحم البطولة والبحث عن الخلود . وهناك التآليف التي لها طابع الحكمة كالامثال والنصائح والمناظرات الفلسفية التي تدور حول العدالة الالهية والمفاهيم والقيم الاجتماعية . كما وصلتنا نصوص

عديدة في ادب التراتيل والصلوات والادعية وبعض القصص ذات طابع
السخرية وهناك ايضا مجموعة من قصائد الغزل وخاصة تلك التي تسجل قصة
حب الاله الراعي تموز من الالهة عشتار ، ومجموعة من المراثيات التي تسجل
في الواقع احداث تاريخية تتعلق بالكوارث التي حلت ببعض المدن مثل اكد
واور . يضاف الى ذلك نماذج متفرقة من النتاج الادبي يصعب حصرها
كأن تكون ترنيمة مما انشدت احدى الامهات لطفلها الرضيع عند النوم او
اغنية لسماك كان يرددها عند متابعة الصيد .

وتتفاوت هذه النتاجات الادبية في الطول فاحيانا تتكون من عدة
مئات من الاسطر او الايات مدونة على رقيم كبير جدا او عدة رقم واحيانا
اخرى تتكون من اسطر قليلة لاتتجاوز العشرين منقوشة على رقيم صغير .
وبالرغم من كثرة الوثائق المسمارية المكتشفة في المدن الاثرية في العراق والتي
يزيد عددها على نصف مليون ، فان نسبة قليلة منها فقط مدونة باعمال ادبية
بينما تتكون الغالبية من نصوص اقتصادية وهي تشكل ٩٠٪ من الوثائق
المسمارية المكتشفة . ولهذا يقدر بعض المختصين عدد النصوص الادبية في
حدود خمسة الاف رقيم او يزيد على ذلك بقليل .

من المعروف ان السومريين استعملوا الكتابة لأول مرة حوالي ٣٠٠٠ ق م
وان فترة مضت تقدر بخمسة قرون قبل ان تتطور ويشيع استعمالها وتصبح
اداة طيبة لتدوين النتاج الادبي السومري الذي كان يتداول شفاهيا . على
ان اقدم النصوص الادبية السومرية المعروفة لحد الان يعود تاريخ تدوينها
الى حدود ٢٤٠٠ ق م وهي اسطورة مدونة على اسطوانة من الطين مقسمة
الى عشرين عمود . والاسطورة تتعلق باله الجو والرياح انليل واخوته نخرساك
كما ترد فيها الاشارة الى الهة اخرى مثل اينانا وانكي ونورتا .
ان المفردات والمصطلحات والاسلوب وكذلك التركيب العام لهذه
الاسطورة تشبه النماذج الادبية السومرية المعروفة في العصور اللاحقة مما يدل
بوضوح على تطور وتواصل مستمرين للحركة الادبية في بلاد وادي الرافدين

ولذلك فالنتاج الادبي في العراق يسبق غيره في القدم لما هو معروف عند المصريين القدماء والكنعانيين والاغريق .

يعتبر النتاج الادبي لبلاد وادي الرافدين مرآة صادقة تعكس كثير من المعتقدات الدينية للسكان وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية . فمن خلال دراسة قصة الخليقة البابلية على سبيل المثال يستطيع الباحث ان يتخلص الصفات الاساسية التي تركز عليها الديانة في العراق القديم ويستخلص صورته واضحة عن تصور الاقدمين لآلهتهم والصفات التي اصفوها عليهم . ثم ان الصراع العنيف الذي تتحدث عنه هذه الاسطورة والذي جرى بين الالهة القديمة والالهة الحديثة انما يعكس ضمنا الظروف والظواهر الطبيعية القاسية التي سببت معاناة صعبة للفرد العراقي القديم كظاهرة الطوفان السنوي في حين اتسمت قصة الخليقة في وادي النيل بالهدوء لانها كانت وليدة ظروف طبيعية غير عنيفة .

وبالرغم من ان الاساطير الخاصة بالكون والالهة تشغل حيزا كبيرا في الادب العراقي القديم وان كثيرا من القضايا التي عالجوها لم تكن على اساس فكر موضوعي ومنطقي ، الا ان هناك افكارا ومعتقدات سومرية وبابلية لا تبدو بعيدة عن منطق العلم . فقصاص الخليقة في العراق القديم تؤكد على ان الكون كان في البدء كتلة واحدة لكن الاله انليل (او مردوخ) شطره الى قسمين خلق منهما السماوات والارض . ثم ان كثيرا من المعتقدات السومرية والبابلية تركت بصمات واضحة في معتقدات اقوام عديدة وعنى وجه الخصوص في معتقدات العبرانيين . فعملية خلق الكون والانسان وقصة الفردوس المفقود وقصة الطوفان التي وردت في سفر التكوين لها ما يناظرها في التأليف السومرية والبابلية . كما ان موضوعات توراتية اخرى مثل قصة ايوب ونشيد الانشاد لسليمان والافكار الخاصة بالموت والعالم السفلي هي الاخرى ذات جذور سومرية وبابلية .

لقد كان مبدأ التشبيه من المبادئ الأساسية التي تتصف بها ديانة سكان بلاد وادي الرافدين ، اذ انهم شبهوا الهتهم بالبشر واضفوا عليها جميع الصفات البشرية فهي عندهم ترضى وتغضب ، تحب وتكره ، تتزوج وتنجب ، لذلك تظهر آثار هذا المبدأ بشكل واضح في الاسطورة حيث يشخص الالهة تماما مثلما يشخص البشر في اية قصة . وقد ترفع الحجب بين الالهة والانسان في الاسطورة احيانا فنجد الالهة تتحدث وتتعامل مع الانسان الذي يكون في مثل هذه الحالات اما احد الحكماء الاتقياء او احد الملوك . واكثر من ذلك فان بعض الاساطير تصف كيف ان الهة الجنس والخصب عشتار وقعت صريعة في حب كلكامش ، الذي كما نعرف من الملحمة ، لم يكن من الناس الاعتياديين لان ثلثين منه اله وثلثه الاخر بشر . ومع ذلك فان الالهة تتميز دائما بالسمو والرفعة والقدسية وقبل هذا وذاك بالخلود الذي استأثرت به منذ بداية الخليقة .

ومن الامور الطبيعية ان يعكس النتاج الادبي العراقي القديم نمط الحياة التي كان يعيشها الشعراء والادباء في تلك العصور وان تكون الصور والتشايه التي جاءوا بها منتزعة من واقع حياتهم اليومية في المدينة والريف وفي الهور والسهل والجبل . فالنصوص الادبية تتحدث عن خصب الارض وفيض النهرين العظيمين وعن النخلة شجرة العطاء ، كما تتحدث عن السماء وجمال النجوم حتى انهم جسدوا الهة الحب والجمال عشتار بالزهرة اجمل الكواكب السماوية . واذا اراد الاديب السومري مدح الملك فانه يقارنه في القوة والبأس بصور مستوحاة من واقع الطبيعة فيشبهه بعنز الجبل او بالجواد او بمخلب النسر . اما اذا اراد هو ان يشكو ويتظلم ويعبر عما يكابده من حزن وقهر نجده يشبه نفسه بحال الثور الذي ينوء بحمل النير او الحمامة التي تنوح في بلد غريب او بالقارب الذي يتقاذفه الموج بعيدا عن شاطئ الامان .

ومما يقال عن النتاج الادبي في بلاد وادي الرافدين انه حافظ على اصالته ولم يتعرض الى تغيير او تحوير . والفضل في ذلك يرجع الى الامانة التي اتصف بها النساخ القدامى انفسهم ، اذ انهم حرصوا على استنساخ الاعمال الادبية في مصادرها الاصلية القديمة كما حرصوا على مطابقتها وتدقيقها . وكان الناسخ يذيل مايستنسخ بالعبارة المأثورة « كتب ودقق وفق النسخة الاصلية » ثم يذكر اسمه واحيانا اليوم والشهر الذي اتم فيه الاستنساخ ولامر من قام به . وكمثال على ذلك نقتبس التذييل الذي كتبه الناسخ في نهاية القصة البابلية الساخرة عن فقير من نهر والتي سنأتي على ذكرها في موضع لاحق . ينص التذييل على ما يلي :

« كتبه ودققه وفق النسخة الاصلية نابو - رختو - أصر ، الناسخ المساعد ، عضو مجمع نابو - اخا - ادن امين القصر ، لمطالعة قدرتي نركال . كل من يأخذ هذا الرقيم عسى ايا (اله الحكمة) ان يأخذه بأمر من نابو (اله الخط) الذي يسكن معبد اى - زيدا ، وعسى الا يكون له نسل او خلف . في شهر آذار اليوم ٢١ سنة خاناني (تقابل سنة ٧٠١ ق م أي خلال حكم الملك سنحاريب) حاكم تل - بارسب (تل احمر جنوب كركميش في اعالي الفرات) اياك ان تأخذ الرقيم او تكسر رقم المكتبة فان ذلك محرم عند الاله اياملك مياه العمق » . ومن جهة اخرى فان استخدام الخط المسماري كوسيلة للتدوين في العراق القديم وهو خط صعب تدرست فيه طبقة محدودة من النساخ ، كان من العوامل التي اسهمت في ان يحافظ النتاج الادبي على طابعه القديم والاصيل على مر العصور التاريخية .

ثم ان النتاج الادبي في بلاد وادي الرافدين كان حصيلة ابداع الادباء والشعراء السومريين والبابليين . اذ من المعروف ان السومريين تكلموا لغة ملصقة لم يستطع العلماء ارجاعها الى عائلة لغوية محددة في حين تعود البابلية الى عائلة اللغات الجزرية شأنها في ذلك شأن العرية والارامية . وقد ترجم البابليون بعض الاعمال الادبية السومرية الى البابلية مثل قصة نزول إنانا (عشتار)

الى العالم السفلي والرقيم الثاني عشر من ملحمة كلكامش . وفي بعض الاحيان كان النص السومري يترجم الى البابلية سطرًا بستر فيكون النص المدون عندئذ ثنائي اللغة . وجدير بالذكر ان النصوص لم تقتصر على التأليف الادبية بل شملت نماذج اخرى كالتأليف ذات الطابع الديني مثلا . واذا كان البابليون قد اخذوا كثيرا من المصطلحات والمفردات اللغوية السومرية كما اخذوا الهيكل العام للقصة والملحمة والاسطورة السومرية ، الا انهم من جهة اخرى اضافوا الى ذلك الهيكل « لحما ودما » فخلقوا منه ادبا جديدا في شكله قديما في اصوله . وخير مثال نسوقه في هذا الشأن ان ملحمة كلكامش كان قوامها اربع قصص سومرية تدور حول كلكامش وانكيدو بالدرجة الاولى . لكن رجال الادب البابليين خلقوا من تلك القصص المتفرقة ملحمة جديدة في الاسلوب والموضوع والهدف .

ويلاحظ الباحث في النصوص الادبية من وادي الرافدين انها تعتمد اسلوب التكرار والاعادة في بعض الاحيان خاصة عند رواية خبر على لسان رسول الى واحد او اكثر من شخوص الاسطورة . فالالهة انا (عشتار) على سبيل المثال اوصت وزيرها تنشوبر بانها عازمة على النزول الى العالم السفلي ، مستقر الاموات وان عليه في حالة تأخرها عن العودة ان يذهب الى الاله ائليل ويقول له « ايها الاب ائليل لا تدع ابنتك الطاهرة تموت في العالم السفلي ، لاتدع معدنك الثمين يغطيه تراب العالم السفلي ، لاتدع لازوردك يكسر على يد حجار ، لاتدع بقستك تقطع على يد خطاب ، ولا تدع العذراء اينانا تموت في العالم السفلي » . ولذلك نجد رسول الالهة يكرر هذا المقطع ثلاث مرات اخرى اثناء تنقله بين الالهة « ائليل وننا وانكي » طلبا لنجدة سيده و اخراجها من العالم السفلي ولا شك في ان التكرار يكون مملا احيانا الا انه من جهة اخرى لا يخلو من فائدة للباحث في النصوص السومرية اذ يساعد على ترميم الاجزاء المفقودة عندما يتعرض النص الى الكسر وهي ظاهرة كثيرة الحدوث بالنسبة لألواح الطين .

واخيرا فقد انتشر النتاج الادبي لوادي الرافدين الى مناطق عديدة من بلدان الشرق الادنى القديم ولاقى استحسانا كبيرا من رجال الادب فيها . وقد اظهرت الدراسات التي اجريت في مجال المسماريات خلال الثلاثين سنة المنصرمة ان كثيرا من التأليف والافكار الادبية انتشرت من العراق القديم الى سوريا وفلسطين ومصر واسيا الصغرى وصولا الى بلاد اليونان وكان في بين ما اكتشف من نصوص مسمارية مدونة في اللغة الاكدية في تل العمارنة (مصر) نسخة من القصة البابلية المعروفة بقصة ادبا التي سنأتي على ذكرها فيما بعد . كما عثر على رقيمين من القصة البابلية الساخرة التي بطلها فقير من مدينة نمر في سلطان تبه وهو احد تلول مدينة حران في اعالي نهر الباليخ . وجدير بالذكر ايضا انه عثر على بعض اجزاء من ملحمة كلكامش في بوغازكوى عاصمة الحثيين في اسيا الصغرى وعثر على ترجمة حثية واخرى خورية لاجزاء من هذه الملحمة .

ومن المعروف ان النتاج الادبي في العراق القديم سواء المدون في السومرية ام البابلية ، كتب اما شعرا او نثرا . وبقدر ما يتعلق الامر بالشعر السومري والبابلي فانه يلتزم بالوزن دون القافية شأنه في ذلك شأن الشعر اليوناني واللاتيني والعبراني اما الوزن (العروض) في الشعر البابلي فيقوم على اساس تجزئة الكلمات الى مقاطع طويلة وقصيرة ، ثم تجمع لتكون مايقابل التفعيلات في الشعر العربي ومن هذه يتكون شطرا البيت (الصدر والعجز) . والملاحظ في المؤلفات الشعرية السومرية والبابلية ان النساخ يتركون فراغا على رقيم البطين احيانا بين الصدر والعجز مما يسهل مهمة الباحث في سرعة تشخيص النصوص الشعرية وتمييزها عن الكتابات النثرية . وبطبيعة الحال فان البيت الواحد قد لا يكفي لاكتسال المعنى وعندئذ يصار الى وحدات شعرية اكبر تصل الى بيتين او اربعة (رباعيات) واحيانا اكثر من ذلك لتكون مايشبه الدور أو الموشح . .

نماذج من الادب العراقي القديم

قصة الخليفة البابلية

تعتبر اسطورة الخليفة البابلية واحدة من ابرز القصائد الشعرية في الادب الديني ، وهي المصدر الاساسي في دراسة معتقدات البابليين بشأن خلق الكون والانسان . وقد وصلتنا قصة الخليفة البابلية مدونة على سبع رقم من الطين يرجع تاريخها الى العصر البابلي القديم في حدود ١٨٠٠ ق م ، علما بان هناك قصصا عن الخليفة مدونة في السومرية تسبق هذا التاريخ بعدة قرون .

تذكر قصة الخليفة موضوعة البحث انه في البدء لم يكن هناك شيء يذكر سوى العماء المكون من عنصرين الهيين اولهما مذكر يتمثل في المياه العذبة « ايسو » وثانيهما مؤنث وهي المياه المالحة « تيامة » وانه نتيجة لامتزاج هذه المياه مع بعضها ولد الالهان لخمو ولخامو ثم ولد بعدهما انشار وكيشار اللذان ولدا الاله آنو وهو الذي صار الها للسماء فيما بعد .

وهكذا بدأ عدد الاحفاد يتزايد وبدأ صخبهم يقض مضجع جدهم الاعلى « ايسو » كما ان سلوكهم لم يكن مرضيا بالنسبة له . فهم على ما يبدو ارادوا ان ينظموا ويديروا الكون وفق اهوائهم بينما كانت الالهة القديمة وعلى رأسها ايسو تدبر لها المكاييد للقضاء عليها مستعينا بذلك بمشورة وزيره مومو . غير ان الالهة اكتشفوا المؤامرة التي كانت تدبر ضدهم فلاذوا باله الحكمة ايا لينقذهم من الخطر المحدق بهم . وتذكر قصة الخليفة البابلية ان الاله ايا عمل تعويذة القاها على ايسو مما سبب له سباتا عميقا وحينئذ انقض عليه وقتله .

ولما سمعت زوجته الالهة تيامة نبأ مصرعه ثار غضبها وراحت ترغي وتزبد مهددة بالانتقام من قتلته . ووقف عدد من الالهة المواليين لأيسو الى

جانب زوجته وكونوا بذلك جماعة منشقة على بقية الالهة وراحوا يعدون
العدة ويهيئون اسلحتهم الرهيبة لشن حرب ضد الالهة الفتية .

عندما سمع هؤلاء بمخطط تيامة الرهيب لشن حرب كاسحة عليهم ،
اصابهم الذعر وراحوا يفتشون عن وسيلة تنقذهم من دمار محقق . وكان لابد
لهم من ان يجدوا قائدا يجمع صفوفهم لمواجهة تيامة وجيشها الرهيب ،
فعمت الفوضى بين الالهة الفتية وهي لا تعرف ماذا تفعل . واخيرا وبعد
الاخذ والرد والبحث وقع الخيار على الاله مردوخ ، اله مدينة بابل العظيم
ليقود المعركة ضد تيامة وجيوشها .

وتدبر اله الحكمة ايا الموقف ، وهو الذي كان قد انقض على زوج
تيامة وقتله ، فجاء الى ابنه مردوخ طالبا منه ان يتولى قيادة الالهة في معركتها
المصيرية ، ولابد لنا قبل ان نأتي على تفاصيل المعركة الحاسمة كما ترويها قصة
الخليقة البابلية ، ان نرجع قليلا الى وراء والى الرقيم الاول على وجه
التحديد لتتعرف على المزايا والخصائص الفذة التي كان يتمتع بها مردوخ
الذي قدر له ان يكون الاله القائد والمنقذ للالهة الفتية في صراعها من اجل
الوجود . فنحن نقرأ عن الاله وصفاته ما يأتي :

« كان فاتن القوام وكانت عيناه تشعان بالحياة

اجل ! كانت مشيته مشية العظماء

فلما رآه ابوه الاله ايا الذي ولده

انشرح صدره وتوردت وجنتاه وامتلا قلبه بالسرور

ولم لا ! فقد جاء كامل الاوصاف يوازي الهين في العقل

اجل ! لقد كان ممجدا بين الالهة وكان الاعظم بينهم

كان كامل الاعضاء والاطراف الى حد لا يصدق عقل

فلا احد يفهمه ولا عقل يدركه »

تلك كانت المزايا الخارقة التي اتصف بها الاله مردوخ والتي جعلته موضع ثقة الالهة التي توسمت فيه القائد البطل والمنتقد الذي يستطيع اخراجها من محنتها امام جحافل تيامة • ويبدأ الرقيم الرابع من اسطورة الخليقة البابلية بביاعة الاله مردوخ باعتباره قائدها الاوحد الذي لا نظير له :

« واقاموا له عرشا فاخرا

فتصدر المجلس قبالة آباءه الالهة

وعندئذ بايعوه قائلين : انت الاعظم اجلالا بين الالهة

فقرارك لا يدانيه شيء وامرك هو امر السماء

ومنذ هذا اليوم ستكون كلمتك ثابتة لا تتغير

فمن شئت ان ترفع او تخفض فامرہ منوط بيديك

أجل ! ستكون كلمتك هي الصحيحة وسيكون قرارك معصوما من الخطأ

ولن يتخط حدودك اي من الالهة • •

يامردوخ انت بالحق من يثأر لنا

ها نحن نبايعك على ملوكية الكون باجمعه

وعندما تأخذ مكانك في المجلس ستكون كلمتك هي العليا

وسوف لن تقهر اسلحتك بل انها ستحطم اعدائك

ياسيدنا انقذ حياة من وضع ثقته فيك

وعسى ان تزهب حياة كل اله اقترف المعصية »

هكذا بايع الالهة مردوخ قائدا لهم • وعندئذ قام القائد من مجلسه

وتناول قوسه وصولجانه ثم علق القوس والجعبة الى جنبه • وفي هذا الموضع

من الرقيم الرابع تبدأ قصة الخليقة البابلية بذكر تفاصيل المعركة التي قادها

مردوخ نيابة عن الالهة الفتية • وتبدأ الاسطورة اولا بالحديث عن الاسلحة

المدمرة التي اعددها القائد لهذا النزال فهي تذكر مانصه :

« جعل الرياح الارباع تتمركز في اماكنها لكي لا يفلت احد منها
الريح الجنوبية والشمالية والشرقية والغربية
وعلى مقربة من جنبه ظل يحمل الشبكة ، هدية ابيه آنو .
ثم اطلق الريح الشريرة والريح الدوارة والاعصار
والريح الرباعية والريح السباعية والعاصفة الهوجاء وريح اخرى
لا نظير لها

اجل ! لقد اطلق كل الرياح التي جاء بها ، الرياح السبع .
كلها وققت خلفه لتهيج احشاء تيامة
ثم استدعى البطل عاصفة - الطوفان ، سلاحه العظيم .
وامتطى العربة العاصفة ، الكاسحة المربعة .
وشد اليها فريفاً من اربعة :

القاتل ، والحاقد ، والدواس ، والخطاف
لهم انياب قاتلة تحمل السم
كانوا متمرسين في الدمار ، ماهرين في الخراب
وجعل الى يمينه « القارع » المرعب في المعركة
والى يساره « الضارب » الذي يدرأ كل الطامعين »

وتقدم البطل مردوخ وخلفه جنوده في كافة الصنوف وقد حمى جسده
بدرع هو « الرعب » ووضع على راسه هالة هي « الرهبة » واطبق شفثيه
على تعويذة سحرية وحمل بيده نباتا يقذف السم . واستمر مردوخ في التقدم
الى ان صار ، ومن حوله جنده ، على مقربة من تيامة . وعندئذ راح يخاطبها
بلهجة ساخرة اثارت غضبها وجعلتها تفقد رشدها :

« وعندما سمعت تيامة ذلك
صارت كالمجنونة ، لقد فقدت صوابها
واطلقت صرخة عالية من شدة الغضب

فارتجفت رجلاها من الاعماق
ثم راحت تقرأ رقية وتلقي بسحرها
في حين كان الالهة المعركة يشحذون اسلحتهم
ثم التقى الاثنان ، تيامة ومردوخ — احكم الالهة
فشد كل منهما على الآخر في نزال فردي ثم التحما في المعركة
وعندئذ اطلق في وجهها الريح الشريرة التي كانت تتبعه
فلما فتحت تيامة فاهها لتبتلعها
ادخل فيه الريح الشريرة لكي لا تستطيع ان تطبق شفيتها
وحالما هاجمت الريح الشريرة جوفها
انتفخ جسمها وانتفخ شدقاها
انذاك اطلق مردوخ سهما مزق جسمها
اجل لقد قطع احشاءها وشطر قلبها
ولما تم له قهرها انقض عليها واخذ انفاسها

ثم تذكر قصة الخليقة البابلية ان مردوخ شطر جسم تيامة الى شطرين
خلق منهما الارض والسماء وانه اسر من كان معها من الالهة وعلى رأسهم كبير
قوادها كنكو . بعد ذلك تم خلق الكواكب والاقمار والمياه والاشجار
والنباتات . ثم قرر مردوخ خلق الانسان ليقوم بخدمة الالهة ويقدم لهم
القرابين لكي تشعر هي بالراحة التامة ، فبارك الالهة الفكرة على ان يخلق
الانسان من دم احد الالهة . عندئذ جيء بالاله كنكو قائد قوات تيامة ،
فذبحوه ومزجوا دمه بالطين وخلقوا منه الانسان .

قصة الطوفان

الطوفان حادثة روتها المآثر السومرية والبابلية في روايات ثلاث رئيسية
تتشابه في خطوطها العامة وفي كثير من تفاصيلها . واول تلك الروايات نسخة
مدونة في السومرية يسمى بطلها زيوسدرا (Ziusudra) الذي انقذ البشرية

من الفناء اثناء الطوفان العظيم الذي شمل الارض برمتها حسب اعتقاد
الاقدمين . والرواية الثانية تتمثل في الرقيم الحادي عشر من ملحمة كلكامش حيث نقرأ
عن رجل اسمه اوتنابشتيم (Utnapishtim) قام ببناء سفينة ضخمة حمل فيها
ما استطاع من الناس والحيوانات والطيور والمتاع . والرواية الثالثة وهي اكثرها
تفصيلا تعرف بقصة « اتراخاسيس (Atrahasis) نسبة الى اسم الرجل
الذي يقوم بدور مشابه لنظيره زيو سدر اوتنابشتيم » .

يظهر من قصة الطوفان التي بطلها اتراخاسيس ، ان الطوفان كان اخر
سلاح تلجأ اليه الالهة للحد من تكاثر البشر بغية القضاء على صخبهم الذي صار
يقض مضجع الالهة ويسبب انزعاجها . ويظهر ايضا ان اله الجو والرياح انليل
كان المعرض على القيام بسلسلة من الاجراءات المتلاحقة الغرض منها جميعا
اهلاك الناس والفتك بهم ، فقد استطاع انليل في المرة الاولى اقناع الالهة
بانزال الامراض والابوثة بين الناس في كافة ارجاء البلاد حيث تذكر قصة
اتراخاسيس بهذا الخصوص مانصه :

« ولم تمض بعد الف ومئتا سنة
حتى توسعت البلاد وتكاثر الناس
وصارت البلاد تغور مثل الشور
فانزعج الاله انليل من ضجيجهم
اجل ! لقد سئم انليل صخبهم
فقال مخاطبا الالهة العظيمة :
لقد اصبح صخب الناس شديدا علي
وحرمني ضجيجهم من النوم
فلنأمر بانتشار الوباء بين الناس »

ولم تجد الالهة بدأ من الموافقة على طلب انليل وفوضت نمتار الموكول بالامراض والابوثة تنفيذ خطتها وسرعان ما انتشر الوباء في البلاد واخذ يلتهم الناس التهاما ، عندئذ استنجد اتراخاسيس باله الحكمة ايا داعيا اياه ان يخلص الناس من البلاء الذي هم فيه •

وكانت وصية ايا بهذا الشأن ان يقوم الناس ببناء معبد للاله نمتار وان يقدموا له الهدايا والنذور « وعندئذ سوف يرفع نمتار يده عنهم » على حد تعبير النص البابلي •

ثم تذكر قصة اتراخاسيس ان الناس سرعان ما تكاثرت اعدادهم مرة اخرى وان ضجيجهم تزايد في البلاد على النحو الذي رأيناه في المرة السابقة ، فقرر انليل ان يرسل عليهم الجفاف والقحط والمجاعة • ولذلك أصدر اوامره الى الاله ادد لان يحبس المطر والى ايا اله العمق ان يمنع تدفق المياه والى نيسابا الهة الحنطة « ان تمنع فيض ثديها » وامر بان تهب الرياح لتلفح وجه الارض وان تتلبد الغيوم ولكن دون ان تنهمر قطرة من مطر وهكذا حلت المجاعة بين الناس لمدة ست سنوات متوالية ، اذ تذكر قصة الطوفان عن ذلك:

« في العلى جعل الاله ادد مطره نورا
وفي الاسفل سدت الانهار واوقف تدفق المياه من « العمق »
وانقصت الحقول غلالها
ومنعت الالهة نيسابا فيض ثديها
فاصبحت الحقول السوداء بيضاء
وصارت الحقول الواسعة لا تعطي غير الملح
وهكذا تمرذ رحم الارض
فلم تنبت البقول ولا الحبوب
وانزلت الامراض على الناس

فاصبحت الارحام ضامرة فلم تلد مولودا
وعندما حلت السنة الثانية
اصابهم الجرب
وعندما حلت السنة الثالثة
تشوهت ملامح الناس بفعل الجوع
وعندما حلت السنة الرابعة
قصرت سيقانهم وضمرت
وانكمشت اكتافهم العريضة الواسعة
فصاروا يسرون محدوديين في الشوارع
وعندما حلت السنة الخامسة
اصبحت البنت تطيل النظر الى امها وهي تدخل
تاركة اياها خارج البيت
وعندما حلت السنة السادسة
اتخذوا من البنت عشاء لهم
واتخذوا من الولد غداء لهم
لكنهم لم يشبعوا .. حتى التهم كل جار جاره
وغطت وجوههم غشاوة كانها النبت المصفر
وكان الناس احياء ولكن على حافة الموت »

ثم تذكر قصة الطوفان لاتراخاسيس ان الاله ايا اشفق على الناس
فسمح بتدفق المياه من المحيط السفلي لارواء الارض وتخليص الناس من
الجفاف . وقد عرض الاله ايا نفسه بسبب ذلك الى غضب الاله اثليل الذي
صمم في هذه المرة على ان يؤدي جميع الالهة القسم لارسال الطوفان الاعظم وتدمير
الارض ومن عليها ، غير ان اله الحكمة ايا الذي عرف بحبه للناس لم يتفق
مع اثليل والالهة الاخرى ورفض ان يربط نفسه بتأدية القسم العظيم وبدلا

من ذلك فانه انذر رجلا تقيا وحكيما من سكان مدينة شروباك (فاره) بوجوب الاستعداد للحدث الخطير الذي بات يهدد اهل الارض ، فها هو اله الحكمة ايا يخاطب رجل الطوفان ويقول :

هدم بيتك وابن سفينة
اترك المال وانشد الحياة
انبذ المال وانقذ النفس
واحمل في السفينة بذرة كل المخلوقات الحية
اما السفينة التي سوف تبني
فاضبط مقاييسها واجعل عرضها مساويا لطولها
واختمها مثل « ايسو » (مياه العمق)

وتلقى رجل الطوفان امر الاله بالطاعة فبدأ على الفور بحشد كل الطاقات لانجاز المهمة ، وبعد سبعة ايام من العمل المتواصل استطاع العمال اكمال بناء السفينة التي اطلق عليها اسم « منقذة الحياة » :

« وفي اليوم الخامس اقامت هيكلها
وكانت مساحة قاعدتها « ايكو » واحدا
وطول كل من جوانب سطحها ١٢٠ « ذراعا » ،
هكذا حددت ابعادها وهيكلها
لقد جعلت فيها ستة فواصل
وبهذا قسمتها الى سبعة طوابق
ثم قسمت ارضيتها الى تسعة اقسام
وغرزت فيها مسامير خشب لمنع الماء
ثم زودتها بالمرادى والمؤن
وسكبت ستة « سارات » من القير في الكور
وسكبت ايضا ثلاث « سارات » من الزيت

وبعد ان انتهى رجل الطوفان من بناء السفينة جاء دور تحميلها بالمؤن
والبشر والحيوانات حسب تعليمات اله الحكمة ايا، ويذكر الرقيم الحادي عشر
من ملحمة كلكامش ان الاله 'يا امر رجل الطوفان « اوتنابشتم » ان يحمل في
سفينته بذرة كل المخلوقات ويعطي احد الرقيم من قصة الطوفان « اتراسيس »
تفاصيل وافية في هذا الشأن اذ جاء على لسان الاله ايا وهو يخاطب رجل الطوفان
قوله:

« ترقب الوقت المحدد الذي سوف اخبرك به
ثم ادخل السفينة واغلق بابها
احمل فيها شعيرك ومتاعك واموالك
وزوجتك وصاحبك وقريبك والعمال الماهرين
واني سأرسل اليك حيوان البرية وكل حيوان وحشي
يأكل العشب في البرية
وانها سوف تنتظر عند بابك »

ثم جاء الطوفان الهائل : رعد يشق عنان السماء ، اعاصير مدمرة تعصف
وتزمرجر « مثل نهيق حمار الوحش » فيضان عارم تخور مياهه مثلما يخور
الثور وظلام دامس ودمار في كل مكان من الارض حتى ان الالهة نفسها
تراجعت لهوله مذعورة الى اقصى السماوات • ويقول الكاتب البابلي بهذا
الخصوص :

« ولما حان ذاك الوقت المعين
وانزل الموكل بالشروع مطر الهلاك في الليل
تطلعت الى الجو
فكان الجو مكفها مخيفا للنظر
وعندئذ دخلت السفينة واحكمت غلق بابها
ثم اسلمت دفة السفينة الى الملاح بووور - اموري
وعند اطلالة الفجر

ظهرت في الافق سحابة سوداء
كان الاله أدد يرعد في داخلها
بينما كان شوللات وخانيش يسيران في مقدمتها
ثم اقتلع ايراكال دعائم السد للمياه السفلى
وانطلق تنورتا ليجعل المياه تغطي فوق السدود
ورفع انوناكى المشاعل فاضاءت بنورها الارض
ولما وصل الرعب من الاله ادد الى عنان السماء
وتحطمت الارض الواسعة مثلما يتحطم الاناء
استحال كل نور الى ظلمة
وظلت ريح الجنوب تهب يوما كاملا
وزادت سرعتها وهي تهب حتى اجتاحت الجبال
وفتكت بالناس مثل حرب ضروس
فلم يستطع المرء ان يرى اخاه
ولم يكن بالمستطاع تمييز الناس من السماء
حتى ان الالهة ذعرت لهول الطوفان
فأخذوا يتراجعون الى خلف حتى وصلوا سماء آنو »

واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة ايام وسبع ليال جاء الطوفان
خلالها على كل ما في الارض من مخلوقات « فاصبح الناس يملأون البحر كأنهم
صفار السمك » على حد تعبير رجل الطوفان . ومن جهة اخرى فقد كان هلاك
الناس على هذا النحو مدعاة لندم شديد وحزن عميق من الالهة وخاصة تلك
التي عرفت بحبها للناس مثل الاله ايا والالهة عشتار . ثم هدا البحر وسكنت
العواصف وانتهى الطوفان ، وفي هذا الشأن يقول اوتونا بستم انه تطلع الى ابر من
السفينة بعد هدوء العواصف والمياه فوجد « ان السكون يخيم في كل مكان

وان البشر جميعا تحولوا الى طين » ثم يصف مشاعره وقد زال عنه الخطر
واصبح قاب قوسين او ادنى من النجاة فيقول :

« ثم فتحت نافذة في السفينة فسقط النور على وجهي
فسجدت وجلست باكيا

والدموع تجري على وجهي

ثم اخذت اتطلع الى سواحل البحر الواسع
فباتت الارض من مسافة اثني عشر ميلاً مضاعفاً »

وفي تلك الاثناء استقرت السفينة على جبل اسمه نيسير وعندئذ اخرج
اوتنابشتم حمامة واطلقها :

« فراحت الحمامة ولكنها لم تلبث ان رجعت

لقد رجعت الحمامة لانها لم تجد محطاً لها

وعندئذ اخرجت السنونو واطلقتها

فراح السنونو ولكنه لم يلبث ان رجع

لقد رجع السنونو لانه لم يجد محطاً له

ومن ثم اخرجت الغراب واطلقتها

فراح الغراب ولكنه عندما رأى المياه انحسرت

اكل وحام ونعق ولم يرجع »

وعندما خرج رجل الطوفان من السفينة لأول مرة بعد اربعة عشر يوماً
من دخوله ، سكب الماء المقدس على قمة الجبل ونصب القدور
ليعد الطعام قرباناً للالهة وسرعان ما فاحت رائحة الطعام فشمته الالهة
« وتجمعوا حول مقدم الغربان كالذباب » وهنا يجد القارئ نفسه امام مشهد
جديد ومثير حيث يتجمع الالهة العظام حول رجل الطوفان بعد ان انتهوا من
التهام الغربان ليستمتع بعضهم من البعض الاخر عما حل بالناس من دمار ومالحق

الارض من خراب نتيجة احداث الطوفان وليرفع بعضهم صوته عاليا احتجاجا على « الخطيئة التي اقترفها انليل بحق الناس » عندئذ شعر انليل بجسامة الخطأ الذي ارتكبه ضد بني البشر فصعد الى ظهر السفينة « منقذة الحياة » ووقف بين رجل الطوفان وزوجته ثم لمس ناصيتيهما ومنحهما الخلود قائلا :

« ما كان اوتنابشتم قبل الآن الا بشرا
ولكن من الان سيكون اوتنابشتم وزوجه مثلنا نحن الالهة »

ملحمة كلكامش

واحدة من اشهر الملاحم الشعرية في تاريخ اداب الشعوب القديمة وقد ذاع صيتها وانتشرت نسخ عديدة منها في انحاء واسعة من الشرق الادنى القديم وترجمت من البابلية الى لغات قديمة كالحثية والخورية . ومما زاد في روعة ملحمة كلكامش انها تتناول موضوعا انسانيا محضاً وتتعامل مع اشياء من عالمنا الديوي مثل الانسان والطبيعة ، الحب والمغامرة ، الالفة والصدقة والصراع لتكون منها جميعا فصولا تمهيدية لموضوع الملحمة الرئيسي الا وهو حقيقة الموت المطلقة . واذا كانت الملحمة قد انتهت نهاية محزنة خيبت آمال كلكامش وبني البشر قاطبة ، فانها من جهة اخرى لم تكن نهاية شديدة القسوة ومحطمة لتطلعات الانسان الى الخلود ورفضه حقيقة الموت . ذلك لان الملحمة قدمت البديل وان كان من دون شك دون طموح كلكامش بكثير ، لكنه يبدو منطقيا ومعقولا . فاذا كان الخلود امرا مستحيلا لان الالهة استأثرت به منذ اللحظات الاولى للخلقة ، فباستطاعة كلكامش وأي انسان آخر ان يخلد باعماله ومنجزاته فيبقى ذكره ما بقي الدهر .

من المعروف تاريخيا ان كلكامش كان الملك السادس في سلالة الوركاء الاولى وانه حكم في حدود ٢٦٥٠ ق م ولاشك في انه كان ملكا عظيما وبطلا

شجاعاً بحيث صار رمزاً للقوة والاقدام والمغامرة • ومعروف ايضا ان هناك ما لا يقل عن اربع قصص سومرية تدور حول هذا البطل ومآثره تسبق في تاريخها ملحمة كلكامش المدونة في اللغة البابلية • ولاشك في ان هذه القصص ، اضافة الى قصة الطوفان السومرية ، كانت المصدر الذي استمدت منه الملحمة مادتها الاصلية • يضاف الى ذلك ان الرقيم الثاني عشر من الملحمة البابلية لا يعود بالاصل اليها وانما هو مجرد ترجمة حرفية لاسطورة سومرية تدور حول « كلكامش وانكيدو والعالم السفلي » • كل هذا يشد الملحمة البابلية الى اصولها السومرية البعيدة ، لكنها فيما عدا ذلك تبقى تناجا ادبيا متميزا وفريدا في هدفها وموضوعها •

عثر على ملحمة كلكامش ضمن المؤلفات المحفوظة في مكتبة اشور بانيبال في نينوى • كما عثر في مدن اخرى على بعض رقم الطين التي تحتوي على اجزاء منها والراجع ان اول تدوين للملحمة البابلية كان في العصر البابلي القديم في حدود ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م • وانما صارت بشكلها النهائي الذي نعرفه حاليا في الفترة ١٥٠٠ - ١٢٥٠ ق م

يبدأ الرقيم الاول من الملحمة بذكر مآثر كلكامش ومنجزاته العمرانية في مدينة الوركاء، ويصفه بانه كان ذا قوة خارقة ولم يكن له نظير في القتال وان ثلثين منه اله وثلثه الاخر بشر • غير ان اهل الوركاء اخذوا يتضرعون الى الالهة لتخلق غريما لكلكامش يكون « نظيرا له في البأس وقوة اللب وعندئذ يكون الاثنان في صراع مستديم لتنهأ المدينة بالسلام والاطمئنان » •

استجابت الالهة لدعوات اهل الوركاء فخلقت انكيدو الصنديد الذي كان يجوب البراري مع الطباء وحمير الوحش يأكل العشب ويتزاحم معها عند موارد الماء • لقد وهبته الالهة شعرا كثأ يكسو كل جسمه وجعلت رأسه طويلا كالرأة وله ظفائر تشبه السنابل • وذات يوم ابصر به الصياد وهو يرد الماء

فذهب الى ابيه وقصى عليه قصة ذلك المخلوق الغريب الذي ما انفك يحول بينه وبين صيده لانه يخرب ما ينصب من شباك ويظمر ما يحفر من اوجار • فقال الاب لابنه الصياد ان يذهب الى كلكامش ويخبره بقصة هذا الانسان القوى المتوحش ويطلب منه ان يعطيه فتاة بغياً لكي يغوى بها انكيدو لتروضه ومن ثم تستدرجه الى الوركاء • وفعل الصياد ما امر به ابوه واعطاه كلكامش الفتاة البغي فاخذها وراحا ينتظران مجيء انكيدو عند مورد الماء • ولما جاء انكيدو مع الظباء الى المورد كشفت له الفتاة عن مفاتن جسمها فتعلق انكيدو بها واغراه جمالها وبقي معها « ست ايام وسبع ليال » على حد تعبير النص البابلي :

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ تذكر الملحمة مانصه :

« وبعد ان شبع من مفاتها
وجه وجهه الى إلفه من حيوان البرية
فما أن رأت الظباء انكيدو حتى ولت هاربة
وهربت من قربه وحوش البرية
ذعر انكيدو ووهنت قواه
خذلته ركبته لما أراد اللحاق بألفه من حيوان البرية
اضحى انكيدو خائر القوى لا يطيق العدو كما كان يفعل من قبل ولكنه
صار فطنا واسع الحس والفهم
رجع وقعد عند قدمي البغي
وصار يطيل النظر الى وجهها » •

ولما رأت الفتاة ان انكيدو استسلم للامر الواقع عرضت عليه الذهاب معها الى مدينة الوركاء حيث يعيش البطل الصنديد كلكامش • فقبل انكيدو وقال للفتاة انه متلهف لرؤية كلكامش ومنازلته •

هنا تنتقل الملحمة الى كلكامش وهو يقص على امه حلما رآه في نومه •
لقد رأى نجمة تهوي على الارض في مدينة الوركاء لكنه لم يستطع رفعها من
الارض رغم ماوتي من قوة • ورأى الناس يجتمعون حولها ويقبلونها •
ففسرت له امه مغزى حلمه بان غريما له سيظهر عن قريب وسيكون مماثلا له
في البأس والقوة لكنه سيصبح رفيق العمر الذي لا يخذله •

وصل انكيدو بصحبة الفتاة الى الوركاء فتملكه العجب مما رأى فيها من
مظاهر الحياة الجديدة التي لم يألّفها في البراري مع الحيوانات • وكان
عليه ان يتعلم كيف يأكل ويشرب ويدهن جسده بالزيت ويتعطر بالطيب ويرتدي
ملابس نظيفة • بعد ذلك سار انكيدو ومن خلفه الفتاة في اسواق الوركاء حيث
رآه الناس واعجبوا بمنظره وحسن قامته :

« سار انكيدو الى الامام وخلفه البغي
ولما دخل الوركاء ذات الاسواق الواسعة
تجمع الناس حوله
حين وقف في شارع الوركاء ، في موضع السوق
تجمهر الناس حوله وقالوا عنه :
انه مثيل لكلكامش في البنية
ولكنه اقصر قامة واغوى عظما
انه اقوى من في البرية وذو بأس شديد
لقد رضع لبن حيوان البر في البادية ^٦
وفي الوركاء لن تنقطع قعقة السلاح (بعد الان)
فرح الابطال وهللوا قائلين :
لقد ظهر بطل ندّ وكفوء للبطل الجميل
اجل ! ظهر لكلكامش الشبيه نظيره ومثيله »

وفي المساء ، وبينما كان كلكامش يهيم بدخول بيت الهة الحب « اشخارا
(عشتار) » اعترضه انكيديو ومنعه • عندئذ اشتبك البطلان في سوق المدينة
وبمرأى من الناس ، واستمرا في صراع عنيف اهتزت له الجدران وتحطمت
لعنفه الابواب :

« رأى كلكامش انكيديو الهائج
الذي ولد في البادية ويجلج رأسه الشعر الطويل
فانقض عليه وهاجمه
تلاقيا في موضع سوق البلاد
سد انكيديو باب البيت بقدميه
ومنع كلكامش من الدخول الى الفراش
امسك احدهما بالآخر وهما متمرسان في الصراع
وتصارعا وخارا خوار ثورين وحشيين
حطما عمود الباب وارتعج الجدار »

ويبدو من سياق النص ان الغلبة في ذلك النزال كانت لكلكامش اذ
بقيت قدماه ثابتتين على الارض وكان على وشك ان يرفع انكيديو الى اعلى •
ولكن فجأة هدأت سورة غضبه فاستدار ومضى تاركا انكيديو لحاله •
ولا شك في انه فعل ذلك بدافع من شعوره بالاقتدار ولانه أراد
ان يتخذ من غريمه صديقا حميما ومساعداً في مقارعة الخطوب بعد ان
عرف عن كذب مقدار قوته وبأسه في النزال ، لذلك سرعان ما تصالح الاثنان
وتبادلا قبلات المودة وصارا صديقين حميمين لا يفترقان •

و ذات يوم كشف انكيديو لصديقه كلكامش عما يعاينه من ضعف ووهن
وما يكابده من حزن واسى يكاد يخنق أنفاسه • فاشفق عليه كلكامش واراد
على ما يبدو ان يغير له نمط حياته الرئيسية في المدينة وينقله الى اجواء البراري
والغابات التي اعتادها انكيديو من قبل ان يأتي الى الوركاء • لذلك عرض

كلكامش على رفيقه ان يسافرا سوياً الى غابات الارز البعيدة التي كان يحرسها
العفريت الهائل خمبابا .

وبعد الاخذ والرد وافق انكيدو على مصاحبته . هنا تنتقل الملحمة الى
ذكر الاستعدادات والاجراءات التي لابد من اتخاذها لاجاز تلك الرحلة
البعيدة . فقد اوعز كلكامش الى السباكين ليصنعوا ما يحتاج اليه من سيوف
وفؤوس . وكان لابد من ان يأخذ موافقة مجلس الشيوخ في مدينته ، فهو
اعلى سلطة فيها واستشارته واجبة في مثل هذه الحالات . واخيراً
فلا بد ايضاً من ان تبارك الالهة مثل هذه المغامرة المحفوفة بالاعطاش .

قال كلكامش مخاطباً مجلس الشيوخ في الوركاء :

« اسمعوا يا شيوخ الوركاء ذات الاسواق
اريد انا كلكامش ان ارى من يتحدثون عنه
ذلك الذي ملأ اسمه البلدان بالرعب
عزمت ان اغلبه في غابة الارز
وسأسمع البلاد بانباء ابن الوركاء
فتقول عني : ما اشجع سليل الوركاء وما اقواه
سامد يدي واقص الارز فاسجل لنفسي اسماً خالداً » .

لكن شيوخ المدينة لم يعطوه موافقتهم وكانوا يخشون عليه من اخطار
تلك المغامرة خاصة وان غابات الارز يحرسها العفريت خمبابا الذي « زفيره
عباب الطوفان وفمه نفاث السنة الذهب واقواسه الموت الزؤام » . لكن
كلكامش ابى ان ينصاع واصر على منازلة خمبابا وقتله . وعندئذ لم يجد
شيوخ الوركاء بدا من مباركة سفره ومن الدعوة له بسلامة العودة الى
مدينته . وهكذا امروا له بسلاحه : السيف والفأس والقوس
والجعبة ثم خاطبوه قائلين :

« ايها الملك كنا نطيعك في مجلس الشورى
فاستمع الينا وخذ بمشورتنا ايها الملك
لا تتكل على قوتك وحدها ياكلكامش
نبصر في امرك واحم نفسك
دعه يتقدم في الطريق وابق على نفسك
دع انكيدو يسير امامك فانه يعرف الطريق وقد سلكه
انه يعرف الطريق الى غابة الارز دعه يتوغل في مسالك خمبابا
وان من يسير في الطليعة يحمي صاحبه
ليأخذ الحذر ويتبصر في حماية نفسه
وعسى شمش ان يجعلك تنال رغبتك
وعساه يرى عينيك ما قاله فمك
وان يفتح لك السيل المسدود
ويفتح الطريق لمسراك ويمهد مسالك الجبال لقدميك »

بعد ذلك قصد كلكامش وانكيدو معبد الالهة ننسون في الوركاء
لتبارك الرحلة وتدعو لهما بالنجاح في المهمة . وفعلت الالهة ننسون ما اراد
كلكامش بعد ان قدمت الصلوات واحرقت البخور الى الاله شمش . هنا
ينخرم النص وتأتي فجوة كبيرة كانت تحتوي بالاصل على تفاصيل مالاقاء
كلكامش وانكيدو من احوال ومنازلتهما غفريت الغابة . ويبدو من بقايا
النص انهما قطعا مسافة طويلة تقرب من ١٦٠٠ كم قبل ان يصلا الى جبال الارز .
هناك وجدا حارسا وضعه خمبابا عند مدخل الغابة فقتلاه . وبعد ان دخل الغابة
راحا يتجولان في ارجائها متتبعين المسالك التي يسير فيها غفريت الغابة ، واخيرا
وبينما كان كلكامش يقطع اشجار الارز سمع خمبابا وقع فأسه الثقيلة فغضب
وصاح وزمجر وتهيا للهجوم على الصديقين اللذين تملكهما خوف شديد
فاخذوا يتضرعان الى الاله شمش ليمد لهما يد العون . وسرعان ما استجاب شمش

لدماعهما فسخر لنجدتهما الريح العاتية • وعندئذ استطاع به الصديقان التغلب عليه فراح يتضرع لهما لأن يبقيا عليه • وكاد كلكاش ان يستجيب له لكن انكيدو اصر على قتله •

عاد الصديقان الى الوركاء بعد ان قتل خبببا ، واقاما احتفالا كبيرا بالمناسبة • ولما رأت الالهة عشتار البطل كلكاش بملابسه الجديدة البراقة اعجبت به ايما اعجاب وعرضت عليه ان يتزوجها • لكن البطل سخر منها بشدة وراح يعدد لها عشاقها الذين خانتهم وتنكرت لهم • فغضبت الالهة عشتار وطلبت من ابيها آنو اله السماء، ان ينزل الثور السماوي في الوركاء ليقتل على كلكاش • ولكن كلكاش وانكيدو استطاعا منازلة الثور وقتله •

بعد ذلك سار الصديقان في شوارع الوركاء وكان كلكاش يسأل الصبايا ويقول :

« من الامجد بين الابطال ومن الازهى بين الرجال ؟ فيجبني : كلكاش الامجد بين الابطال ، كلكاش زين الرجال » •

تحدث الملحمة في بداية الرقيم السابع عن حلم رآه انكيدو وعن مرضه المفاجيء • لقد رأى انكيدو الالهة تجتمع لتقرر موته لانه ساهم في قتل خبببا والثور السماوي فانتابه حزن شديد وراح يلعن تلك الساعة التي رأى فيها الصياد والبغي فلولاهما لبقى سعيدا في حياته يجوب البراري مع الأطباء وحمر الوحش • ثم اشتد به المرض وعاودته احلام مزعجة ورأى فيها صوراً مخيفة من عالم الاموات « ارض اللارجة التي حرم ساكنوها من النور ، حيث التراب طعمهم والطين قوتهم » • واخيرا مات انكيدو فحزن عليه كلكاش حزنا شديدا وبكاه بكاء مرا ورثاه بعبارات تفيض الما وحسرة :

« اسمعوني ايها الشيوخ واصغوا الي
من اجل انكيدو خلي وصاحبي ابكي

وانوح نواح الشكلى
انه الفأس التي في جنبي وقوة ساعدي
والخنجر الذي في حزامي والمجن الذي يدراً عني
وفرحتي وبهجتي وكسوة عيدي
لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني
ياخلي ياخي الاصفر الذي اقتنص حمار الوحش في التلال
والثور في الصحاري
انكيدو يا صاحبي ، واخي الصغير
الذي اقتنص حمار الوحش في النجاد والنمر في الصحاري
فأى سنة من النوم هذه التي غلبتك وتمكنت منك ؟
طواك ظلام الليل فلا تسمعي »

لكن انكيدو لم يرفع عينيه على حد تعبير النص البابلي « فراح كلكامش
بزأر حوله كالاسد وكالبوأة التي اختطف منها اشبالها ، وصار يروح ويجيء
امام الفراش وهو ينظر الى انكيدو » ، وبدافع من حبه ووفائه لرفيق العمر
انكيدو نادى كلكامش على صناع المدينة وامرهم ان يصنعوا له تمثالا صدره
من اللازورد وجسمه من الذهب . ففعلوا ذلك ووضع كلكامش التمثال على
منضدة واخذ يكي صديقه ويرثيه .

صار شبح الموت يلاحق كلكامش ويفزعه عندما ادرك ان الموت سيقهره
آجلاً ام عاجلاً مثلما قهر نظيره انكيدو . فلبس جلد سبع وهام على
وجهه في البوادي قاصدا رجل الطوفان اوتنابشتم ليسأله عن سر حصوله على
الخلود من الالهة . وبعد مسيرة طويلة ومضنية وصل كلكامش الى بوابة
جبال ماشو التي يحرسها الرجل العقرب وبعد ان سمح له بالدخول ، سار
كلكامش مسافة اخرى الى ان وصل الى بيت صاحبة الحانة التي توجست
منه خيفة اول الامر لكنها اشفقت عليه في النهاية ودلته على الملاح اورشنابي الذي

يوصله بسفينته الى اوتنابشتم • وعبر كلكامش بحر الموت بمساعدة الملاح
وذهب الى حيث يقيم رجل الطوفان وزوجته •

قص كلكامش على اوتنابشتم ما حل برفيقه انكيدو وروى له كيف ان
شبح الموت صار يلاحقه منذ ذلك الحين وانه جاء يسأله عن سر حصوله
على الخلود • هنا يبدأ رجل الطوفان بالحديث عن قصة الطوفان الاعظم
التي تشبه القصة التوراتية المعروفة ، وكيف انه استطاع اتقاذ نسل البشرية
من الفناء بسفينة رست بعد انتهاء الطوفان على قمة جبل اسمه نيسير • وقال
اوتنابشتم انه خرج بعد ذلك من السفينة وقدم القرابين فتجمعت الالهة من
حوله وانها قررت ان تكافئه وزوجته بالخلود فصار في مصاف الالهة •

ثم تساءل رجل الطوفان وقال مخاطبا كلكامش : ولكن من الذي
سيجمع الالهة من اجلك لتمنحك الحياة الابدية ؟ ومن جهة اخرى اراد رجل
الطوفان ان يفهم كلكامش انه يسعى وراء شيء مستحيل على الرغم من ان
ثلثين منه الهه وثلثه الاخر بشر • لذلك فانه اختبر كلكامش وطلب منه امرا
ليس بمقدور اي انسان فعله ذلك هو عدم النوم ستة ايام وسبع ليال • فقبل
كلكامش الرهان املا في الحصول على الخلود ، لكنه سرعان ما غط في نوم
عميق • ولما استفاق وجد انه نام عدة ايام اشترتها زوجة اوتنابشتم على الحائط
كما احصتها عدا بأرغفة من خبز وضعتها عند رأسه •

هكذا فشل كلكامش في اجتياز الاختبار • وعندئذ امر اوتنابشتم ملاحه
ان يرجع كلكامش الى مدينته الوركاء فلا جدوى في بقاءه بعد ذلك • ولما ركب
كلكامش السفينة بصحبة اورشنابي واوشك على الابحار اشفقت عليه
زوج اوتنابشتم وعز عليها ان يرجع خاوي اليدين • فطلبت من زوجها ان يعطيه
شيئا ما يأخذه معه في طريق عودته • فاقترب رجل الطوفان من

كلكامش وكشف له عن سر من اسرار الالهة وهو ان يفوص الى قاع البحر ويستخرج نباتا شوكيا يمنح آكله شبابا دائما ومتجددا .
وغاص كلكامش الى الاعماق بعد ان ربط بقدميه احجارا ثقيلة . ثم استخرج النبات الذي تسميه الملحمة « يعود الشيخ الى صباه كالشباب » وكان كلكامش فرحا به اشد الفرح حتى انه قرر ان يعطى منه اهل مدينته الوركاء ليأكلوا منه ، ثم مكث ومعه اورشنابي عند بئر ليرد ويفتسل . هناك شمت الحية رائحة النبات فتسللت واختطفت النبات وبذلك ضاعت فرصة كلكامش الاخيرة لنيل الخلود .

نصيحة صاحبة الحانة لكلكامش :

« الى اين تسعى ياكلكامش
ان الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الالهة العظام البشر
قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
اما انت ياكلكامش فليكن كرشك مملوءا على الدوام
وكن فرحا مبتهجا مساء
واتم الافراح في كل يوم من ايامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلل الصغير الذي يمسك بيديك
وافرح الزوجة التي بين احضانك
وهذا هو نصيب البشرية »

كلكامش وانكيدو والعالم السفلي

وهناك اسطورة سومرية تدور ايضا حول انكيدو وكلكامش تعرف باسطورة « انكيدو وكلكامش والعالم السفلي » . تذكر الاسطورة ان البطل كلكامش حصل على هدية من الهة الخصب والحب إنانا (عشتار) تتكون من قطعتين تسمى الاولى في السومرية « بوكو » والثانية « مكو » ولا يعرف مدلول التسميتين على وجه التحديد . ويبدو ان كلكامش اسرف في استعمال هديته فالحق الضرر ، بطريقة او باخرى ، بسكان مدينة الوركاء . فتعالت « صرخات النسوة » ، على حد تعبير النص السومري ، واذا بالقطعتين تسقطان من يد كلكامش في العالم السفلي . وعندئذ تملك كلكامش حزن شديد وراح يبكي عند بوابة العالم السفلي على هديته المفقودة . ولما سمع بكاءه صديقه ورفيقه المعروف انكيدو تطوع للنزول الى هناك من اجل « استرجاع القطعتين » « بوكو » و « مكو » .

طلب كلكامش من صديقه انكيدو ان يحترس عند نزوله الى العالم السفلي اي عالم الاموات ، لان هناك محرمات ينبغي عليه تجنبها ومنها عدم ارتداء الملابس النظيفة او لبس النعل او استعمال العطور وحمل السلاح . . . وبعبارة فان « صرخة العالم السفلي » سوف تمسك به ويبقى محتجزا في عالم الاموات :

« اذا كنت ستنزل الان الى العالم السفلي

فاني ساقول لك كلمة فاستمع لها

انها وصية اقدمها اليك فخذ بوصيتي

لا تلبس ثوبا نظيفا

لئلا يهجم عليك ذوو السلطة مثل الاعداء

ولا تمسح جسمك بالزيت الفاخر من الاناء

لئلا يتجمعوا من حولك بسبب عطرك

لا ترم بالعصا في العالم السفلي
لئلا يحيط بك من اصابتهم عصاك
ولا تحمل عصا بيدك
لئلا تهيج الاشباح من حولك
ولا تلبس نعلا في قدميك
ولا تحدث ضجة في العالم السفلي
لا تقبل الزوجة التي تحب
لا تضرب الزوجة التي تكره
لا تقبل الطفل الذي تحب
ولا تضرب الطفل الذي تكره
لئلا تمسك بك صرخة العالم السفلي »

ونزل انكيديو الى العالم السفلي ولكنه ، على ما يظهر من الاسطورة ، لم يتمسك باية وصية من وصايا رفيقه كلكامش فامسكت به « صرخة العالم السفلي » ولم يعد بمقدوره الصعود الى دنيا الاحياء مرة ثانية . وحاول كلكامش مساعدة رفيقه انكيديو لاجراجه من عالم الاموات . فقصده الاله انليل في معبده في مدينة نفر ولكن انليل لم يستجب لاستغاثة كلكامش . بعد ذلك قصد اله الحكمة انكي واستنجد به لانقاذ صديقه . فاستجاب له انكي وطلب من الاله اوتو (شمش) ان يحدث فتحة في العالم السفلي ليخرج منها شبح انكيديو وهو كل ما تبقى منه بعد ان اصبح حبيسا في عالم الاموات .

تعانق كلكامش مع صديقه او بالاحرى مع شبح صديقه انكيديو . وهنا يبدأ كلكامش بتوجيه السؤال تلو الاخر الى صديقه عما شاهده في العالم السفلي . وفي هذا الموضع من الاسطورة السومرية ينخرم النص الذي يتضمن في ضوء البقايا القليلة اسئلة واجوبة بين الصديقين ولحسن الحظ ان يكون بمقدورنا معرفة جزء لا بأس به من خاتمة الاسطورة السومرية من خلال الرقيم

الثاني عشر من ملحمة كلكامش الذي هو بدوره ترجمه للأسطورة السومرية
موضوعة البحث ونقتبس في ادناه الجزء الاخير من تلك الخاتمة التي تعتبر
من المصادر المهمة عن معتقدات سكان وادي الرافدين بخصوص الموت والعالم
السفلي :

« وتدخل ايا من اجله في الامر
فقال لنركال البطل الباسل :
ايها البطل الباسل ، يانركال ...
افتح على الفور ثقباً في العالم السفلي
من اجل ان تصعد روح انكيدو من العالم السفلي
لعله يخبر اخاه بما يجري في العالم السفلي
فاستمع نركال البطل الباسل الى ايا
وماكاد يفتح ثقباً في العالم السفلي
حتى انطلقت روح انكيدو مثل هبة ريح من العالم السفلي
فتعانقا وقبل كل منهما الاخر
وجلسا يتبادلان الحديث والحسرات
فقال كلكامش : اخبرني يا صديقي ، اخبرني يا صديقي ،
اخبرني بما يجري في العالم السفلي الذي رأيت
فقال انكيدو : سوف لا اخبرك ، سوف لا اخبرك
واذا كان لابد من اخبارك بما يجري في العالم السفلي
فعليك ان تجلس وتبكي
(ثم قال انكيدو لكلكامش) :
ان جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
اصبح الان يلتهمه الدود كما لو كان ثوباً بالياً
اجل ! ان جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح

اصبح الان يملأ التراب
وعندئذ صاح كلكامش : ياويلناه وراح يتمرغ في التراب
اجل ! صاح كلكامش ياويلناه وراح يتمرغ في التراب وهو يقول :
هل رأيت الذي لم يكن له ولد ؟
اجل لقد رأيت ... (النص مخروم)
هل رأيت الذي كان له ولد واحد ؟
اجل رأيت ، انه ممد اسفل الجدار ويينكي بمرارة
وهل رأيت الذي كان له ولدان ؟
اجل رأيت ، انه يقيم في بناء من الآجر ويأكل الخبز
هل رأيت الذي كان له ثلاثة اولاد ؟
اجل رأيت انه يشرب الماء من قربة ماء « العمق »
وهل رأيت الذي كان له اربعة اولاد ؟
اجل رأيت ... وهو مسرور القلب
هل رأيت الذي كان له خمسة اولاد ؟
اجل رأيت ، لقد كان مبسوط اليد مثل كاتب طيب ويسمح له بدخول
القصر
ويستمر الحوار بين كلكامش وشبح رفيقه انكيدو فيسأله عنن كان له
سته وسبعة اولاد الى ان يقول كلكامش :
هل رأيت من سقط صريعا في المعركة ؟
اجل رأيت ، لقد كان ابوه وامه يسندان رأسه وكانت زوجته تبكي عليه
وهل رأيت الذي ترك جسده غير مدفون في البرية •

اجل رأيت ، ان روحه لاتجد الاستقرار في العالم السفلي
هل رأيت روح الذي لا يوجد من يعنى به ؟
اجل رأيت ، كان يأكل حثالة ماتبقى في الماعون وقطع الخبز الملقاة في
الازقة .

نزول عشتار الى العالم السفلي

هناك اسطورة تحكي قصة نزول الالهة عشتار الى العالم السفلي وقد
وصلتنا منها نسختان واحدة مدونة في السومرية والثانية في الاشورية . وليس
في الاسطورة مايوضح على وجه التأكيد السبب الذي دفع الالهة عشتار الى
القيام بتلك الرحلة الى عالم الاموات . ومهما كان السبب الحقيقي فانه لم
يكن بكل تأكيد من اجل اطلاق سراح زوجها الاله تموز لسبب بسيط لانها
هي التي سلمته الى شياطين العالم السفلي بدبلا عنها وهناك بين الباحثين من
يعتقد بأنها قامت بتلك الرحلة من اجل اخراج ارواح الموتى المحتجزة هناك .

وعلى اية حال فاننا نقرأ في الاسطورة موضوعة البحث ان الالهة
عشتار عقدت العزم على النزول الى العالم السفلي ارض الاربعة الذي كان
تحت امرة اختها الالهة ايرشكيغال ، وانها لبست تاجها وشاراتها الخاصة .
ثم اخبرت وزيرها ننشور انه في حالة تأخر عودتها من هناك فعليه ان يطلب
النجدة من الاله انليل فان لم يفعل شيئا فليذهب الى الاله القمر (سين) فاذا
اعتذر فعندئذ يذهب الى اله الحكمة ايا الذي سيهرع لنجدتها من دون شك .

وصلت عشتار الى البوابة الاولى للعالم السفلي وطلبت من رئيس
الحراس ان يفتح لها وإلا فأنها « ستحطم الابواب والمزاليج وتبعث
الاموات ليلتهموا الاحياء » على حد تعبير النص الآشوري . فطلب منها
الحارس الاتقدم على شيء من ذلك حتى يخبر اختها ايرشكيغال . وبعد ان
فكرت اختها في الامر لمعرفة الاسباب التي تكمن وراء زيارة اختها

المفاجئة او عزت للبواب ان يسمح لها بالدخول • وعندئذ رحب بها البواب قائلا : « ان عالم اللارجعة مسرور بحضورك ياسيديتي » لكنه سرعان ما جردها من تاجها اثناء ما كانت تهم بالدخول من البوابة الاولى • فاعتزفت الالهة عشتار على ذلك بشدة لكنه اجابها ان ذلك اجراء تحتمه « نواميس العالم السفلي » • وهكذا فان البواب يجردها من بعض حليها وثيابها عند كل بوابة من البوابات السبع الى ان اصبحت عارية تماما عند البوابة الاخيرة • فكما رأينا من اسطورة « انكيدو وكلكامش والعالم السفلي » سابقة الذكر أن « نواميس العالم السفلي » تحرم على من ينزل اليه ارتداء الثياب ولبس الحذاء والتزين بالحلي واستعمال الطيب ومن يفعل عكس ذلك فان صرخة « العالم السفلي » تمسكه على حد تعبير الاسطورة •

وعلى اية حال فحالما عبرت الالهة عشتار ، البوابة السابعة وجدت نفسها وجهاً لوجه امام اختها ايرشكيجال التي كانت تتفجر غضبا • ولعل سبب ذلك الغضب انها كانت تخشى من ان تقوم عشتار باطلاق ارواح الموتى في العالم السفلي ، وبالتالي فانها تحرمها من رعاياها من الاموات وانذاك يكتب عليها « النواح على الرجال الذين تركوا زوجاتهم خلفهم ، وعلى الصبايا اللواتي اختطفن من احضان عشاقهن وعلى الاطفال الذين جيء بهم قبل الاوان » على حد تعبير الاسطورة • لذلك امرت ايرشكيجال وزيرها ان يأخذ عشتار ويسلط عليها ارواحا شريرة تحيلها الى جثة هامدة •

وكان طبيعيا ان تتحسس الالهة في السماء وكذلك البشر وسائر المخلوقات في الارض بان حادثا وقع لالهة الخصب عشتار التي بدونها تتوقف عادة مظاهر الحياة والتجدد والتكاثر • فتذكر الاسطورة بهذا الخصوص ان وزير الالهة تملكه حزن عميق فارخى شعره وارتنى ثياب الحداد اسفا عليها • اما في الارض فقد توقفت كل مظاهر الخصب والتكاثر حيث « ابتعد الثور عن اناثه وهجر الزوج زوجته » بسبب ما حل بالهة الخصب عشتار •

تتفق النسختان السومرية والآشورية من الاسطورة موضوعة البحث على ان الفضل في اعادة الحياة الى عشتار يرجع الى اله الحكمة ايا . اذ تذكر النسخة السومرية انه عندما علم ايا بالامر سارع الى خلق ماردين اعطى للاول منهما «طعام الحياة» ولثاني «ماء الحياة» وامرهما بالنزول الى العالم السفلي فينثرا الماء والطعام على جسدها من اجل ان تعود اليها الحياة مجددا . اما النسخة الآشورية فانها تذكر بهذا الخصوص ان اله الحكمة خلق ماردا اسمه اسو - شو - نامر (حرفيا - منير مظهره) ويظهر من مدلول اسمه ومن التفاصيل اللاحقة ان الاله ايا حباه بالحسن والجمال في سبيل ان تعشقه الالهة ايرشكيغال حالما تراه . وهذا ماحدث حسبما تذكر الاسطورة . فعندما رآته ملكة العالم السفلي استحوذ عليها سحره واذهلها جماله وابدت استعدادها لان تفعل كل شيء في سبيل ارضائه . عندئذ فاجأها اسو - شو - نامر وطلب منها ان تؤدي له « قسم الالهة العظيمة » وهو قسم يلزم من يؤديه من الالهة الايفاء غير المشروط بكل ما يطلب منه . فاستجابت له ايرشكيغال وادب قسم الالهة . بعد ذلك خاطبها المارد قائلا :

«فلتأمر لي سيدتي بهذه القربة، قربة ماء الحياة لارتوي منها» . عندئذ ادركت ايرشكيغال انها وقعت في خدعة مرسومة وتوضح لها السر الذي يكمن وراء مجيئه الى مملكتها . لذلك تملكها غضب شديد وراحت تصب اللعنات على اسو - شو - نامر وتقول : « تعال يا أسو - شو - نامر فأني سألعنك لعنة كبرى ، فعسى ان تكون فضلات المدينة طعامك وبواليعها شرابك ، وظلال حيطانها مأواك وعتبات ابوابها مسكنك » .

وعلى اية حال ، لم تجد ايرشكيغال مفراً من اعطائه قربة ماء الحياة . فاخذها ونثر من مائها على جسد الالهة عشتار فعادت اليها الحياة من جديد .

اما النسخة السومرية من الاسطورة فانها تذكر ان الالهة اينانا (عشتار) عادت الى الحياة بعد ان انثر عليها الماردان ماء الحياة وطعام الحياة . بعد ذلك تهيأت الالهة عشتار للخروج من العالم السفلي والعودة الى مملكتها في السماء . فمرت بالبوابات السبع التي دخلت منها وكان يعاد اليها في كل بوابة ما اخذ منها من حلي او ثياب . لكن اختها ايرشكيجال ارسلت معها عددا من الشياطين لضمان الحصول على بديل يأخذ مكانها في العالم السفلي . اذ ان نواميس عالم الاموات لا تسمح بخروج احد منه الا مقابل بديل يحل محله .

وسارت الالهة عشتار من مدينة الى اخرى ومعها الشياطين لالقاء القبض على بديل تختاره الالهة بنفسها . واخيرا وصل موكب عشتار الى كولا ب احدى ضواحي الوركاء، حيث رأت زوجها تموز هناك. وتذكر النسخة السومرية في الاسطورة ان الالهة اينانا (عشتار) صوبت اليه « نظرات الموت » واشارت الى من كان معها من الشياطين ان يأخذوه بديلا عنها الى عالم الاموات .

ولكن من المعروف ان الاله تموز كان رمزا للقوة الخلاقة التي تبعث الحياة في المظاهر الطبيعية وقت الربيع عندما يظهر العشب وينمو الزرع وتتكاثر الماشية . ولهذا كيف يمكن التوفيق بين حقيقة موته وبين ضرورة وجوده لتجديد الحياة في الطبيعة . الجواب يكمن في نص سومري اخر حول تموز يذكر ان اخته كيشن - انا ، التي عرفت بحبها الشديد لاختها وبتفانيها من اجله ، تطوعت لان تأخذ مكانه نصف عام في العالم السفلي ليتسنى له الخروج وبعث الحياة في الطبيعة في موسم الربيع . ولا شك في ان نزول تموز الى عالم الاموات نصف عام وبعثه في النصف الاخر يعكس تأثيرا واضحا على الاسطورة الاغريقية الخاصة بموت وبعث الاله ادونيس .

اسطورة ادبا

من المؤلفات الادبية البابلية التي تدور حول حتمية موت الانسان ما يعرف باسطورة ادبا التي تذكر انه كان في مدينة اريدو رجل تقي متعب اسمه ادبا وان اله الحكمة « ايا » وهبه حكمة واسعة وجعله مثلاً للانسان الصالح ، فكان محباً للناس ، يساعدهم في اعمالهم ويساهم في توفير الطعام والشراب لسكان مدينته وكان رجلاً زاهدا يخشى الالهة ويقدم لها القرابين باستمرار .

وبينما كان ادبا يصطاد السمك في قاربه ذات يوم هبت « ريح الجنوب » فقلبت القارب رأساً على عقب . وعندئذ غضب ادبا فأمسك بالريح الجنوبية وكسر جناحها مما سبب توقفها عن الهبوب . ولما علم آنو ، اله السماء ، بالامر طلب احضار ادبا امامه على الفور عندئذ تملك ادبا الخوف وخشى العاقبة فلاذ باله الحكمة يسأله العون للخروج من المأزق . فنصحه الاله ان ينتر شعره ويلبس ثوب حداد عند صعوده الى السماء وانه سوف يلاقى عند بوابة آنو الهين يدعيان دموزى وكريدا . فاذا ماسألاه عن سبب حزنه وجب عليه ان يقول لهما ان الهين اختفيا من الارض وانه حزين على فقدتهما واذا ما سألاه عن اسميهما وجب عليه ان يردد اسم دموزي وكريدا . فعندئذ سوف يشعر هذان الالهان الحارسان بالامتنان لادبا لاحاسيسه الطيبة نحوهما وسوف يشفعان له عند اله السماء آنو .

واهم من هذا وذلك فقد قال اله الحكمة لأيا ان آنو سيقدم له عند مثوله امامه «خبز الموت وماء الموت» فعليه الا يقربهما . ولكن عندما يقدم له ثوبا فعليه ان يلبسه وان يأخذ كذلك الزيت ويدهن به جسده . ثم طلب اله الحكمة من ادبا بان يتمسك بوصيته ولا يخالفها مهما كلف امر . واصعد ادبا الى السماء . ومرت بالحارسين عند بوابة آنو فجرى بينه وبينهما سؤال وجواب على النحو الذي توقعه اله الحكمة ايا . ثم جيء به امام آنو فسأله عن السبب الذي دفعه الى كسر جناح ريح الجنوب فاجابه ادبا قائلاً :

« كنت اصطاد السمك وسط البحر
وكان البحر صافيا كالمرآة
ولكن ريح الجنوب هاجت وعصفت فاعرفتني
وفي سورة الغضب انزلت عليها اللعنة »

ثم تذكر القصة ان كلاً من الحارسين دموزي وكزيذا ، اللذين اعجبا
بعواطف ادبا نحوهما ، تشفعا له عند الاله آنو وطلبا ان يعفو عنه ويقدم له
وفاء لتلك المشاعر « خبز الحياة وماء الحياة » فوافق آنو وامر له بما اراد .
ولكن ماذا حدث ؟ تذكر قصة ادبا مانصه :

« عندما جلبوا له خبز الحياة لم يأكله
وعندما جلبوا له ماء الحياة لم يشربه
ولكن عندما جلبوا الثوب فانه لبسه
والزيت فانه دهن به جسده
وانذاك نظر اليه آنو باستغراب ثم ضحك منه وقال :
تعال يا ادبا وقل لي لماذا لم تأكل او تشرب ؟
انك لن تحصل على الحياة الابدية
(طالما) ان ايا امرك الاتأكل او تشرب »

ثم التفت آنو الى الحراس وقال لهم عبارته المأثورة : « خذوه وردوه الى
ارضه » . واخيراً سخر اله السماء من نصيحة اله الحكمة الذي امر ادبا ان يتسرف
على النحو الذي فعل وقال ضاحكا :

« مَنْ مِنْ الهة السماء والارض على كثرتهم
اعطى مرة مثل هذه الاوامر ؟
ومن منهم يستطيع ان يجعل امره يفوق امر آنو ؟
وهكذا عاد ادبا من السماء الى الارض خاوي اليدين بعد ان فوت على
نفسه وعلى البشرية جمعاء فرصة ثمينة للحصول على الخلود .

اسطورة ايتنا

اسطورة بابلية طريفة تدور حول ايتنا ، احد ملوك سلالة كيش الاولى (تل الاحير حاليا) وصعوده الى السماء على جناحي نسر . وللأسطورة مقدمة تمهد للموضوع فتتحدث عن نسر وثعبان عقدا عهد صداقة وتعاون بينهما وقد بارك شمش ، اله العدل ، ذلك العهد ، اذ تذكر الاسطورة بهذا الخصوص مانصه :

« واديا القسم امام البطل شمش قائلين :
كل من يتعدى حدود الاله شمش
عسى الاله شمش ان يوقع به الشر ويسلمه الى الجلال
اجل ! كل من يتعدى حدود الاله شمش
عسى ان يسد في وجهه مسالك الجبال
وان تصيبه السهام في الصميم
وعسى ان يقع في الفخ وتحل به لعنة شمش »

وهكذا صارا صديقين حميمين حتى انهما كانا يقتسمان الطعام بينهما كل يوم . ومرت الايام وكبر فراخ النسر واوشكوا على الطيران . وعندئذ بدأت نفسه تزين له خيانة صديقه الثعبان والاقدام على أكل صغاره ثم الهرب الى الاجواء البعيدة . وعلى الرغم من نصيحة ابنائه له وتحذيرهم من مغبة خيانة العهد الذي قطعه على نفسه ، الا انه اقدم على اكل صغار الثعبان . فذهب الاخير باكيا الى اله العدل شمش طالبا الانتقام له من النسر الذي فر هاربا في الفضاء البعيد . فأشفق اله العدل على الثعبان وعلمه طريقة يستطيع بها ايقاع النسر في الفخ ومن ثم الانتقام منه . وفعل الثعبان حسبما قال له الاله واستطاع ان يمسك بالنسر ويحطم جناحيه ويرميه في حفرة عميقة .

هنا تنتقل الاسطورة الى الحديث عن ايتنا ، ملك كيش حيث يأتي ذكره

وهو يناشد الاله شمش لان يدله على وسيلة للحصول على « نبات النسل »
ليكون له ولد يحمل اسمه . فاستجاب اله العدل لدعائه وارشدته الى الحفرة
التي كان يقبع فيها النسر . فذهب ايتنا واقتذ النسر وضمد جراحه . واعترفا
منه بالجميل فقد وافق النسر على ان يحمل ايتنا على ظهره ويصعده الى
السما حيث يوجد « نبات النسل » عند آنو ، اله السماء . اذ قال النسر لايتنا :

« ساحملك الى العلى ، الى سماء آنو

فضع صدرك على صدري

ويديك على ريش جناحي

وساعدك من حولي »

وتذكر الاسطورة ان ايتنا اعتلى ظهر النسر . وان الاخير شعر بوطأة
ثقاه اول الامر لكنه مع ذلك انطلق به الى اعلى دونما صعوبة . ومن الطريف
ان نقرأ ان النسر كان يتبادل الحديث من حين لآخر مع صديقه ايتنا وهو
يحملة عبر الاجواء العالية . اذ كلما ارتفع النسر بصاحبه مسافة ميل كان
يلتفت اليه ويسأله عما يرى تحته من اشياء وكيف يراها :

« وعندما حملة عاليا مسافة ميل واحد

قال النسر لايتنا :

انظر يا صديقي كيف تبدو الارض

وتطلع الى البحر على جانبي (الجبل الكوني) - ايكور

(فأجاب ايتنا) : اصبحت الارض تبدو كأنها تل صغير

وصار البحر الواسع مثل نهير

وعندما حملة عاليا مسافة ميلين

قال النسر لايتنا :

انظر يا صديقي كيف تبدو الارض

(فأجاب ايتنا) تبدو الارض وكأنها حفرة صغيرة

وبعد ان صعدا الى سماء آنو
ذهب الى بوابة آنو وانليل وايا
وقدم السر وايتنا فروض الطاعة سوية »

في هذا الموضوع من الاسطورة ينخرم النص دون ان نتعرف على نهاية
هذه الاسطورة الطريفة وعلى اية حال فان للاستاذ سُبَايزر ملاحظة طريفة
بهذا الخصوص اذ يقول ان ايتنا لا بد وان يكون قد وصل الى غايته وحصل
بالفعل على « نبات النسل » بدليل ان قائمة الملوك السومرية تذكر ابنا له
اسمه بالخ خلفه في الحكم .

ادب الحكمة

هناك ضرب آخر من ضروب الادب العراقي القديم يمكن تسميته « ادب
الحكمة » (Wisdom Literature) الذي يشمل تأليف متنوعة
تهدف الى الحكمة والموعظة وتتطرق احيانا الى قضايا فكرية وفلسفية تتعلق
بالانسان وما تقدر له الالهة من ثواب او عقاب ومن اسباب النجاسات او
او الفشل في الحياة . وهناك قصيدتان بابليتان تعتبران على قدر كبير من
الاهمية ادبيا وفكريا لانهما تدوران حول « الانسان المعذب » و « العدالة الالهية »
وهما من المواضيع التي غني بها الكتاب والمفكرون السومريون والبابليون
عناية خاصة . فقد كان الاعتقاد السائد عند الفرد في بلاد وادي الرافدين ان
الالهة خلقت البشر ليقوموا بخدمتها : يخلصونها بالعبادة ويقدمون لها القرابين
ويبنون لها المعابد . ولا شك في ان الفرد كن يطمح بالدرجة الاولى الى ان تمنحه
الالهة مقابل تقواه وسلوكه الحسن ، العون والحماية والسعادة في الحياة .
ولهذا كانت طاعة الاوامر الالهية والقيام بالطقوس والشعائر والعبادات وتقديم
القرابين من الامور التي تمسك بها العراقيون القدماء واعاروها اهمية بالغة .

غير ان قاعدة « طاعة الالهة » نساوي « حياة سعيدة » لم تكن مضمونة

بهذه الدرجة من السهولة • لذلك كان للفرد السومري والبابلي ، مثل غيره من القدماء ، نصيبه من هموم الدهر واحزانه : الفقر والمرض وكوارث الطبيعة المختلفة •

هنا اثار بعض الناس من السومريين والبابليين سؤالاً كان لا بد منه : ان الالهة هي التي خلقت الكون فكيف يمكن اذا ان تحدث مثل هذه الامور ويسود الشر على الخير في حياة بعض الاتقياء من الناس ؟

وكان جواب الكهنوت على هذا السؤال وامثاله ان الالهة نفسها لم تغل من صفات شريرة عندما اتبعت طريق العنف والبطش والخداع في خلال المراحل الاولى للخلقة كما يتضح ذلك جلياً من قصة الخليقة البابلية ، لذلك تصوروا ان هذا الكون تسييره منذ البدء نواميس الهية لا تتمثل بعناصر الخير (كالصدق والعدل والسلام) فقط ولكن بعناصر الشر ايضا (كالزور والكذب والنفاق) • وبتعبير اخر فان عنصر الشر موجود في الالهة وبالضرورة في البشر ايضا الى حد يقول عنه المثل السومري : ماولدت امرأة قط ابناً بريئاً •

ولكن اذا ما قبل الفرد في وادي الرافدين بمثل هذا التعليل فانه يبقى يسأل بالحاح سؤاله التقليدي التالي : لماذا لا يكون الشر اذا من نصيب الاشرار والخير من نصيب الأخيار ؟ وبتعبير اخر كيف يمكن ان يصيب البؤس والفقر والمرض شخصاً تقياً ورعاً في حين يرفل غيره من الاثمين والمعتدين بشباب السعادة وينعمون بالغنى والعيش الرغيد ؟ • ومهما تعددت صور الاجابة على مثل هذا السؤال من قبل رجال الدين السومريين والبابليين فخلاصة الامر ان التقوى هي الطريق الى النجاح والسعادة وان على الانسان ان يتشبث بالالهة دائماً وفي مختلف الظروف لانها لا بد وان تمد له يد العون آجلاً أم عاجلاً • وبتعبير اخر كان الاعتقاد السائد بين القدماء في وادي الرافدين يؤكد على ان الخير لا بد ان ينتصر على الشر في نهاية المطاف وان على الرجل الصالح المبتهل في الحياة الدنيا ان يصبر ولا يئأس من عطف الالهة ورحمتها •

قصيدة العدالة الالهية

يقودنا الحديث هنا الى القصيدة البابلية المعروفة بين المختصين بـسماريات بقصيدة « العدالة الالهية » التي تتألف من سبعة وعشرين مفعلاً يحسوي كل مقطع منها على احد عشر بيتاً • ومن المحتمل ان زمن تدوينها يعود الى نهاية العصر الكشي •

تتخذ القصيدة شكل حوار مطول (على غرار مانجده في سفر ايوب) بين رجل معذب وصديق له حكيم يحاول ان يواسيه ويهون عليه عذابه والامه وان يخرجها من حالة اليأس والقنوط الى الايمان برحمة الالهة وفدورها على تخليصه من عذابه •

يبدأ المعذب حواراً مع صديقه الحكيم بالحديث عن همومه وآلامه وعمّا اصاب جسده من وهن وكيف ان الدنيا اسودت في عينيه وانه صار لا يرى املاً في الخلاص • ورغم ذلك فانه منذ صباه كان يتعبد الى الالهة ويقدم لها القرابين ، لكنها ادارت له ظهرها وجعلت اعز اصدقائه يتنكر له وسلطت عليه ادنى الناس مكانة ومنزلة • هنا يتساءل المعذب فيقول : لملذا ان الالهة لا تحمي اولئك الذين لا يستطيعون حماية انفسهم ؟

يستمر الحوار سجلاً بين المعذب وصديقه الحكيم • فالاول بـضرح في كل مرة جانباً من المعاناة التي كان يعيشها على شكل صور ومناهد ينزعها مرة من المجتمع البشري حيث الظلم والنفاق الاجتماعي ومرة من عالم الحيوان حيث تسود شريعة الغاب • ويشعر القارئ من خلال التفاصيل التي يطرحها المعذب انه كان دائماً يضرب على وتر واحد الا وهو حقيقة وجدوى العدالة الالهية • من جهة اخرى تتجلى فطنة وبراعة صديقه الحكيم في مقدرته على الاتيان بالحجة - وان بدت غير مقنعة للمعذب احياناً - وفي « فلسفة » المظاهر السلبية التي يطرحها صديقه قياساً على القيم الاجتماعية الفاضلة

والتعاليم الدينية المعروفة • ولزيت من التوضيح نقتبس ادناه بعضا من مقاطع القصيدة :

المعذب :

اين الناصح الذي اقص عليه عذابي ؟
اراني قد انتهى امري وتسلط عليّ الشقاء
فعندما كنت طفلا صغيرا اختطف القدر ابي
وذهبت امي التي ولدني الى « ارض اللاروجة »
لقد تركني ابي وامي دون من يتكفل رعايتي

الصديق :

ياصديقي الموقر ، ان ماتقوله يبعث الكآبة والحزن
اراك وجهت فكرك الى الشر ياصديقي العزيز
حتى اتقلب فهمك الدقيق للامور كفهم المعتوه
وجعلت من بشاشة وجهك عبوسا
لقد سلم آباؤنا لمصيرهم المحتوم وساروا في طريق الموت
وكما قيل منذ القدم انهم يعبرون نهر خبز ...
ان من يقوم على خدمة الالهة يكون له ملاك يحميه
وان الانسان المتواضع الذي يخشى الهته يحظى بثروة طائلة

المعذب :

ياصديقي ان فكرك نهر لا ينضب منبعه
انه البحر المتلاطم الذي لا تنقص مياهه
دعني اسألك سؤالا فاستمع واصنع لحظة الي
لقد صار جسدي حطاما واعتلاني الهزال
وخذلني التوفيق وذهبت عني الطمأنينة
وهنت قواي وفقدت النعيم والخير

اظلم وجهي من كثرة الحزن والبكاء
نقصت غلال حقلي ونضب شرابي
اريد ان اعرف ، كيف سأنال السعادة ؟

الصديق :

(النص مخروم في هذا الموضع ولكن مابقى منه يشير الى ان الصديق
الحكيم يحث صاحبه المعذب على التثبت بعطف ورحمة الالهة) •

المعذب :

••• دعني اسألك سؤالاً
هل يقدم السبع المفترس الذي يلتهم احسن اللحم
قرايين الى الالهة بغية ارضائها ؟
هل قدم الذهب الى الالهة « مامي » ؟
وانا هل انقطعت عن تقديم القرايين ؟ لقد قدمت الصلوات الى
الهي •
وقرأت التبريكات على الاضاحي لالهي

الصديق :

يا من اشبهه بالنخلة ، شجرة الخير والعطاء ، يا أخي الاعز
يامن اعطيت الحكمة ، يا حلية من ذهب
انك ثابت كالارض ، لكن حكمة الالهة صعبة الادراك
انظر الى حمار الوحش المتباهي في السهل
فالسهم يلاحقه لانه يدوس الحقول ويتلف مزرعاتها
والسبع الذي ضربته مثلاً
لكن الحفرة بانتظاره جزاءاً للجريمة التي اقترفها
والغني الذي كدس الثروات الطائلة

من ادراك انه لن يموت حرقاً على يد الملك قبل حلول اجله ؟
اترغب ان تسلك طريق هؤلاء ؟

كلا ! الأجدرك ان تسعى وراء الجزاء الدائم لالهك

القطعان الاخيران (٢٦-٢٧ من قصيدة « العدالة الالهية » البابلية) :

الصدق :

ان « نارو » ، ملك الالهة الذي خلق البشر
وصاحب العظمة « زولومار » الذي استخلص طينتهم
والسيدة « مامي » الملكة التي صورتهم
جعلوا قول الباطل من نصيب البشر
لقد منحوهم والى الابد الكذب دون الصدق
فهم يتحدثون دائماً بالاجلال عن الثرى
فيقولون عنه « انه ملك وان الثراء يصاحب ظله في كل مكان »
لكنهم يؤذون الفقير وكأنه لص
انهم يفترون ويتآمرون عليه لقتله
ويجعلونه يقاسي صنوف العذاب كما لو كان مجرماً
ثم يأتون به ليلاقي حتفه المفزع ويخمدون انفاسه
كما تخمد النار .

المعذب :

انك لرجل رحيم يا صديقي ، انظر الى احزائي
ساعدني تفحص علتي واعرفها
انني رجل متواضع ، عاقل ومتضرع
لكنني لم اجد عوناً في يوم ما
انني ان سرت في ساحة المدينة كنت متواضعا
صوتي واطىء وكلماتي خافتة

لا ارفع رأسي وعيني لا تفارق الارض
لكنني كالعبد لا استطيع ان اتعبد مع اصحابي
فليمدني الاله الذي خذلني بالعون
ولتربي الالهة التي خذلتنني الرحمة

قصيدة « لامتدحن رب الحكمة »

ومن القصائد البابلية الشهيرة التي تعرضت الى موضوع الانسان
المعذب القصيدة الموسومة « لامتدحن رب الحكمة » نسبة الى مطلعها والتي
تشبه في اطارها العام قصة ايوب في التوراة. ان هذه القصيدة التي ربما دوت
في الاصل على اربعة رقم بحالة جيدة من الحفظ ، تضم ما يقرب من ٤٥٠ بيتا
ضاعت منها اجزاء قليلة بسبب تهشم النص . وقد دوت مثل سابقتها «العدالة
الالهية» في العصر الكشي وهي تدور حول رجل بابلي اسمه شمشي - مشري
- سكان . ويظهر واضحا من القصيدة ان هذا الرجل كان تقيا يخشى الالهة
ويقوم الطقوس ويحسن الى الناس وانه احتل مناصب عالية في الدولة كما كانت
اه ثروة طائلة ولكن فجأة نجده وقد ساءت به الاحوال وتنكر له الدهر واصابه
اليأس والقنوط . لقد تركته الالهة وحيدا لامعين له واشتد عليه غضب وخنق سيده
الملك وراح الطامعون من رجال الحاشية يخيكون ضده شتى انواع المؤامرات
للإطاحة به واحتلال مكانه ، واخيرا وليس اخرًا نجده وقد اقصى من كل
المناصب وتنكر له الاصدقاء وكرهه الاصحاب وصار اهله يعاملونه وكأنه
غريب بينهم وبلغت به الحال درجة المذلة على يد عبيده :

« لقد تخلى عني الهي واختفى

وخذلتنني الهي وابتعدت عني

وفارقني الملاك الصالح الذي كان يلازمني

والروح حارستي لاذت بالقرار قاصدة غيري

ذهبت قوتي ووهنت رجولتي
راحت هيبتي ومنعتي
فال مخيف يحدق بي من كل جانب
والملك اغتاز قلبه مني ولم يهدأ
ورجال الحاشية يتآمرون عليّ
لقد اجتمعوا فيما بينهم وقالوا بهتانا ٠٠٠
اذا الذي كنت امشي مشية النبلاء ، تعلمت كيف انسل خفية
انا صاحب المقام الرفيع صرت مثل العبد
فلا احد من الناس يستمع الي في الطريق
ولا عين تنظر الي اذا مادخلت القصر
مدينتي تعبس في وجهي كما لو كنت عدوا ٠٠٠
صديقي صار عدوي
ورفيقي صار شيطانا مأكرا
صاحبي يدينني بشدة
خلاني يصقلون اسلحتهم باستمرار
وعبدي يشتنني علانية في المجلس
ومعارفي حالما يروني يعبرون الى الجانب الاخر
أهلي يعاملونني كأني غريب ٠٠٠

ولم يقتصر الامر عند هذا الحد بالنسبة للمعذب البابلي شمشي — مشري
شكان ٠ ففي الرقيم الثاني (٤٩-١٠٧) من القصيدة البابلية موضوعة البحث ،
نجدته يتحدث ، ضمن اشياء كثيرة، عن تعرضه الى مزيد من العذاب والشقاء
بسبب ابتلائه بشتى انواع الامراض التي تجسدت في أرواح واشباح شريرة
جاءت تهاجمه من مستقرها في عالم الاموات ومياه العمق (ايسو) ٠ ثم

يذكر بعد ذلك ماسيبته له تلك الاشباح والارواح من امراض بدنية وعذاب
ليس بمقدور انسان تحمله ، فهو يقول :

لقد جعلت الحمى تدب في اطرافي وجعلت بدني يرتجف
حطمت قوامي المشوق مثلما يتحطم الجدار
وحنت جسمي القوى مثلما تحنى حزمة القصب ..
وتلبس الشيطان « الو » بجسدي كأنه رداء
نوم ينطبق على كالشبك
عيناى تحدقان ولكن لا تبصران
اذناى مفتوحتان ولكن لا تسمعان
استحوذ الوهن علي
جسمي يرتعش
وقد غل الشلل يديي
وحل العجز في ركبتي
حتى نسيت قدماى الحركة ...
آلامي اعجزت العزام
وفألي حير العراف
فلاطارد الارواح قادر على تشخيص مرضي
ولا العراف يدري متى ينتهي سقمي
لا الهى يقدم العون فيأخذ بيدي
ولا الهتي ترحمني بالسير الى جانبي
قبري ينتظرنى ولوازم الدفن جاهزة
اجل ! لقد انتهت المناحة علي حتى قبل ان اموت ...

هذه بعض من مقاطع قصيدة « لامتدحن رب الحكمة » جسد فيها الرجل
البابلي صورة لعذابه الروحي والجسدي ، وهي من دون شك منتزعة من

واقع رجل مبتلى اضناه الدهر بصروفه وفعل به المرض ما فعل • ولكن وعلى الرغم من تلك المعاناة فانه بقي مؤمنا بعدالة القدر وبأن اليوم المنشود سيأتي ومعه رحمة الاله شمس على حد قوله • وبالفعل كان اشتداد الازمة نذيرا بدنو الفرج، حيث بدا في الافق المدلهم بصيص خافت من نور كان ايذانا ببداية النهاية • وقد تمثل ذلك بسلسلة من الاحلام رآها الرجل المعذب في منامه • وكان آخرها انه رأى رجلا قال له انه رسول من الاله مردوخ يحمل له البشرى بالخلاص • ثم يستمر شبشي - مشرى - سكان في ذكر تفاصيل شفائه واستعادة اعضائه الحياة مجددا • وتنتهي قصيدته بذكر تفاصيل ذهابه الى مدينة بابل قاصدا معبد الاله مردوخ ومتنقلا بين بواباته العديدة حيث اقام الصلوات الى الاله البابلي كما قدم الذبائح والهدايا والنذور •

حوار بين سيد وعبد

هناك حوار بابلي اخر بين سيد وعبد نظم على شكل قصيدة ايضا في هذا الحوار يطرح السيد على عبد في كل مرة • فيوافقه العبد على الفور ويأتيه بالدليل المنطقي الذي يدعمها • ولكن ماهي الالطحات حتى يتراجع السيد في رأيه فيؤيده العبد ويأتيه بالدليل على عدم جدوى الفكرة اصلا • لذلك ولاسباب اخرى اختلف الباحثون في تحديد الهدف الذي يرمي اليه الحوار • فبعضهم اعتبره مجرد ضرب من ضرب السخرية • وقال آخرون انه يهدف الى التشكك بالقيم الاجتماعية والدينية زمن تدوين الحوار (في حدود ١٠٠٠ ق م) باسلوب ساخر يثير التساؤل عند القارئ • وفي اعتقادنا ان هذا الحوار لا يخلو من مغزى فلسفي مفاده ان الخير والشر مفهومان نسبيان فليس هناك خير مطلق او شر مطلق • فقد يبدو امر ما خيرا لأول وهلة لكنه يحمل في باطنه كل بذور الشر • وبغية تسليط مزيد من الضوء على هذا الحوار نقبس في ادناه بعضا من مقاطعه :

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك
السيد : هيء عربتي احضرها من اجل ان اذهب الى القصر
العبد : افعل ياسيدي ، افعل • انه سوف ••• من اجلك ويعفو عنك
السيد : لا ايها العبد ، انني لن اذهب الى القصر
العبد : لا تفعل يا سيدي ، لا تفعل ، لانك اذا ذهبت الى القصر فانه
سيرسلك الى ••• ويبعثك في طريق لا تعرفه • انه سيسبب لك الشقاء
والاحزان •

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك
السيد : احضر لي في الحال ماء لاغسل يدي لاني اريد ان آكل
العبد : كل ياسيدي ، كل • فالاكل بانتظام يشرح القلب ••• ان الاله شمش
يحضر مائدة كل من يأكل بيدين نظيفتين •
السيد : لا ايها العبد ، لن آكل •
العبد : لا تأكل يا سيدي ، لا تأكل طالما ان الجوع من بعد الشبع والعطش من
بعد الشرب يأتي لكل انسان •

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك
السيد : عزمت على ان اقوم بعصيان
العبد : افعل ياسيدي ، افعل • فاذا لم تقم بعصيان فمن اين تحصل على
ثيابك ومن سيملا لك كرشك ؟

السيد : لا ، ايها العبد ، لن اقوم بعصيان مهما كان الامر •
(العبد : لا تفعل ياسيدي ، لا تفعل) ان من يقوم بعصيان اما ان يقتل او يسلب
جلده او تسمل عيناه ، او يحتجز او يرمى في السجن

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مصغ اليك
السيد : اريد ان احب امرأة
العبد : افعل ياسيدي ، افعل • فالرجل الذي يحب امرأة ينسى احزانه وهمومه
السيد : لا ايها العبد ، لن احب امرأة
العبد : لا تفعل ياسيدي ، لا تفعل • المرأة بئر - بئر ، انها حفرة وخندق
المرأة خنجر من حديد صارم يقطع عنق الرجل •

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مضغ اليك
السيد : عزمت على ان اقرض الناس واساعدهم
العبد : افعل ياسيدي ، افعل ان من يقرض الناس تبقى حنطته خالصة ويكون
ربحه جسيما •
السيد : لا ، ايها العبد ، لن اقرض الناس
العبد : لا تفعل ياسيدي ، لا تفعل • ان من يقرض الناس كمن يحب امرأة •••
فاسترجاعها امر عسير مثل ولادة طفل • ثم انهم سياكلون حنطتك وينزلون
عليك لعناتهم دون هوادة ويحرمونك من الفائدة على حنطتك •

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل ياسيدي ، اني مضغ اليك

السيد : اريد ان اساعد بلادي
(العبد : افعل ياسيدي ، افعل) ان من يساعد بلاده ... توضع حسناته
امام الاله مردوخ .

السيد لا ، ايها العبد ، لن اساعد بلادي
العبد : لاتفعل ياسيدي ، لاتفعل . اصعد فوق الاطلال القديمة وتمنى هناك .
وانظر الى جماجم الاسبقين واللاحقين فايهم الاشرار وايهم الابرار ؟

السيد : اسمعني ايها العبد
العبد : اجل يا سيدي ، اني مصغ اليك
السيد : اذا ماهو الخير في هذه الدنيا ؟
(العبد) : ان يدق عنقي وعنقك ونرمى في النهر ، ذلك هو الخير
في الدنيا

ترى من يستطيع ان يطاول السماء
ومن يستطيع ان يحتوي العالم السفلي ؟
السيد : ايها العبد ، اني سأقتلك وادعك اولا ..
العبد : ان سيدي لن يستطيع العيش من بعدي حتى لو كان ذلك لثلاثة ايام .

المناظرات

ويقع ضمن تأليف ادب الحكمة « المناظرات » التي تعرف في السومرية
بالمصطلح "adamanduja" وفي المناظرة السومرية او البابلية يتبارى عادة اثنان
من الالهة او البشر او الظواهر الطبيعية في محاولة لان يثبت احدهما افضليته
على الاخر . تحتوي المناظرة في الغالب على مقدمة اسطورية يليها تمهيد
للدخول في تفاصيل الموضوع . بعد ذلك يبدأ احد المتناظرين بالحديث عن

نفسه ومحاسنه ومزاياه على خصمه • ثم يرد نظيره الآخر بالمثل وهكذا يستمر الاثنان في المناظرة حتى يضطرا الى الاحتكام عند شخص ثالث فيصدر حكمه بتفضيل احدهما على الآخر • وتنتهي المناظرة بقبول الطرفين قرار التحكيم وبزوال اسباب الخصام وحلول الصداقة والوئام بينهما •

ومن الامثلة السومرية على ذلك نذكر مناظرة الصيف والشتاء ، الهة الماشية والهة الحنطة ، الطير والسمكة ، الشجر والقصب ، الفضة والنحاس ، المعول والمحراث • كما ان هناك مجموعة من المناظرات السومرية تتعلق بالمدسة السومرية والطلبة والنساخ • ومن الامثلة البابلية نذكر مناظرة بين الطرفاء والنخلة ، الثور والحصان ، الحية والنسر ، الكلب والذئب •

امثال بابلية

تكون الامثال والحكم والنصائح بطبيعة الحال جزءا اساسيا من ادب الحكمة وقد وصلتنا مجموعة منها مدونة في اللغة السومرية والبابلية ومن عصور تاريخية مختلفة • ولا يخفى ان البحث في موضوع الامثال على وجه الخصوص يعتبر من الامور الشائكة احيانا ذلك لانها تكون مقتضبة عادة فيصعب على المرء فهم المعنى المقصود منها • ومع ذلك فهناك امثال كثيرة نستطيع ان نفهم مغزاها بوضوح تام وهي ان دلت على شيء فانما تدل على مدى ادراك الاقدمين لما كان يجري من احداث في حياتهم اليومية ومقدرتهم على استخلاص التجربة والعبرة المفيدة سواء كان ذلك في المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية • ونورد في ادناه عددا من الامثال البابلية المختارة :

- * لذة الخمر تذهب وعشاء الطريق
- * ارم كسرة للكلب يهز لك ذيله
- * الفقراء هم الصامتون وحدهم في سومر
- * اطع كلام امك كأنه امر الهى

- * المال مثل الطير لا يعرف موطننا ثابتا
- * لن يترك العدو بوابة مدينة ضعيفة السلاح
- * لا كسب بدون تعب
- * اذا احس بقرب اجله قال لاكل جميع ما عندي ، واذا تعافى قال لاقتصد
- * هل تضرب الثور اذا كان دائبا على السير
- * اذا خرجت تصطاد الطيور بدون شبكة فلن تصيد شيئا
- * من تحب عليك ان تتحمل ثقل نيره
- * ساكن البلد الغريب مثل العبد
- * اذا اسأت الى صديقك فما عساك ان تفعل مع عدوك
- * الزوجة المبذرة اشد ضررا من جميع الشياطين.

ادب السخرية

على الرغم من غزارة النتاج الادبي في العراق فان هناك ندرة واضحة في التأليف التي تحمل طابع الهزل والسخرية . ومهما كانت الاسباب في ذلك فالحقيقة هي ان هذا النوع من التأليف الادبية لا تقتصر ندرته على حضارة وادي الرافدين. وانما تبدو واضحة ايضا في آداب الامم القديمة الاخرى كمصر مثلاً . ولهذا فمن الصعب ان نعزوها الى طبع في الفرد او الكاتب السومري والبابلي . اذ ان هذا النوع من التأليف يكون عادة قليلا في كل الازمان اذا ما قيس بالوان الادب الاخرى .

ومما لاشك فيه انه كان عند السومريين والبابليين قصص وحكايات طريفة ونوادير مضحكة يقصونها ويتندرون بها في مجالسهم . ولاشك ايضا في ان مادونه النساخ القدامى من تأليف لا يمثل الاجزاء من التراث الادبي المتداول في مجتمعهم انذاك ، وان قسطا كبيرا منه لم يصل الينا اما لانه لم يدون اولاته

ما زال مطموراً بين الآثار. وأخيراً فإن بعد الزمن واندثار اللغات التي دونت بها تلك التأليف الأدبية (كالسومرية والأكادية) يجعل من غير السهل على الباحث المعاصر أحياناً أن يتحسس ذلك المغزى الدقيق الذي ربما تعمد به الأديب القديم من أجل أن يضفي على تعبيره طرافة النكتة ودقة الملاحظة .

وفي غضون السنوات القليلة الماضية نشرت نصوص وتراجم أدبية سومرية وبابلية ، منها ماهو الجديد كلياً ومنها ماهو المنقح وقد أصبح من الممكن بفضل ذلك أن نستشف شيئاً ولو بسيطاً عن جوانب من أدب الهزل والفكاهة عند قدماء العراقيين . فهناك مجموعة من الأقوال الدارجة البابلية التي لا يخلو بعضها من متعة لطرافة الموضوع وحسن التصوير . ومما هو جدير بالملاحظة ، أن معظم هذه الأقوال نسج حول الحيوانات كالأسد والثعلب والفيل ... وهي بذلك تذكرنا بقصص الحيوان في الأدب العربي القديم ، وقد رأينا من المناسب أن نقتبس بعضاً من تلك الأقوال زيادة في الإيضاح

أقوال بابلية ساخرة

* طارد النمس مرة فاراً ، فاراد الفأر أن يختفي منه فدخل غار حية فلما ألقى نفسه ازاء هذا الخطر الجديد ارتج عليه فقال للحية : أرسلني إليك الحاوي مع التحيات

يحاول الأديب البابلي أن يصور هنا حال من يخرج من مأزق ليقع في آخر ، فالمعروف عن النمس والأفعى أن لهما شهية كبيرة لازدراء الفئران . والأدهى من ذلك أن الفأر أراد أن يستعطف الأفعى على ما يبدو ولكن ارتج عليه فذكر الحاوي الذي تكرهه الأفعى أكثر من أي شيء آخر لأنه يطاردها دائماً .

* طارد الكلب مرة نمسا فهرب منه ودخل في « بربخ » فلاحقه الكلب
ودخل خلفه في الفوهة فحبس وافلت التمس منه .

يمثل الكلب هنا حال الاحمق المتهور الذي تؤدي به تصرفاته الى ان يقع
في المأزق .

* وقعت مرة بعوضة على ظهر فيل وهو يمشي . فقالت له :
هل اثقلت عليك يا اخي ؟ فان كنت فعلت ذلك فاني سأنزل عند بلوغنا
مورد الماء .
فاجابها الفيل :

من انت ؟ لم احس انك كنت فوق ظهري ولن اعرف عندما ستنزلين .
* بال الشعب مرة في البحر ، فنظر الى البحر وقال متعجبا متباهيا :
أَكَلْتُ هذا البحر من بولي ؟

فهذا القول وسابقه يضربان على وتر واحد هو الا نغير اهتماماً لتوافه
الامور . فالفيل لا يهتم ان بقيت البعوضة ام نزلت والبحر لا يزيده بول
الشعب . وربما كان المغزى من القولين شيئاً اخر وهو ان الغرور اذا
اصاب القوي تعالى على من دونه واذا اصاب الضعيف نسي قدر نفسه .
* أسرّ الحصان في اذن الأتان :

عساك ان تلدى مهرا عداء مثلي ، فلا تجعليه كالحمار الذي ينوء بحمل
الاثقال .

من الواضح ان الحمار كان عند الاقدمين ايضا رمزا للشقاء والمعاناة في
هذه الدنيا سواء في غيابه أم في تحمله مشقة العمل .

* ابصر احد الكهنة اسدا في البادية وهو في طريق عودته الى المدينة فتملكه
الرعب والهلع .

ولما نجا من الاسد وبلغ المدينة رأى عند بابها تمثال اسد رابض فهجم
عليه ولطمه على وجهه قائلاً : ما كان يفعل اخوك في البادية ؟

ومن القطع الادبية الطريفة رساله سومرية قصيرة كتبت على لسان
قرد الى امه ويظهر من الرسالة ان القرد كان يتجول مع مرضه بين المدن التي
خص بالذكر منها مدينتي اور واريديو ولكن على الرغم مما هو معروف عن هاتين
المدينتين من مظاهر البهجة وكثرة الخيرات فانه كاد ان يموت جوعا من اكل
الفضلات ••

« الى امي لودي – لودي

قل :

هكذا يقول القرد (اوكو – دل – بي)

ان « اور » مدينة البهجة والمسرات

و « اريديو » مدينة الرخاء

ولكنني مع ذلك اجلس وراء باب قاعة الموسيقى اكل الفضلات •

فعساني لاهلك من الجوع

لم اذق طعم الخبز والجمعة

فابعثي برسول منك على عجل » •

قصة الرجل الفقير من نفر

غير ان اطرف ما اكتشف لحد الان من التأليف ذات الطابع الهزلي في
العراق القديم قصة ذلك الفقير المسمى جميل – فنورتا ، التي عثر
عليها مدونة على عدة رقيم وجد منها اثنان في سلطان تبه (احد تلول حران
الواقعة في اعالي نهر الباليخ) • وهناك كسرة من رقيم ثالث وجدت في مكتبة
اشور بانيبال في نينوى • ويرجع تاريخ كتابة الرقيم الاول الى
سنة ٧٠١ ق م والى اليوم الحادي والعشرين من شهر اذار
من تلك السنة على وجه التحديد حسبما ذكر في تذييل النسخ •

ان العثور على قصة جميل - نورتا في نينوى وكذلك في سلطان تبه رسا
يفسر بانه دليل على الشهرة الواسعة التي نالتها القصة بسبب طرافتها خاصة
عندما نعرف ان حوائث القصة تدور حول نخس من مدينة نقر في جنوب
الهراق . ولذلك فانه من غير المستبعد ان تكون اقدم النسخ منها كتبت في احد
مراكز التدوين العديدة في هذه المدينة ومنها انتشرت الى المدن الاخرى .

تدور قصة جميل - نورتا حول رجل فقير يسكن مدينة نقر اراد ان يتقرب
الى حاكم المدينة عساه ان يجد حظوه عنده ويتخلص من فقره وبؤسه . وذات يوم
خطرت بباله فكرة غريبة هي ان يبيع ثوبه الذي لا يملك سواه ويشترى بئنه
عزوة يقدمها هدية الى حاكم المدينة . اقتاد جميل - نورتا عزته الى بيت الحاكم
وطلب من البواب ان يستأذن له من سيده ليقابله . ولما مثل جميل - نورتا بين
يديه وبخه الحاكم توبيخا عنيفا وامر بطرده على الفور .

شعر جميل - نورتا بوطأة الاهانة فعقد العزم على الانتقام لنفسه من
الحاكم . ولم يكتف ذلك سرا بل همس في اذن البواب وهو يقتاده الى خارج
البيت بانه سوف يكيل لسيده الصاع ثلاثة اضعاف .
ولما ثقل البواب ذلك الى سيده ، ضحك الحاكم ملء شذقيه استخفافا به
وبوعيده . ولكن ما جريات القصة اثبتت ، كما سنرى بعد قليل ، ان ذلك
الفقير المعدم كان على قدر كبير من المكر والدهاء وانه في الاخير سوف يقتص
من الحاكم بمثل ما تواعد .

توجه جميل - نورتا حال خروجه من بيت الحاكم الى قصر الملك لا ليطلب مالا
او طعاما ولكن ليستأجر عربة من عربات القصر ليوم واحد فقط . ويدو انه
تظاهر امام الملك بسعة الحال ، فتعهد بدفع مقدار معين من الذهب الخالص
اجرة لتلك العربة . وتذكر القصة ان الملك حقق له رغبته فأمر خدمه ان يشدوا
له على احدى العربات التي انطلق بها جميل - نورتا الى نقر . ومن الطريف ذكره

ان جميل نورتا توقف في طريقه واصطاد بعض الطيور مقلدا بذلك اغنياء الناس ممن يخرجون للصيد في عرباتهم وكأنه يريد بذلك ان يضفي على نفسه مسحة النبلاء من أهل عصره • وسرعان ما وصلت اخبار النبيل الصياد الى اسماع الحاكم الذي خف الى استقباله والترحيب به •

ومما زاده قدرا في عين الحاكم ادعاؤه بان الملك بعثه الى نصر ومعه صندوق من الذهب لمعبد انليل اله المدينة • لذلك حرص الحاكم على حسن تكريمه وضيافته فأقام له وليمة ذبح فيها الخراف المسمنة وانزله في بيته وهو لا يدري بانه ذات الفقير البائس الذي طرده بالامس • ويبدو من سياق القصة البابلية ان جميل - نورتا كان قد جلب معه صندوقا اودعه امانة في عهدة الحاكم •

بعد ان انتهى الضيف والحاكم من تناول العشاء ، جلس الاثنان يتسامران وقد تعمد جميل - نورتا الاطالة في الحديث حتى ادرك الحاكم النعاس فغط في نوم عميق • انذاك قام جميل - نورتا وفتح الصندوق ليوهم الحاكم بان لصا فتحه وسرق ما فيه من ذهب • ثم شق جميل - نورتا ثيابه عمدا ، وانقض على الحاكم بالضرب على رأسه وجسمه حتى اخمص قدميه وكان الحاكم يصرخ تحته من شدة الالم • وكان طبيعيا ان تقع على الحاكم مسؤولية سلامة ضيفه وما معه لا سيما وهو مبعوث الملك ، فاضطر الى ان يعوضه ضعف ذهبه المزعوم وان يعطيه عددا من الثياب مقابل ثوبه الممزق • واخيرا خرج جميل - نورتا من بيت الحاكم ولكن ليعود مرة اخرى وفي زي اخر •

في هذه المرة تقمص جميل - نورتا شخصية طبيب ، فحلق رأسه تشبها باطباء ذلك العصر وحمل معه بعض الحاجيات مما كان يحمل الاطباء معهم •

ثم جاء الى بيت الحاكم واخبر البواب بانه طبيب من مدينة ايسن جاء خصيصا لمعالجة سيده ، وعندما ادخله على الحاكم كشف له الاخير عما به من رضوض وكدمات فاخبره جميل - نورتا بان علاجه لا يتم الا في غرفة مظلمة . فنقل الحاكم الى غرفة خاصة ثم شد جميل - نورتا الحبال من حوله واخذ يضربه ضربا مبرحا والحاكم يستغيث دون جدوى ... فكانت هذه المكيدة الثانية ..

استطاع جميل - نورتا ان يخرج من القصر دون ان يكتشف احد سره ولكن سرعان ما ارسل الحاكم حشدا غفيرا من الناس خلفه . فاخبت تحت قنطرة بعيدا عن انظارهم ، وبقي هناك يفكر في طريقة يستطيع بها الايقاع بالحاكم للمرة الثالثة . واخيرا اهتدى الى الوسيلة اذ نادى على احد المارة واعطاه مكافأة ليذهب الى بيت الحاكم ويخبرهم انه يعرف مكان الرجل المطلوب . فذهب المبعوث وفعل حسبما امره جميل - نورتا . فخرج الناس خلفه وكان الحاكم واحدا منهم . ثم تجمعوا ، فركض الرجل وركضوا خلفه ويظهر ان الحاكم كان اخر القوم ، ربما لانه لا يقوى على الركض بسبب آلامه . وعندما مر الناس على القنطرة بقي الحاكم لوحده فانقض عليه جميل - نورتا وجعل يضربه حتى وقع مغشيا عليه .

نود هنا ان نلفت عناية القارئ الكريم الى ان بعض القصص مما هو معروف في الف ليلة وليلة يشبه من حيث الموضوع والاطار العام قصة جميل - نورتا التي جئنا على ايجازها . من ذلك قصة الفتى الذي ارسلته امه لبيع عجلا في السوق فوق في شرك جماعة من المحتالين الذين اوهموه بان ما يسميه هو عجلا لم يكن في الواقع سوى عنزة اشتروها منه بثمان بخس . وعندما رجع الفتى الى امه واكتشف انه وقع في شرك المحتالين عزم على الانتقام لنفسه منهم .

وهكذا يبدأ بتدبير المكاييد لرئيس المحتالين الواحدة بعد الاخرى على غرار ما رأينا في قصة جميل — نورتا. ترى هل ان التشابه مجرد صدفة ام انه جاء نتيجة تأثير واضح بالاصول البابلية القديمة ؟

متفرقات

يجد الباحث ضمن التأليف الادبية في وادي الرافدين مجموعة كبيرة من التراتيل والصلوات وقصائد الرثاء والمناحات ، مدونة اما في السومرية او البابلية واحيانا في كلتا اللغتين (السومرية وترجمتها البابلية) ويتضح من هذه النصوص ان السومريين والبابليين رفعوا دعواتهم وصلواتهم الى الالهة وخصوها بالعبادة والتفديس وقدموا لها القرابين وشيدوا لها المعابد والزقورات العالية ويتجلى واضحا للباحث الدور الكبير الذي كانت تشغله المعتقدات الدينية في المجتمع العراقي القديم ومدى التزام الفرد في تأدية الطقوس والشعائر الدينية واحترام الالهة والانصياع الى اوامرها .

ولا شك في ان هذه النصوص الادبية ذات الطابع الديني كانت من تأليف كهنة المعبد . وهناك من الادلة ما يشهد ايضا ان لكاهنات المعبد دورا بارزا في تأليف القصائد الدينية. ونذكر منهن انخيدوب انا ابنة الملك الشهير سرجون الاكدي التي كانت تشغل منصب كاهنة عظمى في معبد اله القمر سين في اور وقد وصلنا منها قصيدة في السومرية نظمها في مديح اينانا (عشتار) الهة الحب والحرب . كما حرص ملوك وادي الرافدين وفي مختلف العصور التاريخية على رفع التراتيل والادعية والصلوات الى الالهة وبحوزتنا نماذج عديدة منها تعود لمشاهير الملوك السومريين والبابليين والاشوريين . وهناك نماذج من هذه التأليف، قبلت على لسان افراد من عامة الناس حتى ان احدها كتب بشكل رسالة من فتاة الى الالهة (Nintinugga) تشكو فيها من شلل اصاب

أحدى ساقها وقد نذرت الفتاة نفسها للخدمة في معبد الالهة لتقوم بكنسه وتنظيفه اذا ماشفيت من مرضها *

وهناك مجموعة من قصائد الرثاء والمناحات التي عبر فيها شعراء العصور القديمة عما شاهدوه من اثار الخراب والدمار التي لحقت بالمدن جراء الهجمات التي قام بها الاعداء * ومن تلك التكاليف ما يسمى (مرثية اكد) وهي العاصمة التي ازيلت من الوجود نتيجة الهجوم الوحشي الذي تعرضت له البلاد على يد الكوتيين و « مرثية اور » التي تتحدث عن اعمال القتل والتخريب على يد العيلاميين اثناء غزوهم البلاد في حدود ٢٠٠٦ ق م *

ترتيلا بابلية للالهة عشتار

من زمن الملك عمي - ديتانا (١٦٨٣ - ١٦٤٧ ق م) :

الحمد للالهة ، لاشد الالهات رهبة

والاجلال لسيدة الخلق ، العظمى بين الالهة

الحمد لعشتار ، لاشد الالهات رهبة

والاجلال لسيدة الخلق ، العظمى بين الآلهة

التي ترفل باللذة والحب

المفعمة بالحيوية والسحر والرغبة

عشتار التي ترفل باللذة والحب

المفعمة بالحيوية والسحر والرغبة

حلوة الشفتين وفي فمها يكمن سر الحياة

يامن بظهورها يكتمل السرور

ذات الجلال والحجاب

قوامها جميل وعيناها مشرقتان

الالهة - تمسك بيدها مصير كل شيء
ومن نظراتها تنبعث الفرحة والعظمة والطمأنينة
الرحيمة الودودة التي تتصف بالرضا
وتصون المرأة : امة ، وحرّة ، ووالدة
يا من يتوجه اليها المرء بالدعاء ، ويذكر اسمها بين النساء
من ذا الذي يضاهيها في العظمة ؟
عشتار من ذا الذي يضاهيها في العظمة ؟
ارادتها قوية وعظيمة
هي المنشودة من بين كل الالهة ، فمقامها عظيم
وكلمتها مبدلة وجليلة بينهم
انها ملكتهم وهم ينفذون اوامرها
كلهم يسجدون امامها ويستقبلون سنى نورها
هي التي يعبدونها الرجال والنساء حق عبادة
كلمتها مطاعة في مجلس الالهة ، انها العليا
وهي التي تسندهم امام ملكهم آنو
تركن الى العقل والحكمة
وتتبادل المشورة مع آنو سيدها
انهما يجلسان سوية في قاعة انعرش
وفي القاعة المقدسة ، منزل الافراح
يجلس قدامها الالهة في اماكنهم ويصغون بامعان الى اقوالها

اما الملك الذي اختاروه واحبوه في قلوبهم
فانه يقدم بسخاء اصابه المقدسة

عمي — ديتانا يقدم امامهم المعجول والظباء
انها القرايين المقدسة من يديه
والالهة عشتار مسرورة لأن تطلب له من زوجها آنو
حياة طويلة مستديمة
لقد منحت عشتار وصممت أن تعطي
واخضعت له باوامرها
جهاث العالم تحت قدميه
وصممت على ان تربط
جموع الناس كلها الى نيره •

المراجع

- ١ - الاستاذ طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد ١٩٧٦
- ٢ - طه باقر ، ملحمة كلكامش (الطبعة الرابعة) بغداد ١٩٨٠ .
- ٣ - Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960.
- ٤ - Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 19.
- ٥ - Kramer, The Sumerians, Chicago, 1963.
- ٦ - د . فاضل عبدالواحد علي ، عشتار ومأساة تموز ، بغداد ١٩٧٣ .
- ٧ - د . فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان ، بغداد ١٩٧٥ .
- ٨ - د . فاضل عبدالواحد علي ، « من ادب الهزل والفكاهة عند السومريين والبابليين » ، سومر ٢٦ (١٩٧٠) ص ٩٠ فما بعد .
- ٩ - نود الاشارة الى اننا اعتمدنا هنا ترجمة الاستاذ الدكتور داود سلوم للاقوال البابلية الساخرة المنشورة في كتابه الموسوم : كتاب قصص الحيوان في الادب العربي القديم ، بغداد ، ١٩٧٩ ص ٤٩ - ٥١ .
- ١٠ - كما نود الاشارة ايضا الى اننا اعتمدنا ترجمة الاستاذ طه باقر للامثال البابلية ، انظر المرجع رقم (١) ص ١٥٧ - ١٦١ . كما ان كافة المقاطع المقتبسة من ملحمة كلكامش هي من ترجمة الاستاذ الفاضل ايضا ، انظر المرجع رقم ٢ .

المحتوى

العصور القديمة (١)

مقدمة

- ٧ - ١٢ د. نزار الحديثي
الفصل الاول - البيئة الطبيعية والانسان
- ١٣ - ٥٦ د. تقي الدباغ
الفصل الثاني - دور التنقيبات الاثرية في الكشف
عن حضارة العراق القديم
- ٥٧ - ٧٢ د. بهنام ابو الصوف
الفصل الثالث - انسان الكهوف والآلات الحجرية
- ٧٣ - ١١٠ المبحث الاول - انسان الكهوف
عبدالقادر حسن علي
- ٧٣ - ٩٨ المبحث الثاني - الآلات الحجرية
د. تقي الدباغ
- ٩٩ - ١١٠ الفصل الرابع - الثورة الزراعية والقرى الاولى
د. تقي الدباغ
- ١١١ - ١٤٤ الفصل الخامس - الديانة
المبحث الاول - المعتقدات الدينية
- ١٤٥ - ١٩٦ د. فوزي رشيد
المبحث الثاني - العرافة والسحر
- ١٩٧ - ٢٠٦ د. فاضل عبدالواحد علي

٢٢٠ - ٢٠٧	الفصل السادس - الاعياد والاحتفالات د. فاضل عبدالواحد علي
٢٢١ - ٢٧٢	الفصل السابع - الكتابة د. بهيجة خليل اسماعيل
٢٧٣ - ٣١٨	الفصل الثامن - التراث اللغوي د. عامر سليمان
٣١٩ - ٣٨٦	الفصل التاسع - الادب د. فاضل عبدالواحد علي

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

(١٤٩٣) لسنة ١٩٨٤

دار الحرية للطباعة - بغداد

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م